

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد الآثار

جامعة الجزائر 2

عمران وعمارة مدينة معسكر
في العهد العثماني
دراسة أثرية، عمرانية ومعمارية

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية

إشراف الأستاذ الدكتور:
عبد العزيز لعرج

إعداد الطالب:
عبد القادر قرمان

السنة الجامعية
2015-2014

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد الآثار

جامعة الجزائر 2

عمران وعمارة مدينة معسكر في
العهد العثماني
دراسة أثرية، عمرانية ومعمارية

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد العزيز لعرج

إعداد الطالب:

عبد القادر قرمان

أعضاء لجنة المناقشة

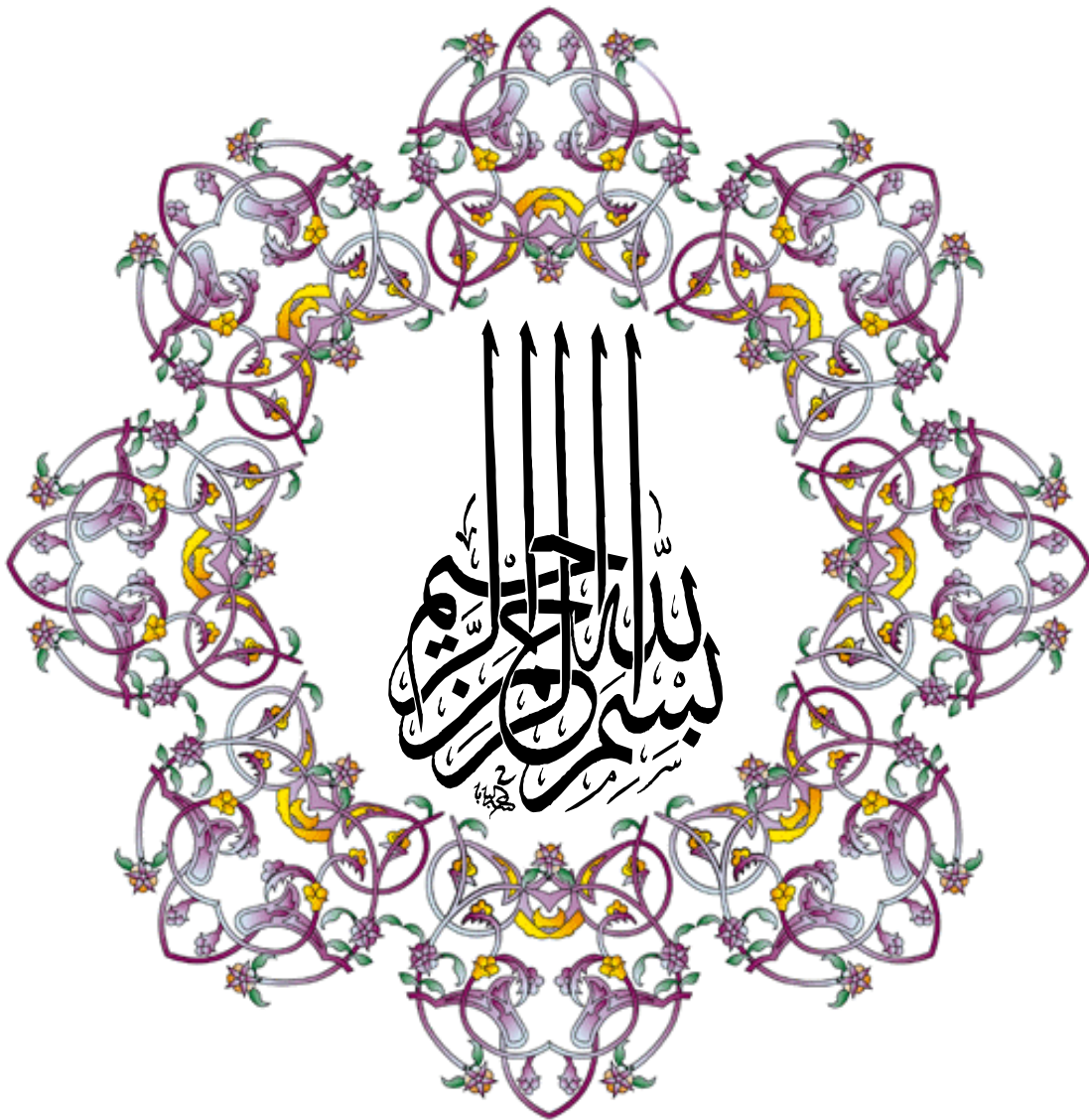
جامعة الجزائر-2-
جامعة الجزائر-2-
جامعة الجزائر-2-
جامعة الجزائر-2-
جامعة الجزائر-2-
جامعة تلمسان

رئيساً
مشرفاً ومقرراً
عضواً مناقشاً
عضواً مناقشاً
عضواً مناقشاً
عضواً مناقشاً

أستاذ التعليم العالي
أستاذ التعليم العالي
أستاذ التعليم العالي
أستاذ التعليم العالي
أستاذ التعليم العالي
أستاذ محاضر - أ-

بويحياوي عز الدين
لعرج عبد العزيز
بن عميرة محمد
عزوق عبد الكريم
معزوز عبد الحق
الشـرقي رزقي

السنة الجامعية
2015-2014



إهداء

أهدي ثمرة عملي إلى من قال فيهما الله تعالى:

«وقل ربي ارحمهما كما ربياني خيرا».

إلى أمي الحنون ونور عيالي التي

وهبت كل حياتها من أجل تربيتي ورحماتي

أطال الله عمرها.

إلى أبي العزيز الذي به فيّ روح الإرادة والتعدي

من أجل مستقبل أسامة الأطلاق وجوهره العلم وقيّمته

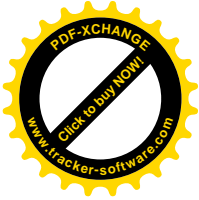
التواضع حفظه الله

إلى زوجتي العزيزة وكل أفراد عائلتي

وأقاربي.

إلى كل من يعرفني من قريب أو من بعيد

عبد القادر



شكر و عرفان

أشكر الله تعالى

الذي وفقني لإتمام هذا العمل

أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من علمني حرفاً
إلى أساتذتي المحترمين، وعلى رأسهم الأستاذ

المشرف

عبد العزيز لعرج الذي أرشدني و تحمّل معي مشقة

إنجاز هذا العمل إلى غاية إكماله

كما أتوجه بشكري الخالص إلى كل من ساهم

ولو بالقدر القليل في إنجاز هذا العمل.

iBACS



قائمة المختصرات

المختصرات باللغة العربية:

د.ط.: دون طبعة

د.م.: دون مكان

د.ت.: دون تاريخ

المختصرات باللغة الأجنبية:

S.D. : sans date

S.N.E.D. : société nationale d'édition et de diffusion

M.M.S.H. : Maison Méditerranéenne des Sciences de l'Homme



زِفْزِ

وبالرغم من هذه الأعمال الفظيعة التي مست المعالم، إلا أن ما تبقى منها يعبر عن مدى التطور المعماري والحضاري الذي عرفته المدينة في تلك الفترة الزمنية، بحيث أنها ذات سمات وأشكال معمارية متميزة، إذ أنها تعتبر كنماذج هامة للدراسة والبحث نظرا لما تحتويه من خصائص معمارية وفنية أصلية، لذلك فالمطلوب هو إقامة أبحاث ودراسات معمقة على هذه المنشآت من أجل المحافظة عليها، لأنها هي الصورة الحضارية الحقيقية للمدينة، وهو ما نصبو إليه من خلال هذه الدراسة.

2- أهمية وأسباب اختيار الموضوع :

إن المكانة التي حظيت بها مدينة معسكر خلال الفترة العثمانية باختيارها كعاصمة لبابك الغرب، جعلت منها مدينة هامة مقارنة مع مدن بابك الغرب الأخرى، وهذا ما دفعنا إلى طرح هذا الموضوع كبحث للدراسة من أجل كشف أسباب ودوافع هذا الاختيار بالإضافة إلى التعريف بها وتاريخها وبمنشآتها المعمارية، وتبيين أهميتها بالنسبة للدراسات التاريخية والأثرية فاختيار الفترة العثمانية وبالتركيز على عمرانها وعمارتها له عدة أسباب ودوافع هي في حد ذاتها الهدف الذي نصبو إليه، إذ أن التكوين الفعلي للنسيج العمراني للمدينة كان خلال هذه الفترة، وهو ما جعلها مدينة جزائرية بطابع عثماني، لذلك سنحاول دراسة نسيجها العمراني من جميع الجوانب وذكر مراحل تكوينه والعوامل التي تحكمت في تطوره وتوسعه، بمقارنتها مع المدن الأخرى خاصة ومدن العواصم خلال الفترة العثمانية كمدينة الجزائر وقسنطينة والمدية وتلمسان ومستغانم ووهران، كما أن قلة الدراسات الأثرية حول الموضوع جعلها مدينة مجهولة باستثناء بعض الدراسات التاريخية، جعلها غير معروفة من هذا الجانب، رغم أنها عريقة وأدت دورا كبيرا في العهد العثماني في تحرير مدينة وهران من الغزو الإسباني، وصمودها في وجه الاحتلال الفرنسي، حيث أن المعارك التي دارت فيها وفي ضواحيها أنهكت قواته بفضل أحد أبنائها الأفياد ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة الأمير عبد القادر، الذي كان له دور كبير في تحرير وإيقاظ روح الجهاد من أجل استقلال الجزائر، لذلك وعلى هذا الأساس تتطلب الدراسة بأن تكون دراسة عمرانية عميقة وشاملة للمدينة من جهة، ومعمارية وفنية مفصلة عن المعالم المتبقية من جهة أخرى وهو الهدف الرئيسي الذي نسعى جاهدين إليه.

3- إشكالية الموضوع:

تتلخص إشكالية البحث في محاولة الإجابة على مجموعة من الأسئلة تشكل محاوره ومنطلقاته وأهدافه وهي كالاتي:

وفيما يخص الأحداث والوقائع التي عرفتھا المدينة في أواخر العهد العثماني وكذلك عن تاريخ منشآتها المعمارية، فقد اعتمدنا على كتاب "محمد الأكل" لمؤلف مجهول وهو عبارة عن مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم 5022، وكذلك كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني لابن سحنون أحمد الراشدي (ت1211هـ / 1796م)، ورحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الجزائري لابن هطال التلمساني (ت1219هـ / 1804م)، الذي أمدنا بمعلومات مهمة عن غزوات هذا الباي، كما استعملنا كتاب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران لابن محمد الزباني، الذي جاء فيه ذكر لأعمال البايات في المدينة إضافة إلى طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر للأغا بن عودة المزاري، ويضاف إلى ذلك كتاب بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كني عامر لعبدالقادر المشرفي (ت1192هـ / 1778م)، وكتاب خاتمة أنيس الغريب والمسافر، (تنمة ذخائر المغرب العربي، تاريخ بايات وهران المتأخر) لابن عبد القادر مسلم الوهراني الذي ذكر فيه الأحوال السياسية لبايك الغرب وتأثير ذلك على أوضاعه ومدنه، كما وظفنا عدة مخطوطات لأبي راس الناصري (ت1238هـ / 1823م) منها الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثور المغرب، مخطوط محفوظ بمكتبة محمودي البشير في معسكر، وكتاب عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، وكتاب فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، "حياة أبي راس الذاتية والعلمية، بالإضافة إلى مخطوط القيرواني محمد الشريف عنوانه روضة الأزهار في تعريف نسبة آل محمد المختار صلى الله عليه وسلم، محفوظ بمكتبة الشيخ البشير محمودي.

كما اعتمدنا على كتاب فتح مدينة وهران 1708م لأبو زيد عبد الرحمن الجامعي الذي عرفنا من خلاله دور مدينة معسكر في فتح مدينة وهران، وعلى مذكرات تيدنا لمحققها عميرواي أحميدة الذي أمدنا بأخبار الباي محمد الكبير وأعماله في المدينة، وكذلك استعملنا كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر الجزائري لمحمد ابن عبد القادر الجزائري الذي ذكر أحوال مدينة معسكر خلال فترة الاحتلال وقد قدم وصفا هاما لمنشآتها المعمارية.

وبالنسبة للمصادر الأجنبية نذكر:

- Shaw. T: Voyages dans la régence d'Alger.
- Michel, J: Venture de paradis, Alger au XVIII^e (1788- 1790)

بالإضافة إلى مصادر أخرى تحدثت عن المدينة خلال الفترة التي حكم فيها الأمير عبد

القادر، وعن بعض منشآتها المعمارية خلال إسقاط الاحتلال للمدينة نذكر منها مايلي:

- **Première expédition de Mascara**, extrait de l'ouvrage d'Alex Bellemare- **Abdelkader, sa vie politique et militaire.**

- **Observations du Général Clauzel sur quelques actes de son commandement à Alger**

وفيما يخص الوثائق الأرشيفية فهي عبارة عن تقارير تعود إلى فترة الاحتلال وقد استفدنا

منها كثيرا في معرفة عمران المدينة، حيث نذكر منها:

- Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André, Mascara le 18 décembre 1852, p1, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

- Rapport sur la situation de la ville de Mascara, Archives nationales d'outre-mer, carton n° 2M/107/D, Aix En Provence, France.

- Notice sur Mascara ville, le recensement de 1921, délivré par Monsieur Martin

أما عن المراجع الحديثة فهي باللغتين العربية والأجنبية، تطرقت إلى جغرافية مدينة

معسكر وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية، وبعض معالمها التاريخية وعلمائها المشهورين خلال

الفترة العثمانية ونذكر منها: كتاب تاريخ الجزائر الثقافي وكذلك أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر

للدكتور أبي القاسم سعد الله، بالإضافة إلى كتاب المساجد العثمانية بوهران ومعسكر لمؤلفه

مبروك مهيرس وكتاب معسكر عبر التاريخ لبن داها عدة ورسالة ماجستير عنوانها الحياة

الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

الميلاديين (1701-1830م) لعلو محمد، وكذلك:

- Djerbal. D: **Le processus de colonisation et les mutations dans la propriété foncière, commune mixte de Mascara (1860- 1914)**, diplôme d'études supérieurs d'histoire, M.M.S.H, France.

- Caporal. B: **Oran, capitale du beylik de l'ouest 1792-1831**, mémoire de maitre d'histoire, M.M.S.H, France, 1971.

- Gorguos. A: **Histoire d'un bey de Mascara et de l'Oranie, le bey Osman « El kebir »**

ب/ الدراسات الميدانية:

عند البحث والتحري وجدنا أن هذا النوع من الدراسات قليلة جدا، فقد تم الإشارة إلى

بعض منشآت المدينة في عدة رسائل جامعية نذكر منها: الأولى للباحث بلحاج معروف

المساجد العثمانية ذات القبلة المركزية بالجزائر، حيث درس من خلالها الجامع الكبير وجامع

عين البيضاء والثانية للباحث مهيرس مبروك، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر. وكذلك بن

بلة خيرة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني.

5- منهج البحث:

اعتمدنا في دراستنا لهذا الموضوع على المنهج التاريخي والوصفي التحليلي، وقد قسمناه إلى جانبين هما:

1- الجانب النظري: سنتطرق فيه إلى أهم الوثائق المكتوبة من مصادر ومراجع وخرائط ومخططات التي تتحدث عن عمران وعمارة المدينة، ومن خلالها سنقوم بالتحليل العمراني للمدينة ومقارنتها بالمدن الإسلامية الأولى، لتحديد مدى أهميتها وخضوعها لقوانين البناء والتشييد، وهذا يعتبر كمفتاح لإثراء موضوع البحث وكشف خباياه.

2- الجانب التطبيقي: وهو ما يعرف بالدراسة الميدانية، والتي سنقوم من خلالها بزيارة المدينة ومنشأتها المعمارية وأخذ المعلومات اللازمة عنها، بتحديد مواقعها في النسيج العمراني للمدينة وتصنيف كل منشأة على حدة (دينية، مدنية، عسكرية)، وأخذ القياسات لوضع المخططات ورسم أشكال وأخذ صور لمختلف عناصرها المعمارية والفنية، مع توضيح الزيادات والإضافات التي تعرضت لها قبل وبعد عمليات الترميم، بالإضافة إلى التطرق إلى أرياض المدينة، وهل كان هناك تواصل بينها وبين مركزها.

هيكل الموضوع:

يشتمل موضوع البحث على مقدمة وأربعة أقسام، ولكل قسم فصول وخاتمة.

مقدمة: يتم التطرق فيها إلى التعريف بالموضوع وأهميته وأسباب اختياره وإشكاليته والدراسات السابقة.

القسم الأول: عمران مدينة معسكر

يحتوي هذا القسم على ثلاثة فصول وهي كالآتي:

الفصل الأول: الإطار الجغرافي والمناخي لمدينة معسكر، ومدى تأثيره على اختيار موقعها وتخطيطها، وأصول التسمية.

الفصل الثاني: التطور التاريخي لمدينة معسكر، وذلك بالتطرق إلى الجذور التاريخية للمدينة ابتداءً من فترة ما قبل التاريخ وصولاً إلى الفترة الإسلامية، التي بدأت فيها تظهر ملامح المدينة في القرن 4هـ/10م، وصولاً إلى أهم فترة وهي الفترة العثمانية، وذلك بالإشارة إلى الأحداث والوقائع التي جرت فيها، بالاعتماد على المصادر والمراجع التاريخية.

بالإضافة إلى طريقة البناء ومدى توافقها مع الأرضية التي تم عليها البناء، والتقنية المستعملة في التشييد.

القسم الرابع الدراسة الفنية: أشرنا فيه إلى مواد الزخرفة وعناصرها الموجودة في المباني ومجالات استخدامها، وهل هي متأثرة بالأحداث التي مرت عليها مدينة معسكر وكذلك مدى تأثرها بعادات وتقاليد المنطقة المحلية، وهو يتكون من فصلين:

ففي الفصل الأول: تناولنا المواد الزخرفية المستعملة في تشكيل مختلف الزخارف الموجودة في مباني المدينة، بتعريفها وذكر مصدرها وخصائصها الطبيعية.

أما الفصل الثاني: فتطرقنا إلى الزخارف الفنية وهي على أنواع منها الهندسية والنباتية والكتابية والرمزية.

الخاتمة: وهي آخر محطة سنتوقف من خلالها إلى ذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها على طول مراحل الدراسة متنوعة بالمخططات والأشكال والصور وقائمة للمصادر والمراجع.

وكأي بحث أكاديمي لابد أن تعترضه العديد من الصعوبات والعراقيل، لذلك فقد واجهنا مشكلة شح المعلومات حول عمران المدينة بسبب احتراق أرشيفها بالإضافة إلى صعوبة القيام بالدراسة الميدانية لبعض المعالم المدروسة لكونها ذات ملكية خاصة.



3¼ÉPAAñ ´A
j,n ``¿ò ÁŒ¿ÆAAS



:¼ËPA½v °A
 j,n ¨¸ò ÆF¸ò TAnM¼IuËÿÿA-1AIBâA

ò ÆFA¼i ,¼ÆÿÿA-1A
 (i UÌ»TAE ÆI ,Æ ©ÿ •Aò Tÿ«I¸ - dBA)

ò ÆF•Aò TAnM¼IuC-2

ساهم الموقع الجغرافي الإستراتيجي في تأسيس المدن وتطورها عبر التاريخ، لأنه شرط رئيسي في تعميرها واستمرار الحياة فيها، فموقع المدينة المعزول الذي لا يوفر أسباب الراحة ورخاء العيش والأمن يؤدي إلى عزوف الناس للسكن فيها، وبالتالي ينكمش عمرانها ويتدهور اقتصادها ويعجل بهجرانها وخرابها، لذلك نجد ولاية الأمور يبذلون كل جهودهم من أجل اختيار الموقع المناسب للمدينة الذي يتوافق مع الأهداف المسطرة، فهناك من يريد أن تكون مدينته كعاصمة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية وغير ذلك، لذلك يتبادر في أذهاننا عدة أسئلة حول مميزات موقع مدينة معسكر وعلاقته بأسباب تأسيسها؟

1- الموقع الفلكي والجغرافي:

أ- الموقع الفلكي:

تقع مدينة معسكر على خط عرض 35.26° شمالا، وعلى خط طول 2.11° غرب خط غرينيتش، في الإقليم الشمالي الغربي للجزائر⁽¹⁾.

ب- الموقع الجغرافي:

أما من الجانب الجغرافي، فهي تقع في الجهة الغربية من القطر الجزائر، في المنطقة التي تدعى "الوطن الراشدي"، (عرف به) على الحافة الشمالية الغربية لسهل غريس الكبير^(*) بالقسم الغربي لجبال بني شقران^(**)، والذي يحده شرقا جبل المناور، وغربا جبل كرسوط

(1) - يذكر "فيكتور برارد" أنها تنحصر بين دائرتي 02 - 12° خطي طول غربا، و 26° - 35° خطي عرض شمالا يُنظر:

- Berard. V: **Indicateur général de l'Algérie « description géographique, historique et statistique de tous les localités »**, Editeur bastide libraire, Alger, 1867, p532.

(*) - غريس: هو سهل واسع من مواطن المغرب الأوسط، وقد عرفت في القديم بأرض زناتة، وهو يعتبر كطريق مهم للمسافرين المارين إلى الأطلس الصحراوي. لمزيد من المعلومات يُنظر: أبو راس محمد الناصري: شرح غوثية سيدي عيسى بن موسى التيجيني (الدر المهدي لغوثية أبي المهدي) مخطوط بالمكتبة البلدية "مصطفى بن التوهامي"، معسكر الورقة: 2.

- Djerbal. D: **Le processus de colonisation et les mutations dans la propriété fonciere, commune mixte de Mascara (1860- 1914)**, diplôme d'études superieures d'histoire, M.M.S.H, France, p16.

(**) - بني شقران: هو اسم مشتق من جزيرة شقر بضم الشين وسكون القاف، تحدث عنها جغرافيو ومؤرخو الأندلس بكثير من الإعجاب مثل أحمد الرازي ومحمد بن أيوب الغرناطي وغيرهم، ويقول عنها بن خاقان أنها كانت مرتادا لطلب الراحة والانشراح. يُنظر: أبو العباس أحمد ابن أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ص 253.

وشمالا قلعة بني راشد^(*)، التي كانت تعرف سابقا "بقلعة هواره"، وجنوبا وادي البنيان⁽¹⁾ وبالضبط في السفح الجنوبي لجبل الناظور المعروف محليا بـ "شارب الريح" على ارتفاع يتراوح ما بين 585م و 600م⁽²⁾، فهي لا تبعد عن ساحل البحر إلا بحوالي خمسين كيلومتر عند مصب وادي المقطع^(**).

لقد أثر هذا الموقع في الخصائص المناخية للمنطقة، إلى جانب تأثير مظاهر السطح التي تُشكل فيها الجبال والسهول أهم مميزاتها⁽³⁾، وهي تبعد بحوالي 361 كلم شمال غرب الجزائر العاصمة، كما أنها تحتل موقعا إستراتيجيا ممتازا، اقتصاديا وتجاريا، يحدها من الشرق ولاية تيارت وولاية غليزان، ومن الغرب سيدي بلعباس، ومن الشمال ولاية وهران^(****) وولاية مستغانم^(*****)، ومن الجنوب ولاية سعيدة. (تُنظر الخريطة رقم 1)

^(*) - هي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع، كانت تستقر فيها وفي أحواضها كثير من البربر من قبيلة زناتة، اتخذت كعاصمة لبابلك الغرب في سنة 1706م وهي تابعة حاليا لولاية غليزان، لمزيد من المعلومات يُنظر: مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص ص 178 - 179.

⁽¹⁾ - بوعزيز يحيى: **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، ج 1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر، 2004، ص 139.

⁽²⁾ - يُنظر كذلك: Fechner .E: **Oran et L'oranie**, calmann-lévie, France, 2002, p 74.

- Larousse. P: **Grand dictionnaire universel du 19^{eme} siècle**, T. 10, LM. 1869, p 1296.

- **Rapport sur la situation de la ville de Mascara**, Archives nationales d'outre-mer, carton n^o 2M/107/D, Aix En Provence, France.

^(**) - يقع هذا الوادي بين ولايتي مستغانم ووهران، وقد دارت فيه معركة كبيرة بين الأمير عبد القادر والقوات الفرنسية بقيادة "تريزل" في سنة 1835م. يُنظر: - حرب أديب: **التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808-1847م)**، ج 1، ط 3، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007، ص 186.

⁽³⁾ - عليو محمد: **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين (1701-1830)**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة معسكر 2009/2008، ص 19.

^(****) - وهران: بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء وبعد الألف نون، هي مدينة على البرّ الأعظم من المغرب تقع على ضفة البحر من الغرب الجزائري، اتفق المؤرخون أنها أسست في 290هـ/309م أيام حكم عبد الله الأموي والد الخليفة عبد الرحمن الثالث. لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج 4، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ط، د.ت، ص 385. - صفي الدين البغدادي: **مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، مج 3، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ط 1، 1992، ص 1446.

^(*****) - مستغانم: مدينة قديمة تقع في الغرب الجزائري، ازدادت أهميتها خلال العهد العثماني، حيث اتخذها الباي مصطفى بوشلاغم كعاصمة لبابلك الغرب سنة 1145هـ/1732م، لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن عبد القادر مسلم =

تتشكل منطقة معسكر من هضاب وجبال وسهول، أما الهضاب فأهمها تلك الواقعة بين معسكر والبرج، ومنها هضبة المامونية التي ترتفع عن سطح البحر بـ 687م، وأما الجبال فهي غير شامخة (قليلة الارتفاع)، وأعلى قمم بها تعلو جبل شارب الريح (910م) وجبل قلال (808م)، وجبل تمدارة (729م)، وجبل مناور (697م)، وما زاد من أهميتها وقوعها في سهل جميل ألا وهو سهل غريس⁽¹⁾، الذي يمتد على طول 55 كلم من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وعرض يتجاوز 20 كلم، وبعلو على سطح البحر يتراوح بين 450م و500م، بمساحة إجمالية تقدر بـ 147000 هكتار، وضمن هذا السهل الشهير توجد تجمعات سكانية هامة منها: مدينة تيغنيف، ومدينة غريس⁽²⁾، ويمكن تحديد المنطقة التي تقع تحت نفوذ المدينة وخدماتها، وتتبادل معها التأثير والتأثر بالمعالم الطبيعية التالية: جبل المناور شرقا، جبل كرسوط غربا، والقلعة شمالا، ووادي البنيان جنوبا⁽³⁾.

ج- المناخ:

يسود ولاية معسكر مناخ متوسطي شبه قاري، يتميز بعدم انتظام سقوط الأمطار وتجتاح المنطقة في فصل الشتاء موجات من البرد القارص، تتسبب في سقوط الثلوج وتشكيل الصقيع ببعض المناطق التي يبلغ علوها عن سطح البحر 800 م، وذلك في جبال بني شقران وعوف والبرج. كما تجدر الإشارة إلى أن متوسط الأمطار المتساقطة هي في حدود أكثر من 500 ملم خلال السنة، بينما المناطق التي تتميز بالارتفاع فتصل فيها الكمية إلى حوالي 800 ملم سنويا، وقد تفوق أحيانا 1242ملم كما حدث ذلك في سنة 1928⁽⁴⁾، وفي أواخر الربيع من كل سنة تهب على الناحية رياح جنوبية معروفة باسم

=الوهراني: خاتمة أنيس الغريب والمسافر، (تنمة ذخائر المغرب العربي، تاريخ بايات وهران المتأخر)، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ - 1974م، ص19.

(1) - أ. لسبور، و ويلد: رحلة طريفة في إيالة الجزائر، تحقيق وتقديم وتعليق وترجمة محمد جيجلي، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2010، اللوحة 50.

(2) - بن داهة عدة: معسكر عبر التاريخ، دار الخلدونية، الجزائر، 2005، ص10.

(3) - بن بكار بلهاشمي: كتاب مجموع الحساب والنسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961 ص33.

(4) - Tintoin. R: les aspects physiques du tell Oranie, Ed L.Fouque, Oran, 1948, p100.

"القبلي" عند سكانها، وهي حارة وجافة ومحملة بالأتربة والرمال⁽¹⁾، أما في فصل الصيف فيتميز الجو بالحرارة الشديدة.

د - طبوغرافية الموقع وتكوينه الجيولوجي وأهميته:

بنيت مدينة معسكر فوق أرضية كلسية بيضاء تعود إلى عصر البليستوسين، فقد تشكلت داخل بحيرة كبرى في آخر الزمن الثالث، وهي تشمل كل من هضبة "سان هيبوليت St-Hippolyte" (ما يعرف بالمامونية حالياً)، وسهل غريس المنخفض، الذي يمتد جنوباً حتى الأقسام الجوراسية لجبال سعيدة، والمندرجة ضمن سلسلة الأطلس التلي الداخلية⁽²⁾. لقد تم تخطيط المدينة في موقع إستراتيجي، توفرت فيه جميع الشروط الأساسية الواجب إتباعها في تخطيط المدن، والتي ذكرتها كتب الفكر العمراني عند المسلمين من أمثال: ابن أبي الربيع، وابن أبي زرع وابن خلدون وغيرهم، ونورد فيما يأتي ذكراً لأقوال بعضهم للشروط التي وضعوها.

أ- ابن الربيع شهاب الدين بن أحمد (ت272هـ): "وتعتبر في إنشاء المدن ستة شروط أحدهما سعة المياه المستعذبة والثاني إمكانية الميرة المستمدة والثالث إعتدال المكان وجودة الهواء والرابع القرب من المراعي والاحتطاب والخامس تحصين المنازل من الأعداء والدَّعار والسادس أن يحيط بها سَراد (سور) يعين أهلها"⁽³⁾.

ب- ابن أبي زرع (ت.741هـ): "وقالت الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي: النهر الجاري، والمحراث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين والسultan، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جابرتها..."⁽⁴⁾

ج- الماوردي: "...والذي يعتبر في إنشائها ستة شروط: أحدهما سعة المياه المستعذبة والثاني: إمكن الميرة المستمدة، والثالث: اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والترية

(1) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص11.

(2) - Dalloni.M: Mascara, Notice explicative, B4391, Bibliothèque de faculté des lettres, Aix En Provence, France.

- بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص11.

(3) - ابن الربيع أحمد شهاب الدين: سلوك المالك في تدبير الممالك، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1996، ص106.

(4) - ابن أبي زرع أبو الحسن علي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس صححه وطبعه وترجمه كارل يوحن ثرنبرغ، طبع في مدينة أويسالة بدار الطباعة المدرسية، 1823، ص16.

والرابع: قربه مما تدعو الحاجة إليه من المراعي والاحتطاب⁽¹⁾، والخامس: تحصين منزله من الأعداء والذعار، والسادس: أن يحيط به سواء يعين أهله بمواده، فإن تكاملت هذه الشروط الستة في إنشاء مصر، استحكمت قواعد تأييده، ولم يزل إلا بقضاء محتوم، وأجل معلوم⁽²⁾.

- ابن القاضي (ت 910هـ): "حُكي عن الحكماء أنها قالت: لا تستوطن إلا بلدا فيه سلطان حاضر، وطبيب ماهر، ونهر جار، وقاض عدل، وعالم عامل، وأسواق قائمة، وقالت الحكماء أيضا: أحسن المدن هي التي تجمع خمسة أشياء: نهر جار، ومحراث طيب وحطب قريب، وسور حصين، وسلطان قاهر، إذ به صلاح أهلها وتأمين سبلها"⁽³⁾.

- ابن خلدون (ت 808هـ): "اعلم أنّ المدن قرار تتخذها الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك للقرار والمأوى، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها: فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يُدار على منزلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتع من الأمكنة، إما على هضبة متوعدة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها، ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية، طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا، أو مجاورا للمياه الفاسدة أو لمناقع متعفنة أو لمروج خبيثة، أُسْرِعَ إليها العَفَنُ من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن في لا محالة وهذا مُشاهد. والمدن التي لم يُراعَ فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب... والذي يكشف لك الحق في ذلك: أن هذه الأهوية العَفِنَة أكثر ما يُهيئها لتعفين الأجسام وأمراض الحُميات ركودها. فإذا تخلّلتها الريح وتفتت وذهبت بها يمينا وشمالا، خَفَّ شأن العَفَنِ والمرض البادي منها للحيوانات".

(1) - الماوردي أبو الحسن علي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد بيروت، 1987، ص 209.

(2) - نفسه: ص 209.

(3) - ابن القاضي أحمد المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج 1، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1973، ص 42.

"والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله، فيتموج الهواء ضرورة، وتحدث الريح المتخلّلة للهواء الراكد، ويكون ذلك معينا على الحركة والتموج، وإذا خفّ الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموجه، وبقي ساكنا راكدا، وعظم عفته وكثر ضرره... وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيُراعى فيه أمور: منها الماء، بأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة ثرّة،⁽¹⁾ فإنّ وجود الماء قريبا من البلد يُسهّل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يُراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم، إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بدّ لها من المرعى، فإذا كان قريبا طيبا، كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يُراعى أيضا المزارع فإنّ الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهّل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإنّ الحطب مما تَعُمُّ البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ. والخشب أيضا ضروري لسقّفهم وكثير مما يُستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم. وقد يُراعى أيضا قُربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية. إلا أن ذلك ليس بمثابة الأوّل. وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، ومما تدعو إليه ضرورة الساكن. وقد يكون الواضع غافلا عن حُسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يُراعى ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطّوها بالعراق وإفريقية فإنّهم لم يراعوا فيها إلاّ الأهمّ عندهم، من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء المالح. ولم يراعوا الماء، ولا المزارع، ولا الحطب، ولا مراعي السائمة من نوات الظلف، ولا غير ذلك؛ كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب ما لم تُراع فيها الأمور الطبيعية."

"ومما يُراعى في البلاد الساحليّة التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين أمّة من الأمم موفورة العدد، تكون صرحا للمدينة متى طرقها طارق من العدو. والسبب في ذلك أنّ المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عُمران للقبائل أهل العصبية ولا موضعها متوعّر من الجبل كانت في غرّة للبيات، وسهّل طروقها في الأساطيل البحريّة

(1)- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تحقيق خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1431-

على عدوها وتحيفه لها، لما يأمن من وجود الصريخ لها... وهذه كإسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصابات موطنين بقربها، بحيث يبلّغهم الصريخ والنعير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها؛ كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها. كما في سبة وبجاية...⁽¹⁾

يتضح مما سبق إدراك الفكر الإسلامي الناضج لأسباب عمران المدينة وازدهار عمارتها وأسباب انحلالها وضعفها، في إطار يربط ببراعة بين الشكل المادي والهيئة الاجتماعية ربطاً عضوياً، يكشف عن نضج في الفكر وارتقاء في المستوى الحضاري الذي أفرزته الحضارة الإسلامية، ليرسم المبادئ العامة لسياسة تكثير العمارة المنوط بها الحكام باعتبار تكثيرها من أركان الملك. وتكشف هذه الشروط عن رؤية تخطيطية للمدينة الإسلامية اهتمت بالجوانب الوظيفية والاجتماعية والسياسية لمجتمع المدينة الإسلامية، مما يؤكد أصالة المدينة الإسلامية، وعمق الفكر الإسلامي ورؤيته السليمة في تخطيط المدن وهو فكر تبلور وتوضح مع تقدم العصر، مستفيداً في ذلك بالتجربة⁽²⁾.

ولعل ما نبدأ به في تحليل شروط بناء المدن وإسقاطها على مدينة معسكر هو الشرط الأول المتمثل في عذوبة الماء، الشرط الأساسي في اختيار مواقع المدن⁽³⁾، وتوفر الماء يأتي من مصادر مختلفة أهمها الأنهار التي تمثل مورداً منتظماً له⁽⁴⁾، فضلاً عن ذلك العيون التي كان يستحسن أن تكون داخل أسوار المدينة وفي الجهات العلوية منها، حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقي وإدخال المياه إلى المنازل⁽⁵⁾، وعلى ضوء ما ذكره نلاحظ أن مدينة معسكر توفرت فيها هذه المميزات، فهي المعروفة بوفرة المياه الصالحة للشرب، من مختلف المصادر كالأبار والجداول والعيون مثل "العين البيضاء" التي تقع في الجهة الجنوبية من المدينة، وكذلك السقي الكثير من وادي تودمان، إذ أنه ينبع من شمال

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ص 331 - 332.

(2) - محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1999، ص 26 - 27.

(3) - ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ص 331.

(4) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 97.

(5) - عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة

1411هـ/ 1991، ص 275.

غربي معسكر على بعد ثلاث كيلومترات، ويشق في طريقه المدينة، مروراً بحي "باب علي" الذي كان سكانه يستمدون من مياهه، بالإضافة إلى أنه يتغذى من عين السلطان^(*)(1)، كما يخترق غريس وادي ماوسة، ويبلغ طول وادي سيق حوالي 215 كلم، ينبع من منطقة الهضاب العليا، جنوب غرب جبال الضاية، ويخترق سهل بلعباس ليطلق عليه اسم "وادي مكرة"، وينتهي عند مستنقعات "المقطع".

ساهم الموقع والوسط الطبيعي في التأثير على أنماط معيشة سكان المنطقة، ولاسيما في المناطق الريفية، التي تتوزع عليها أكبر القبائل، كقبيلتي "بني شقران" و"الحشم"، والتي ساهمت في تنشيط مختلف مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية للمنطقة، وفي طبيعة الأنشطة الاقتصادية التي تعتمد عليها كلا القبيلتين، ثم في تحديد نوع العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة من جهة ثانية⁽²⁾.

كما تتميز منطقة معسكر باعتدال المناخ وجودة الهواء، وهذا طبعاً يعود إلى أهمية موقعها المتوسط الارتفاع والمطل على سهل جميل⁽³⁾ ومنفتح من كامل جهاته، مما يساعد ذلك على تجديد الهواء، وبالتالي القضاء على مسببات الأمراض والأوبئة، كالحشرات مثل الباعوض، وهذا ما جعلها بقعة كريمة مشهورة بالحسن والطيب في هوائها ومكانها، لأن المدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب⁽⁴⁾. كل هذا أدى إلى استقرار عدد كبير من الناس فيها، وذلك لرخاء العيش ورخص الأسعار وعدم التكلفة في توفير الميرة، إذ تذكر المصادر التاريخية أن المنطقة لم تتعرض إلى مشكلات اقتصادية أو مجاعات⁽⁵⁾، وهو ما يؤكد الجغرافي المشهور الإدريسي الذي قال عنها: "والمعسكر قرية عظيمة لها أنهار وثمار"⁽⁶⁾، وهذا بالطبع يعود إلى توفرها على سهول واسعة، خاصة منها سهل غريس، الذي يعتبر من أهم السهول الداخلية للجزائر، إذ أنه عبارة عن حوض

(*) - مازالت هذه العين موجودة إلى غاية اليوم، حيث ينتفع سكان المدينة من مائها العذب.

(1) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص12.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص20.

(3) - Shaw. T: **Voyages dans la régence d'Alger**, éditeur Marlin, Paris, 1980, p250.

(4) - ابن خلدون عبد الرحمن: المصدر السابق، ص330.

(5) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص12.

(6) - الإدريسي أبو عبد الله: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، (في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي)

حققه ونقله إلى الفرنسية، محمد حاج صادق، 1983، ص103.

منخفض تبلغ مساحته 1185 كلم² أي 118500 هكتار، وهو مشتهر بحقول القمح والشعير ويقطعان الماشية صغیرها وكبیرها⁽¹⁾.

كما تمتد مجموعة من السهول التي لا تقل أهميتها عن سهل غريس، وتشمل سهل الهبرة بين سيق والمحمدية، وسهل سيرات في شرق مستنقعات سهل المقطع، وإلى الشرق من بني شقران يمتد سهل سمارة قرب مدينة القلعة، تتخللها مجموعة من الأودية والمجاري المائية التي عادة ما تنسب إليها السهول التي تجري بها⁽²⁾، وقد كانت الزراعة السائدة خاصة في القرون الوسطى، تتمثل أساسا في زراعة الذرة والفلو والتين الهندي « Le nopal » بالهضاب، أما السهول فكانت تسودها الحبوب⁽³⁾، فالزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله، وهذا حتما يؤثر إيجابيا على توفير المراعي والكأ للحيوانات لفترة زمنية معتبرة خلال فصول السنة وهو ما أكده ابن خلدون في قوله المذكور سابقا.

وبالإضافة إلى قریها من المراعي في الضیاع الواسعة التي في جوانبها، نجدها تتوفر على المحطب القريب من الجبال المحیطة بها، والتي تحتوي على غابة كثيفة من أشجار العرعار والصنوبر الحلبي والبلوط⁽⁴⁾، وتوفر المرعى والوقود والغذاء والأخشاب اللازمة للبناء، يدفع بعمران المدينة نحو التوسع والتطور، خاصة إذا اعتمدت على إقليمها والبلاد المجاورة التي لها دور ومساهمة فعالة في تحقيق هذه المطالب⁽⁵⁾، وعليه يمكن القول أن توفر الماء والميرة هو إحدى الشروط الأساسية المتحكمة في بقاء المدن واستمرارها، دون الاعتماد على غيرها.

ونظرا لموقعها الإستراتيجي، المتصل بمجموعة من الطرق التجارية الهامة، التي ترتبط بعدة مدن منها مدينة وهران وتلمسان وتيهرت والتي تؤدي بدورها إلى مناطق الجنوب

(1) - محمادي قدور: شباب الأمير عبدالقادر، أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه، معاركه العسكرية الأولى، توليه الإمارة، ترجمة مختار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 35.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص 19.

(3) - بن داها عدة: المرجع السابق، ص 12، يُنظر كذلك:

Michel, J: *Venture de paradis, Alger au XVIII^e (1788- 1790)*, éditions grand Alger livres, Alger, 2006, p39.

(4) - بن داها عدة: المرجع السابق، ص 13.

(5) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 105.

بطبائع أهل تلمسان، فهم فلاحون ويشتهرون بصناعة الحلي، يمارسون التجارة مع بني ميزاب...⁽¹⁾، وعليه يمكن تقسيم العناصر السكانية لمدينة معسكر على النحو الآتي:

أ- **الأقلية التركية**: يتشكل أغلبها من الموظفين السامين للولاية، والجنود الأتراك "الإنكشارية"⁽²⁾، الذين كانوا يستقرون في حامية المدينة، وسميت بالأقلية لقلّة عددها بسبب حالة العزوبة⁽³⁾، التي كان يعيشها أغلب أفراد الجيش التركي العامل، وعدم تبني أبنائهم "الكراغلة"، واعتبارهم عنصرا هجينا، لا يرتقي إلى مستوى الأصول التركية الخالصة، فضلا عن تعرض الكثير منهم إلى الأمراض والأوبئة، كما أنهم عاشوا في عزلة بسبب رغبة الحكام الأتراك في المحافظة على امتيازاتهم، وميل غالبية العناصر التركية إلى التمسك بعاداتها ولغتها وأسلوب عيشها ونمط حياتها، واعتقاد الكثير منهم بكونهم جماعة ممتازة، تتوقف على باقي العناصر الأخرى، ولهذا السبب امتنع أغلب الموظفين الكبار عن الزواج بالجزائريات. لقد بلغ عدد هذه الفئة خمس سفرات في مدينة معسكر⁽⁴⁾، حيث تمتعت بامتيازات كبيرة في الإيالة وبايلكاتها⁽⁵⁾، كما كان لها دور مهم في حفظ الأمن وحماية البلاد وجباية الضرائب⁽⁶⁾.

(1) - خوجة حمدان بن عثمان: **السمراة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر 2007، ص 97.

(2) - **الانكشارية أو اليكجيرية**: كلمة محرفة عن اللفظة الأصلية "يكيجيري" التي تعني الجند الجديد، تأسس هذا النظام في البداية من طرف "مراد الأول" السلطان السابع للأتراك (1358 - 1389م)، وعرفوا تزايدا في عهد ولده وخليفته محمد الفاتح، عن أصول هذا التنظيم العسكري، وتاريخ ظهورهم في الجزائر ومراتبهم العسكرية، يُنظر: - أميلي حسن: **النظام العسكرية في الولايات المغاربية العثمانية من خلال المؤرخين الفرنسيين نيكولا دي نيكولاي والراهب بيير دان**، سلسلة العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطية، ندوات ومناظرات رقم 123، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، الرباط، 2005، ص 189، - دحمان توفيق: **دراسة في عهد الأمان، القانون الأساسي السياسي والعسكري للجزائر**، وثائق تنشر لأول مرة، الدار العثمانية للنشر، الجزائر، من ص: 20 إلى ص: 26.

(3) - كورين شوفالييه: **الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر**، 1510-1541، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص 30.

(4) - سعيدوني ناصر الدين: **الجانب الاقتصادي والاجتماعي من تاريخ الجزائر أثناء العهد العثماني**، الجزائر، 1982، ص 93.

(5) - حساني مختار: **المرجع السابق**، ص 215.

(6) - دحمان توفيق: **المرجع السابق**، ص 25.

ب- فئة الكراغلة^(**): تأتي هذه الفئة في المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، تكونت نتيجة تزواج أفراد الجيش "الإنكشاري" بنساء البلاد، وظهرت لأول مرة في المدن التي تقيم بها الحاميات التركية وهي: الجزائر وتلمسان ومعسكر وقلعة بني راشد ومستغانم ومازونة وغيرها، ومما ساعدهم على احتلال المرتبة الثانية في المجتمع، صلتهم بالأترك وعلاقتهم الخاصة بالأهالي، فأصبحوا بعد فترة قصيرة من الوجود التركي بالجزائر يؤلفون طبقة وسطى ميسورة الحال، تمارس التجارة وتشتغل بالمهن، وتستقر بالملكيات الزراعية بالفحوص، وفي بعض الأحيان تقوم بوظائف إدارية متوسطة الأهمية.

وقد تخوف الأتراك من تكاثر الكراغلة، الذين أصبحوا مع نهاية القرن السادس عشر يُقدّرون بنصف عدد الأتراك، وتزايد هذا التخوف منهم، عندما بدؤوا يكتسبون أهمية خاصة وتطلع البعض منهم إلى نيل الامتيازات والمشاركة في الحكم، وهذا ما دفع الحكام الأتراك إلى الاحتراز منهم، والحيلولة دون توليهم الوظائف السامية في الجيش والإدارة⁽¹⁾، ورغم ذلك استطاعوا أن يشكّلوا فيما بعد، شبه حكومة خاصة بهم، وأن يتقاسموا المدينة مع الحضّر⁽²⁾.

ج- الحضّر: أو "البلدية" تتشكل من المجموعات السكانية القاطنة بالمدن، والتي تعود في أصولها إلى الفترة الإسلامية، وما انضم إليها من أندلسيين وأشرف، وقد تميزوا بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة وبوضعهم الاجتماعي المميز، مما جعلهم يؤلفون طبقة اجتماعية ميسورة، ويشتغل أفرادها في المهن الصناعية والأعمال التجارية المختلفة، ويتولون وظائف السلك

(**) - "كروغلي" أو "قول أوغلي": مصطلح مركب من كلمتين "قول" بمعنى: "عبد" و "أوغل" بمعنى: "ابن"، وحسب قواعد اللغة التركية معناه: أبناء العبيد، ووفقا لفلسفة الحكم عند العثمانيين، معناه أبناء عبيد السلطان العثماني، لمزيد من المعلومات يُنظر: - هلايلي حنيفي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى، للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1428هـ/2007م، ص80.

(1) - لقد كان احتراز الأتراك من الكراغلة في محله، إذ عندما توترت العلاقة بينهم، ابتداءً من سنة 1596م انتهاءً من عام 1629م، تحول إلى صدام مسلح، عندما حاولوا الحد من نفوذ الأتراك والسيطرة على مقاليد الحكم، بالاعتماد على عناصر زواوة العاملة بالجيش، لكن تفتن الأتراك إلى خطتهم وتجنس أفراد بعض جماعة البرانية من بني مزاب عليهم بحسن الإمبراطور، خارج الجزائر لفائدة الأتراك، أدى إلى القضاء على تمردهم في يوم 19 رمضان 1028هـ الموافق لـ 12 ماي 1629م، ولقي الكثير منهم مصرعهم، وما تبقى منهم فروا إتجاه منطقة القبائل، لمعلومات أكثر أنظر: - خوجة حمدان بن عثمان: المصدر السابق، ص 154، وكذلك: - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص93.

(2) - حساني مختار: المرجع السابق، ص216.

القضائي والتعليمي، وقد ظهر في هذه الطبقة الصناع المهرة والتجار النشيطون والبحارة المغامرين والفقهاء والعلماء الأفاضل.

هذا وقد اهتم أفراد هذه الطبقة بتمتية ثرواتهم واستغلال أملاكهم، واستثمار مزارعهم الواقعة بالقرب من المدن، ذلك ما جعلهم يؤلفون برجوازية المدن الصغيرة، التي عرفت بخضوعها للبايلك، وقلة اهتمامها بأمور السياسة وشؤون الحكم، ومن أهم العناصر التي كانت تتشكل منها طبقة الحضر نذكر: الجالية الأندلسية وجماعة الأشراف، فالأندلسيون الذين كانت لهم صلة ومعرفة بالبلاد الجزائرية منذ الفترة الإسلامية تكاثر عددهم مع مجيء الأتراك، الذين كان لهم دور في إنقاذهم من الإسبان بعد سقوط الأندلس تحت حكمهم في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. أما جماعة الأشراف القليلة العدد والتي تتميز عن باقي الحضر بانتسابها إلى آل البيت^(*)، حسب التقاليد المتعارف عليها، فقد اشتهر أغلب أفرادها بالورع والتقوى، وهذا ما أكسبهم احتراماً وتقديراً لدى الحكام وباقي فئات المجتمع⁽¹⁾.

هـ- مجموعات البرانية أو الدخلاء: تتألف من المجموعات السكانية التي هاجرت إلى المدن الكبرى للإقامة والعمل، وقد فرض عليها الوضع الاجتماعي ونوعية النشاط الاقتصادي في المدن، أن تنتظم حسب أصولها الجهوية ومواطنها الأولى، وقد اقتصت كل مجموعة بمهام وأعمال تقوم بها، تحت إشراف أمير منها يختاره البايلك ويوكل له حق مراقبة جماعته وتولي شؤونها فيما يتعلق بأمور الشرطة والقضايا العدلية، ومن الجماعات التي استقرت في معسكر نذكر:

- **جماعة بني ميزاب:** إن حركة هجرة بني ميزاب لها خصوصيتها ولا يمكن مقارنتها بباقي الهجرات، فقد كانت هجرة منتظمة نظراً لارتباط حياة البلد ارتباطاً شديداً بها. فمنطقة الميزاب بمدنها السبع، غرداية وبني يسفن ومليكة وبريان والعائق والقرارة وبونورة، هي منطقة فقيرة ولا توفر إمكانيات العيش، لذا كانت من المناطق الطاردة، فالهجرة كانت حينئذ اضطرارية

(*) - من عائلات الأشراف التي كانت تستقر بمدينة معسكر، نذكر عائلة الشيخ مصطفى بن مختار الغريسي، المعروف بسيدي قادة جد الأمير عبد القادر، الذي يتصل نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أسس قرية القيطنة والزاوية ومنها ذاعت شهرته في المنطقة وضواحيها. لمزيد من المعلومات يُنظر: بوعزيز يحي: المرجع السابق، ص 146.

(1) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص ص 97 - 98 - 99.

كانت لها أوضاعها الخاصة، وفي آخر الهرم نجد جماعات البرانية المحرومة من الامتيازات، رغم قيامها بالأعمال الشاقة والمهن الحقيرة⁽¹⁾.

2- أصل تسمية مدينة معسكر:

يسود الغموض حول التسمية الأولى التي اتخذتها مدينة معسكر، لعدم وجود أدلة قاطعة تشير إلى ذلك، ولكن يرى بعض الرحالة والمؤرخين والأثريين من أمثال "شاو SHAW"⁽²⁾، و"هاينريش فون ملستان"⁽³⁾ على أنها بنيت على أنقاض المدينة الرومانية القديمة "فيكتوريا VICTORIA"^(*)، حيث قال هذا الأخير: "وتحتل مدينة معسكر فيما يذهب إليه أغلب الأثريين، مكان المدينة الرومانية القديمة فيكتوريا، ولم أستطع أن أكتشف هنا أي أثر..."، ثم يواصل حديثه بتقديم معلومات مهمة في قوله: "... ويعتبر بطليموس الجغرافي الوحيد الذي ذكر فيكتوريا، ومن المرجح أنّ المدينة قد هدمها أهالي البلاد، عند سقوط الإمبراطورية الرومانية، فاسمها لم يرد ذكره فيما بعد، ولم يكن في معسكر ما يستحق المشاهدة"⁽⁴⁾. (تُنظر الخريطة رقم 03)

كما تشير بعض الأبحاث، إلى أن مدينة معسكر قديما كانت تسمى "كاسترانوفا CASTRA NOVA"، أي "القلعة أو المعسكر الجديد"، وهو اسم لاتيني روماني⁽⁵⁾، لكن عند البحث في الخرائط القديمة نجد أن هذه التسمية غير صحيحة، وذلك بالنظر إلى موقع هذه القلعة، البعيدة كل البعد عن الموقع الحالي لمدينة معسكر، بل هو جد قريب من مدينة "المحمدية"، وهي إحدى الدوائر الإدارية المكونة لولاية معسكر، ويظن البعض أن مدينة

(1) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص 111.

(2) - Shaw. T: **Op.cit**, p250.

(3) - هاينريش فون ملستان: ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا، ترجمة أبو العبد دودو، ج 2، ط 1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 76.

(*) - فيكتوريا: هو اسم آلهة النصر عند الرومان، وقد عُثر على نقيشة إهدائية على مذبح آلهة النصر فيكتوريا بالموقع الأثري الموجود بمنطقة "بنيان". لمزيد من المعلومات يُنظر: - فاضل لخضر: "مدينة بنيان عبر العصور القديمة"، ملتقى مدينة معسكر، المنطقة والرجال، 06 ماي 2005، مديرية الثقافة، معسكر، ص 22.

(4) - هاينريش فون ملستان: المرجع السابق، ص 76.

(5) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص 48.

معسكر هي نفس المدينة التي يسميها بطليموس "قيلبورك"⁽¹⁾، لكننا لم نجد ما يثبت هذه المعلومة، وفي الفترة الإسلامية كانت تطلق عليها تسمية "المعسكر" حسب وصف الإدريسي والحسن الوزان⁽²⁾، وكذلك "أم عسكر" حسب أبي راس الناصري⁽³⁾، ومنها جاءت التسمية المعروفة "مَعْسَكْر" التي تعني المكان الذي يعسكر فيه الجنود⁽⁴⁾، وهي التسمية التي اشتهرت بها بعد ذلك ومازالت متداولة إلى غاية اليوم.

يمكن القول من خلال ما تم ذكره أن الموقع الجغرافي لمدينة معسكر كان له دور واضح وجلي في تأسيسها، نظرا لمميزاته وخصائصه الجغرافية التي تتوافق مع شروط تأسيس المدن التي وضعها علماء العمران والجغرافيا، فمناخها المعتدل ومائها العذب وتربيتها الصالحة للزراعة، جعلت منها مدينة مفضلة لسهولة العيش ووفرة متطلبات الحياة، ولعل ما يثبت ذلك هو توافد الناس إليها واستقرارهم فيها وفي فحوصها، فوسطية موقعها بين النل والصحراء وقربه من الطرق التجارية الرئيسية والمدن الكبرى كمدينة تلمسان، جعلت منها كوجهة مفضلة للراحة والاستقرار وممارسة التجارة وطلب العلم، وهذا دليل كاف لتبرير بقائها وازدهار عمرانها وعدم خرابها.

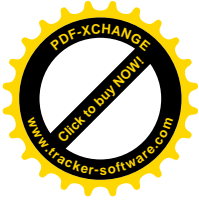
(1) - مارمول كاربخال: إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1984 ص324.

(2) - الإدريسي: المصدر السابق، ص103، يُنظر كذلك: - الوزان الحسن بن محمد: وصف إفريقيا، ج2، ط2، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983، ص26. - يُنظر كذلك: - أبو زيد عبد الرحمن الجامعي، فتح مدينة وهران 1708م، تحقيق مختاري حساني، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر 2003، ص72.

- Shaw. T: Op.cit, p250.

(3) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص20.

(4) - محمصي قدور: المرجع السابق، ص93.



١ ٢٣٤٥٦٧٨٩١٠
١٢٣٤٥٦٧٨٩١٠

١٢٣٤٥٦٧٨٩١٠ -1
١٢٣٤٥٦٧٨٩١٠ -2
١٢٣٤٥٦٧٨٩١٠ -3

إن الباحث في تاريخ المدن وعمرانها تشده دائما محاولة معرفة بداية الاستقرار البشري فيها وكشف الأحداث التاريخية التي مرت بها، لذلك سنحاول في هذا الفصل إعطاء الخلفية التاريخية للمدينة بالتطرق إلى مختلف الفترات التي مرت عليها، أي بدءاً من فترة ما قبل التاريخ التي تمثل بداية الاستقرار البشري، بحكم أن المنطقة التي بنيت فيها المدينة لها مؤهلات جغرافية تساعد على ذلك، وإلى غاية الفترة الإسلامية، وعليه ما هي أهم الأحداث التاريخية التي مرت عليها المدينة والمنطقة ككل؟

1- فترة ما قبل التاريخ:

إن تاريخ مدينة معسكر خلال هذه الفترة يكتنفها نوع من الغموض، وهذا بسبب عدم وجود أبحاث ودراسات ميدانية أقيمت عليها، إلا أنه على بعد عشرين كيلومتر شرق المدينة بمرملة "تيغنيف"، اكتشفت آثار تعود إلى هذه الحقبة، من قبل مجموعة من الباحثين من أمثال: "بومال POMAL" في أبحاث أثرية تولاها خلال سنوات 1878 و 1882 و 1893 و 1897م، وكذلك "توماسيني TOMASSINI" في سنة 1882م⁽¹⁾، ومن بعده مرة أخرى "بومال" رفقة "بولاري PALLARY" في سنة 1887 و 1925م⁽²⁾.

وفي سنة 1872م بدأ التنقيب في موقع "تيغنيف"، الذي يقع على بعد مئات الأمتار غربي قرية "باليكو Palikao" القريبة من مدينة معسكر، وهو يتشكل من هضبة رملية ذات لون أبيض، وقد اكتشف فيها أحد المعمرين الفرنسيين في تلك الفترة وهو السيد "بالافوان M. Balavoine" مجموعة عظام بشرية متحجرة بعد مدة قصيرة من الشروع في العمل بأرضه الزراعية، وقد كشفت الحفريات التي أجريت كذلك فيه أثناء مؤتمر سنة 1888 عدة بقايا عظمية⁽³⁾.

وفي سنة 1954م وضع "كميل أرامبورغ C. Arambourg" و "ب. بالاري P. Pallary" وبعثتهما، أيديهم على شواهد عظمية، لأول أثر على وجود الأقوام العتيقة بالقارة الإفريقية

⁽¹⁾-Geraads .D et autres: **The pleistocene homid site of Ternifine, Algéria : new results on the environment, age, And human industries**, Laboratoire de paléontologie des vertèbres et paléontologie humaines, T.25, Université Paris VI, 1985, p380.

⁽²⁾-Geraads .D: « Bovidae et Giraffidae (artiodactyla Mammalia) du pléistocène de Terenifine (Algérie) », Bulletin Muséum nationale d'histoire naturelle, 4^{ème} série 3, 1981, section C, N1, Paris, p47.

⁽³⁾- ليونال بالو: الجزائر فيما قبل التاريخ، ترجمة وتقديم محمد الصغير غانم، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005، ص32.

ولقد تمثل تلك الشواهد العظمية لإنسان الجزائر، والذي أطلق عليه اسم "إنسان الأطلس" «Atlantropus mauritanicus»، هي عبارة عن ثلاث عظام فكية وإحدى اللوحات الجانبية للجمجمة⁽¹⁾، أرخت بحوالي 700000 سنة قبل الميلاد⁽²⁾، وهذا دليل قاطع على أن المنطقة عرفت استقرار بشريا منذ أمد بعيد.

كما قام مجموعة من الباحثين أمثال "غزال" GZELL و "مارسي" MARÇAIS و "إيفر" YVER بأبحاث ميدانية في موقع "تيغنيف" أسفر عن اكتشاف بقايا أدوات حجرية، وعظام لحيوانات كانت تعيش بالمنطقة مثل: فرس النهر ووحيد القرن⁽³⁾.

لقد عثر كذلك على أدوات حجرية غير بعيد عن المدينة، قرب "سان هيبوليت" المامونية حاليا، وعلى لقى عظمية وأدوات تعود إلى فترة "النيوليتيك" برأس الماء" (سيدي دحو)، وهذا الوضع ينطبق على كثير من المواقع الموجودة قرب معسكر، إذ تم العثور على قم كثيرة من الجبال المحيطة بمعسكر، أكوام من الحجارة في أزيد من سبعين موقعا⁽⁴⁾ وهي عبارة عن مجموعات من القبور، موزعة على حوالي عشر تجمعات سكنية، تنتشر عبر محور يمتد من منطقة غريس وجبل شداد وجبل أولاد عوف، وبين محور تيغنيف، ماوسة سيدي قادة، حسين على ضفاف وادي الحمام⁽⁵⁾.

2- الفترة القديمة:

عند البحث في المصادر التاريخية لا نجد إشارة واضحة لمدينة معسكر، ولكن استنتجنا من خلال بعض الأبحاث التاريخية أن إقليم بني راشد، الذي تتصوي تحته منطقة معسكر في القرن الثالث قبل الميلاد، كانت تنتمي إلى مملكة نوميديا الغربية، الواقعة تحت حكم الملك "سيفاكس Syphax" (220-203 ق.م)، بحدود تمتد من وادي ملوية، على حدود موريطانيا غربا إلى شمال قسنطينة عاصمة نوميديا الغربية، وقد اتخذ من مدينة "سيقا" كعاصمة له.

(1)- ليونال بالو: المرجع السابق، ص 33 و ص ص 56- 57. يُنظر كذلك:- العدواني محمد الطاهر: الجزائر منذ نشأة الحضارة، عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 89.

(2)- Geraads .D et autres: **The pleistocene ...**, Op.cit, p386.

(3)- Gzell. S, Marçais. G, Yver. G: **Histoire d'Algérie**, Paris, 1927, pp 01-02.

(4)- بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص 46.

(5)- عليو محمد: المرجع السابق، ص 25.

هذه القلعة التي بنيت بالقرب من مدينة المحمدية، وقد وزعت الأراضي على قدماء الجند حول هذه المراكز، فنشأت المداشر أو المدن⁽¹⁾.

ورغم صعوبة توثيق المرحلة الرومانية، الخاصة بتقدير الدور الذي أدته المدينة في مجال المقاومة، إلا أنه من المؤكد هو تخلي الرومان عن المدينة خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، تحت تأثير ثورات البربر وضرباتهم الشديدة ضد الرومان في نقاط مختلفة من جهات الوطن، خلال الفترة الممتدة من 257م إلى سنة 297م، وهي السنة التي زار فيها الإمبراطور الروماني "ماكسيميليان" الجزائر، لتهدئة الوضع وتجميع القوات بالمستعمرات الزراعية الواسعة⁽²⁾.

ولعل ما يبرز الاهتمام الذي أولاه الرومان لمنطقة معسكر، هي تلك الآثار التي مازالت شاهدة على المدن التي أسسوها فيها، فمدينة "بوحنيفة" التي نشأت على أنقاض "تاكلمانت Takelmanet" البربرية، تعد أحد أقدم المدن الرومانية بالمنطقة، بالإضافة إلى موقع "Ala Miliara" ببلدية بنيان وموقع وادي الحمام القريب من بلدية "حسين" الواقعة غرب معسكر، حيث وجدت آثار لجدار عليه نقوش تعود إلى سنة 261م.

وبعد هذه الفترة نجهل الأحداث التي دارت في مدينة معسكر، إلى غاية الدخول الوندالي إلى المغرب في القرن الخامس الميلادي، هذه القبائل التي جاءت من بحر البلطيق عبر رحلة طويلة، إلى أن استقر بهم الأمر بشمال إفريقيا في سنة 429م بقيادة "جنسريق Genséric"⁽³⁾، حيث أنهم أنهوا الوجود الروماني بشمال إفريقيا لتدخل منطقة معسكر وضواحيها تحت سيطرتهم.

وعند ضعف القوة الوندالية خلفتها سلطة أخرى وهي السلطة البيزنطية، وريثة أملاك الإمبراطورية الرومانية في إفريقيا الشمالية، حيث أنهم قاموا بالسيطرة على معظم المناطق الساحلية الإستراتيجية، كما أنهم قاموا بتوحيد الإمبراطوريتين القيصرية والطنجية⁽⁴⁾، ولكن

(1) - شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969، ص 238.

(2) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص 48-49.

(3) - شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 322، يُنظر أيضا:

- Berthier. A: L'Algérie et son passé, édition A et J, picard, Paris 1951, p 133,153.

(4) - شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص 361.

عنده إدريس الأكبر وأخوه سليمان عندما فرا من المشرق، ورحل معهما إلى المغرب الأقصى بعد ذلك⁽¹⁾، وذلك في قوله: "... وصار يجد السير حتى بلغ إزاء تلمسان ببلاد أم عسكر فلما رأوه أهل ذلك المكان وسمعوا أخباره ووجدوه فاضلا اتخذوه رئيسا لهم فمكث عندهم وتزوج منهم امرأة فولدت له راشدا، فلما حضرت الوفاة للمرشد أحضر ولده راشد وسوّله، قال له أنا المرشد بن إبراهيم بن محمد بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عليه...فتوفي المرشد وخلف راشد وكان راشد كريما شجاعا جميل الوجه محبوبا عند الناس فلما نزل عليه إدريس وأخيه سليمان بن عبد الله أكرمهم راشد وأحسن إليهم، مكثوا عندهم ستة أشهر، فلما أراد إدريس بن عبد الله القدوم إلى المغرب قال له هل تريد صحبتي إلى المغرب، قال له راشد إن ولابد على شرط لا تؤثر على أحد السر الذي بيني وبينك لا يطلع عليه سوى الله وتراعي أولادي من بعدي كما ترى عيني له قال له إدريس لك ذلك... وقصدا بلاد المغرب^(*)"⁽²⁾، وبعد قيام الدولة الإدريسية، خرج إدريس بن عبد الله سنة 273هـ لغزو تلمسان التي دخلت تحت حكمه دون صعوبة، كما بايعته القبائل القريبة منها⁽³⁾، وبالتالي خضعت منطقة معسكر لنفوذهم، بحكم أن سيطرتهم كانت تمتد من السوس الأقصى إلى مدينة وهران⁽⁴⁾ ومن جهة الجنوب سهول غريس إلى جهة مديونة⁽⁵⁾.

ومع بداية القرن العاشر الميلادي، انتزعت قبائل بني يفرن منطقة معسكر من مغراوة بقيادة "يعلي بن محمد بن صالح اليفريني"، الذي قام بتمدين مدينة "إفكان"، بعدما كانت سوقا قديمة من أسواق زناتة، وكان ابتداء تأسيسه لها في سنة 338هـ/949م⁽⁶⁾، وارتحل إليها أهل المعسكر من أهل تاهرت وبلل وشاطئ بني واليل ووهران وقصر الفلوس، فعمرت وتمدنت

(1) - بوعزيز يحي: المرجع السابق، ص130.

(*) - المقصود بهذا المغرب الأقصى.

(2) - القيرواني محمد الشريف: روضة الأزهار في تعريف نسبة آل محمد المختار صلى الله عليه وسلم، مخطوط بمكتبة الشيخ البشير محمودي، دائرة البرج، معسكر، الورقة 8.

(3) - ابن القاضي أحمد المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص ص 21- 22.

(4) - ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1420هـ/1999م، ص 117.

(5) - الجبالي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 183.

(6) - البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، 1965، ص 79.

وعظمت⁽¹⁾ وغيرها من بلاد الجزائر، فانتشر بها العمران وأسس بها مسجدا جامعاً وأرحاءاً وحمّامات، كما استغل أراضيها في المجال الزراعي.⁽²⁾

لكن المعز لدين الله الفاطمي لم يتردد في الانتقام منه بعدما بث "يعلي" الدعوة المروانية خلفاء بني أمية في الأندلس، فأرسل في سنة 958هـ قائده جوهر الصقلي إليه الذي اتخذ منطقة معسكر (الراشدية) قاعدة للقضاء على ثورة "زناتة"، ومنها أغار على قرية "إفكان" وخربها نهائياً⁽³⁾، وبمقتل "يعلي بن محمد بن صالح اليفريني" فرّ سكان إفكان باتجاه الجنوب، وبذلك خضعت المنطقة لحكم الفاطميين حسب ما ذكره البكري في قوله: "وبين مدينة تلمسان وتيهرت يسكن بنو مريين وجميع قبائل زناتة، منهم توجين ومغراوة وبنو راشد وورنيد وغيرهم"⁽⁴⁾، وبالتالي خضعت منطقة معسكر للنفوذ الشيعي الفاطمي على عهد عبيد الله الشيعي، الذي ملك "إفريقية وجميع بلاد المغرب وطرابلس وبرقة وجزيرة صقلية وكان عماله على ذلك كله"⁽⁵⁾، ثم ملك بعدهم الزييريون والحماديون.

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (11م)، بسط المرابطون نفوذهم على المغرب الأوسط، وأصبحت حدود مملكتهم محاذية لدولة بني حماد، وذلك تحت قيادة يوسف بن تاشفين، الذي افتتح في حدود سنة 474/1080م مدينة وهران وتنس ومليانة وجبال وانشريس وأعمال شلف بأجمعه⁽⁶⁾، ففضى على ممالك زناتة ومحا آثار مغراوة من جميع بلاد المغرب الأوسط ودخل متيجة موغلا في سهولها حتى مدينة الجزائر⁽⁷⁾، وأصبحت

(1) - البكري أبو عبيد الله: المصدر السابق، ص 79.

(2) - نفسه: ص 224.

(3) - ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 109. يُنظر كذلك: - أبو راس محمد الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق محمد غالم، ج 1، C.R.A.S.C، الجزائر، 2005، ص 42.

(4) - البكري: المصدر السابق، ص 79.

(5) - المراكشي ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومرجعة ج. س. كولان، إ. ليفي بورفنسال، ج 1، ط 2، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 208.

(6) - ابن أبي زرع علي الفاسي: المصدر السابق، ص 143. يُنظر كذلك:

- ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 6، دار الكتب العلمية، لبنان، 1413/1992م، ص 220.

(7) - المراكشي عبد الواحد: وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد 1997 ص 27.

الزمن تطورت هذه المدينة وكبرت⁽¹⁾، ولكن مع تأسيس الدولة الزيانية (633-962هـ/1235م) وإعلانها الاستقلال على يد يغمراسن بن زيان بأمر تلمسان وظفره بالسلطان، أدى عندئذ ذلك إلى طمعه في التغلب على أمصار المغرب الأوسط، ومزاحمة بني توجين وبني منديل بقيادة منديل بن عبد الرحمن وبنوه المسيطرين على ناحية شلف، والذين كانوا قد ملكوا مليانة وتنس وبرشك وشرشال وما إليها، وتناولوا إلى متيجة فتغلبوا عليها، ثم مدوا أيديهم إلى جبل وانشريس وما إليه⁽²⁾، وفي سنة (680هـ/1286م) قام الخليفة المريني "يعقوب بن عبد الحق" بالتوسع في بلاد المغرب الأوسط، فاستولوا على مدن ندرومة ووهران ومزغران ومازونة ومستغانم وتنس والمدية ومليانة وشرشال، وخضع لها حاكم مدينة الجزائر، وبذلك خضع المغرب الأوسط بما فيه منطقة معسكر لبني مرين ما عدا تلمسان⁽³⁾.

وفي سنة 686هـ الموافق لـ1291م اتخذ بنو زيان من معسكر قاعدة للإجلاب على بنو توجين، وذلك نظرا لموقعها الإستراتيجي والمحصن وكذلك لقربها من منازلهم، حيث يذكر ابن خلدون أن "عثمان بن يغمراسن" قد استعان "بالحشم" ضد بني توجين، الذي تغلب عليهم ودوخ قاصيتهم، وصار إلى بلاد مغراوة كذلك، حيث نزل له ثابت بن منديل أمير مغراوة عن تنس، فاستولى عليها وانتظم سائر بلاد مغراوة في إيالته⁽⁴⁾.

وفي سنة 689هـ/1294م خرج الأمير أبي سعيد عثمان مرة أخرى إلى بلاد مغراوة، لما كان ألبا عليه بني مرين في إحدى حركاتهم على تلمسان، فدوخها وأنزل ابنه أبا حمو بالشلف مركز تمردهم فأقام به وقفل إلى الحاضرة، وتحيز فل مغراوة إلى نواحي متيجة وعليهم ثابت بن منديل أميرهم، فلم يزلوا بها، ونهض إليهم "عثمان" سنة ثلاث وتسعين (693هـ/1297م)، ففروا منها وزحفوا إلى مدينة برشك^(*)، فحاصروهم بها أربعين يوما ثم

(1) - بوعزيز يحيى: المرجع السابق، ص130.

(2) - ابن خلدون: العبر...، المصدر السابق، ج7، ص 94 و ص 102.

(3) - بوعزيز يحيى: المرجع السابق، ص ص206 - 207.

(4) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر...، المصدر السابق، ج7، ص93.

(*) - برشك: مدينة قديمة بها مرسى صغير، تسمى قوراية حاليا، تقع في ولاية تيبازة، يُنظر: الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995، ص ص 88 - 90.

قتله بيده⁽¹⁾، وفي هذه الفترة تمكن الإسبان من اجتياح الجهة الغربية، بما فيها مدينة معسكر، وذلك بمساعدة عميلهم أبي حمو الثالث الزياني الذي خدمهم بإخلاص⁽²⁾، فقتلوا غدرا أول عامل تركي وضعه الأتراك على قلعة "هواره" المعروفة بقلعة "بني راشد"، أو "قلعة القلاع" حسب ما جاء في مذكرات خير الدين بربروس، وهذا لتشديد الضغط والخناق على ناحية بني شقران، ومراقبة القوات الإسبانية بوهران، وهو إسحاق بن يعقوب أخو عروج وخير الدين وإلياس⁽³⁾، وقد أعلن سكان معسكر طاعتهم للأتراك عن طريق شيخ المدينة الكبير "أحمد بن يوسف الراشدي"^(**)، الذي التقى بعروج في "كريشتل" (منطقة تقع قرب وهران)

(*) - تعددت الروايات حول مصرع سليم التومي، نذكر منها: أن عروج قد روج لكلمة فحواها أن الشيخ، كان قد اختنق في حمامه، لمزيد من المعلومات يُنظر: مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، نقلا عن: وليم سبئسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006، ص108.

(1) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص34، يُنظر كذلك: - المدني أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة بين الجزائر وأسبانيا 1796/1492م، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ص175.

(2) - Rufe. P: **Domination Espagnole à Oran, sous le gouvernement du comte d'Alcoudete 1534-1558**, éditions Mimouni, Alger, S.D, p19.

(3) - مذكرات خير الدين بربروس: ترجمة درّاج محمد، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1431هـ-2010م، ص92. يُنظر كذلك: - ابن زرفة محمد: الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تحقيق حساني مختار، مخبر المخطوطات جامعة الجزائر، 2003، ص224. وكذلك:

- بوعزيز يحي: وهران، الطباعة الشعبية للحيش، الجزائر، 2007، ص74.

- Chaouch. S: **Fondation de la régence d'Alger, histoire des frères barbarousse Arroudj et Khair-ed-din**, Editions Grand- Alger Livres, Alger, 2006, pp77-78

(**) - هو أبو العباس أحمد وهو ابن لأبي عبد الله محمد بن أحمد عبد الله بن يوسف المرسي نسبا، والهوري دارا والراشدي نشأة، والملياني مدفنا، كان يعرف بسيدي أحمد بن يوسف، ولد بقلعة بني راشد، لم يحدد تاريخ ولادته فقبل في سنة 836هـ/1436م و 840هـ/1440م و 844هـ/1442م، تنتمي أسرته إلى بني مرين المغاربة، كان رجلا عالما ومتفقا في الدين وسياسيا، وكان سيدي أحمد على اتصال مع العثمانيين خاصة عروج، واتفقا معا ضد الزيانيين بتلمسان، وظلت هذه العلاقة قائمة طيلة العهد العثماني، وتوفي أحمد بن يوسف سنة 931هـ/1524م، ودفنه ابنه محمد ابن مرزوقة في مليانة وبنى له باي وهران محمد الكبير ضريحا ومسجدا في القرن 12هـ/18م. لمزيد من المعلومات يُنظر:

- ابن الصباغ: زمزم الأخيار، نسخة عن المخطوط الأصلي، مخبر المخطوطات، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران ورقة60، وكذلك: - الحسني محمد بن عسكر الشفشاوي: دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر تحقيق محمد حجي، ط3، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، المغرب، 2003، ص112. وأبضا: - الشيخ أبو عمران ورفق من الأساندة: معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلح، الجزائر، 2000، ص500، وكذلك:

-Bordin .M: "Notes et question sur sidi Ahmed Benyousef", *Revue Africaine*, 1925, p135.

وأعلن له الولاء، وبذلك أعاد رباط معسكر إلى الجهاد وكلف بطرد الاسبان من مستغانم ووهران، وعندما تولى حسن بن خير الدين منصب بايلرباي⁽¹⁾ الجزائر، وضع نظاما إداريا أكثر ملائمة للأوضاع والتطورات الجديدة، وقسم البلاد الجزائرية كلها إلى أربعة أقاليم كل منها يحمل اسم: بايلك⁽²⁾، ولو أنّ ظهورها وقيامها تم على عدة مراحل، ويحكمها البايات^(*) نوابا وخلفاء عن الباشوات، وهم من الأتراك أو الكراغلة المولدين وهي: (تُنظر الخريطة رقم 4)

1- بايلك مدينة الجزائر وما حولها: ويشمل تقريبا مدن الوسط، ويقال له دار السلطان لاستقرار الحاكم التركي به، وهو أول البايكات ظهورا.

2- بايلك التيطري والصحراء: وقاعدته مدينة المدية والذي أسس عام 947هـ/ 1540م.

3- بايلك الغرب: أسس عام 970هـ/ 1563م.

4- بايلك الشرق: وقاعدته مدينة قسنطينة وقد أسس عام 974هـ/ 1565م.⁽³⁾

لقد اقتضت رئاسة البايك على ذوي الأصول التركية أو الكرغلية، وهو شرط أساسي وضعه الباشا، حسب ما ذكره الزياني محمد بن يوسف، في قوله: "...ولا يتولى بايا إلا من هو تركي أو قرغلي..⁽⁴⁾"، وقد خضع بايلك الغرب لهذه القاعدة، إذ تولى رئاسته من أولهم

(1) - بايلرباي: باللغة التركية هو أمير الأمراء أو باي البايات، باللغة العربية، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث قسنطينة 1385هـ/ 1965م، ص 71.

(2) - المزاري الآغا بن عودة: طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990، ص 270.

(*) - الباي: في لغة الأتراك قائد القيادة، وهو يعتبر في البايك صاحب السلطة العليا، يتم تعيينه مباشرة من طرف الداى وفي بعض الظروف كان أهل البلد من يختارونه من بينهم، بشرط أن ترضى عنه سلطة الديوان وداى الإيالة، الذي يدعم وجوده بقاض يدير الأحكام باسمه، وهو يسوس البلاد والسكان كما يشاء، وتتسم سياسته بالغلظة والقسوة والشدة، وله جهاز من الموظفين يساعده في أعماله. لمزيد من المعلومات يُنظر: - أبو راس محمد الناصري: الخبر المعرب... المصدر السابق، ورقة 6، وكذلك: - بوعزيز يحيى: وهران... المرجع السابق، ص 76. وأيضا:

- كشرود حسان: رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية من 1659 إلى 1830، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008، ص 147.

(3) - ابن ميمون محمد الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عيد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1392هـ/ 1972م، ص 36.

(4) - الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأئيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي بوعبدلي، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرعاية، الجزائر، 2007، ص 192.

يُعين بيلربايا على الجزائر، حيث جعل من مازونة مقرا له في سنة 971هـ، لكنه تخلى عن هذا المنصب لأبي خديجة⁽¹⁾، الذي يعتبره المؤرخون أول بايات بايلك الغرب، وبعد ذلك أصبح يحكم البايك بايان، واحد يستقر بمدينة مازونة، والآخر بمدينة تلمسان، وهذا يعني أن هذا البايك قسم إلى قسمين، وفي عام 1701م وُحد القسمين وأصبح يعين عليهما باي واحد جعلت قاعدة حكمه قلعة بني راشد ثم مدينة معسكر، ثم مدينة وهران ما بين 1708-1732م، ثم مدينة مستغانم لمدة خمس سنوات ما بين (1732-1737م)، ليصبح بمدينة معسكر مرة أخرى (1737-1792م)، وأخيرا مدينة وهران بعد تحريرها الثاني والأخير في سنة 1791م، حيث أعيد إليها مقر العاصمة في عام 1792م⁽²⁾.

ويلاحظ أن بايلك الغرب انفرد بظاهرة تعدد عواصمه، وهذا راجع للظروف السياسية والعسكرية التي كان يمر بها، والمتمثلة في الاحتلال الإسباني للمرسى الكبير في سنة 1505م ووهران في سنة 1509م⁽³⁾، وكذلك محاولة التضييق على القبائل المتحالفة معهم ومراقبة تحركاتها، ومنعها من التجسس لحسابهم.

أدخلت معسكر وناحيتها تحت حكم بايلك الغرب، إذ يباشر إدارتها عامل خاص بها وبعد مضي فترة من الزمن اتخذ الأتراك من معسكر كعاصمة لبايك الغرب الجزائري لمدة تقارب القرن من الزمن، وهذا منذ تولي الباي "مصطفى بوشلاغم بن يوسف المسراتي" الحكم بها في عام 1701م^(*)، إلى غاية انتقال مركز البايك إلى وهران في عهد الباي محمد

(1) - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص192.

(2) - بوعزيز يحي: وهران... المرجع السابق، صص74-76. يُنظر كذلك: - جبار صلاح الدين، المختصر في تاريخ النظم، ط2، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، 2007، ص170.

- Caporal. B: **Oran, capitale du beylik de l'ouest 1792-1831**, mémoire de maitre d'histoire, M.M.S.H, France, 1971, p15.

(3) - Marçais. G: **villes et compagnes d'Algérie**, éditions du Tell Blido, 2004, p62. يُنظر كذلك:

- Chaila. H: **Oran histoire d'une ville**, Mitidja impression, Alger, 2002, p34.

(*) - مصطفى بوشلاغم بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي: يُطلق عليه الإسبان اسم "قيطليلوس"، وهو الباي الثامن عشر، تولى بايا على مازونة وتلمسان، فهو أول من جمعت له الإيالة الغربية سنة 1098هـ/1686م، ونقل كرسي المملكة من مازونة وتلمسان إلى القلعة ثم للمعسكر، وجعلها قاعدته، ثم إلى وهران بعد تحريرها الأول، وبعد أن احتلها الإسبان سنة 1732م، لجأ إلى مدينة مستغانم، وبقي هناك حتى وفاته سنة 1146هـ/1734م. لمزيد من المعلومات يُنظر: - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص192، وكذلك: - قنان جمال: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث

الكبير في عام 1206هـ/1792م، ولم يكن هذا الاختيار محض صدفة، بل كان نتيجة تفكير عميق يحمل في طياته هدف أساسي، طالما راود السياسيين والعسكريين في آن واحد، ألا وهو تهديد الوجود الإسباني بمدينة وهران بطريقة مباشرة، مع العلم أنّ هذه المدينة قد تم طرد الإسبان منها مرتين⁽¹⁾، وقد اعتمدوا في ذلك على قبائل المخزن^(**)، بالإضافة إلى مكانتها الإستراتيجية وتوسطها للغرب الجزائري⁽²⁾.

وفي سنة 1700 - 1701م تعرضت معسكر للأطماع المغربية على عهد السلطان "مولاي إسماعيل"^(***)، بعد زحفه نحو وهران، حيث أنها وقعت تحت سيطرة علي بن سليمان

1500 - 1830، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2010، ص 203، وأيضا: - محمد مفلح : أعلام من منطقة غليزان (أعلام التصوف ، شعراء ، الملحون بمنطقة غليزان) الكتاب الثاني، الجزائر، د.ط، دار المعرفة، د.ت، ص 85.

(1) - بوعزيز يحيى: وهران عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1985، ص 76.
(**) - قبائل المخزن: كانت تمثل الجيش الاحتياطي في الجزائر، فقد أسست بناء على النظرية العثمانية، التي اعتبرت الخدمة العسكرية من أهم واجبات المسلم، ووفقا لذلك قسمت الرعية إلى فئتين: فئة تؤدي ذلك الواجب فتحظى بالإعفاء من الضرائب، وتتلقى مرتبات عينية على شكل غلال ومحاصيل زراعية، أو مرتبات نقدية من خزينة الدولة مثل الأوجاق، وفئة ثانية لم تكن تؤدي الواجب المذكور، فيفرض عليها دفع الضرائب، وكانت هذه القبائل عبارة عن حلقة الوصل بين السكان والحكام، فالسياسة العثمانية بالجزائر هي التي أبرزت مهامها، الإدارية والعسكرية، والتي تمثلت أساسا في الحفاظ على الأمن وإجهاض أي تمرد للقبائل المخالفة للحكم العثماني، وجمع الضرائب، وقد أعطيت لها مجموعة من الامتيازات، والتي تتمثل أساسا في:

- إعفائهم من مختلف أعمال الصخرة، المعروفة على قبائل الرعية (خدمة أراضي البايك).

- إعفائهم من الضرائب والاكنتفاء بدفع واجب الزكاة.

- منح فرسان المخزن الخيول والسلاح ودفع مرتبات مؤقتة، مثلما كانت تعرف للجنود الانكشاري.

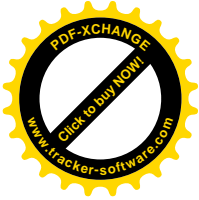
- منحهم اقطاعات زراعية في حالة مشاركتهم في الحملات العسكرية. للمزيد من المعلومات يُنظر:

- هلايلي حنيفي: المرجع السابق، ص ص 85 - 89.

(2) - مهبس مبروك: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009، ص 27.

(***) - مولاي إسماعيل: المظفر بالله إسماعيل بن المولى الشريف، من أعظم سلاطين الدولة العلوية (1082 - 1139هـ/ 1672 - 1727م)، خلف أخوه الرشيد، تعتبر فترة حكمه أطول مدة زمنية عرفها تاريخ الأسر الحاكمة بالمغرب، للمزيد من المعلومات يُنظر: - الزباني أبو القاسم: تحفة الحادي المطرب في رفع شرفاء المغرب، تقديم وتحقيق رشيد الزاوية، د.ط منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 2008، ص 79. وكذلك:

- الناصري أبو العباس أحمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة العلوية)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري محمد الناصري، ج 7، د.ط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص 45.



- وقوع منطقة معسكر وسطا بين تلمسان (*) ومازونة (1).
- العزم على فتح مدينة وهران وتحريرها من الاحتلال الاسباني، وهذا لا يكون إلا باتخاذ مكانا قريبا منها، لتهديدها ومنازلتها (2)، فوجد في معسكر مراده.
- تعتبر معسكر كمحطة تتحكم في المسلك الطبيعي، الذي يشكله وادي الحمّام والذي يربط بين الجهات الساحلية والأقاليم الداخلية، كما أنها تعتبر كمركز مهم على الطريق الرئيسي الرابط بين قلعة بني راشد وتلمسان، مما جعل سوقها يجمع بين بضائع السودان وفاس، ويلتقي فيها تجار غرب البلاد.
- مناعة موقعها، إذ أنها مبنية على منحدرات جبال بني شقران على ارتفاع 600م بمحاذاة وادي تودمان، وهذا ما جعلها في مأمن من الخطر الاسباني، الذي كان يهدد وهران وضواحيها باستمرار (3).
- قربها من وهران بؤرة الصراع والحرب وانفتاح خلفيتها على مناطق مؤيدة لها ومعادية للأسبان بسبب ما اقترفوه في حقها... إلخ.
- تتميز بالثروة الزراعية وبمنتجاتها الصناعية، فسهول غريس كانت تنتج مقادير كبيرة من الحبوب، وتُوفر كميات هائلة من الأصواف والجلود، ونواحي قلعة بني راشد القريبة منها كانت بدورها تصنع الكثير من الأسلحة النارية والصابون والسروج والألجمة، وخاصة البرانيس والزرابي الفاخرة، وبذلك أصبحت معسكر سوقا رئيسية لقبائل بني راشد ومحطّ

(*) - تلمسان: مدينة مشهورة بغرب المغرب الأوسط (الجزائر)، بها أنهار ومزارع، احتلها الرومان وأنشئوا بها معسكرا سموه "بومارية"، ولما جاء الإسلام افتتحها أبو المهاجر دينار المخزومي سنة 55هـ، ومع مرور الوقت علا شأنها وازدهرت الثقافة والعلم بها. اتخذها الزيانيون عاصمة لدولتهم في ق 7هـ، واستولى عليها العثمانيون عام 952هـ، ووقعت في أيدي الاحتلال الفرنسي عام 1836م يُنظر: علي الجزائري: جَنِّي زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، ط3، المطبعة الملكية، الرباط، 1429هـ/2008م، ص 14. وكذلك:

-Robert. G: Voyage a travers l'Algérie «Note et croquis», Editeur E. DENTU, Paris, p261.
(1) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 193.

(2) - الجزائري محمد ابن عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، المطبعة التجارية الاسكندرية، 1903، ص 71. يُنظر كذلك: - جون.ب. وولف: الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 117، وكذلك:

- Rozzet et Carette: Algérie histoire et description, Paris, 1850, p125.
(3) - بن بلة خيرة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، 2007-2008، ص 30.

العشائر الكبرى بالناحية كبني عامر والحشم وهاشم والشراقة وبني شقران⁽¹⁾ على الطريق التجاري الرابط شمال جنوب عبر إقليم بني راشد والونشريس... إلخ
قام الباي في بداية الأمر ببناء محمية عسكرية في منطقة "الكرط"^(*) الواقعة جنوب غربي معسكر بأربع كيلومترات⁽²⁾، والمقبرة المترامية الأطراف التي تغطي التلال المشرفة على "الكرط" تشهد على قِدَم هذه القرية، التي كانت تسمى عند العامة بـ"معسكر القديمة"، ثم حوّل الباي "بوشلاغم" إقامته منها إلى معسكر بعد أن أتم بنائها⁽³⁾، حيث أنه اتخذها كمنطلق لفتح وهران، فتحرك إليها وقدم لحصارها وقتال من بها بجيشه المنصور وجهاز لها "الباشا محمد باكداش" الجنود برا وبحرا، ولازالت جيوش المسلمين تحارب وهران، وتنال منها إلى أن فتحها عنوة وقهرا في صبيحة يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر شوال سنة 1119هـ الموافق لـ 20 جانفي 1708م، ثم انتقل الباي بوشلاغم من معسكر إلى مدينة وهران، حيث جعلها مقرا لحكمه⁽⁴⁾، غير أنّ الاسبان استرجعوها في سنة 1144هـ / 1732م فلم تبق تحت حكمه سوى 24 سنة، وقد قال أبو راس فيها قصيدة نذكر منها البيت الشعري الذي يشير إلى السنة المذكورة سابقا:

من بعد عشر وعشر ثم أربعة عادوا إليها قرّة أعين التعس⁽⁵⁾

(1) - سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص ص 247 - 248.

(*) - الكرط: قرية أسست بجبل كان يحمل هذا الاسم من قبل، ثم عرفت باسم معسكر القديمة، تبعد بحوالي 4 كلم عن مدينة معسكر لمزيد من المعلومات يُنظر: - المشرفي عبد القادر: بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، د.د.ن، د.م، د.س، ص 31.

(2) - ابن عبد القادر مسلم الوهراني: المصدر السابق، ص 31.

(3) - Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André, Mascara le 18 décembre 1852, p1, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

(4) - أبو راس محمد الناصري: الخبر المعرب... المصدر السابق، ورقة 129، وكذلك:

- ابن ميمون محمد الجزائري: المصدر السابق، ص 30.

(5) - أبو راس محمد الناصري: عجائب الأسفار...، ج 1، المصدر السابق، ص 47.

وعلى إثر هذه الحادثة، أعاد البايع بوشلاغم مركز البايلك إلى مستغانم، والتي توفي بها عام 1737م دون أن يحقق أمنيته في تحرير وهران نهائياً، رغم أنه كان يُضيق عليها الخناق بصفة عنيفة⁽¹⁾.

بعد هذه الفترة عاد مقر البايلك إلى مدينة معسكر، حيث تولى تسعة بايات الحكم حسب ما ذكره "الآغا بن عودة المزابي" في قوله: "... وهؤلاء البايات التسع كلهم كانت لهم دار ملكهم المعسكر، وكلهم كان لهم اعتناء شديد بالجهاد..." وهم على النحو الآتي: البايع يوسف المسراتي (1146- 1147/1734-1735م)، ثم البايع مصطفى الأحمر المسراتي (1147- 1147/1734-1735م)، وبعده البايع محمد أبو طالب المجاجي المسراتي (1147- 1155/1735-1742م)، ويلييه البايع مصطفى قائد الذهب المسراتي (1155- 1160/1742-1747م)، الحاج عثمان باي (1160- 1170/1747-1756م) الذي أنشأ بالمدينة عدة منشآت من أبرزها الجامع الكبير، وبعده البايع حسن (1170/1756- 1757م)، ثم يأتي البايع إبراهيم الملياني (1170- 1185/1757-1771م)، وهو الذي بنى برج العسكر أو الفندق في المدينة، كما أنه كان محبا للعلم وراغبا في الصالحين لنيل الفضل والكرم، وخلفه البايع الحاج خليل (1185- 1192/1772-1778م)، عُرف عنه بغضه للعلماء والأولياء وغيرهم من أهل النفع، ثم البايع محمد بن عثمان الكبير (1192- 1213/1778-1799م)⁽²⁾.

انصب اهتمام جل البايات المذكورين أنفا على تشييد وبناء مدينة معسكر، ولكن ينفرد البايع "محمد بن عثمان" عنهم بمجهودات جبارة في إعمار المدينة بمختلف المباني وإصلاح وتوسيع ما وجده فيها⁽³⁾، حيث أنه شرع فور توليته في إثبات قدرته على تسيير بايلك الغرب، وسعى إلى التجاوب مع النهضة التي أخذت تحياها إيالة الجزائر، في مختلف مقاطعاتها الإدارية، ورأى أنه لا يتسنى له ذلك إلا بقوة ديوانه وإدارته وجهازه القضائي والعسكري، ومن ثمة راح ينظم ديوانه مستعينا بمقربيه ممن تتوفر فيهم الكفاءة والتقوى في

(1) - المدني أحمد توفيق: المرجع السابق، ص 523.

(2) - المزابي الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، من ص 283 إلى ص 290. يُنظر كذلك:

- الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، من ص 194 إلى ص 204.

(3) - ابن عبد القادر مسلم الوهراني: المصدر السابق، ص 32.

كما نظم أبي راس الناصري منظومة سماها "السينية في التاريخ" عند فتح وهران ذكر فيها تاريخ دخولها مطلعها:

في خامس الفرد ضحى يوم اثنينه
سنة ستّ تم الحمد لخالقنا
وقال أيضا:

طيب الرياح على كل الآفاق جوسى
بالمغرب الأقصى وأقاصي مشرقنا
طوامى الأبحر وأهل جزائرها
وبشر إليكم من الجن والإنس
والجو والضرو والأشجار والودس
بفتح وهران دار الشرك والومس⁽²⁾

وعلى إثر هذا الفتح المبين، انتقل الباي إليها من معسكر بأهله وأعيان حكومته⁽³⁾ وبذلك أصبحت مقرا لبابك الغرب، وبقيت معسكر مجرد مدينة كغيرها من مدن البابك، بها ما يفوق 100 جندي لا غير، حيث أثر ذلك تأثيرا مباشرا على نشاطها مع مرور الزمن فتراجعت مكانتها في أواخر العهد العثماني، وفقدت شهرتها العلمية ومنزلتها الثقافية والحضارية، فانكمش عمرانها وتناقص سكانها وهجرها الطلبة والعلماء، لعدة عوامل أهمها: انتشار الأوبئة وتفشيها، التي قضت على كثير من سكانها، حتى أصبح عددهم عشية الاحتلال لا يتعدى ألفي نسمة⁽⁴⁾. وعلى ضوء ما سبق نستنتج أن مدينة معسكر، رغم أنها كانت لفترة طويلة عاصمة لبابك الغرب، إلا أنها ظلت كعاصمة مؤقتة ومدينة داخلية اتخذت كمنطلق للهجوم على وهران ومرساها، لتحريرها من الغزو الاسباني.

(1) - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ص266.

(2) - بن بكار بلهاشمي: كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ-1961م، ص13.

(3) - الجزائري محمد ابن عبد القادر: المصدر السابق، ص74.

(4) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص252.

وفيما بين (1802-1827م) شهد بايلك الغرب عامة، ومنطقة معسكر بصفة خاصة سلسلة من الثورات، قادها شيوخ الطائفة الدرقاوية (*) والتيجانية (**). التي تأسست في المغرب ولاقت كل الدعم من طرف السلطان المغربي- ضد الباي، الذي خاض ضدهم معارك ضارية، كان من أشهرها تلك التي قامت بها الطائفة الأولى والمسماة بمعركة "فرطاسة" (*) في سنة 1805م⁽¹⁾، وقد انتصر في - هذه المعركة- "عبد القادر بن الشريف الدرقاوي" وأنصاره انتصارا عظيما، فقتل عدد كبير من جنود الباي مصطفى (**). وقد قدم لنا الزباني وصفا لهذه المعركة في قوله: "...فسمع به الباي مصطفى فجهز له جيشا عظيما وقصده به، فابن الشريف هابط للباي وهو صاعد له إلى أن تلاقيا بفرطاسة بين وادي مينا ووادي العبد، وشعلت نار الحرب بينهما وحمي الوطيس، فانهمز الباي بجيشه وأخذ ابن

(*) - **الدرقاوية**: طريقة صوفية مغربية متفرعة عن الشاذلية وأول من دعا إلى مذهب الدرقاوية هو الشريف إدريس من جماعة العمرانيين، الذين استوطنوا في الشمال الغربي من مدينة فاس ويدعى علي بن عبد الرحمن الجمل أو الجمال، الذي كان أحد الفقهاء البارزين، درس التصوف على يد أبي عبد الله حبوس، توفي سنة 1194هـ. ورغم أن الغربي الدرقاوي كان مؤسس الطريقة ومنظمها، إلا أنها تنسب لأحد أسلافه وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف الملقب بأبي درقة، لذلك قيل "درقاوي" و "درقة" تعني الترس من الجلود. لمزيد من المعلومات يُنظر: - بونقاب مختار: تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2001-2002، ص 37، وكذلك:

- التليدي عبد الله بن عبد القادر: **المطرب بمشاهير أولياء المغرب**، ط3، دار الأمان، الرباط، 2000، ص 207.
(**) - **التجانية**: تنسب إلى أحمد بن محمد التجاني الذي ولد عام 1150هـ/1737م، بعين ماضي - ولاية الأغواط- بالجزائر، ونشأت هذه الطريقة بعدما سافر إلى مدينة فاس في سنة 1213هـ/1798م التي أسس بها زاويته، واتخذها مقر إقامته بصفة نهائية هناك سنة 1230هـ/1815م، وبهذه المدينة انخرط بها الكثير من المريدين من مختلف الشرائح الاجتماعية من علماء وفقهاء ووزراء وعامة الناس، ومن مدينة فاس انطلق إشعاع الطريقة ليعم باقي أنحاء المغرب من أقصاه إلى أقصاه، لمزيد من المعلومات يُنظر: - الأزمي أحمد: **الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19**، بحث لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، ج1، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس، 1999-2000، من ص 13 إلى ص 30.

(*) - هو مكان بين واد مينة وواد العبد جنوب مدينة غليزان، وهو ما يعرف حاليا بوادي الأبطال. لمزيد من المعلومات يُنظر: - الزباني محمد بن يوسف: **المصدر السابق**، ص 208. وكذلك: بونقاب مختار: « إنتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري: 1802-1816م »، مجلة **المواقف**، العدد الثالث ديسمبر 2008م، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطبولي، معسكر، الجزائر، من ص 135 إلى ص 142.

(1)- Caporal. B: **Op.cit**, p50.

(**) - هو الباي مصطفى بن عبد الله العجمي، رابع بايات بايلك الغرب، تولى سنة 1216هـ وعزل في سنة 1220هـ يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني، **المصدر السابق**، ص 14. وكذلك:
- الزباني محمد بن يوسف: **المصدر السابق**، ص 207.

الشريف بجيشه أءبارهم يقتلون ويؤسرون ويسبون إلى قرب المعسكر، وبقيت محلة الباي بما فيها غنيمة للدرقاوي... وكان ذلك يوم الأحد ثالث ربيع الأول سنة 1219هـ⁽¹⁾ ولعل ما أءزن الباي هو مقتل كاتباه: الحاج أحمد بن هطال التلمساني وأبو عبد الله محمد الغزلاوي وفي نفس المعركة يقول حسن خوجة التركي في تأليفه "در الأعيان":

فرطاسة يومها ترى الجنود به
فالباي جاء بجيش لا نفاذ له
فلم يحقق له سعي ولا أمل
اليوم لابن الشريف عزّ فيه على
ما بين قتلى وأسرى غير ناجينا
به يريد لقا العدو باغينا
بل جاء جنده صفر الكف باكينا
باي الأعجم لولا الدين لا ديننا⁽²⁾

كما قدم لنا كل من المؤرخين "مسلم بن عبد القادر" و "الزياني" عبارات تصف مدى الفاجعة، التي حلت بالباي، على إثر هذه الهزيمة القاسية التي تلقاها على يد الدرقاويين وذلك في قوله: "أمسى الباي ومخزنه في نكد، وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رعد، ودخل الباي للمعسكر على غير الحالة المعهودة وعساكره خلفه مطرودة..."⁽³⁾. وعلى إثر هذه الهزيمة المدوية، فرّ الباي مصطفى وأتباعه إلى مدينة معسكر، ثم خرج بعد ذلك إلى مدينة وهران، حيث أنه أمر بغلاق أبواب المدينة خلفه، وهذا ما أدى إلى نتائج وخيمة، كان من بينها سيطرة ابن الشريف على مدينة معسكر، الذي اتخذها مقراً لإقامته.⁽⁴⁾ وفي هذا الصدد يقول الزياني "... ثم دخل المعسكر وأطاعوه، محبة أو كرها بايعوه، فصيرها دار سكناه وجمع بها أهله وولده وخاصته، واتخذها محل مثواه"⁽⁵⁾، كما نادى في الناس يستتفرهم للجهاد ومبايعته للوقوف في وجه الظالمين الأتراك، عارضاً عليهم إسقاط الضرائب وغيرها التي كانت تفرض عليهم، وذلك في قوله: "أنا نرعت عنكم ما كنتم به من أداء الجزية، التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الترك وأتباعهم، فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا"⁽⁶⁾.

(1) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص ص 208 - 209.

(2) - ابن هطال أحمد التلمساني، المصدر السابق، ص 14.

(3) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 209.

(4) - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص 73. يُنظر كذلك:

- بونقاب مختار: المرجع السابق، ص ص 138 - 140.

(5) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 209.

(6) - خوجة حمدان: المصدر السابق، ص 139.

التركية، حيث أمر الباي "حسن" بإلقاء القبض عليهما وإبعادهما، ولهذه الأسباب وغيرها لم يعترف الأمير عبد القادر بشرعية الحكم التركي على الجزائر، خاصة وأنه ينتسب إلى الطريقة القادرية، وينحدر من أسرة يرتفع نسبها إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.⁽¹⁾ وعلى ضوء الأحداث المذكورة سابقا، يمكن القول أن العلاقة بين السلطة التركية الممثلة في الباي، والرعية الممثلة من طرف شيوخ الزوايا، قد عرفت توترا كبيرا، وإن ما كان سابقا من تواصل مرتبط بعدة أسباب، وهي على النحو الآتي:

- 1- الجهاد ضد التواجد الإسباني على السواحل خاصة بوهران، كان يمثل الورقة التي دعمت التحالف بين العثمانيين والعلماء، رغم السياسة الضريبية الثقيلة المفروضة على الأهالي⁽²⁾، وسياسة الحكام وعلاقتهم السطحية بالرعية، المبنية على إبعادهم وتهميشهم من المناصب الهامة والعليا في الحكم، إلا أن الجزائريين تحملوا هذا العبء لبقاء وهران في يد الإسبان، لكن بمجرد استرجاعها، لم يجد العلماء داع لهذا التحالف مع العثمانيين المستغلين للأهالي، لذا وبعد انتهاء الجهاد ضد الإسبان، استعدوا للجهاد ضد السلطة الظالمة.⁽³⁾
- 2- سياسة العثمانيين مع القوى والزعامات المحلية، وذلك باستمالة العناصر الدينية لمساعدتهم على بسط نفوذهم، عن طريق تقريبهم، ومنحهم الهدايا، وإعفائهم من الضرائب بل وصل الأمر إلى تخصيص نصيب من تلك الغنائم إلى الزعامات الدينية⁽⁴⁾.
- 3- إن العثمانيين فشلوا في وضع سياسة تمكنهم من الصمود أمام التحولات الاجتماعية المحتملة، لهذا فافتقارهم لهذه السياسة قلب عليهم الموازين بصورة فجائية، تحول معها موقف العلماء من موقف المؤيدين لهم للمحرضين ضدهم، خاصة بعد الحملات الجبائية التي أثقلت كاهل الرعية، ومست شتى المتعاملين مع السلطة كالمرابطين والطرق الصوفية الذين لم يستطيعوا تجاهل شكاوي الأهالي، ضد تعسف الحكام، خاصة وأنهم هم الممثلين للأهالي

(1) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص 57.

(2) - لمزيد من المعلومات يُنظر: دحماني توفيق: النظام الضريبي في بابلك الغرب في أواخر العهد العثماني (1779-1830)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2004.

(3) - شجري معمر رشيدة، العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، فترة الدايات 1671-1830م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005، ص 198.

(4) - دحماني توفيق: دراسة في عهد الأمان، القانون الأساسي السياسي والعسكري للجزائر، وثائق تنشر لأول مرة، الدار العثمانية للنشر، الجزائر، ص 19.

4- حملت هذه الثورات شعارات دينية، وقد جاءت كرد فعل على إخلال العثمانيين بالمبادئ الدينية، التي تقتضي المساواة لا التمييز، الذي فرضه العثمانيون، فهذه الثورات كانت بمثابة ردود أفعال لتصرفات السلطة الجائرة، التي أثقلت كاهل السكان بالضرائب وبالتالي كانت تعبيرا لغضب الرعية عن الظروف الاجتماعية، التي كانت تعاني منها لا ضد السلطة بحد ذاتها.

5- لقد اتسمت هذه الثورات بنوع من التنظيم والانتشار الواسع، وهذا راجع إلى كون زعمائها كان لهم النفوذ الروحي والمادي في أوساط الرعية، وهو ما أدى إلى سرعة انتشارها في الأوساط الشعبية.

6- كانت هذه الثورات مدعومة من طرف قوى خارجية، ذات المصالح بالجزائر، فتونس أراد حاكمها إبعاد أنظار العثمانيين، وعدم تدخلهم في شؤونها الخاصة، أما المغاربة وبحكم نسبهم الشريف، كانوا يعتقدون أنهم أولى بالحكم من العثمانيين، لهذا اتخذوا الطرق الدينية كمنفذ لكسر الأطماع التوسعية للأتراك في المغرب، ومحاولة فرض حكمهم على الجزائر. أما الدول الأوروبية فقد كانت لها أغراض سياسية، لذا فبإثارتها الفتن كان بإمكانها الوصول إلى مساعيها.

7- ساهمت هذه الثورات في إحداث القطيعة النهائية بين السلطة والعلماء، فسقطت معها مكانة العثمانيين في نظر العامة، باعتبار القائمين عليها هم ممثلهم من فقهاء شيوخ طرق مرابطين، وهو ما أضعف نفوذهم خاصة بالأرياف، فأدى إلى ظهور حركات تمرد واسعة بين القبائل برفضها دفع الضرائب، مما اضطر السلطة إلى اتخاذ إجراءات تعسفية حتى ضد الموالين لها كالقادرية.

8- خلفت هذه الثورات أضرارا اقتصادية كبيرة، كما صادف هذا الواقع حدوث كوارث طبيعية، زادت من سوء الأوضاع المعيشية للسكان، كحدوث الجفاف بالشرق الجزائري، الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة، حتى وصل سعر القمح إلى عشرة ريالات للصاع

(1) - شكري معمر رشيدة: المرجع السابق، ص 198.

والشعير بثمانية ريات للصاع، وقد عبرت الأشعار الشعبية عن هذه الحالة المتردية، التي أعقبت ثورة ابن الأحرش.⁽¹⁾

لقد أثرت هذه الفوضى التي حدثت بين السلطة التركية وشيوخ الزوايا على الاستقرار في المنطقة، وقد تطور الأمر إلى استخدام سياسة التعسف والانتقام، ولعل أصدق مثال على ذلك هي الأحداث التي جرت في عهد الباي "حسن بن موسى"^(*) آخر بايات بايلك الغرب فأهم ما ميّز سياسته هو العداء الشديد الذي ناصبه للعلماء ورجال الدين⁽²⁾، إذ يخبرنا "الزياني" أنه في عهده ساد العبث والظلم والاعتداء، لاسيما على العلماء وذلك في قوله: "...كثّر عبث هذا الباي وظلمه وتعديه واجترأه على العلماء والأولياء، فأكثر من سفك الدماء في العباد"⁽³⁾.

لقد تزامنت هذه الأحداث الداخلية في الجزائر مع متغيرات دولية خطيرة، منها بداية التآمر الأوربي على الجزائر، حيث نتج عنه احتلال فرنسا للجزائر العاصمة، والذي كان له تأثير كبير على بايلك الغرب، ففي 08 مارس 1831م عين الأمير عبد الرحمن المغربي محي الدين والد الأمير عبدالقادر خليفة على تلمسان، لإزالة الخلاف بين الحضر والkraغلة وكلفه السلطان بإرسال الحاج المعطي إلى المدينة ومحمد الشرقي إلى مليانة، لإدارة هاتين المدينتين ووضعهما تحت السلطة المغربية، ودام هذا الوضع إلى غاية ديسمبر 1831م، رغم معارضة الإدارة الفرنسية، وخلاصة القول أن سلطان المغرب تحكم في جزء من الجزائر عاماً وشهريين ومن هذا الجزء معسكر⁽⁴⁾.

(1) - شكري معمر رشيدة: المرجع السابق، ص ص 199 - 200 .

(*) - تولى إدارة بايلك الغرب في عام 1232 هـ الموافق لـ 1817م، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ص 347.

(2) - غطاس عائشة: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 225.

(3) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 239.

(4) - حمت إسماعيل: الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم علي تابلت، ترجمة وتصدير زكي مبارك - محمد لخوجة ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2010، ص ص 32 - 33. يُنظر كذلك:

- محمد الحاج صادق: المرجع السابق، ص 36.

وفي 03 رجب 1248هـ الموافق لـ 24 نوفمبر 1832م بويق الأمير عبد القادر (*) في مدينة معسكر كسلطان على الجزائر في جامع الباي محمد الكبير⁽¹⁾، وتزعّم المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، ولعوامل إستراتيجية اتخذ من مدينة معسكر عاصمة لإمارته ومقرا لقيادته العسكرية⁽²⁾، ومن هذا المعلم الديني تطلع الأمير إلى بناء دولة حديثة، تقف في وجه الغطرسة الفرنسية، وجمع شمل كل الأهالي تحت حكم سلطة واحدة، حيث أنه تمكن في وقت وجيز من تضيق الخناق على الاحتلال الفرنسي، حتى أجبر الجنرال دي ميشال (Des Michels)⁽³⁾ على عقد صلح يوم 1834/02/26م، سمي بمعاهدة دي ميشال⁽⁴⁾، وبموجب تلك المعاهدة استطاع الأمير أن يوسع دائرة نفوذه بالاستيلاء على مليانة والمدينة، في شهر ذي الحجة 1250هـ الموافق لـ أبريل 1835م⁽⁵⁾.

- (*)- الأمير عبد القادر: ابن الشيخ محي الدين بن مصطفى ولد سنة 1222هـ/1807م، بقرية القيطننة غرب مدينة معسكر، درس على والده ولما تقفه في العلوم الشرعية واللغوية شدّ الرحال إلى مدن وبلدان أخرى لتحصيل العلم، ثم عاد إلى القيطننة في سنة 1828م وأخذ يواصل دراسته في المعهد إلى أن احتل الفرنسيون مدينة وهران سنة 1831م، فتجنّد مع والده للجهاد وخاض معه المعارك الأولى للجهاد ضد الجيش الفرنسي، وفي 27 نوفمبر 1832م بايعه أهل المنطقة بسهل غريس أميراً للجهاد، ودامت فترة جهاده 17 عاما شهدت أحداثا جساما وبطولات وانتصارات وانتكاسات، وتوفي الأمير يوم 24 ماي 1883م. لمزيد من المعلومات يُنظر: بوعزيز يحي: **موضوعات وقضايا... المرجع السابق**، ص ص154-159.
- (1)- الجزائري محمد ابن عبد القادر: **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر...**، المصدر السابق، ص159.
- (2)- الجزائري محمد بن عبد القادر: **تحفة الزائر في مآثر...**، المصدر السابق، ص101.
- (3)- **دي ميشال**: جنرال فرنسي (1779-1845) عين كحاكم لمقاطعة وهران سنة 1833. لمزيد من المعلومات حول شخصيته ومراسلاته مع الأمير عبد القادر يُنظر: زوزو عبد الحميد: **مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشال ووثائق خاصة بتاريخ الجزائر في عهد الأمير**، ط4، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص ص7-9.
- (4)- الحاج مصطفى ابن التهامي: **سيرة الأمير عبد القادر وجهاده**، تحقيق وتقديم يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي 1995، ص107. يُنظر كذلك: - محمد ابن عبد القادر الجزائري: **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر...**، المصدر السابق ص183، - إسماعيل العربي: **الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسس دولة وقائد جيش**، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية 1984، ص104.
- محفوظ قداش: **الأمير عبد القادر**، فن وثقافة، وزارة الإعلام، الجزائر، 1982، ص20.
- (5)- كارل بيرنت يوهان: **الأمير عبد القادر**، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ط2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 1996، ص75.

وفي 06 ديسمبر 1835م دخل الماريشال "كلوزال" إلى مدينة معسكر⁽¹⁾ بجيش قوامه 10000 مقاتل، فوجدها خالية على عروشها، ولم يبق من سكانها سوى جمع من اليهود البؤساء، وفي السابع من الشهر اشتعلت النيران في أجزاء مختلفة من المدينة، لكنها سرعان ما انطفأت، وخرج "كلوزال" بجيشه في اليوم الثامن من الشهر، بعدما حطم أسوارها وحصونها وخرّب مؤسساتها العسكرية، ودمر حي "باب علي" تدميرا شبه كامل.⁽²⁾

وفي يوم 24 صفر 1253هـ/30 ماي 1837م، عقد الجنرال "بيجو" معاهدة مع الأمير عرفت باتفاقية "تافنة"⁽³⁾، حيث شرع الأمير في إقامة دعائم حكمه فقسم البلاد إلى عدة ولايات، لكن هذه الهدنة لم تستمر طويلا وكان مصيرها الفشل، إذ نقضها الفرنسيون وعادوا إلى سياستهم الإجرامية، وقد كانت مدينة معسكر مسرحا لإغارة السفاحين "بيجو" و "تامبور"، الذين أسقطا المدينة بصفة نهائية سنة 1841م⁽⁴⁾، وبذلك انتهت السيادة لمعسكر وشرّد أهلها وخرّب عمرانها، ودنست مساجدها وطمست⁽⁵⁾، واهتم بها الفرنسيون بعد ذلك فاستوطنوها واستولوا على مزارعها وبساتينها من سكانها وطردوهم من أراضيهم في سهل غريس إلى الجبال والمرتفعات، وتحولت إلى مركز استعماري يسكنه ألف نسمة من أصل أوروبي.⁽⁶⁾

(1)- Bellemare A: **Première expédition de Mascara**, extrait de l'ouvrage - **Abdelkader, sa vie politique et militaire**, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France. يُنظر كذلك:

- **Rapport d'ensemble sur la colonisation... Op.cit**, p1.

(2) - هنري شرشل: المصدر السابق، ص101، يُنظر كذلك: - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص58.

- **Observations du Général Clauzel sur quelques actes de son commandement a Alger**, imprimerie de Henri Dupuy, Paris, 1831, pp 147-161.

(3) - محفوظ قداش: المرجع السابق، ص33، يُنظر كذلك: - حسين مؤنس: المرجع السابق، ص385.

(4) - Destre. H : **Les conquérants de l'Algérie (1830- 1857)**, éditions Berger levrault, Paris, 1930, p103.

(5) - مهيّرس مبروك: المرجع السابق، ص27.

(6) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص58.

استطعنا من خلال تتبع التاريخ الكرونولوجي للمدينة والمنطقة التي تنتمي إليها معرفة تطورها التاريخي، فمنطقة معسكر عرفت الاستقرار البشري منذ فترة ما قبل التاريخ، ثم تواصل ذلك خلال الفترات التاريخية، ومن خلال استقراء أحداثها توصلنا إلى أن تأسيس المدينة كان لعامل عسكري فرضته الظروف السائدة خلال السيطرة الرومانية على المنطقة وبعد ذلك دخلت المدينة في طي النسيان ولم تقم لها قائمة إلى غاية الفترة الإسلامية، حيث استرجعت مكانتها خلال الفترة الزيانية، لكن بنظرة عسكرية للتحكم في القبائل المناهضة لحكمهم، وبعد ذلك تطورت تلك القلعة العسكرية إلى عاصمة لبايك الغرب في العهد العثماني، حيث وقع عليها الاختيار لظروف سياسية وعسكرية واقتصادية كان يعيشها البايك مرتبطة أساسا بالاحتلال الإسباني لبعض المدن وكذلك تمرد بعض القبائل على الحكم العثماني، وبعد هذه الفترة سقطت المدينة تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي، وعلى ضوء ما سبق هل تأثرت المدينة بهذه الأحداث وما مدى تأثير ذلك في تطور عمرانها وعمارتها؟

إذا كان التاريخ الكرونولوجي لمدينة معسكر واضحا نسبيا منذ تأسيسها، فإن المعرفة بمجالها العمراني تظل إلى حد الآن محدودة، نظرا إلى كون المصادر والأبحاث المعاصرة اهتمت أساسا بالأحداث السياسية التي شكلت تاريخ المدينة والمنطقة وبمؤهلاتها الاقتصادية خاصة منها الجانب الزراعي، بينما أهملت تنظيمها ونسيجها العمراني إلا بعض الإشارات القليلة التي لا تفي بالغرض. وعليه كيف كان النسيج العمراني لمدينة معسكر، وما هي مراحلها؟

1- مفهوم العمران الإسلامي:

العمران في المفهوم الخلدوني كلمة عامة وشاملة، مضمونها واسع ومناحيها مختلفة ومتنوعة، وهي تشمل في محتواها جميع النشاطات البشرية وحركية المجتمعات، المؤدية حتما إلى النمو الحضاري المحصّل للترف وكثرة النعم. أما العمران في مفهومنا الأثري فالمقصود به هو تلك الصورة المادية التخطيطية للمدينة ونسيجها المعماري المشكل لكيانها وهي الصورة المادية للعمران البشري، فيها تتجمع قوته الفكرية والروحية والمادية والإبداعية ومنها تتوزع إلى ما دونها حضارة وترفا وفكرا⁽¹⁾.

إن الحديث عن عمران المدن الإسلامية بمفهومه الواسع، يوجب علينا إعطاء نظرة تعريفية للمدينة⁽²⁾، إذ أنها تعتبر كبنية معمارية تخضع لعوامل جغرافية في علاقاتها بالمحيط، من ناحية المناخ وطبيعة الأرض⁽³⁾، وعوامل اقتصادية بحكم انتمائها لنمط إنتاج وعوامل اجتماعية نتيجة موضعها في النظام الاجتماعي، الذي تختص به التشكيلة الاجتماعية المحتوية لها، وارتباط هذه العوامل المختلفة يكتسب معنى يولد وحدة حضارية

(1) - لعرج عبد العزيز: « تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية»، مجلة الوعي، العدد المزدوج 3-4، جمادى الأولى والثانية 1432 الموافق لـ أبريل وماي 2011، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ص25.

(2) - لمزيد من المعلومات حول تعريف المدينة يُنظر: - عبد الأحد السبتي، حليلة فرحان: المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص ص7-8.

(3) - مخلوطة رلى نبيه: علم العمران والتربية والتعليم عند ابن خلدون، رسالة ماجستير في الآداب، الجامعة الأمريكية ببيروت، لبنان، 1998، ص21. يُنظر كذلك:

- Saidouni. M: **Eléments d'introduction à l'urbanisme, histoire, méthodologie, réglementation**, édition Casbah, Alger, 2000, p12.

لها خصوصيتها، تتحقق في الثقافة العمرانية المتجسمة في تكييف المحيط العمراني، وفي طبيعة عملية الإنتاج⁽¹⁾.

والثقافة العمرانية إنما هي ارتباط الوظائف العمرانية في المدينة، بنظام الرموز والقيم المتولدة في التجربة الحضارية الجامعية، والمدينة العربية تحقق فيها التوازن بين هاته العناصر المختلفة، التي تستمد معنى التحامها من الإسلام كحضارة وأسلوب عيش ونمط إنتاج وبنية اجتماعية، وذلك لا يعني أن بنية المدينة العربية ثابتة لم تتغير عبر التاريخ، إذ أنّ السياقات المختلفة المندرجة فيها كانت تؤثر في نموها⁽²⁾.

أما عن نشأة المدن الإسلامية الأولى، التي تعتبر بمثابة النموذج الأول، الذي سيحتذى به في تأسيسها فيما بعد، لم يكن اعتباطا بل كان يجري تأسيسها حسب تخطيط مسبق⁽³⁾، ويخضع في معظمه لتصور فكري وفلسفي، يمتزج بروح العقيدة الإسلامية والموروث الحضاري الإنساني القديم، ويرتبط بضوابط محددة وشروط معينة، ومعايير ثابتة وقوانين مرعية، تحقيقا لضرورات الحياة والاكتفاء، ماديا وروحيا وفكريا، وتوفيرا للأمن والراحة، وهي الضرورات والمعايير التي أوردتها كتب الفكر العمراني، والتي ذكرناها سابقا.

لقد اشتهرت الدولة الإسلامية بعدد من المدن، فاق عمرانها عواصم الدول الأخرى المعاصرة لها، ونخص بالذكر مدن البصرة والكوفة والموصل والفسطاط وواسط وبغداد وسامرا والقاهرة بالمشرق، ومدينة القيروان وفاس ومراكش وتلمسان والرباط والزهاء وقرطبة بالمغرب والأندلس، وما إليها من المدن التي كانت تتمتع بشهرة واسعة في عصر الدولة الإسلامية⁽⁴⁾.

كان لبعض هذه المدن طابع عسكري مثل البصرة والكوفة والموصل والفسطاط والقيروان، وبعضها لها الطابع الإداري كواسط، وبعض منها له الصفة السياسية كبغداد

(1) - بوكراع رضا: « العوامل الاقتصادية والثقافية المحددة لنمو المدينة العربية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية 1402هـ/1982م، ص38.

(2) - بوكراع رضا: المرجع السابق، ص38.

(3) - الموسوي مصطفى عباس: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، دار الرشيد للنشر، العراق 1982، ص17.

(4) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص69.

وسامرا والقاهرة وفاس والزهاء ومراكش وتلمسان، والبعض الآخر له الصفة الدينية كالنجف وكربلاء، فازدهرت هذه المدن في ظل الحضارة الإسلامية، ووصلت سمعتها وشهرتها الحضارية إلى أبعد مما وصلت إليه المدن الحديثة، وصارت مضرب الأمثال في مظاهرها العمرانية وأنماطها الاجتماعية ونشاطاتها الثقافية والفنية⁽¹⁾. وانتشرت مميزات وخصائصها التخطيطية من إقليم إلى إقليم، ومن منطقة إلى منطقة، فأصبحت للمدينة الإسلامية شروط وقواعد في بناء خَطِّها، أو نسيجها العمراني، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بتعاليم الدين الإسلامي، الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم.

فعلى هذا الأساس، يقوم النسيج العمراني في بلد من البلدان وفق التقاليد الحضارية السائدة في ذلك البلد، والتي غالبا ما تكون صادقة إلى أبعد الحدود، كما أنها لا تكون إلا من خلال تفاعلات كثيرة، أهمها العوامل المشتركة في الحياة الاجتماعية والاستجابة للشروط الحضارية، التي يسير عليها المجتمع⁽²⁾ وفقا للتقاليد والنظم المتفق عليها في العمارة الإسلامية، سواء كان ذلك في الحواضر والأمصار الكبرى، أو في المدن الصغيرة ذات النسيج العمراني الجديد.

لفهم تخطيط المدن يجب معرفة التكوينات العمرانية، التي تشمل تلك العناصر الأساسية التي تحدد معالم المدينة والتي يخطط منها وإليها، فهي بمثابة الوحدات التكوينية للهيكل العمراني⁽³⁾، إذ يجب على المرء أن يسمي منشآتها الرئيسية، من حيث تكوينها وشكلها الخارجي، وبوجه خاص مواقع عناصرها الأساسية، كالجامع ودار الإمارة والقصر والسوق وأحياء السكنى⁽⁴⁾.

وضع **الماوردي** شروطا تحمل في مضمونها إرشادات وتوجيهات للقائم على هندسة المدن، وذلك في قوله: "... ثم على منشئ المصر في حقوق ساكنيه ثمانية شروط، أحدهما: أن يسوق إليه ماء السارية إن بعدت أطرافه، إما في أنهار جارية، أو حياض سائلة، ليسهل

(1) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص 17.

(2) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 69 وص 234.

(3) - سراج الدين إسماعيل: « المدينة العربية وتراثها الحضاري الإسلامي بين المكونات المادية والمقومات المعنوية » أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م، ص 38.

(4) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص 219.

الوقوف إليه من غير تعسف، والثاني: تقدير طرقه وشوارعه حتى تتناسب ولا تضيق بأهلها فيستضر المار بها، والثالث: أن يبني جامعا للصلوات في وسطه ليقرب على جميع أهله ويعم شوارعه بمساجده، والرابع: أن يقدر أسواقه بحسب كفايته، وفي مواضع حاجته والخامس: أن يميز خطط أهله، وقبائل ساكنيه، ولا يجمع بين أزداده متنافرين، ولا بين أجناس مختلفين، والسادس: إن أراد الملك أن يستوطنه سكن منه في أفسح أطرافه، وأطاف به جميع خواصه، ومن يكفيه من أمر أجداده، وفرق باقيهم في بقية أطرافه، ليكفوه من جميع جهاته، وخص أهله بالعدل، وجعل لوسطه لعوام أهله، ليكونوا مكنوفين بهم، وليقل ركوبه فيهم حتى لا يلين في أعينهم، والسابع: أن يحوطهم بسور إن تاخموا عدوا، أو خافوا اغتيا لا حتى لا يدخل عليهم إلا من أرادوه ولا يخرج عنهم إلا من عرفوه، لأنه دار لساكنيه، وجرر لمستوطنيه، والثامن: أن ينقل إليه من أعمال أهل العلوم والصنائع، ما يحتاج أهله إليه حتى يكتفوا به، ويستغنوا عن غيرهم. فإذا قام منشئه بهذه الشروط الثمانية فيه، فقد أدى حق مستوطنيه ولم يبق لهم إلا عليه إلا أن يسير فيهم بالسيرة الحسنى، ويأخذهم بالطريقة المثلى، وقد صار من أكمل الأمصار وطنا وأعدلها مسكنا"⁽¹⁾.

2- عوامل تطور عمران مدينة معسكر:

2-1- العامل الجغرافي:

إن تأثير البيئة على المدينة يستمد من علاقة الإنسان بالأرض وتكويناتها بالإضافة إلى المناخ وخصائصه، ويقترح جغرافيو المدن مصطلحين، يرون أنه تكمن فيهما الدوافع التي تسهم في ظهور المدن وتطورها، هما الموقع والموضع، فالموقع يعنى بدراسة علاقة المدينة بالوسط المحيط بها، وما يربطها بالأقاليم المجاورة، وبما وراء هذه الأقاليم من طرق ومواصلات، أما الموضع فهو ما يتميز به المكان الذي تقوم عليه المدينة، وهو تتميز يعنى بالصفات والخصائص الطبيعية، كتلك التي توفر للمدينة نوعا من الحماية تساعد في الدفاع عنها"⁽²⁾.

(1)- الماوردي: المصدر السابق، ص ص 209 - 213.

(2)- الحارثي عدنان محمد فايز: عمران القاهرة وخطتها في عهد صلاح الدين الأيوبي 564-589هـ / 1168-

1119م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999، ص49.

وتؤكد المصادر وجود عوامل بيئية ومناخية أثرت في اختيار المسلمين الأوائل لمواقع مدنها، إذ لم تكن الاعتبارات الأمنية أو الإدارية وحتى الاقتصادية، وحدها ذات الأولوية في ذلك الاختيار، وقد انعكست هذه الرؤيا على الفكر العمراني عند المسلمين⁽¹⁾، فابن خلدون يشير إلى أهمية الموقع عند تأسيس المدن، من حيث مناعتها الطبيعية، ولذلك يوصي باختيار المواقع التي تهيب وسائل دفاعية جيدة عن المدينة، كذلك يرى بأن موضع المدينة لا بد أن يكون في منطقة جيدة المناخ، وأنه ينبغي الابتعاد عن المناطق ذات المناخ الرديء لما في ذلك من اعتبارات صحية، وقد ضرب بمدينة قابس كمثال على ذلك. كما أن المواقع التي تتوفر من خلالها المرافق الأساسية كمصادر المياه والمنتجات الزراعية هي من أفضل المواقع المناسبة لتأسيس المدن عليها، "وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم...، كما فعله العرب أول الإسلام في المدن التي اختطوها في العراق وإفريقية، كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب ما لم تراعى فيها الأمور الطبيعية"⁽²⁾.

إن استقراء تلك النصوص يكشف بشكل دقيق وثابت اعتبار العوامل المناخية والبيئية في اختيار الموقع، فتأثير العوامل الجغرافية على المدينة الإسلامية لم يرتبط بمرحلة تأسيس المدن ونشأتها فقط، بل كان لها دورها المؤثر خلال مرحلة تطورها ونموها، فالمدن الإسلامية التي أسست في المناطق الوفيرة الأمطار، ذات الطقس الدافئ، سمح بقيام الزراعة المنتجة، والتي ساهمت في حدوث تطورات عمرانية كبيرة⁽³⁾. فمدينة معسكر تأثرت في تخطيطها وعمرانها بتضاريس المنطقة، فوجود مصادر الماء وتوفر الأراضي الصالحة والمساعدة على البناء، ساهم إلى حد بعيد في توسع عمرانها، فرغم أن المدينة لم تعط لها أهمية كبيرة خلال الفترات القديمة والفترات الإسلامية، إلا أنها أوليت اهتماما كبيرا خلال الفترة العثمانية، حيث برزت قيمتها من ناحية موقعها الإستراتيجي، الذي يتوسط الطرق

(1) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق: ص50.

(2) - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة...المصدر السابق، ص331.

(3) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص51.

والمواصلات المؤدية إلى المدن الكبرى، خاصة منها الواقعة في بايلك الغرب، كتلمسان ووهران وتيارت ومستغانم.

2-2- العامل الديني:

العلاقة بين الدين والمدينة علاقة وثيقة، فقد كان له دور كبير في تأسيس العديد من المدن في العصور القديمة، وكان للدين الإسلامي أثر كبير في تأسيس المدن، فلقد تميزت تشريعاته كونها تحفز على التعاون والاستقرار والحياة الحضرية، ولاشك بأن هذا ينعكس في مدى عناية المسلمين بالأقطار التي دخلوها، حيث قاموا بإنشاء العديد من المدن الجديدة ولم يقتصر أثر المسلمين في صدر الإسلام الأول على الدعوة إلى تأسيس المدن والشروع في ذلك، بل تعداه إلى تعميق وإبراز أثر عقيدتهم على تلك المدن من حيث البنية والتخطيط فالجامع وما يمثله في حياة المسلمين باعتباره مركزا للعبادة والإدارة والالتقاء يعد النواة أو المركز الأساسي الذي تجتمع حوله المنازل والأسواق، وكان لذلك أثر في بلورة مفهوم واضح لفكرة تخطيط المدينة عند المسلمين، حيث أصبح المسجد الجامع هو النقطة المركزية الذي تتجمع حوله الوحدات العمرانية للمدينة، بشكل منسق ومتماثل، والذي تتفرع من حوله الطرق الأساسية باتجاهاتها المختلفة⁽¹⁾.

ولتعمير المدينة والحفاظ عليها وتوفير حاجياتها أهلها، شجع الدين الإسلامي على عمل الخير والبذل فيه، ومن بين مظاهره نذكر الوقف، الذي يعد من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو أساسا يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم، وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي، فقد أدت سياسة الوقف دورا بارزا في عمران المدن الإسلامية، فهي تساعد من جهة على إنشاء المنشآت الدينية الموقوفة، التي أنشأت لأغراض مختلفة بعضها ذو مغزى سياسي والآخر ذو مغزى ديني، كما أنها تساعد على الاهتمام بإنشاء وعمارة وترميم المباني الموقوفة⁽²⁾، وهو ما يتجلى بصفة خاصة في العهد العثماني نتيجة اعتبارات سياسة واقتصادية.

وأنواع الوقف كثيرة وليس من السهل حصرها، فهناك من يوقف عقارا من أرض أو دكان أو دار أو نحو ذلك، ويستعمل في أغراض كثيرة، منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة

(1) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص ص 47 - 49.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 283.

ورغم الإهمال الذي كان يحدث لبعض مصادر الوقف بين الفينة والأخرى من سرقة ونهب، إلا أن الحكام والولاة كانوا يعيدونه عندما يعلمون بذلك، كما حدث في فترة حكم "الباي محمد الكبير"، الذي أعاد أوقاف المساجد والمدارس والزوايا، في عدة مدن منها تلمسان ومعسكر⁽¹⁾. وذلك ما أشار إليه ابن سحنون الراشدي في قوله: "شرع في إصلاح مساجد الجمعة فزاد في جامع السوق الصفيين المقدمين ثم نقض الجامع العتيق وأعاد بناءه وزاد فيه أكثره وأجرى الله الماء... وشرع في بناء مسجده العظيم مكتنفا بالمدرسة وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت التي بناها لأجلها... كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناء وشكلا الذي بناه قربه... واشترى له حدائق ودورا وحوانيت حبسها عليه، وبنى له فرنا وغير ذلك بحيث تكفي غلات أحباسه جميع وظائفه ولوازمه وتفضل منها فضلا تدخر له... وبنى مشهد الولي الصالح السيد محمد بن عودة... كما بنى مشهد الولي الأجل السيد أحمد بن يوسف دفين مليانة، وبنى بالمعسكر قناطر وسورا مشهورا وطباننتين للمدافع⁽²⁾، وأجرى الماء للمدينة الجديدة ولقرية الولي المجد السيد علي بن محمد، وبنى الفندق الجديد الرائق بالسوق القديم وزاده في أحباس الجامع الأكبر لما زاد فيه من الوظائف، وله في تلمسان ومستغانم والجزائر وغيرها مباني كثيرة وآثار في ذلك شهيرة بين مساجد ومشاهد ومدارس، بل وحتى في الفلوات الخالية والطرق المعطشة المقفرة لا يخلو سائر من رؤية آثاره ومآثره، وقد جدد المدرستين القديمتين بتلمسان... وتتبع أحباسهما التي استولت عليها أيدي المنتهبين، فوجد منها أراضي كثيرة وظفها كلها على حائزها"⁽³⁾.

(1) - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، من ص 227 إلى ص 231.

(2) - الراشدي بن سحنون محمد: المصدر السابق، من ص 127 إلى ص 132.

(3) - نفسه.

وهكذا تنتضح أهمية مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني، فقد كانت تؤدي وظائف عديدة أهمها في توظيفها في توسيع عمران المدن والحفاظ على المنشآت المعمارية الموجودة بها وكذلك في خدمة الدين والتعليم.

2-3- العامل السياسي والإداري:

يعتبر العامل السياسي والإداري من أهم العوامل المؤثرة في عمران المدن، فالإدارة تعد ضرورة أولية نشأت مع نشأة المجتمعات المستقرة، ومن أولى الوظائف التي مارستها المدينة، حيث اقترن تأسيس كثير من المدن بقيام الدولة ونشأتها، كما أنّ الأهمية السياسية لأي مدينة ترتبط بعدد من العناصر التي تظهر من خلالها وتعمل على ترسيخ الدور الذي تقوم به هذه المدينة كوظيفة⁽¹⁾، ويكشف تاريخ المدينة الإسلامية عن أثر العوامل السياسية في حياتها بصفة عامة، فتوجيه اختيار موقعها يرتبط بالظروف السياسية التي صاحبت إنشاء كل منهما، ويتضح ذلك من مراجعة العوامل التي وجهت إلى اختيار مواقع مدن الأمصار، ومقارنتها بالعوامل التي وجهت اختيار المدن الإسلامية الأخرى، والمقارنة بين الظروف التي وجهت اختيار موقع القيروان والتي وجهت إلى اختيار موقع المهديّة أو المرية كما أنّ الدوافع التي أدت إلى إنشاء المنصور مدينة بغداد ارتبطت بالرغبة في تأمين الدولة الناشئة، مما قد تتعرض له من مخاطر في الكوفة، واختيارها وسط العراق قريبة من الفرس بعيدة عن دمشق ذات الولاء الأموي كانت في الاعتبار⁽²⁾.

لقد كان لسياسة توسيع رقعة الدولة الإسلامية ونموها سبب في تحول المدن العسكرية التي أنشأها الفاتحون الأولون إلى مراكز محلية للحكم وإدارة البلاد المفتوحة، فعندما ابتعدت حدود الدولة الإسلامية كثيرا عن الكوفة والبصرة والفسطاط وفقدت هذه المدن تدريجيا أهميتها العسكرية الأساسية، باعتبارها خطا للمواجهة مع الأعداء أو معسكرات رئيسية على الحدود. وبالرغم من ذلك فقد حافظت تلك المدن ولمدة طويلة على مكانتها، إذ تحولت الكوفة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما مارست البصرة والفسطاط والقيروان دورا إداريا متميزا طيلة العهد الأموي⁽³⁾.

(1) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص55.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص275.

(3) - الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص55.

وقد يؤدي تبدل الحكومات أو تغيير الأسر الحاكمة إلى إنشاء مدن جديدة، تعبر به السلطة الجديدة التي وصلت لتوها إلى الحكم عن انتصارها ونشأتها وتعبيرا عن قطع تبعيتها السياسية لأي دولة كانت، مثلما حدث في بلاد المغرب، حيث قامت دول بأنظمة سياسية وعواصم جديدة، كمدينة سبلماسة عاصمة بنو مدرار وتيهرت عاصمة الرستميين وفاس عاصمة الأدارسة ورقادة عاصمة الأغالبة، ثم تبعتها بعد ذلك مدن أخرى كقلعة بني حماد التي أنشأها حماد بن بلكين لغرض الانفصال عن الدولة الزييرية، وإضافة على ما سبق نجد أنّ بعض المدن أنشأت بسبب تأزم الأوضاع السياسية وظهور التهديدات العسكرية كمدينة الناصرية التي أنشأها الناصر بن علناس، عندما أحس باقتراب الزحف الهلالي نحو حدود دولته، وكذلك مدينة المنصورة، التي كان الغرض من إنشائها هو حصار مدينة تلمسان وتأديب السلاطين الزيانيين المتحكمين في المنطقة من طرف المرينيين⁽¹⁾.

وقد استمرت هذه الإستراتيجية في تأسيس المدن مع العثمانيين، فالجزائر التي انضوت تحت حكمهم، عرفت ظهور مدن جديدة ارتبطت بعوامل سياسية وعسكرية، كمدينة معسكر، هذه المدينة التي فقدت مكانتها خلال العصور الوسطى ولم تعرف لها قائمة إلاّ خلال هذه الفترة، فالأوضاع السياسية والأمنية المتوترة التي كان يعيشها الغرب الجزائري بسبب الاحتلال الإسباني لمدينة وهران من جهة، وتمرد القبائل من جهة أخرى دفع العثمانيين إلى البحث عن حلول لهذه المعضلة، فكان لتأسيس مدينة معسكر الحل الأمثل للقضاء على هذه التهديدات، فموقعها الإستراتيجي بحكم وقوعها في منطقة داخلية محصنة طبيعيا وغير بعيدة عن مواقع القوات الإسبانية الرابضة في وهران، وكذلك عن مضارب القبائل الموالية لهم والمعادية للعثمانيين، دفع بهم إلى نقل عاصمة البايك من مازونة إليها وهي سياسة سليمة وهادفة، كان لها نتائج إيجابية، تتمثل في إعادة بناء مدينة وتطويرها وتوسيع عمرانها، وكذلك الاستفادة من خيراتها، لكي تصبح كقاعدة لتجهيز الجيوش وكمنطلق لتسيير الحملات العسكرية لتحرير مدينة وهران، وهو ما حدث بالفعل إذ تم دحر القوات الإسبانية- رغم أنّ ذلك تم على مرحلتين - كما ساعد موقع المدينة في القضاء على تمرد القبائل الثائرة ضد الحكم العثماني، خاصة منها التي كانت تتمركز في الجنوب

(1) - لرج عبد العزيز: مدينة المنصورة... المرجع السابق، ص34.

والتي تم السيطرة عليها، وبالتالي إحلال السلم والأمن والاستقرار في بايلك الغرب، وهو ما تحقق بالفعل رغم الانتكاسات التي واجهوها.

عرفت مدينة معسكر خلال الفترة العثمانية حركة عمرانية نشيطة، إذ شيّد فيها البايات الذين تعاقبوا على الحكم العديد من المنشآت، نذكر منها الجامع الكبير الذي شيّده الباي الحاج عصمان، ومنشآت الباي محمد الكبير التي تتمثل في الجامع المسمى باسمه والمكتبة الملحقة به والمدرسة المحمدية وحمام الأدهم ودار سكناه، ومرافق أخرى، وهذه الأعمال كان الغرض منها تخليد ذكراهم من جهة وكسب ثقة وحب الرعية لهم، وإرضاء ساداتهم في دار السلطان، حيث أنهم عمدوا على غرار سائر الحكام العثمانيين في مختلف البلاد التي كانت تابعة للخلافة العثمانية إلى تقليد ومحاكاة الطراز العثماني عمارة وفنا، ويظهر ذلك بوضوح تام سواء في التخطيط المعماري أو في الجانب الفني الزخرفي⁽¹⁾، كاستخدام القبة المركزية في تخطيط المساجد والمآذن القلمية، وكذلك استخدام بعض العناصر الزخرفية مثل زهرة اللاله والقرنفل، وفيما يأتي نوضح أهم المنشآت التي أسست من طرف البايات في مدينة معسكر خلال العهد العثماني:

المنشآت المنجزة	مدة الحكم	اسم الباي
- وضع النواة الأولى لمدينة معسكر من منشآت دينية ومدنية وعسكرية، لكن هذه المنشآت مجهولة المكان والزمان، لعدم وجود دلائل مادية وكتابية تشير إليها.	1098-1146هـ / 1686-1734م	مصطفى بوشلاغم المسراتي
- أول من بنى الأسوار حول المدينة.	(1146-1147هـ / 1734-1735م)	يوسف لحر المسراتي
- شيّد الجامع الكبير سنة 1160هـ / 1747م، الذي مازال قائماً إلى غاية اليوم. - شيّد الدار والقبة الملحقة بالجامع الكبير في سنة 1167هـ / 1753م، لكنهما تعرضتا للتهديم في سنة 1962م. (تنظر الصورة رقم: 20)	1160-1170هـ / 1747-1756م	الحاج عثمان بن الحاج إبراهيم

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 183.

<p>- بنى برج العسكر أو الفندق في المدينة في شهر رمضان سنة 1176هـ الموافق لـ مارس 1763م.</p>	<p>1170 - 1185هـ / 1757 - 1771م</p>	<p>إبراهيم الملياني</p>
<p>- بنى جامع عين البيضاء والمدرسة المحمدية وحمّام الأدهم وفرنا في رحبة عين البيضاء سنة 1195هـ / 1780م .</p> <p>- أعاد بناء وتوسيع الجامع العتيق (الكبير) الذي بناه الباي الحاج عثمان.</p> <p>- وسّع جامع السوق وزاد فيه صفيين، كان يقع عند مدخل رحبة باب علي وقد هدم في فترة الاستقلال.</p> <p>- بنى دار سكناه في رحبة العرقوب إسماعيل، والتي مازالت قائمة إلى غاية اليوم.</p> <p>- ينسب إليه بناء مقر البايلك الذي مازال قائما إلى غاية اليوم.</p> <p>- تنسب إليه بناء المحكمة التي مازالت قائمة إلى غاية اليوم.</p> <p>- بنى الأسبلة والحوانيت في رحبة عين البيضاء.</p> <p>- بنى قناطرا وجسورا وعبد الطرقات وحصّن أسوار معسكر وطباننتين للمدافع.</p> <p>- جدد جامع قرية الكرط وجامع البرج في ضواحي المدينة.</p>	<p>1192 - 1213هـ / 1778 - 1799م</p>	<p>محمد بن عثمان الكبير</p>
<p>- أعاد بناء وتجديد وتوسيع زاوية أبي راس الناصري بالمدينة في سنة 1222هـ / 1808م.</p>	<p>الولاية الأولى: 1215 - 1220هـ / 1800 - 1805م الولاية الثانية: 1222هـ - 1808م</p>	<p>الحاج مصطفى بن عبد الله العجمي</p>
<p>- قام بتبييض وترميم زاوية أبي راس الناصري في سنة 1227هـ / 1812م.</p>	<p>1222 - 1228هـ / 1808 - 1813م</p>	<p>محمد بن عثمان الرقيق</p>

حسن بن موسى الباهي	(1232 - 1246 هـ / 1817 - 1831 م)	- بنى الرَّحْبَةَ لِبَيْعِ الْحَبِّ بِالْمَدِينَةِ فِي سَنَةِ 1240 هـ / 1824 م. ⁽¹⁾ ودار إقامته المسماة على اسمه (تُنظَرُ الصُّورَةُ رَقْمَ 06)
--------------------	----------------------------------	--

وما يلاحظ على هذا النهج السياسي المتبع في عمران المدن الإسلامية، أنه ليس وليد هذه الفترة، وإنما يعود إلى فترة سابقة، حيث اعتبرت المنشآت المعمارية الحضارية الضخمة أحد الرموز الهامة المستخدمة كوسيلة من وسائل الدعاية السياسية، وقد عدت من المعايير التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الحضاري، وهي السياسة التي اتبعها الأمويون، حيث أنهم ركزوا على إنشاء المشاريع المعمارية الضخمة التي تحقق ذلك، ويدخل في هذا الإطار إنشاء الجامع الأموي بدمشق، وقبة الصخرة في القدس، وإنشاء قصر الخلافة في دمشق⁽²⁾.

وتبدو أهمية المنشآت الحضارية في مجال الدعاية السياسية للتدليل على قوة الدولة وعظمتها وتواجدها حتى في البلدان القاصية البعيدة عن عاصمة الدولة. وهذه المنشآت المختلفة سواء أكانت داخل المدينة أم خارجها، تؤكد امتداد النفوذ العمراني للمدينة العاصمة على غيرها من المدن وعلى الطرق التي تربط بينها⁽³⁾.

2-4- العامل الاقتصادي:

لقد جعل الله الإنسان مفطوراً على العمل والسعي، وأمره بذلك، في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا

بَنَيْنَاكَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾⁽⁴⁾، وعليه حدث تفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية المحيطة به، مما أدى إلى ظهور النشاط الاقتصادي.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن هطل أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 28. وكذلك:

- ابن سحنون أحمد بن محمد الراشدي: المصدر السابق، ص 132.

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، من ص 280 إلى ص 368.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 280.

(3) - نفسه: ص 280.

(4) - سورة الملك: الآية 15.

المدن الكبرى، جعلها كحلقة وصل تمر عليها القوافل وتستريح فيها الوفود، وكل ذلك أضيف عليها الرخاء والتطور، وكل اقتصاد لا بد أن يتكون من ثلاث قطاعات رئيسية، إذ نقص قطاع منه اختل توازنه وصار مهددا بالانهيار إن لم يتم تحقيقه، ونجد أنّ هذه القطاعات الاقتصادية قد توفرت عليها مدينة معسكر، وهذا تفصيل لها.

1- الزراعة: يقول عنها ابن خلدون: "هي أقدم الصنائع لما لها أنها مُحصّلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبا إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت"⁽¹⁾، وبالتالي فإن هذا القطاع يعد من أقدم النشاطات الاقتصادية وأهمها على الإطلاق، فهي السبب الرئيسي في تحول الإنسان نحو حياة الاستقرار، ومن ثم إلى ظهور المدينة. وهو الأمر الذي دفع المهتمين بعمران المدن مثل ابن خلدون إلى الاهتمام بهذا القطاع وبذل الجهد في تحقيقه وذلك في قوله: "ومما يُراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم... ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله"⁽²⁾.

وتشتهر مدينة معسكر بأراضيها الشاسعة الخصبة، لاسيما سهولها الشاسعة، سواء تلك الممتدة إلى الشمال من جبال بني شقران كسهل الهبرة وسهل سمّار الممتد بين وادي يلل ووادي مينا، أو سهل غريس الواقع عند السفوح الجنوبية لجبال بني شقران، والذي يعتبر من أخصب سهول الجزائر وأوسعها بمساحة تبلغ 1185 كلم² أي نحو 118500 هكتار ويفصل بين المجموعتين سلسلة جبال بني شقران، التي لا تقل أهمية عن الأراضي السهلية حيث جمعت بين الزراعة السهلية والزراعة الجبلية⁽³⁾، هذه الإمكانيات الطبيعية وفرت للمنطقة مصادر زراعية متنوعة من حبوب وخضروات وفواكه خاصة من سهل غريس وزراعة القطن في سهل الهبرة والتي مارستها العائلات الأندلسية التي استقرت فيه، بينما ارتبطت زراعة الأشجار المثمرة بالمناطق الجبلية، وازدهرت البساتين بأراضي الفحوص

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة... المصدر السابق، ص 386.

(2) - نفسه: ص 331.

(3) - عليو محمد: المرجع السابق، ص 52.

المحيطة بالمدينة⁽¹⁾، حيث ساعدت الطبيعة الجبلية لبني شقران على زراعة الأشجار المثمرة كالتين والزيتون واللوز والحوامض.

وقد أدى انتشار المراعي في المنطقة، لاسيما منطقة القلعة وجبال بني شقران والأراضي شبه السهبية التي تتخلل سهل غريس، خاصة في حدوده الشرقية أين تقيم قبيلة الحشم الشراقة، وفي طرفه الجنوبي الغربي حيث سهل وادي التاغية إلى الجمع بين الزراعة وتربية المواشي، لتحقيق اقتصاد أسري متكامل، يخفف على الأسرة أعباء الاعتماد على ما توفره الأسواق.

وخلاصة مما ذكر سابقا أن الزراعة ظلت تمثل المصدر الرئيس لثروة البايك ومصدر رزق الكثيرين من سكان المنطقة، إذ جمعت بين زراعة السهول الواسعة الموجهة لزراعة الحبوب، التي لقيت تشجيعا من طرف بايات البايك، باعتبارها من المحاصيل التجارية المطلوبة في الأسواق الخارجية، ولكونهم كانوا من أصحاب مصلحة من إيراداتها. وساهم الإنتاج الزراعي في خلق تكامل اقتصادي بين الزراعة والأنشطة الحرفية، التي ظهرت في مدن المنطقة كمعسكر والقلعة والبرج، من خلال توفير المادة الأولية ومساهمتها في تنشيط حركة الأسواق بها⁽²⁾. وعليه فقد كانت معسكر بحق خلال العهد العثماني تحقق اكتفاء للبايك، خاصة خلال فترة حكم الباي محمد الكبير.

2- الصناعة: هي ثاني قطاع من حيث الأهمية لما له من فائدة على المجتمع والدولة ككل، لذلك أمر الله سبحانه وتعالى بالإخلاص في العمل ككل في قوله عز وجل: **يٰۤاَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا سَوَابِقَ الْبِرِّ**، وأشار إلى العمل وأهميته في الحديث النبوي الشريف، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"، وقال أيضا: "إن الله يحب المؤمن المحترف"⁽⁴⁾، كما أنه كلما زاد عمران المدينة توسعا زادت الصناعة تأنقا وتطورا وأضفت على أهلها غنى وترفا، كما يقول ابن خلدون: "وعلى مقدار

(1) - سعيدوني ناصر الدين: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص32.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص ص 60-61.

(3) - سورة الكهف: الآية 30.

(4) - الكبيسي حمدان عبد المجيد: الحياة الاقتصادية ونظمها في المدن في عهد الازدهار الإسلامي، المدينة والحياة المدنية، دراسات في تاريخ العراق وحضارته، المكتبة الوطنية، بغداد، 1988، ص277.

عمران البلد تكون جودة الصناعات للتأنيق فيها حينئذ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة" وأنّ رسوخ الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها"⁽¹⁾.

وقد أصبحت الصناعة المتعددة في المدينة دليلا على تطورها ورفيها وشعارا على اختصاصها، مما يرفع ذلك الحرج على أهل المدينة وتيسر عليهم حاجاتهم إليها، كما يدفع غيرهم إلى طلبه وبالتالي تحدث شهرة الصناعة وتنتشر بين الأقاليم، وهو ما نصح به ابن خلدون في قوله: "وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المِصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته، ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه، لعموم البلوى به في المِصر والحاجة إليه"⁽²⁾، وقد كان المسلمون منذ أول ظهور لهم على وعي تام بضرورة امتهان الحرف والصناعات، فاحترفوا في صناعة النسيج والمعادن والفخار والخشب وانتشرت هذه الحرف وغيرها في سائر المدن الإسلامية⁽³⁾.

وقد عرفت مدينة معسكر هذه الصناعات المذكورة، فقد وفر الإنتاج الزراعي النباتي والحيواني مادة أولية، كالصوف والجلود والقطن لتنشيط فروع حرفية وصناعية متنوعة، بالإضافة إلى مواد طبيعية كالخشب والكبريت والجص والصلصال والمعادن والنباتات الصبغية (Garance) في منطقة القلعة⁽⁴⁾، والمواد الملونة مثل القرمزي (cochenille)⁽⁵⁾.

ولعل تبوؤها كعاصمة للبايك شجع الحرفيين إلى التنقل إليها وسهل من عملية نقل الصناعات إليها، فأصبحت الطوائف الحرفية تشترك مع الأحياء السكنية في الكثير من الآليات الإدارية التي تحكمها، وذلك لاعتمادها على مفهوم المسؤولية الجماعية لكل طائفة على أفرادها. كما كانت هذه الطوائف مستقلة عن الإدارة العامة إلى حد ما فيما يخص شؤونها

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة... المصدر السابق، ص 381 - 382.

(2) - نفسه: ص 358.

(3) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 157.

(4) - عليو محمد: المرجع السابق، ص 61.

(5) - محرز أمين: الجزائر في عهد الآغوات (1659 - 1671م)، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011 ص 195.

الداخلية ومراقبة إقليمها الحرفي، وساعدها على ذلك التدرج الدقيق الذي كان ينظم علاقات أفراد الحرفة الواحدة.

وقد كانت تعرف الطوائف الحرفية في الجزائر باسم الجماعات ورؤسائهم باسم المعلمين، حيث يقومون بإدارة الورشة وتنظيم العمل فيها بين العمال الذين يدخلون عادة في سن العاشرة أو الثانية عشر، والحقيقة أن هذا النظام من التشغيل والتحصيل على الحرفة كان شبه وراثي، ويخضع إلى انتقائية ومراقبة داخلية من أفراد الطائفة، ولذلك فلم يكن من الممكن لأي كان أن يفتح ورشة في حرفة معينة دون رضا أعضاء الطائفة.

وفي نفس سياق التدرج الإداري كان مجموع معلمي الحرفة يعينون رئيسا عليهم يدعى أمين الحرفة، يتميز عموما بتمكنه من الصنعة وسلوكه القويم، وكان دور الأمين ذي دورين أحدهما خارجي والآخر داخلي، فمن جهة كان ينسق مع السلطات المحلية فيما يخص جمع الضرائب، والمشاركة في شؤون المدينة العامة ويدافع عن حقوق أفراد طائفته، ومن جهة أخرى كان يمارس المراقبة على هؤلاء ويقضي في خصوماتهم⁽¹⁾. ومن أبرز الحرف التي كانت موجودة في معسكر نذكر:

- **الحرف النسيجية:** عرفت هذه الحرفة اهتماما غير مسبوق من طرف سكان المنطقة فوجود المواد الأولية ساعد كثيرا على ممارستها، فقد تميزت المدينة بصناعة البرانس السوداء ذات اللون الطبيعي المصنوع من القماش المقاوم والخفيف، ولونه الأسود طبيعي مستخلص من الصوف السوداء غير المصبوغة، وقد كان يصنف إلى نوعين، نوع جيد يبلغ سعر الواحد منه المائة فرنك ونوع ثاني يتراوح سعره ما بين 35 و40 فرنكا. وقد ذاعت شهرته في كل أنحاء الإيالة حتى تجاوزت شهرتها حدود الجزائر، فأصبحت تُصدر إلى مصر وتركيا وهي جد مطلوبة في هذه الأسواق، كما اشتهرت أيضا بجودة أغطيتها الحمراء والمعاطف والأقمشة التي كان يستعملها الجيش، والمحازم المتنوعة والملونة بصباغ القرمز حيث كانت تصدر إلى المشرق⁽²⁾.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: ابن حموش أحمد مصطفى: المدينة والسلطة في الإسلام - نموذج الجزائر في العهد العثماني، ج2، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1420هـ/1999م، ص166.

- غطاس عائشة: المرجع السابق، ص ص 142-143.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص62. يُنظر كذلك: لواليش فتيحة: المرجع السابق، ص79.

3- التجارة:

تعد التجارة من القطاعات الاقتصادية الهامة لما لها من فوائد كبيرة على المدينة وأهلها، فبواسطتها يستطيع يتم ترويج السلع والمنتجات والمعرفة الاقتصادية بين مختلف البلدان والأمم، والمتعارف عليه أنها تنقسم إلى قسمين تجارة داخلية محلية تتم بين المدينة وريفها أو مع المدن المجاورة لها، وتجارة خارجية تتم مع البلدان الأجنبية، ولتطوير التجارة لابد من توفر وسائل النقل وتهيئة الظروف لذلك من طرق ومواصلات سواء كانت برية أو بحرية، وعليه ظهرت القناطر والطرق الرئيسية المعبدة والسفن والمرافئ البحرية، كما جهزت المدن بالأسواق والفنادق والخانات لاستقبال التجار الوافدين من أجل ترويج تجارتهم.

لقد استقطبت الجزائر في العهد العثماني الأول حركة النشاط التجاري، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي بشكل نفت أنظار الذين نزلوا بها أو زاروها، فكانت التجارة الداخلية جد نشيطة بين البايلاكات الثلاث، حيث كانت قائمة عبر شبكة من الطرقات يمكن تصنيفها من حيث طبيعتها وأهميتها إلى:

- **طرق رئيسية:** عرفت أيضا بالطرق السلطانية، كانت تربط بين الجزائر وعواصم البايلاك: قسنطينة والمدينة ومازونة ثم معسكر، وعلى طول هذه المحاور الثلاثة كانت تتوالى سلسلة من الأنزال والقناطر والأبراج التي كانت تحرسها القبائل المخزنية، وكانت الطرق الرئيسية تؤمن في الوقت نفسه حركة المبادلات التجارية، وتنتقل موظفي الإدارة والمحلات الموجهة لجمع الضرائب⁽¹⁾.

- **طرق ثانوية:** كانت تربط مركز البايلاك بمدنه فنذكر منها الطريق الرابط بين معسكر ووهران وطريق تيارت وطريق مستغانم وطريق تلمسان وطريق الشلف.

أما عن وسائل النقل الأكثر استعمالا من طرف التجار هي القوافل التي كانت تحمل مختلف المؤن والمنتجات على ظهر الحمير والبغال والجمال، وكانت مبادلتها التجارية على نوعين تجارة داخلية وأخرى خارجية وهذا تفصيل لكل منها:

(1) - محرز أمين: المرجع السابق، ص193.

أ- التجارة الداخلية:

يتم هذا النوع من التجارة داخل المدن أو بواسطة الأسواق الأسبوعية والسنوية في الأرياف، وقد عزز التبادل التجاري الداخلي عاملان هما: أولاً لتشجيع الحكومة لأسواق التجارة سعياً لغرض نفوذها على سكان الأرياف، عندما يختلفون إلى هذه الأسواق، وثانياً مرور القوافل عبر الأراضي الجزائرية نحو المشرق العربي أو بلاد السودان⁽¹⁾.

كانت منطقة معسكر قبل العهد العثماني سوقاً مشهورة عند التجار، فموقعها الاستراتيجي على الطريق الرئيسي الرابط بين قلعة بني راشد وتلمسان زاد من أهميتها التجارية، خاصة مع مطلع القرن الثامن عشر، بعدما اتخذها العثمانيون كعاصمة لبابك الغرب، لاسيما في عهد الباي محمد الكبير، الذي أدخل على المدينة إصلاحات كبيرة جعلتها مركز استقطاب للتجار والحرفيين والفلاحين، حيث تمحور نشاط السوق حول الدكاكين والمتاجر المنتشرة بين وسط المدينة ورحبة باب علي.

وقد أدت الروابط الموجودة بين مدينة معسكر والمناطق الريفية المجاورة لها، إلى انعقاد أسواقها بشكل يومي، أيام الجمعة والسبت والأحد، إضافة إلى سوقها الأسبوعي الذي كان ينتظم عند مدخل باب علي، تعرض فيه مختلف المنتجات، كالبارود وقشور الرمان لحاجة الدباغين إليها، ولوازم الحياكة والتوابل واللحوم⁽²⁾.

كما كان تجارها يعرضون الماشية والحبوب والزيت والعسل والقرمز، وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة، كالحبال والسروج والأعنة وحاجيات الخيل⁽³⁾، فذلك يوحي إلينا أن المبادلات التجارية بينها وبين جيرانها كانت نشيطة جداً، ما رغب العثمانيين فيها، وعملوا على تأمين الطرق والقوافل التجارية المارة بها⁽⁴⁾.

ولكن البضائع المعروضة للبيع لم تقتصر على المنتجات الزراعية المذكورة فقط، بل كانت كذلك تروج مختلف الصنائع، سواء تلك التي كانت تصنع في الأرياف أو في المدن

(1) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص 38.

(2) - عليو محمد: المرجع السابق، ص ص 67 - 68. يُنظر كذلك:

- Emerit. M, Op.cit, p90.

(3) - الوزان الحسن: المصدر السابق، ج2، ص ص 26-27. يُنظر كذلك: - محرز أمين: المرجع السابق، ص 195.

(4) - بن عمر حمدادو: أبو راس الناصري المعسكري وكتابات التاريخة (1115-1238هـ/1737-1823م)، مذكرة

مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2002-2003م، ص ص 05-06.

وكانت مادة الصنع متنوعة بين استعمال الجلود والنحاس والخشب والحديد والمعادن النفيسة⁽¹⁾.

ب - التجارة الخارجية:

لقد كانت مدينة معسكر عاصمة بايلك الغرب منطلقا لشحن البواخر الأجنبية بمختلف السلع، بحيث كانت كل هذه المنتوجات، سواء التي كانت توفرها مدينة معسكر وضواحيها أو مدن البايك، تصدر عبر ميناء مستغانم وأرزيو نحو خارج البلاد، حسب ما جاء في مذكرات "تدينا" في قوله: "...وفي السنة الأخيرة التي بقيتها في البلاد قمت بكثير من الأسفار إلى مستغانم، لشحن البواخر التي تصل إلى هذا الميناء، وبما أنها كانت تتاجر مع سيدي - يقصد الباي محمد الكبير - وكانت الشحنة من قمح وخرطال، لأنه لم يكن المورليون يعرفون غيرها، ومن الشمع والصوف. كانت هذه هي أكبر منتجات هذا البلد وعليها يعتمد في تجارته، إذ كانت تصدر إلى العديد من الأمم منها... البواخر الفرنسية والانجليزية"⁽²⁾.

ونشير هنا أن الباي محمد الكبير أنشأ مجموعة من المخازن الخاصة بالمؤن الموجهة للتصدير، مثل الحبوب والبقول والزيت والصوف والشمع، ويبدو أن الباي لجأ إلى هذا الإجراء كنتيجة لتشجيعه للزراعة، وزراعة بعض الأراضي لحسابه الخاص، والاستفادة من تجارتها لتزايد الطلب على الحبوب الجزائرية، التي صُدّرت منها كميات كبيرة عبر ميناء أرزيو قدرت بنحو ثلاثين حمولة في السنوات جيدة المحصول، شحنة، ووصلت في بعض السنوات كما هو الحال في سنة 1814م إلى 250 و300.

لقد كانت المنتجات الجزائرية الموجهة للتصدير محل صراع كبير بين التجار الليفورنيين والفرنسيين والاسبان والانجليز، نظرا للظروف التي كانت تعيشها أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر، وقد أصبحت مدينة معسكر تمثل مركزا تجاريا يتجاوز دوره المحلي أو الجهوي، حيث سمحت الاتفاقية الجديدة التي وقعها الداوي حسن باشا مع السفير الإسباني بتاريخ 12 سبتمبر 1791م، بالسماح لتجار الاسبان بفتح مراكز تجارية وشراء ثلاثة آلاف حمل مما ينقصهم سنويا، شريطة أن تطبق عليها الأسعار السارية وأن تكون مرتبطة ومساوية للأسعار في معسكر، لاسيما ما يخص المواد التي تخضع تجارتها الخارجية لرقابة

(1) - Chentouf.T: **Op.cit**, p92.

(2) - عميرايوي أحميذة: المرجع السابق، ص ص 101 - 102.

2-5- العامل البشري والاجتماعي:

على الرغم من أن الجغرافيين لم يتحدثوا عن المدينة كظاهرة اجتماعية من حيث نشأتها وتطورها، إلا أن هناك من يعد التكوين الاجتماعي للإنسان هو العامل الرئيسي لظهور المدينة، أو أن العامل الاجتماعي يعد جزءاً من عملية أدت في النهاية إلى ظهور المدينة، كما أن العلاقة بين الحياة الاجتماعية والمدينة علاقة عضوية، تؤثر بشكل أو بآخر على ظهور التمدن أو تطوره. ولقد راعى الفاتحون الأوائل طبيعة حياتهم الاجتماعية في مدنهم التي أسسوها، فالكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان، تم اختيار مواقعها بالقرب من الصحراء ومراعي الإبل، وكذلك روعي في تخطيط هذه المدن، أن تتوزع السكنى فيها على أسس اجتماعية.

ومن الواضح أن من النتائج المترتبة على نجاح حركة الفتح الإسلامي، وظهور "ديار الإسلام" ما قد أدى إلى إزالة الحدود والعقبات بين أجزاء الدولة الجديدة، وإلى تكثيف حركة الانتقال والهجرات فيما بين أجزائها، حتى أصبح بعض سكان مشرق العالم الإسلامي يعيشون في مغربه. ولاشك في أن مثل هذه الهجرات السكانية تؤثر بالتأكيد على أوضاع المدن القائمة، وهو تأثير يظهر على شكل أحياء جديدة، تلتحق أو تضاف إلى الرصيد العمراني للمدينة⁽¹⁾.

ومما يكشف عن إدراك أهمية العامل البشري في تعمير المدن ما اتجهت إليه سياسة الحكام نحو جذب الناس لتعميرها، بتشجيعهم على عمرانها وفق سياسات خاصة تُمكن من ذلك، وهو ما اتبعه الحجاج عند بناءه لمدينة واسط، واتبع كذلك في تعمير مدينة الرباط وذلك بتشجيع الصناع والمتقنين والتجار للاستقرار فيها بتخصيص مكافآت وعلاوات على ذلك. وتتكامل سياسة الاهتمام بالعنصر البشري وتشجيعه على عمران المدينة، بإتباع سياسات مختلفة كإقطاع الإقطاعات ودعم النشاطات الاقتصادية الخاصة، وتوفير الأمن مع التخطيط الجيد للمدينة، والذي يكفل المرافق الجيدة والإدارة الحسنة التي تحقق الأمن والعدل، فإذا ما تحقق هذا التكامل اندفع عمران المدينة وزادت الهجرة إليها، وإذا ما اختلت هذه السياسة اختل عمران المدينة⁽²⁾.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: الحارثي عدنان محمد فايز: المرجع السابق، ص 67 - 68.

(2) - عثمان محمد عبد الستار: المرجع السابق، ص 276.

لقد شهدت مدينة معسكر بعد تأسيسها من طرف الباي بوشلاغم نزوحا كبيرا إليها من المدينة القديمة- والتي نقصد بها مدينة الكرط- وكذلك من المناطق المجاورة لها، ومع مرور الوقت أصبحت عامرة بالسكان حتى ضاقت بهم المدينة، مما استدعى البحث عن مساحات أخرى لكي تستوعب سكانها، فظهرت خارج أسوارها تجمعات سكانية عرفت بالضواحي وكان سكانها يتكونون من عدة أجناس كما ذكرنا سابقا، فسكنها العرب الأشراف والأندلسيون والأتراك العثمانيون والكراغلة وجماعة البرانية من وادي ميزاب ومن الزوج واليهود، وقد ساهم هذا التنوع السكاني في تطوير عمران المدينة من حيث أنهم ساهموا بقدر كبير في خلق نشاطات مختلفة سواء تعلق ذلك بالبناء أو الحرف أو التجارة أو مهن حرة وخدمات.

وفيما يخص عدد سكان المدينة فإننا وجدنا صعوبة كبيرة في تحديدها، فبعض الأبحاث تذكر أنّ العدد تراوح ما بين 1500 و 1800 نسمة في عام 1741م⁽¹⁾، ويذكر سعيدوني أنّ عدد سكانها كان في حوالي عشرة آلاف نسمة⁽²⁾، وبلغ عددهم في سنة 1876م حوالي 4052 نسمة، وفي سنة 1892م بلغ عددهم 6801 نسمة⁽³⁾، وعند بحثنا في مختلف الوثائق الأرشيفية، خاصة منها التي تعود إلى فترة الاحتلال الفرنسي، والمحفوظة في المركز الوطني للأرشيف بـ "إكس أو بروفانس بفرنسا"، استطعنا الحصول على بعض الإحصائيات منها: أنّ عدد سكان المدينة كان يتراوح ما بين 15000 و 20000 نسمة، أي ما يعادل 3400 عائلة، كانت تتوزع على مركز المدينة ورحابها، فمثلا باب علي كان يسكنها 2,422 نسمة⁽⁴⁾، لكن هذا العدد تناقص بشكل رهيب خلال فترة الاحتلال، إذ أنه نزل إلى حوالي 14646 نسمة حسب إحصاء سنة 1921م، وهو ما يدل على حملات التهجير وطرده السكان من المدينة نحو المناطق النائية⁽⁵⁾.

(1) - عليو محمد: المرجع السابق، ص88.

(2) - سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص42.

(3) - Djerbal. D, Op.cit, p71.

(4) - **Rapport d'ensemble sur la colonisation...** Op.cit, pp 3-4. Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

(5) - **Notice sur Mascara ville, le recensement de 1921**, délivrer par Monsieur Martin. L, Maire de Mascara, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

المنشآت المعمارية المتنوعة، وتوسيع وتطوير الحركة الثقافية والأنشطة الاقتصادية بمختلف مجالاتها، الأمر الذي جعلها قبلة للطلبة والعلماء والتجار.

إلا أن ذلك لم يستمر طويلا إذ شهدت المنطقة ككل انتشار مرض الطاعون، حسب ما ذكره الآغا بن عودة المزاري في قوله: "... ثم حدث بأيامه الطاعون العظيم الذي لم يحدث في هذا الإقليم قبله قط، إلى أن مات به جل الناس بدوا وحضرا وآل فيه الأمر إلى أن انتقل أهل الحضر والباي بأهله ومخزنه إلى البدو في خيام الشعر ضاعنين ظعن الأعراب البادية زمانا طويلا، وقد جعل الباي خيمة حمراء من الوبر وسكن بها ببلاد أولاد سليمان أحد بطون بني عامر... وسمي العام بعام الخيمة الحمراء"⁽¹⁾.

المرحلة الثالثة (1799 - 1830م):

تأثر النمو الديموغرافي للمدينة ببعض الكوارث منها استمرار مرض الطاعون في عهد الباي عثمان بن محمد وكذلك مشكلة غزو الجراد للمنطقة الذي أفسد محاصيلها الزراعية، وذلك ما أشار إليه الآغا بن عودة المزاري في قوله: "...وحدث في أيامه الطاعون الذي كان قد وقع وذهب فمات به جل الناس وكثير من العلماء منهم بالراشدية العلامة الإمام عبد القادر بن السنوسي بن دح بن زرقة... وظهر الجراد الكثير كثيرا جسيما، فأفسد الزرع والثمار فسادا عظيما"⁽²⁾.

وبعد مرور هذه الفترة شهدت المدينة انتعاشا ديموغرافيا، حيث ارتفع عدد السكان عام 1825م إلى 6000 نسمة ثم إلى 10000 نسمة عند بداية الاحتلال⁽³⁾.

يبدو من خلال هذا التطور أن المدينة عرفت ازديادا كبيرا في عدد سكانها، بنحو ثلاثة أضعاف مع بداية العقد الأول من القرن التاسع عشر، ويعود هذا النمو إلى جملة من العوامل وهي:

- تراجع دور المدن الساحلية نتيجة انحصار حركة الجهاد البحري.

(1) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص298.

(2) - نفسه: ص301.

(3) - لمزيد من المعلومات يُنظر: سعيدوني ناصر الدين: المرجع السابق، ص42. وكذلك:

- عليو محمد: المرجع السابق، ص90.

- السياسة التي اعتمدها الحكام العثمانيون تجاه الرعية، والتي اتسمت بالاستبداد والظلم كما حدث في عهد الباي محمد بن عثمان الرقيق (1808 - 1813م)⁽¹⁾ والباي حسن آخر بايات وهران (1816 - 1831م) مما أدى إلى ظهور الثورات، كما لم تسلم منها حتى الزعامات الروحية، التي اشتهرت بها المنطقة كعائلة الشيخ محي الدين، أدت إلى ازدياد مكانتها إلى جانب كثرة الزوايا في المنطقة، كلها عوامل ساهمت في انتقال السكان من المدن الساحلية إلى المدن الداخلية، فرارا من الاستبداد والأوبئة التي كان معظمها يأتي عبر الموانئ، وهو ما حدث في أيام حكم الباي حسن، حسب ما ذكره السيد محمد ابن يوسف الزياني في كتابه دليل الحيران بأن مدينة وهران تعرضت لوباء عظيم عسير وتكرر رجوعه بعد ذهابه إلى أن مات به الخلق الكثير⁽²⁾.

3- مراحل تطور عمران المدينة:

عند البحث في تأسيس مدينة معسكر ومعرفة نسيجها العمراني واجهتنا صعوبة كبيرة في معرفة تخطيطها الأول، إذ لا نجد هناك مصدر يحدد لنا معالمها الأولى ويصف لنا مراحل تكوينها، إلا بعض الإشارات السطحية حول نشأتها بصفة فعلية في عهد بني زيان كما ذكرنا سابقا، ويؤكد محمد بن عبد القادر الجزائري هذه المعلومات في كتابه **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر** وذلك في قوله: "... ومنها معسكر أصلها لبني زيان ملوك تلمسان اتخذوها لإقامة عسكرهم في تخوم بلادهم، لوقايتها من أجلاب بني توجين ومغراوة أعدائهم خلفا عن سلف"⁽³⁾.

ولكن هذه المدينة العسكرية لم يبق لها أي أثر اليوم، إذ أننا نجهل الأسباب التي أدت إلى زوالها، حيث لم تقم لها قائمة إلا في العهد العثماني وهذا حسب محمد بن عبد القادر الجزائري الذي يقول في معرض حديثه عنها: "... وكان بناؤها من أخصاص إلى أن استولت الدولة العلية على مدينة الجزائر، وتقدم حكامها في داخلية البلاد غربا وشرقا حتى وصلوا إلى هذه البلدة الإخصاصية، وأعجبهم محلها، فشرعوا في بنائها بالحجارة ووسعوا

(1) - الأغا بن عودة المزابي: المصدر السابق، ج1، ص331.

(2) - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص..... يُنظر كذلك:

- المزابي الأغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص350.

(3) - الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر... المصدر السابق، ص22.

خطتها، وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر، وأطلقوا عليها اسمها القديم الذي كانت تعرف به من قبلهم، وجعلوها مركزا لحاكم تلك النواحي".

يبدو لنا أن هذا الوصف التاريخي للمدينة، يرجع إلى فترة حكم الباي "مصطفى بوشلاغم بن يوسف المسراتي"، الذي اتخذها كعاصمة لبايك الغرب في سنة 1098هـ/ 1690م، أين بدأت تظهر معالم المدينة مع مرور الوقت، خاصة في عهدة "الباي محمد بن عثمان الكردي الكبير"، الذي كان أعظمهم اهتماما بعمران مدينة معسكر، وكانت ولايته على إيالتها عام "ثلاث وتسعين ومائة وألف"، فبنى فيها من المساجد والحمامات والآثار العظيمة وأجرى إليها المياه وأدار عليها السور المشهور بالإتقان والإحكام، وقد خرب هذا السور الفرنسيين، وفي أيام الباي المذكور اشتهرت هذه المدينة وارتحل إليها التجار والعلماء⁽¹⁾.

وعلى ضوء ما سبق فإن النسيج العمراني لمدينة معسكر خضع لهذه الشروط، حيث تم وضع خطتها وفقا لنمط المدن الإسلامية المعروف، وهو ما سنوضحه فيما يأتي:

- مركز المدينة ووسطها:

وهو يمثل الحي الإداري والسياسي والديني والثقافي والاقتصادي، وذلك وفقا للنشاطات التي تضطلع بها المؤسسات المنتمية لهذا الحي⁽²⁾، وتتمثل هذه المؤسسات فيما يأتي: (تُنظر الأشكال رقم: 01 و 04 و 05)

1- المسجد الجامع:

إن أول ما يبني في المدينة هو المسجد الجامع، الذي يسمى بالجامع الكبير في المركز، ولقد حكمت هذه الأهمية للمسجد الجامع موضعه في المدينة، باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها، ومن حوله كانت توضع خطط المدينة وتنتهي إليه شوارعها وسككها وأزقتها⁽³⁾، لذلك يمكن اعتبار المسجد بمثابة المنشأة الأساسية في تخطيط المدن العربية الإسلامية⁽⁴⁾، حيث أن مكانته الدينية كمؤسسة متعددة الوظائف في المدينة من جهة وإتباعا

(1) - الجزائري محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر... المصدر السابق، ص 22.

(2) - لعرج عبد العزيز: «تلمسان...»، المرجع السابق، ص 26.

(3) - سعيد ناصف: المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة الحضارة، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1999، ص 55.

(4) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص 219.

لسنة النبي (صلى الله عليه وسلم) من جهة أخرى، إذ كان مسجده بالمدينة المنورة في مقدمة الأعمال المعمارية التي قام بها⁽¹⁾.

يلاحظ من تتبع مكانة المسجد الجامع في المدينة على مر العصور الإسلامية أنه كان له في صدر الإسلام المكانة الأولى، التي تبلور حولها التكوين الطبيعي للمدينة باعتبار أنّ المسجد في ذلك الوقت هو مصدر التعاليم الإسلامية وملتقى الحاكم بتجمعات السكان⁽²⁾.

لم تقتصر وظيفة المسجد على كونه مكانا للصلاة فقط، بل أنه يعتبر كمركز سياسي واجتماعي وحضاري، فقد كان عليه الصلاة والسلام يلتقي فيه برجاله وسفرائه، وكثيرا ما انعقدت المحاكم في داخله، بالإضافة إلى أنه يعد كمركز حضاري للحركة الفكرية ودراسة القرآن الكريم وحفظه⁽³⁾، وكذلك للتعليم الديني والتدريس، إذ اتخذ العلماء كمركز لإعطاء الدروس والمواعظ الدينية قبل الصلاة أو بعدها⁽⁴⁾، حيث يجلس فيه الكبار والصغار من مختلف المستويات الاجتماعية والاقتصادية في حلقات لتلاوة القرآن، أو للاستماع إلى درس الفقيه، أو لتحصيل العلوم والمعارف في جميع المستويات، وقد تطور المسجد أحيانا ليصبح جامعة مثل مسجد القيروان في تونس، والأزهر في مصر⁽⁵⁾.

يكون الجامع في كثير من الأحيان ملتقى أبناء الحي الواحد، بل وأبناء كل المدينة حيث يتداولون بشؤون المسلمين والإسلام، وقضايا الأمة والإمام، وهموم الدنيا والآخرة⁽⁶⁾ بالإضافة إلى أنه يعتبر كملجأ يلوذ إليه المتشردون والمظلومون، حيث يجدون فيه المأوى ويتلقون فيه الصدقات، فقد سارت مدن الأمصار الناشئة على هذا المنهج في اختيار موضع

(1) - الموسوي مصطفى عباس: المرجع السابق، ص55.

(2) - إبراهيم عبد الباقي، التراث الحضاري في المدينة العربية، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، ص46.

(3) - دارة الملك عبد العزيز، «العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية 1402هـ/1982م، ص39.

(4) - سلامة جهاد صالح عبد اللطيف: الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، رسالة ماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2010، ص32.

(5) - سلامة جهاد صالح عبد اللطيف: المرجع السابق، ص33.

(6) - غالب عبد الرحيم: موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، طبع المطبعة العربية، بيروت، 1408هـ-1988م، ص382 - 383.

متوسط في المدينة لإقامة المسجد الجامع، ومن أمثلة ذلك مدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، حيث أصبح هذا الاتجاه قاعدة تقليدية في المدن الإسلامية بعد ذلك، كما في واسط وبغداد وفاس وغيرها⁽¹⁾، وذلك لتسهيل وصول الناس إليه من جميع الأماكن المحيطة به بمسافات متقاربة نوعا ما لأداء العبادة⁽²⁾، ويقع الجامع الكبير بمعسكر في نواة المدينة أين يلتقي السكان من مختلف الأحياء والشوارع والضواحي.

وعندما تولى الباي محمد الكبير أصبح لمدينة معسكر جامعان، إذ أن هذا الأخير شيدّ جامعا ثانيا في رحبة عين البيضاء، بعدما ضاقت المدينة بأهلها، وخلق نوعا من الفوضى والازدحام في مركزها، فارتأى الباي تحويل إدارته إلى موقع يقع في الجهة الشرقية من المدينة، فبنى مجموعة من المنشآت المعمارية، كان من بينها جامع عين البيضاء، الذي مازال قائما حتى اليوم، وهذا دليل واضح على النمو السكاني للمدينة، الأمر الذي دفع الباي إلى رفع الغبن والخرج على الناس في ممارسة شعائرهم الدينية وتخفيف الضغط على مركز المدينة.

2- دار الباي:

كان يطلق عليها كذلك دار الإمارة، وقد أوجبت الضرورة الوظيفية مجاورتها للمسجد الجامع، حيث كان بناء الرسول صلى الله عليه وسلم منزله ملاصقا للمسجد الجامع المثال الأول، الذي اتبع في إنشاء دار الإمارة مجاورة للمسجد في المدن الناشئة ثم ملاصقا له⁽³⁾ وقد كانت تبنى في موقع متميز ينم عن قوة الحاكم، التي جمعت بين السلطة الدينية والسلطة

(1) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 235.

(2) - عزب خالد: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، نشر كتب عربية، دم، دت، ص 88.

(3) - يقال أن هذا التلاصق ارتبط بحادثتين تاريخيتين: الأولى في الكوفة سنة 17هـ، حين كان سعد بن أبي وقاص واليا عليها من قبل "عمر بن الخطاب" (ض)، إذ كان سعد يسكن دارا بينها وبين المسجد طريق، فتسلل أحد اللصوص إلى هذه الدار بعد أن ثقب جدارها، واستطاع أن يسرق المال المحفوظ في بيت مال المسلمين، فشكا سعد للخليفة فأمره أن يجعل حائط القبلة ملاصقا للدار التي يسكنها.

أما الحادثة الثانية، فقد وقعت بالبصرة سنة 44هـ، حين كان "زياد بن أبيه" واليا عليها من قبل "معاوية بن أبي سفيان" إذ رأى "زياد" عندما كان يقوم بتجديد المسجد أنه ينبغي ألا يمر بين المصلين عند توجهه إلى المحراب، فحول دار الإمارة إلى قبلة المسجد، ليستطيع الوالي أن يخرج منها إلى الباب في جدار القبلة مباشرة. لمزيد من التفاصيل أنظر: الحموي ياقوت، معجم البلدان، ط1، مج 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993، ص 642.

- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 239.

الحكومية⁽¹⁾، كما يلاحظ أن موقعها منفرد عن أبنية الناس، فهناك فارق كبير من ناحية الواجهة والسعة والبعد⁽²⁾، مع توفير الأمن وذلك بعزلها عن مساكن العامة والأسواق⁽³⁾، وقد روعي هذا المخطط في مدينة معسكر، حسب المؤرخ "ابن هطال التلمساني" إذ أنه يقول في معرض حديثه عن أعمال الباي محمد الكبير: "... شيد في معسكر القصر الأنيق وجعله منزلا جميلا"، وهذا القصر المذكور ما زال قائما إلى غاية اليوم والذي يطلق عليه اليوم تسمية "دار المبايعة" بالقرب من المسجد الجامع، لكننا نجهل هل كان ملاصقا له أم لا، وذلك لكون أن الاحتلال الفرنسي شق مجموعة من الطرقات بين المنشأتين.

3- السوق:

لقد عرفت المدن الإسلامية وعلى غرار التنظيم السكني تنظيما للحياة الاقتصادية⁽⁴⁾ فكانت الشوارع التجارية أو الأسواق من أهم العناصر التخطيطية التي ارتبطت بالسكان في المدينة العربية، إذ لم يتأثر هذا النوع من النشاط الجماعي كثيرا بالبصمات الشخصية التي تركها الحكام الذين تتابعوا على المدينة العربية في العصور المختلفة⁽⁵⁾.

إن الحركة التجارية تتطلب إنشاء الأسواق العامة والمتخصصة، والأسواق من المرافق الأساسية في المدن الإسلامية، ويمكن تقسيم هذه الأسواق من الناحية التخطيطية إلى ثلاثة أنواع وهي:

أ- **الخانات والوكالات:** تعتبر أسواقا إقليمية يأتيها التجار من أماكن بعيدة، ويقومون في الفنادق التي تعلوها حتى ينتهوا من أعمالهم التجارية. والخانات والوكالات بهذه الصورة تعتبر أسواقا مقلدة، وتتكون من عدة أدوار، ففي الأدوار الأرضية مجموعة من المحلات التجارية والمخازن وحظائر للدواب. وتلتف هذه المحلات التجارية حول الفناء الداخلي للبناء.

(1) - إبراهيم عبد الباقي: المرجع السابق، ص 46.

(2) - حمدي محمود: «السبيل إلى الحفاظ على الخصائص الأصيلة للمدينة العربي»، أبحاث من ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية 1402هـ/1982م، ص 32.

(3) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 239.

(4) - ابن حموش أحمد مصطفى: المرجع السابق، ص 165.

(5) - إبراهيم عبد الباقي: التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، د.ط، د.م.

د.ت، ص 48.

ب- الشوارع التجارية أو الأسواق الممتدة: وهي تخدم وسط المدينة ثم تتفرع لتخدم الأحياء المختلفة المكونة لها، وتتكون من دور واحد من مجموعة من المحلات التجارية النوعية تعلوها مساكن أصحابها. وتفتح هذه المحلات على الشوارع التجارية المغطاة، كما في القدس أو الشوارع الشبه مغطاة كما في القاهرة ودمشق، وقد تفتح على الشوارع التجارية المفتوحة مثلما نجده في بغداد والقاهرة، وتعتبر الشوارع التجارية أو الأسواق الممتدة من أهم المظاهر التخطيطية في المدينة العربية، حيث يزداد معدل تردد السكان على المراكز التجارية فيها نظرا للمؤثرات الاجتماعية والمناخية التي يعيش فيها السكان، وهي في هذه الحالة تختلف عن الأسواق المركزة في المراكز التجارية للمدينة.

وحسب ما جاء في مذكرات "تيدينا" أن مدينة معسكر كانت تحتوي أماكن تجارية في الأروقة (porche)، حيث كان بعض العبيد يقومون بصنع الخمر من الزبيب وبييعونه مع اللحم والخبز⁽¹⁾.

ج- الأسواق النوعية والموسمية: وهي تقام في بعض الساحات داخل المدينة أو خارجها عند ملتقى طرق المواصلات، كما تعمل بصورة يومية أو موسمية تبعا لوفرة الأنواع المختلفة من السلع التجارية، وهي في هذا الوضع تعتبر أسواقا للجملة تمتد الأسواق المحلية الممتدة على طول الشوارع التجارية داخل المدينة بأنواع السلع المختلفة⁽²⁾.

تخضع الأسواق والمراكز التجارية لشروط ومعايير محددة في إقامتها، تبعا لتطور النظم التجارية واتساع الحركة الاقتصادية، وما كان يعتري الأوضاع السياسية من عوامل الاستقرار والهدوء، أو القلاقل والاضطرابات⁽³⁾، مما كان ينعكس على حياة المدينة وسكانها وحكامها ثراء أو فقرا، فالسوق هو المركز التجاري الرئيسي، فقد حجب الإسلام التكسب والتجارة ولكنه في الوقت نفسه حذر المسلمين من العواقب الوخيمة، إذا ما أخلوا بالضوابط التي وضعها الدين للأسواق، ومنها الابتعاد عن المحرمات كالكذب والغش ونحوه، وكذلك أن يتعلم المرء أحكام التجارة التي يتعامل بها، حتى لا يأكل هو وأهله من الربا والحرام

(1) - عميرايوي أميدة: المرجع السابق، ص 106.

(2) - إبراهيم عبد الباقي: التراث الحضاري... المرجع السابق، ص 49.

(3) - نفسه: ص 27.

بالإضافة إلى تولي أعماله سادة الناس وأشرفهم وأصحاب الأدب والخلق والهمم العالية الصادقون، حتى لا يتلف السوق⁽¹⁾.

وتكمن أهمية السوق على أنه ملتقى التجار والحرفيين، ومنه يحصل السكان على حاجياتهم، ومن منظور الشرعية العمرانية الإسلامية، كانت الأسواق تحتل أهم شوارع المدينة وأكثرها جذبا للسكان في ذهابهم وإيابهم، وهي تأخذ النمط الطولي المتشعب أحيانا، الذي يبدأ من مركز المدينة - عند المسجد الجامع - ويمتد مع المحاور الرئيسية التي تتجه نحو مداخل أو مخارج المدينة⁽²⁾، وذلك بغية جذب الناس، باعتبار المسجد مكان التجمع وقلب المدينة النابض، ويحاذيه الإسكافيون والعطارون والنساخون وتحاذيه المكتبات والمدارس والقيسارية والنساجون أيضا، وقد كانت السوق مقسمة إلى عدة أقسام، فنجد أن أصحاب الحرفة الواحدة مجتمعون في قسم واحد من السوق⁽³⁾. وهذا طبعا يحتم تنظيم الحياة عامة داخل النسيج العمراني وتأطير الفرد في عمله خاصة، وقد ارتبط هذا التنظيم الفضائي بتعاليم الشريعة وأحكام الحسبة التي تجسد "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ولذلك فإن هذا التنظيم يمكن اعتباره صورة مادية واستجابة تقنية لهذه الأحكام⁽⁴⁾، وبالتالي كان التنظيم الحرفي في المدينة ظاهرة جديدة توحى بكثرة الحرف والطوائف الحرفية، التي بدأت تشغل الفراغات الداخلية والخارجية للمدينة وتحدد الخطط العمرانية بها، فكانت كل حرفة تقام في مكان معين كما تنص عليه القوانين الاجتماعية والاقتصادية والشرعية خاصة، ويعني هذا كله تقدم التجارة، وبالتالي تحضر الناس وتوسع العمران، الذي يتطلب خلق ساحات ورحبات داخل مركز المدينة، تخصص كل مساحة لسوق معين على هيئة شوارع، تقوم عليها الأروقة المععدة وبمحاذاة المسجد الجامع وتوزع الحرف المزرية خارج الأبواب.

لقد أصبحت ظاهرة التقريب بين أصحاب الحرفة الواحدة أساسا لتخطيط الأسواق والمناطق التجارية لفائدتها الاقتصادية العظيمة. وبالإضافة إلى ذلك نجد هناك شرط تنظيمي مرتبط بتقدير الأسواق بكفايتها، الذي يدل على أمور كثيرة، منها: ألا تزيد عن

(1) - عزب خالد: التراث الحضاري والمعماري للمدن الإسلامية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص 69-70.

(2) - الكبيسي حمدان عبد المجيد: المرجع السابق، ص 166.

(3) - دارة الملك عبد العزيز: المرجع السابق، ص 39، يُنظر كذلك: - ريمون أندريه: المرجع السابق، ص 174.

(4) - ابن حموش أحمد مصطفى: المرجع السابق، ص 173.

حاجة السكان، فتنهار الأسعار، وتبور البضائع، وألا تقل أيضا عن الحاجة فترتفع أسعارها كما أن في ذلك إشارة إلى لتحديد الحجم المناسب للأسواق، بصورة تناسب حجم السكان.⁽¹⁾

كانت مدينة معسكر تحتوي على سوق مشهورة حسب ما ذكره الجغرافي "الحسن الوزان"، وذلك في قوله: "يُعقد فيها سوق كل يوم خميس يباع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل، وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة، كالحبال والسروج والأعنة وحاجيات الخيل"⁽²⁾، وكان يطلق على هذا السوق تسمية السوق القديم في عهد الباي محمد الكبير⁽³⁾، وبما أنه كان مشهورا، فذلك يوحي إلينا أن المبادلات التجارية بينها وبين جيرانها كانت نشيطة جدا، ما رغب العثمانيين فيها، وعملوا على تأمين الطرق والقوافل التجارية المارة بها⁽⁴⁾، ولكن البضائع المعروضة للبيع لم تقتصر على المنتجات الزراعية المذكورة فقط، بل كانت كذلك تروج مختلف الصنائع، سواء تلك التي كانت تصنع في الأرياف أو في المدن، وكانت مادة الصنع متنوعة بين استعمال الجلود والنحاس والخشب والحديد والمعادن النفيسة⁽⁵⁾. بحيث كانت كل هذه المنتجات، سواء التي كانت توفرها مدينة معسكر وضواحيها وكذلك مدن البايك، تصدر البعض منها عبر ميناء مستغانم نحو خارج البلاد حسب ما جاء في مذكرات "تدينا" في قوله: "...وفي السنة الأخيرة التي بقيتها في البلاد قمت بكثير من الأسفار إلى مستغانم، لشحن البواخر التي تصل إلى هذا الميناء، وبما أنها كانت تتاجر مع سيدي - يقصد الباي محمد الكبير - وكانت الشحنة من قمح وخرطال، لأنه لم يكن الموريون يعرفون غيرها، ومن الشمع والصوف. كانت هذه هي أكبر منتجات هذا البلد وعليها يعتمد في تجارته، إذ كانت تصدر إلى العديد من الأمم منها... البواخر الفرنسية والانجليزية"⁽⁶⁾.

(1) - عزب خالد: تخطيط وعمارة...، المرجع السابق، ص ص 88-89.

(2) - الوزان الحسن: المصدر السابق، ج2، ص ص 26-27.

(3) - Chentouf. T: Op.cit, p93.

(4) - بن عمر حمدادو: أبو راس الناصري المعسكري وكتاباته التاريخية (1115-1238هـ/1737-1823م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2002-2003م، ص ص 05-06.

(5) - Chentouf.T: Op.cit, p92.

(6) - عميرايو أميدة: المرجع السابق، ص ص 101-102.

4- خَطُّ المدينة:

4-1- الأحياء السكنية والشوارع والدروب: (تنظر الأشكال 4/3/2/1)

تعتبر الأحياء السكنية الصورة النموذجية للتركيبية الاجتماعية للمدينة⁽¹⁾، فعند الانتهاء من بناء المسجد ودار الإمارة، يتم بعد ذلك بناء المنازل والدور والحمامات والفنادق ومرافق عامة⁽²⁾، وغيرها من المباني المدنية المخصصة للرعية، وفق شروط حضارية تدعو إلى المحافظة والتزام الحشمة، وتوفير أسباب الحصانة والراحة للمنازل وللخلية السكنية، عن طريق عزل المساكن ووضعها بعيدة عن مسالك التنقل الكبرى، حتى يتوفر لأصحابها مزيدا من الأمن والراحة⁽³⁾، ولذلك بنيت مساكن المدينة بشكل أو بنمط النظام إلى بعضها البعض (مجمع سكني)، كأنها كتلة واحدة، تتخللها إتواءات الشوارع^(*) وضيقها وتشعبها إلى تفرعات كأنها شرايين قلب، ومنها التي تتوقف عند أحد المنازل وهذه تسمى الدرب⁽⁴⁾، إذ يقصد به الشوارع الواقعة بين الوحدات السكنية، وعادة ما يقطع الدرب أزقة لها أبواب تغلق عند غروب الشمس، وتفتح عليها أبواب المساكن المتقابلة أو المنحرفة عن بعضها، كما كان الدرب في أوله يغطي بغطاء أو سقف خشبي صلب متين، يقوى على حمل ما يعلوه من بناء، بحيث يشكل سقيفة يمكن العبور من أعلاها والاحتماء تحتها من تغيرات الطقس صيفا وشتاء⁽⁵⁾.

(1) - ابن حموش أحمد مصطفى: المرجع السابق، ص156.

(2) - حنفي حسن: «فلسفة المكان»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م، ص32.

(3) - الدولاتي عبد العزيز: المدينة العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة، الندوة العالمية الأولى للأثار الفلسطينية، مجلة نصف سنوية (مارس سبتمبر 1402هـ/1982م)، جامعة حلب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1401هـ/1981 ص ص154-155.

(*) - من خلال زيارتنا لمختلف المدن الجزائرية التي تعود إلى العهد العثماني، استنتجنا أنّ تخطيط الشوارع كان يناسب مرور الأشخاص والدواب والحمولات بلا عائق، إذ حدد عرضها بحوالي سبعة أذرع مما يعادل 3.36 م، وعلى هذا الأساس، كانت الحوانيت تختط من الباب إلى بداية الشارع، وهو نظام يخدم الصالح العام ويحفظ حقوقا محددة لأن الشارع ملكا للمسلمين.

(4) - عقاب محمد: قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص 25.

(5) - لعرج عبد العزيز: «تلمسان...»، المرجع السابق، ص31.

ولمعرفة خطط مدينة معسكر، اعتمدنا على ما ذكره المؤرخ "محمد بن عبد القادر الجزائري" عند وصفه لمدينة معسكر في قوله "... فشرعوا في بنائها بالحجارة ووسعوا خططها، وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر... فبنى فيها من المساجد والحمامات والآثار العظيمة وأجرى إليها المياه وأدار عليها السور المشهور بالإتقان والإحكام، وقد خرب هذا السور الفرنسييس" (1).

نستنتج من خلال هذا الوصف المهم لمساكن مدينة معسكر أنها بنيت وفق نمط المساكن الإسلامية والدور الموجودة في مدينة الجزائر، التي تتكون في العادة من طابق أو طابقين يتوسطها فناء مركزي كبير (2)، بالإضافة إلى الرواشن التي هي عبارة عن جوانب بارزة للغرف الرئيسية في المنزل، مما نتج عن ذلك إلتصاق المباني فيما بينها، وبالتالي تغطية الطرقات والممرات التي تسمى "السباط"، وهذا ما جعل المدينة تتأثر بالظروف المناخية والاجتماعية وعوامل الأمن والدفاع، ثم بمدى ارتباط السكان بمدنهم، ومن هذه العوامل ما يوضح الأسباب التي جعلت عرض الشوارع يقل كثيرا عن ارتفاع المباني على جانبيه، لتوفير أكثر كمية للظلال للمارة فيه (3)، وتلطيف الجو على المشاة أثناء فصل الصيف، نتيجة قصر المد الشمسي في الممرات الضيقة (4).

ومن ناحية أخرى نجد أن ضيق الشوارع، مرتبط بعدة عوامل وأسباب وهي على النحو الآتي:

- كان للنظام الاجتماعي القبلي أثر كبير، فقد كان أفراد القبيلة الواحدة يسكنون في جهة واحدة من المدينة، أي لهم مساحة خاصة بهم فيها، وكانت تجمع بينهم روابط قوية ففضلوا السكن قريبا من بعضهم، فكانوا يشيدون دورهم متجاورة متلاصقة، فنمت المدينة بذلك بطريقة غير نظامية.

(1) - الجزائري محمد بن عبد القادر: المصدر السابق، ص22. يُنظر كذلك:

- Gorguos. A: **Op. cit**, p20.

(2) - ناصف سعيد: المرجع السابق، ص62، يُنظر كذلك: - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص25.

(3) - عبد الباقي إبراهيم: تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، طبع بمطابع أنترناسيونال برسي 1402هـ/1982م، ص 40.

(4) - Kaddache. M: **La casbah sous les turcs, documents Algériens**, N55, série culturelle 1951, p211.

المتصلة بالأبواب الرئيسية المفتوحة على الجهات الجغرافية الأربع⁽¹⁾. فرغم أن مدينة معسكر تعرضت للحرق، وهذا ما أثر كثيرا على خططها ودروبها وشوارعها، إلا أن ذلك لم يمنع بقاء بعض النماذج منها، خاصة في الرحاب منها على وجه الخصوص رحبة باب علي (تُنظر الصور رقم 5/4/3).

4-2- الساحات: هي من المكونات المهمة للمدينة، إذ أنها تعتبر كمكان تلتقي فيها مختلف شرائح المجتمع وكمتنفس للناس، خاصة إذا ما عولجت لتكون أشبه بمتنزهاة صغيرة، لها أكبر الأثر في خلق حياة اجتماعية وثقافية بين سكان المنطقة السكنية، وبالخصوص بين كبار السن الذين يملّون الوحدة في غرفهم. والوظيفة الأساسية للساحة هو ممارسة الأنشطة الجماعية للجماهير، سواء منها الدينية أو الاجتماعية أو التجارية أو السياسية، وإن كانت بعض هذه الأنشطة تغلب على وظيفة الساحة في العصور المختلفة مثل الاستعراضات العسكرية والاحتفالات والمناسبات الدينية.

ومع هذه الصورة لكيان الساحة العامة في المدينة العربية، فقد وجدت بعض الساحات الصغيرة كل منها تمثل متسعا غير منتظم أمام بعض مساجد الأحياء، تقام فيها الأسواق اليومية أو الموسمية، معبرة بذلك عن مظهر من مظاهر الارتباط العاطفي بين السكان وأحيائهم السكنية⁽²⁾.

تحتوي مدينة معسكر على ساحتين عموميتين، ساحة باب وهران في الغرب التي كانت سوقا وبها فندقا، وساحة في مركز المدينة، وهي مكان لالتقاء سكان المدينة يتبادلون فيها أطراف الحديث، وعرض مشاكلهم واحتياجاتهم اليومية. (تُنظر الأشكال رقم 5/3/1)

4-3- الرحاب: (تُنظر الشكل رقم 1)

كان يطلق على الأحياء أسماء مختلفة عبر المناطق العربية التابعة للدولة العثمانية ففي الجزائر وتونس كانوا يسمونها "حومة" أو "رحبة"، وفي القاهرة ودمشق وصنعاء "حارة" وفي حلب والموصل وبغداد "مَحَلَة"، وقد كان كل حي يضم شبكة من الشوارع المنقرعة من الشارع الرئيسي الذي يؤدي إلى الخارج، ويمكن غلق جميع أنحاء الحي وحتى أزقته

(1) - لعرج عبد العزيز: «تلمسان...»، المرجع السابق، ص 29 - 30.

(2) - عزب خالد: تخطيط وعمارة...، المرجع السابق، ص 83.

المسدودة عن طريق بوابة، تقع على أول هذا الشارع الرئيسي، ويفصل كل حي عن الحي المجاور له حدود من الحوائط المشتركة لبيوت كل منهما⁽¹⁾.

وهذا ما نلاحظه في مدينة معسكر، إذ تتكون من ستة رحاب أو حومات حسب ما جاء في المصادر وهي: رحبة باب علي، رحبة العرقوب إسماعيل بسورها، رحبة سيدي علي محمد ورحبة عين البيضاء ورحبة الباب الشرقي ورحبة سيدي محمد أبي جلال ورحبة المدينة الداخلة وهي الواسطة بسورها ذي أدهام⁽²⁾. ومن حسن الحظ أننا وجدنا وصفا عاما لهذه الرحاب في تقرير للحاكم العام الفرنسي للمدينة، مرفوع إلى المحافظ العام لمقاطعة وهران ومؤرخ بتاريخ 18 ديسمبر 1852م، إذ أنه يعتبر كمصدر مهم يتضمن معلومات قيّمة قبل تغيير عمرانها وعمارتها وتحويلها إلى مستوطنة فرنسية.

1- رحبة العرقوب إسماعيل: تقع في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة، حيث يفصلها عنها وادي سيدي تودمان، سميت بهذا الاسم نسبة إلى السيد "إسماعيل بن البشير البحتاوي"، آغا الباي إبراهيم الملياني، لكونه أول ما بنا بها في المشتهر حسب ما ذكره الآغا بن عودة المزارعي، لكننا لا نعرف هذه المنشأة التي بناها لعدم ذكر اسمها.

كانت تحتوي هذه الرحبة على مخيم لفرسان البايات، بالإضافة إلى أنها كانت محاطة بأسوار حصينة وعالية يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار تتخللها أربعة أبواب، ويعلو الباب الغربي منها منصة تسع لقطعتي مدفعية، وهي مندثرة حاليا - أي خلال فترة الاحتلال - كما أنّ هذه الرحبة تحتوي على مساكن فخمة وأشجار جميلة. والمقصود بها دار الباي محمد الكبير والحديقة الغناء التي كانت تشرف عليها، حيث أنها مازالت موجودة إلى غاية اليوم.

2- رحبة باب علي: تقع على بعد 300م خارج أسوار المدينة في الجهة الشمالية، وهي من الرحاب المهمة الكثيرة السكان، وقد قصفت بالمدافع خلال اقتحامها من طرف الفرنسيين، الأمر الذي أدى إلى احتراقها ومصرع كثير من سكانها خلال فترة الاحتلال، حيث لم يبق منهم إلا حوالي 2,422 نسمة، وبعد ذلك استبدلت دورها بالأكواخ والمساكن البدائية، مما

(1) - ريمون أندريه: المرجع السابق، ص102.

(2) - المزارعي الآغا بن عودة: المرجع السابق، ج1، ص357.

شوه ذلك منظر هذه الرحبة⁽¹⁾. لكن إلى غاية اليوم نجد بعض الدروب والأزقة مازالت على حالتها الأصلية، وهو ما يعطينا فكرة عما كانت عليه دروب الرحبات الأخرى في المدينة. (تُنظر الصورتان 4/3)

3- **رحبة سيدي محمد أبي جلال:** تقع في الجهة الغربية من المدينة، سميت بهذا الاسم نسبة إلى العالم والفقير سيدي محمد أبي جلال، الذي كان يعتبر قدوة لأهل الرحبة، أين عاش وتعايش مع النخب من أهل المدينة، ولا يزال ضريحه علما عليها إلى غاية الوقت الحالي. لقد كانت هذه الرحبة تحتوي على بعض الدور الجميلة والتي هدمت عندما اقتحمت المدينة من طرف الجيش الفرنسي⁽²⁾، وكذلك على مطاحن للحبوب تتغذى من مياه وادي تودمان⁽³⁾.

4- **رحبة سيدي علي محمد:** توجد في الجهة الجنوبية من المدينة، حيث أنها تحتوي على باب يربطها بوسط المدينة.

5- **رحبة عين البيضاء:** تقع في الجهة الشرقية من المدينة، وقد عرفت اهتماما كبيرا خلال فترة حكم الباي محمد الكبير، إذ أنه عمّرها بمختلف المنشآت المعمارية، خاصة منها الجامع الذي أخذ اسمه وحمّام الأدهم والمدرسة المحمدية، التي كانت قبلة للعلماء والطلبة.

6- **رحبة الباب الشرقي:** اختفت مباني هذه الرحبة وحلت محلها مباني المستوطنين، ولم نجد أي إشارة عن الحالة التي كانت عليها.

7- **رحبة المدينة الداخلة:** والمقصود بها وسط المدينة، حيث كانت محاصاة بأسوار ضخمة ومرتفعة وتتصل مع الرحاب الأخرى بواسطة أبواب تفتح نهارا وتغلق ليلا، نظرا لاحتوائها على مراكز إدارية حساسة كمقر البايلك وغيرها.

لقد ارتبط الحي السكني بمرافق عامة تشغل حيزا وسطا فيه تقوم على خدمته، بل نجد لكل حي مرافقه العامة المتصلة به مباشرة والملازمة له، ولكنها أيضا تتصل بالحي الإنتاجي

(1)- **Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André,** Mascara le 18 décembre 1852, p2, Service Archives nationales d'outre- mer, Aix En Provence, France.

(2)- **Rapport d'ensemble sur la colonisation..., Op.cit, pp2-3.**

(3)- بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص ص 37-38.

وهما الأساسي خدمة سكان الحي بالدرجة الأولى، ثم تصريف الفائض منها على الاحتياجات الريفية والقروية⁽¹⁾.

5- تحصينات المدينة:

يمثل الأمن والأمان قيمة أساسية لنشأة المجتمع الحضري المستقر، للحفاظ على هدوء المدينة وحمايتها من الهجمات والاعتداءات الخارجية وجب تحصينها، ويعكس ذلك بوضوح دعوة أبي الأنبياء "إبراهيم عليه السلام" "رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات"، فسبق الدعاء بالأمان على الدعوة بطلب الرزق وهو ما يؤكد على هذه الأهمية، لذلك تأثرت بهذا الهدف كل من مواقع المدن وبنيتها الداخلية، التي روعي فيها أن تكون منسجمة مع روح الإسلام وأساليب الحياة الإسلامية البسيطة⁽²⁾، فعكست نشأة المدينة أهمية التحصين لحمايتها من الأعداء وتنمية عمرانها وتجاريتها⁽³⁾، وانطلاقاً من أهمية الأمن الذي يتوفر بتحصين المدينة أعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن⁽⁴⁾، واعتبر الإسلام بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض، التي هي مقصد من مقاصد الإسلام، ومن هنا صنفها الفقهاء تصنيفاً يضعها في عداد⁽⁵⁾.

ورغم الموقع الطبيعي المحصن لمدينة معسكر الموجود فوق هضبة عالية بين جبال بني شقران التي تتميز بتضاريسها الوعرة، فإن ذلك لم يمنع من تحصينها، لتحقيق غاية الأمن تحقيقاً سليماً، وقد تعددت هذه التحصينات فشملت الأسوار والأبواب والأبراج، وفيما يلي تفصيل لها.

(1) - بن داهاة عدة: المرجع السابق، ص30.

(2) - الهيبي صبري فارس: التراث الجغرافي العربي الإسلامي، ط1، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، 2007، ص33. يُنظر كذلك: - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 121.

(3) - عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة...، المصدر السابق، ص322، يُنظر كذلك:

- محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 135.

(4) - القزويني: المصدر السابق، ص8،7.

(5) - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 135.

5-2- الأبواب:

للدخول إلى المدينة يجب اجتياز ستة أبواب رئيسية وهي⁽¹⁾: باب وهران، باب مستغانم، باب تيارت، الباب الشرقي، باب سيدي علي محمد، باب علي⁽²⁾، هذا الأخير الذي يعد من أهمها، حيث كانت تعلق عليه جماجم الذين تم تنفيذ حكم الإعدام في حقهم خلال الحكم العثماني، وكان وادي "تودمان" يقسم المدينة إلى شطرين يستفيدان من مياهه، وللتذكير فإن المدينة المطوقة بالأسوار ذات الأبواب الستة، كانت توجد على الضفة الشرقية لهذا الوادي. (تُنظر الأشكال 1/2/3/4/5) و(الصور رقم 11/12/13/14/15)

وفي فترة الاحتلال طرأ على المدينة تغيير جذري، حيث أن الجيش الفرنسي طمس وهدم معظم مبانيها وغيّر شوارعها ووضعوا لها تخطيطا حسب ذوقهم، وجعلوا منها حاضرة لهم على طراز مدنهم في جنوب فرنسا، هذه العملية الجراحية لم تبق إلا على بعض الدور في حي باب علي بالجزء الغربي من المدينة، إذ لاحظنا فيها وجود بعض الأزقة الملتوية منها ما هو نافذ وبعضها غير نافذ، وكذلك بعض المعالم في وسط المدينة كدار الباي أو ما يعرف حاليا بدار قيادة الأمير عبد القادر، والجامع الكبير وحمّام الأدهم الذي يجاوره، وجامع عين البيضاء في شرق المدينة، بالإضافة على بعض الزوايا والمدارس والأضرحة.

(1) - مالستان هانريش فون: المصدر السابق، ص 27.

(2) - بقيت هذه الأبواب على حالتها الأصلية إلى نهاية الاحتلال الفرنسي، ولكن بعد الاستقلال هدمت وأزيلت لأسباب غير معروفة، مما أفقد المدينة أحد معالمها الحضارية التي تعود إلى الفترة العثمانية، ولحسن الحظ عثرنا على صور، استطعنا من خلالها معرفة أوصافها.

بعد دراسة عمران مدينة معسكر بالاعتماد على المعلومات القليلة من المصادر والتقارير والخرائط الفرنسية خلال فترة الاحتلال، وكذلك الأبحاث التي اهتمت ببعض معالمها التي تعود إلى الفترة العثمانية، بالإضافة إلى الوقوف على توزيع المعالم الأثرية الباقية في نسيجها الحالي، استنتجنا أنها خضعت لنظام ونمط معماري ارتبط بالقاعدة الإسلامية للبنيان "لا ضرر ولا ضرار"، كما تأثر بعدة عوامل مختلفة خاصة منها الجانب السياسي المرتبط بالأمن والاستقرار وكذلك العامل الاقتصادي المتصل بالحالة المعيشية، زيادة على العامل الاجتماعي الذي يتمثل في الكثافة السكانية التي تساهم في توسيع عمران المدينة.

وكخلاصة للقول فرغم كل المعلومات المذكورة عن عمران هذه المدينة فإنها تبقى شحيحة، كما أن التغييرات التي طرأت عليها خلال حقبة الاحتلال الفرنسي غيرت من صورة نسيجها العمراني، بسبب أعمال الهدم والطمس لمعظم معالمها، فتحوّلت من مدينة إسلامية بمظهر عثماني إلى مدينة عصرية تشبه المدن الفرنسية والأوروبية، لذلك وجب عمل حفريات أثرية في المواقع التي أشارت إليها المصادر المتزامنة مع الفترة العثمانية وتتبع الأشغال التي تقام فيها من أجل إعادة تصورها وإعطاء صورتها الحقيقية.



ò ÌÄË×AP Fr ÄA:¾ËPA½v °A

- ©;Ä tA -1
- p iÄ•A -2
- BÄËA -3
- ò YjyPA -4

تحتل المنشآت الدينية المقام الأسمى بين العمائر الإسلامية، سواء من حيث كثرة العدد ودرجة الحفظ وجمال الزخرف ومهارة الصنعة ومدى الفخامة، وتنقسم هذه المنشآت إلى أنواع عدة منها: المساجد والمدارس والخانقاوات (الزوايا) والأضرحة، فضلا عن الأريطة التي تجمع بين الوظيفة الدينية والوظيفة الحربية، غير أنّ أشرف العمائر الدينية في الإسلام هي المساجد⁽¹⁾، التي أوليت اهتماما خاصا من قبل المسلمين، ثم تأتي المنشآت الأخرى حسب حاجة المجتمع إليها، وتزخر مدينة معسكر على غرار المدن الجزائرية الأخرى بعدد معتبر من هذه المنشآت وفيما يأتي تفصيل لكل العمائر الدينية.

1- الجوامع:

1-1- تعريف المسجد الجامع:

أ- **لغة:** مَسْجِدٌ، جمع مَسَاجِدٍ: كل مكان يسجد فيه ويتعبد⁽²⁾، ومعناه حول فعل سَجَدَ، أي خضع، ومنه سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض. والاسم السِجْدَةُ بكسر السين، والسَّجَادَةُ الخمرَةُ، والمسجد بفتح الجيم جبهة الرجل حين يصيبه أثر السجود⁽³⁾. وجاء في لسان العرب سَجَدَ، يَسْجُدُ، سُجُودًا، وضع جبهته بالأرض. وقوم سُجَدَ، سُجُودَ والمسجد الذي يسجد فيه، والمسجدة، السجادة والخمرة المسجود عليه. والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه ندب السجود. وقال الليث عن ابن منظور: "السجود مواضعه من الجسد والأرض مساجد واحدها مسجد" وقال: "المسجد اسم جامع، حيث سجد عليه وفيه. فأما المسجد من الأرض فموضع السجود نفسه"⁽⁴⁾.

فهو مَفْعَلٌ بالكسر اسم لمكان السجود، وبالفتح اسم للمصدر، وقد روي: المسجد والمسجد، والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود، ويقال مسيد بفتح الميم حكاة غير واحد فتحصلنا فيه على ثلاث لغات، والمسجد بكسر الميم: الخمرَةُ، وهي الحصير

(1) - الباشا حسن: الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1979م، ص 91.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 381.

(3) - العسكر عبد الله بن محمد: أحكام حضور المسجد، السعودية، د.ط، ص 6، يُنظر كذلك: - نوبي محمد حسن: عمارة المسجد في ضوء القرآن والسنة، ط 1، دار نهضة الشريف للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 13.

(4) - ابن منظور جمال الدين الأنصاري: لسان العرب، تقديم عبد الله العلياني، إعداد وتصنيف، يوسف خياط، مج 2، دار لسان العرب، بيروت، ص ص 98-99.

الصغير⁽¹⁾، والمسجد بكسر الجيم، جمع لمساجد مصلى الجامعة ومنه المسجد الحرام في مكة والمسجد الأقصى في بيت المقدس، والمسجد بفتح الجيم جهة الرجل وموضع السجود من بدنه⁽²⁾، لذلك جاءت كلمة السجدة بسين وصورة السجدة بفتحها والمكان الذي يؤدي فيه السجود يطلق عليه مسجد⁽³⁾، ويفسر الزركشي السبب في اختيار كلمة مسجد لمكان الصلاة فيقول: "ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه، اشتق اسم المكان منه فقيل: مسجد، ولم يقولوا: مَزْع" ⁽⁴⁾، ومن المتعارف عليه أنه من الألفاظ الإسلامية التي لم تعرفها الجاهلية، فالاسم والمسمى جاء مع الدين الجديد ودلاً على: مصلى الجماعة.⁽⁵⁾

ب - من الناحية الشرعية:

أما من الناحية الشرعية، فالمسجد هو كل موضع من الأرض، لقوله صلى الله عليه وسلم "جُعِلت لي الأرض مسجداً"، وهذا من خصائص هذه الأمة، قال القاضي عياض: لأن من كان قبلنا، كانوا لا يصلون إلا في موضع يتيقنون طهارته، ونحن خصصنا بجواز الصلاة في جميع الأرض إلا ما تيقنا نجاسته.

وقال القرطبي: هذا ما خص الله به نبيه، وكانت الأنبياء قبله إنما أبيحت لهم الصلوات في مواضع مخصوصة كالبيع والكنائس. وقال المهلب في شرح البخاري: "المخصوص به صلى الله عليه وسلم، جعل الأرض طهوراً، أما كونها مسجداً فلم يأت في أثر أنها منعت من غيره".

وقد كان "عيسى" عليه الصلاة والسلام يسبح في الأرض ويصلي، حيث أدركته الصلاة فكأنه قال: "جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وجعلت لغيري مسجداً ولم تجعل له طهوراً"، ثم إن العرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس، حتى يخرج المصلي المجتمع فيه للأعياد ونحوها فلا يعطى حكمه، وكذلك الربط والمدارس فإنها هيئت

(1) - الزركشي محمد بن عبد الله: إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، ط5، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة 1420هـ - 1999م، ص ص 26- 27.

(2) - الزبيدي محب الدين مرتضى: تاج العروس، (كلمة مسجد)، تحقيق علي يسري، دار الفكر، بيروت، 1994..

(3) - ابن منظور جمال الدين الأنصاري: المصدر السابق، ص 189.

(4) - الزركشي: المصدر السابق، ص 28.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 381.

لغير ذلك،⁽¹⁾ لذلك ورد ذكر المساجد في القرآن الكريم مقترنا بالصلاة وعبادة الله بعدة أسماء نذكر منها قوله سبحانه وتعالى: "إِنَّ أَفْعَ َآخَى اِجْنَ َؤَ َافْعَ َئْبَاسَ َآآَسَ"⁽²⁾، وقال العلماء المراد بالبيوت هنا المساجد.

ولم تقتصر وظيفة المسجد في أول الأمر على العبادة والمكان الذي يؤم فيه الخليفة الناس في الصلاة، بل كان مركزا للحكم ولإدارة شؤون الدولة أو الولاية، وكان المنبر أشبه بالعرش، يُلقى منه بيان الخليفة لسياسة الدولة، ويلقى فيه خطبته الأولى ويبين فيها سياسته في الحكم، وفي المسجد تذاع القرارات الهامة التي تتعلق بالصالح العام، ويستقبل الخليفة السفراء ويدبر شؤون الدولة⁽³⁾، بالإضافة إلى الدعوة والتشاور في ذلك كله، كما كان محل القضاء والإفتاء والعلم والإعلام وغير ذلك من أمور الدين والدولة⁽⁴⁾، فكان أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقهاء واللغة وغيرها من العلوم، فانصرف بعض فقهاء المسلمين لطلب العلم في المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة، حيث بنى الصُّفَّة^(*) وأصبح كثير من المساجد الجامعة مراكز هامة للحركة العلمية، فقد اتخذ علماء التفسير والحديث مقرا لهم، وهو المعهد الذي يتلقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين، وهو المكان الذي اتخذته القضاة لعقد جلساتهم، بل لقد اتخذ بعض المساجد أماكن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الأعداء. وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها واقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة في الخطبة، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات. على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تُدرّس فيها العلوم الدينية، ويقوم بذلك أئمة المساجد.

(1) - الزركشي: المصدر السابق، ص ص 27 - 28.

(2) - قرآن كريم: سورة النور، الآية: 36.

(3) - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج 4، ط 7، الجيزة، 1964، ص 422.

(4) - الباشا حسن: المرجع السابق، ص 109.

(*) - الصُّفَّة: ظهرت في بداية الأمر بالمسجد النبوي، وهي مكان تصفف المسلمين للصلاة في جهة بيت المقدس قبل تحول القبلة إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة في السنة العاشرة للهجرة، وعند تحول القبلة إلى الكعبة في الجهة المقابلة ظل هذا المكان وخصص لنزول فقهاء المسلمين من المهاجرين إلى المدينة من مختلف المناطق من لا دار لديه فيها، ولم يكن بمقدور الأنصار استضافته لكثرة ما لديه من المسلمين المهاجرين، وقد حبسوا أنفسهم لطلب العلم وهي مكان مظل في شمال المسجد، يأوي إليه فقهاء المسلمين. يُنظر: - حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص 431.

كان جامعا عمرو بن العاص وابن طولون من أهم مراكز الثقافة في عهد الطولونيين والإخشيديين، ثم أصبح الأزهر في عهد الفاطميين مركزا هاما للثقافة والعلماء وخاصة فقهاء المذهب الشيعي، وفي بلاد المغرب والأندلس كان جامع القيروان والزيتونة ثم جامع القرويين في فاس وجامع قلعة بني حماد وبجاية بالجزائر من المعاهد التي أصبحت مراكز هامة للثقافة الإسلامية، كما أصبحت هذه المعاهد جامعات تقوم شاهدا على تطور التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وشروط التعيين في وظائف التدريس، وفي هذه الجامعة الإسلامية وُضع أساس التقاليد الجامعية التي تسير عليها الجامعات في الأمم الراقية، كما جذبت جوامع قرطبة الأوربيين الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية.(1)

ولبناء المساجد فضل كبير، حسبما روى أهل الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة في فضلها وأحكامها، نذكر منها على سبيل المثال: "من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتا في الجنة"(2). وهذا ما أدى بالمسلمين من ذوي أصحاب المال والجاه إلى التسابق نحو بناء المساجد لتكون صدقة جارية تخلد ذكراهم، مثلما فعلت فاطمة القروية عند بنائها جامع القرويين بمدينة فاس.

ج- من الناحية المعمارية:

لقد أجمع المؤرخون وكتاب السير على أن أول مسجد بني في الإسلام هو مسجد قُباء، الذي يقال له "مسجد التقوى"، ثم المسجد النبوي من بعده، إلا أن هذا الأخير ينفرد بالدور القيادي على المساجد جميعها(3)، وهذا لعدة اعتبارات من بينها أنه أصبح نواة للعمارة الدينية الإسلامية، فقد اتخذ تخطيطه كنموذج لتخطيط الجوامع في كل المدن الإسلامية حيث كان على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مبنيا باللبن وسقفه من الجريد، وعمده

(1) - حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص 422 - 423.

(2) - مؤنس حسين: المساجد، عالم المعرفة، عدد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1981 ص 21.

(3) - الشاذلي علي محمد: دور المساجد التاريخي في التثقيف العلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة (د.ت)، ص 14.

خشب النخل⁽¹⁾، ثم أعاد بناؤه الخليفة عمر بن الخطاب (ض) حسب قول أبو سعيد الخدري: "وأمر عمر ببناء المسجد وقال: أَكُنْ النَّاسَ مِنَ الْمَطَرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمَّرَ أَوْ تُصَفَّرَ فَتَفْتَنَ النَّاسَ"⁽²⁾، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على تأثير القيمة الدينية على القيمة المعمارية، وارتباطهما مع بعضهما ارتباطاً وثيقاً.

فالصورة الأولى التي ظهر عليها المسجد النبوي كانت بسيطة من ناحية الشكل والمظهر، وذلك يعود إلى عدة عوامل منها التعاليم الدينية التي تحث على البساطة والتواضع والتقشف. فطبيعة المساجد نفسها تتنافى مع الضخامة والإسراف في الزينة لأننا نعرف أن المسجد ينبغي أن تتناسب هيئته مع بساطة الإسلام وصفائه، فالإسلام سهل يسر واضح وعبادته كلها بسيطة واضحة لا غموض فيها، والسبب في ذلك أن المساجد أقيمت للصلاة وهي مواضع مطهرة، مصونة عن الطريق، يقف فيها العبد بين يدي خالقه ليؤدي صلاته.

لقد حُطَّ المسجد النبوي بما يناسب إقامة شعائر الصلاة، فضلا عن باقي الوظائف التي سبقت الإشارة إليها، ومن ثمَّ صار تصميمه أساساً لتصميم المساجد الجامعة في الأقطار الإسلامية ولاسيما في القرون الأربعة الأولى، كما صار أهم الطرز المعمارية لبناء المساجد المنتشرة في كامل ربوع الدولة الإسلامية الفتية، وخاصة طراز المساجد المغربية الأندلسية.

فظهرت كآبنية بسيطة للصلاة والوعظ والاجتماعات العامة، ليس فيها نزوع إلى إتقان في العمارة والزخرفة، وفي مثل هذه المباني البسيطة لم تكن هناك ثمة ضرورة إلى استعارة أساليب معمارية من مكان، إذ لم تكن هناك حاجة لمثل هذه الأساليب.⁽³⁾ ويتألف طراز المسجد النبوي بصفة عامة من صحن مكشوف ذي تخطيط مربع أو مستطيل تحيط به في جوانبه الأربعة ظلات أربع اصطلح على تسميتها أحيانا بالأروقة وأطولها رواق القبلة، وتقوم الأروقة على أعمدة أو دعائم قد تعلوها عقود، كما نجد أحيانا بوسط رواق القبلة مجاز قاطع عمودي على جدار القبلة.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: الحنفي قطب الدين: تاريخ المدينة، تقديم وتعليق وتحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار المصري للطباعة، بورسعيد، د.ت، ص 93.

(2) - سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ج1، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1391هـ / 1971م، ص 38.

(3) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 29.

ثم ظهر طراز ثانٍ لبناء المساجد ربما تطور عن تصميم المدرسة وهو يشتمل على صحن أو فناء مربع قد يكون مكشوفاً أو مسقوفاً تحيط به أربع إيوانات في شكل متعامد وأكبرها إيوان القبلة⁽¹⁾.

والملاحظ أن هذه الصفات المعمارية السابقة الذكر لم تستمر طويلاً، فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم واتساع نطاق الفتوحات وازدياد رقعة الدولة الإسلامية، انتقل تفكير العرب بعد ذلك من القنعة بالضرورة بالضرورة، إلى الطموح في إقامة الأبنية الضخمة انتقالاً سريعاً، فلم يمض على رحيل نبي الأمة عشرون عاماً، حتى أعيد بناء مسجده الجامع بالمدينة المنورة بإقامة جدران ودعائم من الحجر له. وبعد سنين قليلة أدخلت المقصورة في عمارة المساجد⁽²⁾، ثم ظهرت المحاريب والمآذن التي لم يعرفها مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في عهده، فأصبحت هي التي تميّز عمارة المسجد وترمز إليه⁽³⁾، كما أدخلت زيادات ثانوية على البناء كالإيوانات والأروقة التي تحيط بصحن المسجد، فرفعت فوقها الأقواس والعقود المتنوعة الأشكال.

ويُقسَم المسجد إلى نوعين: واحد لا تقام فيه صلاة الجمعة، بينما تجري في الآخر: في المسجد الجامع، أو الجامع، أو الجامع الكبير، أو مسجد الجمعة؛ والمساجد الجامعة وحدها تُزوّد بالمنابر، وعددها يبقى قليلاً في المدن مهما اتسعت وكثر سكانها، فقرطبة لم يكن فيها إلاّ جامع واحد هو مسجدها الكبير⁽⁴⁾، بينما كان عدد مساجدها كثير وصل إلى حوالي 3877 مسجداً⁽⁵⁾.

لذلك يمكن القول أنّ لفظ الجامع وصف للمسجد الكبير، فقد قال هشام بن عمار: لما افتتح عمر ابن الخطاب البلدان كتب إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى

(1) - الباشا حسن: المرجع السابق، ص ص109-110.

(2) - شريف يوسف: المدخل لتاريخ فن العمارة العربية الإسلامية وتطورها، الموسوعة الصغيرة، سلسلة ثقافية نصف شهرية تصدرها دار الجاحظ للنشر، ماي 1970، العراق، ص 11.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 381.

(4) - سعاد ماهر: المرجع السابق، ص ص30-31.

(5) - المقري أحمد: نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج 2، د.ط، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1988، ص 79.

سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك، وكتب إلى أمراء أجناد الشام فكان الناس متمسكين بأمر عمر وأجناده (1) أما المساجد فقد نجد منها في الحي الواحد أربعة أو خمسة، وإذا تعددت المساجد الجامعة في المدينة الواحدة، أمّ المصلين وخطب فيهم بالتناوب كل جمعة في جامع (2).

ويتضح من خلال هذا التقسيم أن الجامع هو الذي تؤدي فيه صلاة الجماعة يوم الجمعة (3)، ولذا عرف بالجامع، ولما تأسست الدولة الأموية أصبح المسجد الجامع يشكل ظاهرة سياسية على جانب كبير من الأهمية، فقد كان على كل أمير أو عامل من عمال الأقاليم إقامة مسجد جامع يمثل مسجد الدولة الرسمي، وإذا عرفنا أن ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة في المسجد الجامع يكون شارة من شارات الخلافة، وأنّ عدم ذكر اسمه يعني خلعه، ومن ذلك يتبين لنا الدور السياسي بالإضافة إلى الدور الديني الذي كان ومازال يؤديه المسجد الجامع (4).

ويُراعى قبل تخطيط المسجد أن يكون موقعه وسط العمران وأن تكون مساحته شاسعة، على قدر الحاجة، وحسب ما تسمح به البيئة والمكان، وكان هذا التخطيط يخضع لأربع قواعد أساسية وهي:

- اتخاذ جدار القبلة قاعدةً للتخطيط.
- تخطيط بيت الصلاة على أساس صفوف موازية لجدار القبلة، سواء كانت العقود التي تقوم على الدعامات أو الأعمدة موازية لجدار القبلة أو عمودية عليه.
- أن يكون للمسجد صحن فسيح يتصل ببيت الصلاة، إن أمكن ذلك.
- يحاط المسجد بما فيه بيت الصلاة والصحن بجدار يحده، قد يكون مربعاً أو مستطيلاً مع ضرورة فتح أبواب تتخلل هذه الجدران (5).

(1) - سعد ماهر: المرجع السابق، ص 30 - 31.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 381.

(3) - الولي طه: المساجد في الإسلام، ط1، دار الملايين للعلم، لبنان، 1409هـ/1988م، ص 145.

(4) - سعد ماهر: المرجع السابق، ص 31.

(5) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 36.

- رب العالمين صاحب الرتبة العالية
- وتحفة الملوك العثمانية
- مولانا الحاج عثمان باي بن
- السيد ابراهيم خلد الله
- ملكه ملكا عليا وهما
- على الامة وليا وساميا
- وذلك في شهر الله شعبان
- عام ستين ومائة والف»⁽¹⁾ (تُنظر الصورة رقم:16)

خلال تصفحنا لمختلف المصادر، والتي نذكر منها على وجه الخصوص، الزباني في كتابه "دليل الحيران" والمزاري في كتابه "طلوع سعد السعود"، لاحظنا هناك اختلاف في مضمون الكتابة التأسيسية، فنجد أنهما ذكرا بعض الكلمات هي غير موجودة حاليا، وهذا ما يطرح عدة تساؤلات، حول أسباب هذا الاختلاف، كما يفتح الباب على مصراعيه لعدة احتمالات حول تعرض النقيشة إلى تغييرات في فترات لاحقة، خاصة في فترة الاحتلال الفرنسي، وهذا مضمون الكتابة التأسيسية حسب ما ورد في المصدرين السابقين:

" الحمد لله حمدا (لا نهاية لطوله)^(*) وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبينا وعبده (ورسوله) اما بعد (فقد) امر ببناء هذا المسجد المبارك المحمود المعظم (الارفع) القامع للعدا من جمع بين الشجاعة والندى (وطلع على الناس) بدر هدى صاحب لواء الحمد الاسمي ومالك ازمة المجد الاحمي حاج الحرمين الشريف امير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين صاحب الرتبة العالية وتحفة الملوك العثمانية مولانا الحاج عثمان باي ابن السيد ابراهيم خلد الله ملكه ملكا عاليا وهو على الامة واليا وساميا (وكان) ذلك في شهر شعبان عام ستين ومائة والف «.

(1)- وهو ما يُوافق شهري أوت- سبتمبر 1747هـ، ونلاحظ هناك اختلافات بين المؤرخين من أمثال الآغا بن عودة المزاري، في كتابه طلوع سعد السعود والباحثين من أمثال مبروك مهيرس، في كتابه المساجد العثمانية، في قراءة بعض كلمات اللوحة، وقد حاولنا تصحيح الأخطاء التي وقعوا فيها، عن طريق مقارنة ما ذكره مع ما هو موجود في اللوحة التأسيسية المثبتة في الجامع، وخرجنا بالنص الصحيح المذكور سابقا.

(*)- هذه الكلمات التي ما بين قوسين غير موجودة أساسا في نص اللوحة، وقد تم ذكرها من قبل الزباني والمزاري وفي بعض الأبحاث الحديثة منها: مبروك مهيرس في "كتاب المساجد..."، وبين بلة خيرة في رسالتها "المنشآت الدينية...".

مؤسسه:

أسس هذا الجامع من طرف الباى الحاج عثمان ويقال له كذلك (عصمان) بالتركية حسب ما جاء في مختلف المصادر التاريخية، نذكر منها على وجه الخصوص "محمد بن يوسف الزباني"، في كتابه "دليل الحيران..."، وهذا في قوله: "...وهو الذي بنى الجامع الأعظم بالمعسكر سنة توليته...". كما ورد اسمه في اللوحة التأسيسية المذكورة سابقا، وهو الباى الثالث والعشرين لبابلك الغرب، عُنِن في المرة الأولى بايا على مازونة وتلمسان في سنة 1018هـ، فهو أول من جمع له بينهما⁽¹⁾، لكنه لم يتمتع بهذه الولاية فقام عليه أهل تلمسان مع الباى يوسف المسراتي، وتولى في المرة الثانية على جميع الإيالة الغربية في أواسط محرم سنة 1160هـ الموافق لـ 1747م، ومكر بأهل تلمسان والمحال مكرًا كبيرًا، أفنى به أكثرهم^(*)، توفي بالمعسكر في سنة 1170هـ / 1750م، ودفن بها بعد أن ملك تسعة أعوام⁽²⁾، وقد شيد في مدينة معسكر مجموعة من المنشآت المعمارية.

• وصف الجامع:

يتكون هذا الجامع من ثلاث واجهات ظاهرة للعيان، أما الرابعة منه فهي ملتصقة مع الحمّام من الجهة الشرقية، وتعتبر الواجهة الجنوبية هي الواجهة الرئيسية، لوجود المدخل الرئيسي، الذي له معنى رمزي إذ هو الحد الفاصل بين الداخل والخارج، وهو في المبنى الديني المنفذ الذي ينقلنا مما هو غير مقدس إلى ما هو مقدس. والمدخل عامة هو إجمال لعمارة واجهة المسجد، إذ هو نقطته البؤرية وذلك بارتفاعه السامق الجدير ببيت الله، وليس

(1) - أبو راس محمد الناصري: الخبر المعرب... المصدر السابق، ورقة 128.

(*) - وسببه أنه لما كان بايا بتلمسان في المدة الأولى وجاء بموضعه يوسف المسراتي، لم يطل في المدة، فلذلك لم تحسب تلك الولاية ولم تُعدّ، فتعصب عليه أهل تلمسان ونقموا عليه وصاروا يرمون ساحته في الليل بكل ميتة ودم، فاغتاظ لذلك وذهب إلى الجزائر، ولما مر بالمحال سأل منهم ماء لما عطش، فأتوه بلبن وحين شرع في شربه أرهقوه عليه، وضحكوا من ذلك، فأسرّها في نفسه ومشى للجزائر، ولما وصل إلى الجزائر واجتمع بالباشا، سأل منه أن يُوليه بايا ويطوع له تلمسان والمحال، ويعطيه عدد من المال، فولاه وجاء مغربًا بالجيش معه، فأوقع بأهل تلمسان إيقاعًا كثيرًا وصال على المحال إلى أن أفناهم وأجلاهم لوهران، ثم رجعهم لمحلهم، على أن لا يرفعوا رؤوسهم، فحل بهم ما هو مشهور بينه وبينهم على السنة الناس، ومذكور في كلام الفصحاء. لمزيد من المعلومات يُنظر:

- الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 194-195.

(2) - نفسه: ص 195-196. يُنظر كذلك: أبو راس محمد الناصري: عجائب الأسفار... المصدر السابق، ص 87.

ثمة عادة غير مدخل واحد للمسجد⁽¹⁾، لذلك نجد في الجامع الكبير مدخل فرعي آخر يقع في الواجهة الغربية، لكن الملاحظ حالياً أن الجامع قد تعرض لعدة تغييرات، فحسب القائمين عليه كانت الجهة الغربية عبارة عن حديقة، ويتم عبرها الوصول إلى المدخل الرئيسي، الذي هو الآن مدمج في بيت الصلاة، نظراً للتوسيعات التي أجريت عليها في الفترة المعاصرة، وهو يظهر عبارة عن مدخل بدون باب خشبي معقود بعقد حدوي، مقاساته 2.60×1.70م، وفي أعلاه ثبتت لوحة جصية مستطيلة الشكل تحتوي على كتابة تأسيسية، وهي بدورها تغلونها ظلة خشبية مزخرفة ومتقنة الصنع، الغرض منها حماية اللوحة من التلف، بالإضافة إلى كسر مياه الأمطار ومنعها من التسرب إلى داخل الجامع، وكذلك إعطاء نظرة جمالية لمدخله. لكن هذه الواجهة الرئيسية تعرضت لتغيير شبه كلي، فقد عرفنا ذلك من خلال حصولنا على صورة قديمة للجامع تعود إلى الفترة الاستعمارية، حيث يظهر المدخل الرئيسي مزود بباب خشبي بدفتين، كما كانت تحده من الجهة الجنوبية الغربية ضريح دفن فيه بعض البايات، وهي المعروفة بقبة الباي إبراهيم. (يُنظر الشكل رقم 7) و(تُنظر الصور رقم 18-19-20-21-22-23-24)

وكان له مدخل من جهة الحمام سُد واقتطع الجزء السفلي اللاصق للحمام واستحدث به المراحيض وحفريات الوضوء والعلوي ضم إلى بيت الصلاة، ويفصل الجامع عن الشارع الشرقي ممر طويل يُجانب جدار القبلة، محاط بسياج حديدي الغرض منه حماية جدار القبلة. (يُنظر الشكل رقم 8)

بيت الصلاة:

تتكون بيت الصلاة الأصلية من ستة أساكيب عمودية على جدار القبلة، ورواق في المؤخرة، يظهر مختلفاً عنها من ناحية البناء، وبدورها تتشكل عنها خمسة بوائك، وخمسة بلاطات موازية لجدار القبلة، أوسعها البلاطة المستعرضة، أو ما تسمى ببلاطة المحراب، لأنها تشرف عليه، وقد تفنن البناؤون في عمله وهو عبارة عن تجويف عمقه 1.60م وعرضه 1,10م وارتفاعه 3م، يكتنفه عمودان أسطوانيان متوجان بتاج مزين بزخارف نباتية وهندسية، يحملان عقداً حذوياً متجاوزاً (يُنظر الشكل رقم 10)، وتليه قبة، وهي المعروفة معمارياً بقبة المحراب، تظهر على شكل مئمن ومزينة بزخارف مختلفة، (تُنظر الصور رقم 27/28/29)

(1) - ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق الأولى، القاهرة، 1414هـ/1994م، ص 111.

وهذه البلاطة تختلف عن البلاطات الأخرى من ناحية التخطيط والبناء، إذ أنها تتكون من عقود ممتدة على الجهات الأربع، والتي بدورها تحملها أربعة أعمدة متلاصقة ومجمعة، ما عدا التي في آخر البائكتين فهي من ثلاثة أعمدة. (تُنظر الصور رقم 32/31/30/26/25)

كما نلاحظ في مؤخرة هذا الجامع رواق غير مفتوح بطريقة مباشرة، بحيث يكتنف ممره مداخل متوسطة الارتفاع، بعقود نصف دائرية بدون أبواب، تؤدي إلى مدخل في الجهة الشمالية الغربية، مفتوح على الميضاة، وهذه ظاهرة معمارية قلما نجدها في الجوامع، كما يحتوي هذا الرواق على غرفة خاصة بالإمام، وهي ما تعرف بالمقصورة، ولكن حسب قيم الجامع أنها حديثة البناء، وموقعها الأصلي كان في الركن الجنوبي الشرقي، حيث أنها هدمت في سنة 1965م، عند توسيع بيت الصلاة من الجهة الشرقية، كما زُين هذا الرواق من جهته الشمالية الغربية بمجموعة متنوعة من المربعات الخزفية، كانت في الأصل تزين قبة سيدي عبد القادر الجيلاني. (تُنظر الصورتان رقم: 34/33)

يحتوي الجامع على خمسة نوافذ متشابهة في شكلها العام، نجدها في جدار القبلة وهي متوسطة الحجم، فتحت داخل تجويف معقود بعقد نصف دائري تظهر على شكل خزانة جدارية، كما تعلوها أحيانا نافذة أخرى صغيرة الحجم. (تُنظر الصورة رقم 35)

المئذنة:

كان الموقع الأصلي لمئذنة الجامع في الركن الشرقي الجنوبي، لكن بعد الإضافات التي أدخلت عليه في الفترة المعاصرة، جعلها في الجهة الشرقية من بيت الصلاة، حتى أنها أصبحت مدمجة فيها (يُنظر الشكل رقم 7)، أما عن تركيبها المعماري فهي تظهر على شكل مربع، تشبه في تصميمها مآذن الجوامع المغربية الأولى كجامع القيروان، وفيما يخص مقاساتها فارتفاعها متوسط، يبلغ حوالي 23.10م، وهي تتكون من قاعدة وبدن وجوسق فالقاعدة مدمجة في الجدار الشرقي، ومن حسن الحظ أننا تحصلنا على صورة لها قبل عملية التوسعة، حيث أنها كانت بسيطة في مظهرها، تحتوي على المدخل الذي فتح داخل بيت الصلاة من الجهة الغربية، أما عن البدن فيتكون من ثلاثة أقسام، فالقسم الأول مظهره بسيط، فتحت فيه فتحة صغيرة للإضاءة في الجهة الشرقية، أما القسم الثاني فهو محصور بطنفين، حيث أنه زين في واجهاته الأربع بزخارف معمارية، تتمثل في عقد كبير مفصص يعلوه إطار بسيط، ونلاحظ أن عقد الجهة الشرقية يحتوي على ساعة شمسية، وضعت في

- بسم الله الرحمن الرحيم
 - صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
 - الحمد لله
 - أما بعد أمر بتشيد هذا الجامع المبارك خليفة السلطان السيد محمد باي بن عثمان ا
 - يده الله أمين
 - انتهى بحمد الله على يد المعلم أحمد بن محمد بن حج احساين بن صارمشيق
 - التلمساني رحمه الله في أول يوم من ذي القعدة عام خمسته وتسعين ومائة والف
- (تنظر الصورة رقم 42)

وقد أخطأ الدكتور « Leclerc » في مقاله المسمى « Les inscriptions arabes de Mascara » والمنشور في المجلة الإفريقية لعام 1860م، في قراءة تاريخ بناء الجامع، حيث أنه وضع سنة 1175هـ عوض 1195هـ، كما أنه أشار إلى أن صحن الجامع، كان يحتوي على كتابة نصها "كتب الحروف محمد بن صارمشق"، وحاليا لم نجد لها أي أثر في الجامع، كما أورد بأنه قام بالبحث عن مصدر ومعنى كلمة "صارمشيق" فوجد في تلمسان عائلات تحمل هذا اللقب، أصولها ترجع إلى تركيا.⁽¹⁾

يحتوي الجامع بالإضافة إلى الكتابة السابقة كتابة أخرى، هي عبارة لوحة من الرخام مثبتة على يمين المدخل الرئيسي، في الجهة الجنوبية، نصها كالاتي:

"الحمد لله الذي وفق عباده لسلوك المتقين ودلهم لصالح الأعمال التي ينتفع بها الإنسان والصلاة والسلام على المبعوث بالمعجزات والآيات البيّنات صلى الله عليه وعلى آله صلاة وسلاما دائما بدوام الأرض والسموات أما بعد وأن السيد ابن محمد بولكباشي بن عثمان جمع الدار الكائنة على ملكه بأمر العساكر التي كان اشتراها من صهره الناسك الإمام أمير الوقت مولانا الحاج عثمان باي كما هو ذكر الشراء بيده مختوما بطابعه التحبيس على عقار الذكور والإناث ما تتاسلوا وامتدت فروعهم على عقبهم وعقب عقبهم ومن مات عن غير عقب رجع نصيبه إلى الباقيين إلى النسل رجعت الدار المذكورة إلى مكة والمدينة تحبيسا لا

(1)- Leclerc CH: «Les inscription arabes de Mascara, Mosquée d'Ain Beidha », revue Africaine, T 4, Année 1859-1860, offices des publications universitaires- Alger, p43.

يبدل ولا يغير وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون بتاريخ ربيع الأول عام أربعة وستين ومائة وألف شهد بذلك السيد الحاج مصطفى بن بوشلاغم رحمه الله". (تنظر الصورة رقم 43) عند قراءتنا لهذه اللوحة طرحنا مجموعة من التساؤلات، تدور حول سبب وجودها في هذا الجامع، وهذا لعدة اعتبارات منها: أن تاريخها يعود إلى عام 1164هـ أي قبل بناء هذا الجامع بحوالي 31 سنة، كما أن ورود بعض الأسماء ك"محمد بولكباشي بن عثمان والباي الحاج عثمان باي الذي حكم ما بين (1160 - 1170هـ / 1747 - 1756م) ومصطفى بن أبي الشلاغم الذي يُقصد به الباي مصطفى قايد الذهب المسراتي، الذي حكم ما بين (1155 - 1160هـ / 1742-1747م)، فهو الوحيد من عاصر الباي عثمان في فترة حكمه، كما أنه يعتبر صهره وزوج أخته "خروفة"، وكذلك كون هذا الأخير هو من خلع الباي مصطفى من الحكم حسب ما ذكره "المزاري" في قوله: "...وبقي في الملك ستة أعوام ثم قام عليه صهره زوج أخته خروفة وهو الحاج عصمان بن إبراهيم..."⁽¹⁾. أما مضمون هذه اللوحة فهي عبارات وقفية لدار محمد بولكباشي بن عثمان على أبنائه من الذكور والبنات، وإذا انقطع النسل فتصبح حبوسا على مكة والمدينة، وهي التي اشتراها من صهره الحاج عثمان باي، أي "مصطفى قائد الذهب"، لكن السؤال المطروح لماذا هي موجودة في جامع عين البيضاء، وغالب الظن أن هذه الدار تعرضت للتهديم في فترة الاحتلال الفرنسي، وتم نقل هذه اللوحة إلى هذا الجامع.

لقد أطلق على هذا الجامع أربع تسميات، فالتسمية الأولى هي "جامع عين البيضاء" نسبة إلى العين الموجودة بالمنطقة، حيث أنّ لونها كان أبيضاً، فاتخذ منه اسمها، أما التسمية الثانية فهي جامع "الباي محمد الكبير"، نسبة إلى مشيده، والثالثة هي "جامع المبايعه"، لأنه فيه بايع زعماء منطقة غريس والحشم، الأمير عبد القادر أميراً للجهاد والمقاومة أوائل عام 1832م، واستمر في وظيفته عدة سنوات إلى أن تم نقض معاهدة تافنة من طرف الفرنسيين أواخر عام 1839م، الذين احتلوا فيه مدينة معسكر في العام الموالي فتعرض الجامع لمحنة الغلق والإهانة والإذلال قرابة سبعين عاماً كاملة، فاتخذه الفرنسيون مربطاً لخيول جنود الصبايحية ومخزناً لعلفهم وللعتاد العسكري سنوات طويلة، ثم أجره أحد

(1) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص280.

اليهود الذي يدعى "بن عدى" واتخذته متجرا لبيع الحبوب، وخاصة القمح الصلب واللين والخرطال.

وقد راودت هذا التاجر اليهودي وأمثاله من اليهود الماكرين، فكرة تحويل هذا الجامع إلى ديرا لليهود، فسعوا لدى السلطات الفرنسية وعرضوا عليها فكرة شرائه لتحقيق مشروعهم الخبيث، لكن من سوء حظهم أن حاكم مدينة معسكر كان يكره اليهود، فأخبر شيوخ المدينة من المسلمين بالأمر، وأوعز إليهم بأن يطلبوا من السلطات الفرنسية أن تعيده إليهم لاتخاذهم كمسجد للصلاة، وشجعهم على ذلك، فقدموا طلبهم وأكثروا من السعي ووسطوا ذوي الشأن وتم لهم ذلك فاستعادوه وفتحوه في حدود عام 1910 تقريبا، وبذلك أنقذوه من الأسر المسيحي، وإذلال اليهود وإحباط مخططاتهم الخبيثة، فعاد ليؤدي رسالته الدينية والتربوية والثقافية التي أسس لها ومن أجلها، عاد المسلمون لأداء فروضهم وواجباتهم الدينية فيه، كما كانوا من قبل.⁽¹⁾

أما الاسم الرابع فهو جامع "سيدي حسان"، وسبب ذلك أن الاستعمار الفرنسي أراد أن يطمس معالم واسم هذا الجامع المزدوج الشرف، والذي تعاقب عليه شريفيين لمجاهدين، الأول هو الباي محمد الكبير فاتح وهران ومخلصها من الاستعمار الاسباني، والثاني هو الأمير عبد القادر بطل المقاومة الشعبية بالغرب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وبهذه الأسماء لمجاهدين كبيرين، يظل الجزائريون يذكرهما مادامت هذه الجدران قائمة، فعمد الاحتلال إلى حيلة لتتسية سكان معسكر بهذه الأسماء، التي قد تبعث في نفوس الجزائريين الحماس والتذكير بالمجاهدين وأيام الجهاد في سبيل الله، فحدث أن اشترى مستوطن فرنسي أرضا مجاورة للجامع، وبالأرض قبر لرجل صالح يسمى "سيدي حسان"، فطلب هذا الفرنسي أن ينقل هذا القبر من أرضه، فنقلوه ودفنوه بالقرب من الجامع، ومنذ ذلك الحين غيروا اسمه وأطلقوا عليه اسم "جامع سيدي حسان".⁽²⁾ لكن الغريب في الأمر عندما حاولنا معرفة تاريخ هذه الشخصية من خلال تصفح مختلف المصادر التي نعود إلى الفترة العثمانية، لم نجد ولا إشارة عنه، كما قمنا بالتواصل مع أهالي المدينة ومتقفيها، الذين لا يعرفون عنه سوى أنه كان رجلا صالحا، ومنهم من قال لنا هو عبارة عن شخصية افتراضية كان الغرض منها

(1) - بوعزيز يحيى: المساجد العتيقة... المرجع السابق، ص 216-217.

(2) - مهبيرس مبروك: المرجع السابق، ص 50.

"لقد حصل للناس بينائه ما يحصل له به إن شاء الله من أعظم الأجر، ويحسب له من العمل المبرور، لأنه كان بينيه زمن المسغبة، فكان من لم يجد قوتا آجر نفسه للخدمة فيه بما يستعين به على معيشته، ومن له دابة أكرهاها، ومن له شيء بمتعلقات البناء لم يبخس عليه. فجاء من المباني الرائقة والآثار الفائقة، التي لم يبن أمير مثلها اتقانا وحسنا"⁽¹⁾، "وبنا مدرسة كبيرة وألحقها به وحبس عليه خزانة كُتُب، زيادة على مخبزة ودكاكين وأجنحة وكل مرافق الحياة، التي كانت مجعولة لاحتياج الطلبة والأساتذة وجميع موظفي المسجد والمدرسة"⁽²⁾. "وجعل شرقيه مقبرة محوزة بالبناء الوثيق، يدفن فيها الشهداء ومن مات من قرابته وأولاده، كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناءا وشكلا، والدار الملاصقة لميضاة البديعة، المحتوية على نحو ستة عشر مطهرة، وأتاه بماء كثير اشتراه من أربابه جعله سقايات للسبيل، فروى به أهل الناحية بعد الضم الملائم والتعب، وفرغ من جميع تعلقاته من تنميق وغيره سنة ست وتسعين ومائة وألف"، فتغنى به الشعراء وقيلت فيه القصائد نذكر منها:

إن حله المرء حل الأنس مهجته
لقلت ذي جنة للخاد قد ظهرت
انظر لمنبره المسود تحسبه
انظر لقبته العلياء تحسبها
وقيل فيه أيضا:
ألق العصا وفك رحل ركائبي
المحكم التشييد في شرفاته
وصار في الحين للأذكار ذا بطر
يحظى بها عاملوا الخيرات بالأجد
ليلا وفيه نجوم العاج كالزهر
عقيلة فوق كرسي من الحجر⁽³⁾
بالمسجد المنشئ بأمر عسكر
فتراه يحسن كالرياض الممطر⁽⁴⁾

(1) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 127.

(2) - التلمساني أحمد ابن هطال: المصدر السابق، ص 28.

(3) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص ص 127 - 129، يُنظر كذلك:

- Gorguos. A « Notice Sur Le Bey d'Oran Mohammed El Kebir », *revue Africaine*, office des publications universitaires, Alger, 1856, 1858, p 409.

(4) - التلمساني أحمد بن هطال: المصدر السابق، ص 28.

أما هندسة بناء الجامع والنقش والخطوط، فقد قام بها أحمد بن صارم شق، الذي ينتمي إلى أسرة تلمسانية، مشهورة بطلب العلم، ولا شك أن الجامع الكبير كان يضم عددا مهما من الموظفين، الذين يتألفون من خطيب للجمعة وإمام للصلوات الخمس وأربعة مؤذنين ومقدم للطلبة، ومما يلاحظ أن هؤلاء الموظفين كانوا يتلقون رواتب من الوقفية، التي أوقفها الباقي محمد الكبير على الجامع الكبير فتضمنت مايلي :

" 4 سلطانية ذهبا للطلبة، الذين يحضرون درس صحيح البخاري في كل سنة، 50 ريالا للإمام، 40 ريالا للخطيب، 80 ريالا للمؤذنين يتقاسمونها، 44 ريالا للحزابين يتقاسمونها 40 ريالا لمدرس صحيح البخاري، 60 ريالا لكل مدرس، 15 ريالا لوكيل خزانة الكتب الملحقة بالجامع، 10 ريالات للراوي، 15 ريالا لمصلح المطاهر، 40 ريالا لوكيل الوقف نصف ريال حق بيت عامر شهريا لزيت الطالب الساكن فيه⁽¹⁾.

٧ مؤسسه:

أسس هذا الجامع على يد الباقي محمد الكبير، حسب ما ذكره أحمد بن علي بن سحنون في كتابه "الثغر الجماني"، وهذا في قوله: "...ثم شرع في بناء مسجده العظيم، الذي لم يبين أمير مثله إتقانا وحسنا...⁽²⁾"، وكذلك فيما ورد في مدونات كاتبه ومستشاره "أحمد بن هطال التلمساني"، إذ أنه قال: "...ثم شيّد المسجد الذي يحمل اسمه "جامع محمد الكبير"...⁽³⁾"، بالإضافة إلى ما دونه الزباني في قوله: "...وبنى الجامع الأعظم بعين البيضاء من بلد المعسكر..."⁽⁴⁾

(1) - جاكور لحسن: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931-1956، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، د ط، ص ص 25 - 26، يُنظر أيضا:

- Leclerc. CH, Op.cit, PP45-46.

(2) - ابن سحنون أحمد بن علي الراشدي: المصدر السابق، ص 127.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 28.

(4) - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 204.

وهو محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي، أمه جارية اسمها زائدة، أهداها ملك المغرب مولاي إسماعيل لوالده. يعتبر هذا الباي من أشهر بايات معسكر⁽¹⁾، يشوب تاريخ ولادته الكثير من الغموض، إلا أن الخزندار "تدينا Thédénat" قدّر عُمر الباي محمد عند أول لقاء به في قصره عام 1779م، بين أربعين وخمسة وأربعين سنة، وهذا ما يرجح أنه وُلد بين سنتي 1734 و 1739م⁽²⁾، ومكان ولادته هي مدينة مليانة^(*)، التي كانت تحت قيادة والده "عثمان الكردي"، الذي ارتقى إلى منصب باي لبابك التيطري فيما بعد⁽³⁾، وهم من سلالة كردية تركية، كان رجلا جسيما أسمر اللون، لذلك لقب بـ "محمد الأكل"، وكنيته أبو عثمان⁽⁴⁾، "ذو وجه جميل، ولحية سوداء تظهره شديد البياض، وهي تنزل إلى منتصف صدره، وشعره ينزل على كتفيه على الطريقة التركية"⁽⁵⁾، وكان أبوه مرتبطا بعري الصداقة مع أبي إسحاق إبراهيم الملياني، وكان هذا الأخير قائدا على مليانة، ولما توفي الباي عثمان تكفل إبراهيم بعائلته واعتنى بولديه "محمد الكبير" و "محمد الرقيق الملقب بـ بوكابوس".

لقد تَكَوَّن محمد الكبير تكويننا علميا جيدا، وأصبح من أهل البلاغة واللسان الفصيح⁽⁶⁾، اكتسب مهارة إدارية كبيرة، ولما توسم إبراهيم فيه نشاطا وشجاعة صادقة وذكاء حاد، أحب أن يوطد العلاقات معه، فأصهر إليه وزوجه بابنته، ولما ارتقى إبراهيم وعين عن الإيالة الغربية⁽⁷⁾، أخذه معه وعينه قائدا على "فليطة" سنة 1178هـ الموافق لـ 1764-1765م، وهي أول قاعدة في الإقليم الغربي، وبعد أن أبدى حسنه في القيادة لفت انتباه

(1)- Kaddache. M: **L'Algérie durant la période ottomane**, office des publications universitaires, Alger, 2003, p139.

(2) - عميرواي احميده: المرجع السابق، ص 54.

(*) - مليانة: مدينة قديمة كانت تسمى زوكابار في العهد الروماني، اندثرت ثم أعيد بناؤها في العهد الزيري، لتعرف تطورا وازدهارا كبيرا، خاصة في العهد العثماني، لمزيد من المعلومات يُنظر: قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية في مدينة مليانة، دراسة أثرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، من ص 12 إلى 50.

(3) - مجهول: محمد الأكل... المصدر السابق، ورقة 2.

(4) - كان له عدة كنيات منها: أبو علي، أبو محمد، أبو أحمد، أبو الفتوحات، أبو النصر، أبو المواهب، أبو الربيع، أبو الفتح، لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 15.

(5) - عميرواي احميده: المرجع السابق، ص 54.

(6) - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 199.

(7) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 125.

صبيحة الاثنين خامس رجب من سنة 1206 هـ الموافق لـ 1791م⁽¹⁾، ولما ارتحل إليها قصدته الأدباء بالشعر الأسنى، فمن ذلك قصيدة العلامة السيد المصطفى بن عبد الله الدحاوي، ومنها كذلك قول الحافظ أبي راس الناصري في الحلل السندسية:
خايلي قد طاب الشراب المورد لما أن صار الأمر بالثغر يقصد
واجفت رحل الوافدين أم عسكر وقد كان مأوى للوفود ومقصد
وقال أيضا: (2)

سلطان وهران ما خيب قاصده زهت به وعلت أقاليم الأمم
شدّ قواعدها بحزمة فغدت مكفولة به لم تيم ولم تيم
يرثها أولاده بعده أبدا كإرث آل شيبية مفتاح الحرم
وعلى إثر هذا العمل الجسيم مُنح البايع لقب "محمد الكبير" من طرف "حسن باشا"
إكراما له⁽³⁾، عندما توجه إليه في العاصمة، حيث استقبله استقبالا عظيما ومنحه "ريشة
الانتصار"، ثم عينه بايا على مدينة وهران وجميع الإيالة الغربية بما فيها مدينة تلمسان
وتيطري⁽⁴⁾ اعترافا بفضله وصدق كفاحه.⁽⁵⁾

وفي عهده استتب الأمن، وحصلت العافية وتآخت القبائل في بعضها البعض
واصطلحت على الراحة وترك الفساد والعنود، وهو ما يؤكد أحمد بن سحنون الراشدي في
كتابه "الثغر الجماني"، في قوله "كل هذا وهو يسوس الرعية أحسن سياسة ويدبر أمرها
أحسن تدبير، ويحوط حرمها من الانتهاك ويمنعها ممن ناواها فما تشتت لها شمل إلاّ جمعه
ولا ظهر عليها عاد إلاّ قمعه، ولا مدت له يد إلاّ أشلها، ولا اشتدت عليها عقدة إلاّ حلها
ونعمه تشمل العامة والخاصة، ونقمه إنما تحل بالمعتدين"⁽⁶⁾.

(1) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 21. يُنظر كذلك:

- الزياتي محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 199.

(2) - الزياتي محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 200.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 15.

(4) - نفسه: من ص 19 إلى ص 23.

(5) - المدني أحمد توفيق: المرجع السابق، ص 527، يُنظر كذلك: - بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة

في العهد العثماني، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص 151 - 153.

(6) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 135.

كل أحد للتدريس واشتد الحرص على العلم من بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة لقلة جدواه...»(1)

ويكفينا دليلا ما ألفه علماء عصره من كتب نفيسة في أخلاقه المرضية وسيرته المحمودة(2)، مثل: كتاب "عجائب الأسفار" لمحمد أبي رأس المعسكري، وكتاب "الشعر الجماني" لأحمد بن علي بن سحنون الراشدي، وكتاب "الرحلة القمرية في الرحلة المحمدية" لمصطفى بن عبد الله بن زرفة وغير ذلك من التأليف(3). فكان تقيا نقيا يرسل كل سنة هدية مالية إلى الحرمين الشريفين، ويبعث كل سنة بمملوك لخدمة الحرم النبوي(4).

توفي الباي الأكحل - بعدما حكم عشرين سنة بايا وسبعة أعوام خليفة مفوضا - ببلاد "أصبيح" وهو قافلا من الجزائر بعد تقديمه للدنوش لداي الجزائر في سنة 1213 هـ الموافق لـ 1799م، وأوصى بدفنه في المدرسة التي بناها في وهران، وهي مدرسة "خناق النطاح"(5) وقد رحل وترك لغزا حير المؤرخين حول أسباب وفاته، لكن آثاره مازالت شاهدة تذكر اسمه في كل من مدينة معسكر ووهران وتلمسان، هي عبارة عن مساجد وقصور ومدارس ومكتبات وأسواق وأسبلة وأسوار وقلاع وأبراج(6)، وقد احتضنت هذه المنشآت العلماء والطلبة، الذين أكرمهم وجعلهم في أعلى المراتب، وتدوين ما كتبه عن طريق الاهتمام بحركة النسخ والتأليف.

(1) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 135.

(2) - من خلال تصفحنا لمختلف المصادر التي تطرقت إلى سيرة هذا الباي، جلها ذكرت محاسنه، ولم تُشر إلى عيوبه ومساوئه، ما عدا "تيدنا"، فرغم حبه وتعلقه به، لم يمنعه ذلك من تقديم من الحديث عن مساوئه، الشيء الذي لم يذكره غيره حتى من الجزائريين، فقد وصفه بالجشع، يحب المال ويرغبته في كسبه بأية وسيلة وعلى حساب غيره من الناس، رغم رقة مشاعره وحبّه للناس ومساعدته لهم، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- عميرواي أحميدة: المرجع السابق، ص ص 84 - 86 - 138.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص ص 24 - 26، يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 5، طبعة خاصة، دار الرائد للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 89.

(4) - الطمار محمد: المرجع السابق، ص 253.

(5) - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص 65، يُنظر كذلك: - الزياني محمد بن يوسف: المصدر السابق ص 204. وأيضا: - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 298 - عميرواي أحميدة: المرجع السابق، ص ص 82-83.

- Caporal. B: Op.cit, p43.

(6) - Ibid: p16.

2- المدارس:

1-2 تعريفها:

أ- لغة:

حاول الكثير من الباحثين التأريخ لنشأة المدارس في الإسلام، بالبحث في الأصل اللغوي لكلمة "مدرسة"، ولم يكن أمامهم سوى رد الكلمة إلى أصلها الثلاثي "دَرَسَ" (1) أي: تعلم، وهي جمع "مدارس"، مأخوذة من فعل درس، والمدرسة من الدراسة، ومنه درست السورة، أي حفظتها، و"درس الكتاب يدرسه درسا" ودراسة، ودارسه بمعنى عاود الكتاب قراءة فيه انقاد لحفظه، وقيل درست، قرأت كتب أهل الكتاب، ودارست: ذاكرتهم، ودرست الكتاب: أدرسه درسا، أي: ذللته بكثرة القراءة، حتى خف حفظه عليّ، والمدراس، والمدرّس، الموضوع الذي يُدرّس فيه، والمدرس الكتاب، والمدارس الذي قرأ الكتب ودرسها (2).

ب- اصطلاحا:

تعتبر المدارس من المؤسسات التعليمية التي تميل إلى الجمع بين عناصر المعمار الديني والمدني (3)، "فالمدرسة هي التي تبنى لدراسة العلم أي تعليمه وتعلمه" (4)، فاقترنت في بداية الأمر على تعليم المذهب السني لنشره بين الناس، وإعداد طبقة من الموظفين يرتبطون بهذا المذهب ويطبقونه بشكل صارم وحازم (5)، لذلك اهتم المعماري المسلم بمسألة وجود الطلبة والشيوخ والفقهاء في المدرسة عند القيام بتخطيطها، فراعى وجود بيت للعاملين والدارسين والمدرسين في المدرسة، بالإضافة إلى قاعات الدراسة، وجميع المرافق الأخرى المتوفرة في جميع المدارس، كما جرت العادة أن تؤسس هذه المدارس بجوار المساجد، نظرا

(1) - سلام أيمن شاهين: المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني، رسالة للحصول على شهادة الدكتوراه الفلسفة في الآداب شعبة التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة طنطا، 1420هـ / 1999م ص 33.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج1، ص968.

(3) - سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص32.

(4) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله.....المصدر السابق، ص188.

(5) - الولي طه: المساجد في الإسلام، دار الملايين للعلم، ط1، لبنان، 1409هـ / 1988م، ص84.

للصلة الوثيقة بين الدين والعلم، ولكن هذا ليس شرطاً. غير أن كل مدرسة لابد أن يؤسس داخلها بيت للصلاة⁽¹⁾.

ج- عمارة:

أما من الناحية المعمارية، فهي تتكون أساساً من صحن وقاعة للصلاة ومرافق أخرى⁽²⁾، ويعتمد تخطيطها على جدار القبلة كقاعدة لتصميم البناء بصفته الكلية، وحدودها الداخلية تنتظم في شكل مستطيل، أو مربع قائم على خط هذا الجدار⁽³⁾. لذلك نجد أن كل مدرسة تحتوي على بيت للصلاة، ويكون موقعه دائماً في الجهة القبلية منها، وهو أكبر قاعاتها أهمية واتساعاً، وغالباً ما يكون امتداده بموازاة جدار القبلة، أطول من امتداده العمودي عليه.

يتوسط بناء المدرسة فناء مكشوف، يساهم في إدخال الضوء والهواء إلى سائر المرافق الأخرى، ويكون مربعاً أو مستطيلاً يقع خلف بيت الصلاة، ليصبح مكماً له في استيعاب أعداد المصلين، إن دعت الحاجة إلى إقامة صلاة الجمعة داخل المدرسة. يحيط بالفناء الوسطي المكشوف أبنية مختلفة الأشكال والأحجام، وتشتمل هذه الأبنية على جميع مرافق المدرسة، من قاعات للتدريس وجلس المدرسين والنظار والمشرفين وحجرات وغرف صغيرة للسكن ومخازن مختلفة، كما تحتوي على مطبخ، مخبزة، حَمَّام وغير ذلك من المنافع العامة⁽⁴⁾.

من خلال ما تقدم ذكره في تعريف المدرسة عمارة، يمكننا القول بأن النظام التخطيطي للمدرسة هو مستمد أصلاً من نظام المسجد الجامع، وتطورت عمارته وتخطيطه تطوراً منطقياً بحكم الضرورة⁽⁵⁾، لكنها تتميز بعناصر وملامح خاصة، لا يوجد مثلها في المسجد، من ذلك أنها تتألف من إيوان واحد أو أكثر تبعاً لما هي مخصصة له من الدروس

(1) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج2، د.ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009 ص198.

(2) - رزق محمد عاصم: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط1، مكتبة مدبولي، 2000، ص271.

(3) - عزب خالد: المرجع السابق، ص ص119 - 120.

(4) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص118. يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص358.

(5) - عزب خالد: المرجع السابق، ص120.

الفقهية، إذا كانت على مذهب واحد أو على عدة مذاهب، ومن حيث المبدأ فإنه لا يوجد في المدرسة منارة للأذان ولا منبر للخطابة، كما هي الحال في المساجد الجامعة⁽¹⁾.

2-2- تاريخ ظهور المدرسة في الإسلام:

كان التعليم وما يزال، الأساس الحقيقي لكل ثقافة، ولأي تقدم في المجتمع الإنساني فالعلم من جملة الصنائع كما يقول "ابن خلدون"⁽²⁾، وقد ارتبط تطوره وانتشاره في العالم الإسلامي، بظهور المؤسسات الدينية والتعليمية، التي عُرِفَت بعد الهجرة النبوية، وقد مَثَّلَ المسجد في ذلك الوقت النواة الأولى كمؤسسة ثقافية وتعليمية ودينية في آن واحد، فكانت المساجد هي المعاهد الأولى للتعليم عند المسلمين، وكان ذلك مظهراً أولياً لنشأة حركة التعليم، وتطورت شيئاً فشيئاً، وأصبحت المساجد الجامعة الأولى في القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة خير أماكن التعليم مثل: المسجد النبوي بالمدينة، مسجد الكوفة، الجامع الأموي بدمشق، وغيرها من المساجد الجامعة، تُبَلِّغ رسالة الإسلام وتعالج مشاكل المجتمع في شتى مجالات الحياة الدينية والتعليمية والقضائية⁽³⁾. ثم بدأت تظهر مؤسسات أخرى بالتدرج مُشاركةً له في تبليغ رسالته الدينية والتعليمية، ومخففة عنه بعض الأعباء كتحفيز القرآن وتعليم العلوم الشرعية في مختلف المراحل، وأهمها المدارس العلمية التي تعتبر كمرحلة متقدمة في سلسلة التطورات التي مرت بها حركة التعليم⁽⁴⁾. فهي مؤسسات ثقافية، تتمثل وظيفتها بصورة أساسية في تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية، وكان ظهورها بعد أن توسعت رقعة الدولة الإسلامية، وانفصال الشعوب الإسلامية واحتكاكها بشعوب أخرى فأصبحت الحاجة الملحة إلى اقتباس المعارف والعلوم المتنوعة والاستفادة من مختلف المعارف الضرورية لحياة المسلمين، الأمر الذي فرض إنشاء هذه المدارس وانتشارها⁽⁵⁾.

(1) - الولي طه: المرجع السابق، ص 84.

(2) - ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة...، المصدر السابق، ص 379.

(3) - عزب خالد: المرجع السابق، ص 118 - 119.

(4) - مريوش أحمد: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في

الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 11.

(5) - مريوش أحمد: المرجع السابق، ص 15.

الميلادي، إلا أن هذا لا يعني أن المسلمين لم يكونوا أهل علم ومعرفة، بل على العكس لأن أول من دعا إليه الإسلام هو طلب العلم، ودلّ على ذلك قوله تعالى في أول آية نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، فهي جاءت لتشمل كل ما يميز المؤسسات التعليمية الأخرى التي سبقتها في مؤسسة واحدة، والتي حرص مؤسسوها على أن يحققوا لها تميّزها واستقلالها عن بقية المؤسسات التعليمية الأخرى، والواقع أنهم نجحوا في ذلك المقصد، لاسيما إذا علمنا أن المدارس قد ارتبطت نشأتها بالفقه السنّي، حيث أن المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة لأهل السنة وهي: المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية أخذت في تباين ملحوظ مع مطلع القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، فأصبح لكل منها مؤسسة لدراسة مذهبها⁽¹⁾، إلى جانب قراءة القرآن وحفظه وتجويده وتفسيره وتدريس الحديث والشريعة والفقه السنّي، وربما درست فيها بعض العلوم الأخرى كالطب والكيمياء⁽²⁾.

فهذا التطور الحاصل المسمى - بالتأثير المذهبي - أصبح من العوامل الرئيسية التي ساهمت في إنشاء المدارس وازدهارها بالشرق الإسلامي، إلى جانب مقاومة المد الشيوعي فمسألة المدارس ارتبطت إلى حد كبير بتعدد المذاهب، والتي كانت تتعايش في رحابها تعايشا علميا على مستوى المناظرة العلمية، وفقا لمبادئ النظام الذي حدده علم أصول الفقه وعلم أصول الدين في الكلام، فكان هناك مدارس إما مزدوجة أو ثلاثية أو رباعية، تضم مذهبين أو ثلاثة أو أربعة مذاهب في ذات الوقت، وكان كل فوج من الطلبة يتبع المذهب الذي اختاره، وينتصر له ويدافع عنه وفقا للحجج التي يمتلكها⁽³⁾.

لقد قامت الدولة بتبني المدارس وأصبحت مؤسسات رسمية، عنيت بإنشائها لتخريج أجيال من المتفهمين بالمذهب السنّي، تتحمل مسؤولية مقاومة التيار الشيوعي، الذي وصل

(1) - سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 39.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 358.

(3) - للمزيد من المعلومات يُنظر: - قدوري الطيب: جامعة القرويين ومدارسها بفاس من عهد أبي الحسن المريني إلى نهاية عهد أحمد المنصور الذهبي (731-1012 هـ / 1330-1603 م)، مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني والثقافي والفكري، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 2003-2004 ص 62.

والمواقع أنّ البحث عن أول مدرسة بنيت في الإسلام أمر عسير، فقد انعكست تلك الصعوبة على كتابات بعض الباحثين، وأوقعتهم في خلط كبير فيما ينقلون ويفهمون من النصوص، في أثناء بحثهم عن أول مدرسة في الإسلام، فمنهم من ذكر أن مدينة "نيسابور" هي أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم)، وكان ذلك في عهد "محمود الغزنوي" في القرن الرابع الهجري⁽²⁾، إلا أن البعض يرى أنّ أول مدرسة تنسب إلى "أبي حاتم محمد بن حيان البستي"^(*)، وبعدها أنشأت المدرسة البيهقية من تأسيس "البيهقي" سنة 1066/هـ 458م، والمدرسة السعيدية أسسها والي نيسابور، ومدرسة أخرى شيدها "أبو سعيد إسماعيل الأسترلابي"، وأخرى شُيّدت للأستاذ "أبو إسحاق الأصفراني" المتوفي سنة 418هـ وقد ظلت هذه المنشآت عمائر محلية لمدة خمسين عاما، ثم قُضيَ عليها تماما بعد قتل وزير "طغرل بك"، إلا أنها بعثت من جديد على يد "نظام الملك"^(**) وزير السلطان "ملكشاه السلجوقي"⁽³⁾، وهو أعظم رجل تولى الوزارة في عهد السلاجقة قاطبة، بل وأعظم وزراء الشرق في عصره، وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية في نشر المذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي، وهكذا أصبحت المدارس

(1) - عبد الستار عثمان: المرجع السابق، ص 217.

(2) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 19.

(*) - هو: أبو حاتم محمد بن حيان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد التميمي، الإمام العلامة الفاضل المتقن، كان مكثرا من الحديث والرحلة والشيوخ، عالما بالمتون والأسانيد، أخرج ممن علوم الحديث ما عجز عنه غيره، سافر ما بين الشاش والإسكندرية في طلب العلم، تولى قضاء سمرقند ونيسابور ومدن أخرى ببلاد فارس، توفي سنة (354 - هـ / 965م). لمزيد من المعلومات يُنظر: سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 40.

(**) - هو قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق الطوسي، الوزير السلجوقي نظام الملك، فقد ظل وزيرا لثلاثة من السلاطين هم: "طغرل بك" و"ألب وارسلان" و"ملك شاه"، فقد كان حسن السيرة في العلماء، فبنى لهم المدارس وأنفق عليهم نفقات لا تحصى، وكان هو نفسه محبا للعلم، فقيها شافعيًا ساعيا في نضرة مذهبه، وكانت وفاته في سنة 485هـ، لمزيد من المعلومات يُنظر كل من: سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 42. وكذلك:

- ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 19.

(3) - حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج 4، ص 425.

وما قيل عن المدن المذكورة سابقا يمكن أن يقال عن مصر أيضا، فكما نشأت المدارس في شرق العالم الإسلامي على يد الشيعة على أنها مدارس خاصة، نشأت في مصر على يد السنيين كمعاهد خاصة كذلك، فقد جاء في "ابن ميسر" أن الوزير "رضوان بن الولخي" أنشأ مدرسة في الإسكندرية سنة 532هـ لنشر المذهب الشافعي. ويقول "ابن خلكان" أمّ "ابن سلار" وزير الخليفة الفاطمي "الظافر" أنشأ مدرسة سنة 546هـ في الإسكندرية كذلك، ويذكر "القلقشندي" أن "مسرور" أنشأ مدرسة سنية بالقاهرة في عهد الدولة الفاطمية، فلما جاء "صلاح الدين الأيوبي" إلى مصر عنيّ عناية خاصة ببناء المدارس، ونشر هذه المنشآت الثقافية وجعلها عامة بعد أن كانت خاصة من قبله⁽¹⁾، وجعلها للمذاهب السنية غير الشيعية، كالمالكي والحنفي والشافعي، وأشهرها في عهده "الناصرية" و"القمحية" و"السيفية" و"القطبية"، ثم "العادلية" و"الكاملية" و"الصالحية"⁽²⁾. وكان الغرض من ذلك هو القضاء على المذهب الشيعي مذهب الفواطم، وذلك بنشر المذهب السني عن طريق المدارس⁽³⁾.

أما بالنسبة لظهور المدارس في المغرب فلم تختلف وظيفتها عن مثيلاتها في المشرق فقد شُيّدت لتكون أداة للسلطة لتكوين الأطر والعلماء المختصين في المذهب المالكي، مع الاهتمام بتدريس مختلف العلوم والمواد الأخرى، رغم أن هذه الوظيفة كانت تتم في الجوامع ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن المدرسة المغربية تتسجم مع الهدف العام، الذي أنشئت من أجله المدرسة بالمشرق الإسلامي⁽⁴⁾.

وعند البحث عن تاريخ ظهور المدارس في المغرب الإسلامي، وجدنا اختلافا بين المؤرخين والباحثين، فالبعض منهم يرى أن ظهورها كان في الفترة المرابطية، كمدرسة الصابرين بفاس، ومدرسة وجاج بن زلو اللّمطي ببلاد السوس، والبعض الآخر يرى عكس

(1) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص20.

(2) - لعرج عبد العزيز: "النظام المعماري لمدارس المغرب، دراسة أثرية تحليلية"، مجلة آثار، يصدرها معهد الآثار العدد08، 2009، جامعة الجزائر، دار الملكية للنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، ص89. يُنظر كذلك:

- حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج4، ص425.

(3) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص20.

(4) - بن قرية صالح: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص140.

ذلك نذكر منهم "ابن أبي زرع"، الذي ذكر أن المدارس ظهرت في عهد الموحيدين خلال حكم الخليفة المنصور أبي يوسف يعقوب^(*)، وذلك في قوله: "...وبنى المساجد والمدارس في بلاد المغرب وإفريقية والأندلس... وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مرتباتهم وطبقاتهم"⁽¹⁾.

وهناك من يرى أن ظهورها الأول كان مع بداية تفكك الدولة الموحدية، فكانت الدولة الحفصية المسيطرة على إفريقية والقريبة جغرافيا من مصر واشتراكها معها في الحدود وكذلك لعلاقتها الطيبة بالبلاط المملوكي منذ عهد "أبي زكريا يحيى بن أبي محمد الهنتاني" مؤسس الدولة، أثر في دخول نظام المدارس إلى المغرب، فكان أول من بنى مدرسة سنة 636هـ/1238م سميت بالمدرسة "الشماعية"^(*)، لمد نفوذه على المجتمع وتقوية سلطته وتثبيت أركان دولته الناشئة المنفصلة عن الموحيدين في مراكش⁽²⁾. كما نجد بعض أقوال الرحالة نذكر منهم التجاني في رحلته المدونة في مطلع القرن الثامن الهجري يشيرون إلى أن أول مدرسة أنشأت كانت المدرسة "المنتصرية"، التي بنيت بطرابلس الحفصية بين سنتي (655 - 658هـ / 1257 - 1260م)، من طرف "المستنصر الحفصي" الذي ولي الحكم سنة 646هـ/1248م، ثم تلقب بلقب الخلافة سنة 650هـ/1252م؛ قد أخذ في التقرب من المالكية في إفريقية عن طريق تأسيس المدرسة بالمعنى السني للكلمة، فاختر لبنائها مدينة متاخمة لمنطقة الشرق الإسلامي⁽³⁾.

(*) - هو أحد خلفاء الدولة الموحدية في بلاد المغرب، حكم ما بين (580 - 595هـ / 1184 - 1199م)، للمزيد من المعلومات يُنظر: ابن أبي

زرع أبي الحسن الفاسي: الأنيس المطرب... المصدر السابق، ص142.

(1) - ابن أبي زرع أبي الحسن الفاسي: الأنيس المطرب... المصدر السابق، ص142. ص143، يُنظر كذلك:

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص317.

(*) - سميت بالشماعية نسبة إلى السوق الذي كان مختصا بصناعة الشموع، لمزيد من المعلومات يُنظر: بن مامي محمد بن الباجي: مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، القرن السابع إلى القرن الثالث عشر، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2006، ص131.

(2) - لعرج عبد العزيز: "النظام المعماري..."، المرجع السابق، ص89. يُنظر كذلك: - أبو رحاب محمد السيد محمد: "ملاحم تخطيط العمائر الدينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط، دراسة أثرية مقارنة"، ج1، مجلة خاصة أعمال ملتقى دولي بتلمسان أيام 3، 4، 5، أكتوبر 2011، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ص137. وكذلك: - بن مامي محمد بن الباجي: المرجع السابق، ص131 - 133.

(3) - بن قرية صالح: المرجع السابق، ص138.

وبعد ذلك قام الحفصيون ببناء سلسلة من المدارس كالتوفيقية أو مدرسة الهواء، التي أنشأتها الأميرة "عطف" أم المستنصر (648 - 658/1250 - 1260م)، والمدرسة التي بناها "أبو زكريا الثاني بن أبي إسحاق" سنة 680هـ / 1282م، والثالثة هي المدرسة "العنقية" التي شيدها الأميرة "أخت أبي يحيى بكر بن نقعة" عنق الجمل، وتلتها المدرسة "العصفورية" نسبة للعالم النحوي "ابن عصفور".

يأتي المرينيون كرونولوجيا بعد الحفصيين في بناء المدارس، وذلك بعد ثلاثين سنة تقريبا، فهم يُعدون من أعظم بناء المدارس في الغرب الإسلامي، فقد اهتموا ببنائها على نطاق واسع، وشيّدت على أيدي سلاطينهم مدرسة أو أكثر في كل مدينة من كبريات المدن المغربية آنذاك، وبخاصة مدينة فاس عاصمة ملكهم، ولئن كان العدد الأكبر من هذه المدارس اندثر، فلا يزال باقيا منها عشر مدارس بحالة جيّدة تشهد بالنضج والازدهار الذي بلغه الفن المعماري المريني، وأول مدرسة شيّدت في مدينة فاس العتيقة كانت مدرسة "الصفارين" (*)، شيّدها السلطان "أبو يعقوب بن عبد الحق" سنة 670هـ / 1271م، بجوار سوق صناعة النحاس وأوقف عليها أوقاف وأجرى على الطلبة المرتبات، ومدرسة الشهود أو القاضي بمكناس شيّدها "أبو يعقوب بن عبد الحق" أيضا سنة 674هـ / 1275م⁽¹⁾.

وتتميز القرن 8هـ / 14م باشتداد الحركة العمرانية في مدينة فاس وبعض المدن المغربية الأخرى، وكان الإقبال على إنشاء المدارس فيها من طرف السلاطين كبيرا، ففي عهد السلطان "أبي سعيد عثمان" (1310هـ / 1331م) أنشأ في فاس الجديدة مدرسة دار المخزن أو مدرسة فاس الجديد سنة 721هـ / 1321م، ومدرسة الصهرج بفاس القديم سنة 723هـ / 1323م و "السبعيين" في نفس التاريخ، وآخر أعمال هذا السلطان كانت مدرسة العطارين سنة 725هـ / 1325م. وواصل السلطان "أبو الحسن" (731 - 749هـ) في حياة والده وبعده النشاط المعماري في تشييد المدارس كمدرسة الصفارين كأول مدرسة بمدينة فاس في حوالي سنة 670هـ / 1271م، ويشير "ابن مرزوق" أنه أنشأ في كل بلدة من بلاد المغرب

(*). سميت بهذا الاسم لأنها أنشأت بالقرب من السوق الذي تصنع فيه أواني النحاس الأصفر، لمزيد من المعلومات يُنظر:- الحريري محمد عيسى: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، 1408هـ / 1987م، ص324.

(1). نفسه: ص324. يُنظر كذلك: أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص138.

الأقصى والأوسط مدرسة، كمدرسة تازا ومدرسة في مكناسة وسلا (1341/هـ/742م) والمصباحية (1346/هـ/747م) وطنجة وسبتة وأنفي وأزمور وأسفي وأغمات والقصر الكبير والعباد بتلمسان سنة 1348/هـ/749م، وأخيرا المدرسة البوعنانية التي شيدها أبو عنان فيما بين (751 - 756 هـ / 1350 - 1355 م) (1).

أما عن أول مدرسة أسست في تلمسان الزيانية فهي "مدرسة أولاد الإمام"، أنشأها "أبو حمو موسى الأول" حوالي 1310/هـ/710م للأخوين العالمين الفقيهين "أبو زيد عبد الرحمن" و"أبو موسى عيسى" من مدينة برشك قرب تنس، استقدمها إلى تلمسان للتدريس بها (2). ثم أنشأت المدرسة الثانية المسماة "بالمدرسة التاشفينية" نسبة للسلطان "أبي تاشفين عبد الرحمن" (718 - 733 هـ / 1318 - 1336 م)، وتلتها "المدرسة اليعقوبية" التي شيدها "أبو حمو موسى الثاني" تخليدا لذكرى والده "يعقوب" وذلك في الفترة 763 - 765 هـ / 1361 - 1365 م (3).

كانت المدرسة الزيانية مؤسسة سلطانية النشأة والتمويل، أقيمت خصيصا لإيواء الطلبة وتدريس العلوم، وخاصة منها المقترنة بالمذهب المالكي لتعزيز مكانته في الدولة بتخريج العلماء العاملين بمقتضياته على المستوى الشعبي والمخزني، وتحقيقا لهذه الغايات الكبرى وتقديرا منهم للعلم والعلماء، تفنن الزيانيون في تخطيط مدارسهم (4).

لقد استمر الاهتمام ببناء المدارس خلال الفترة العثمانية، فهذه الجزائر التي انضوت تحت لواء الخلافة الجديدة، بنيت فيها العديد من المدارس في مدنها الكبيرة والصغيرة، مما ساهم ذلك في تنشيط الحركة التعليمية فقد كثرت فيها المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - لعرج عبد العزيز: "النظام المعماري...", المرجع السابق، ص 90. وكذلك:

- بن قرية صالح: المرجع السابق، ص 138، - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص 138،

(2) - ابن خلدون يحي: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400/هـ/1980م، ص 130. يُنظر كذلك: - لعرج عبد العزيز: "النظام المعماري..." المرجع السابق، ص 90. وكذلك:

- Marçais. W et Marçais. G: les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903, p185.

(3) - لعرج عبد العزيز: "المدارس الإسلامية: دواعي نشأتها وظروف تطورها وانتشارها"، مجلة دراسات إنسانية، العدد 1، 2001، جامعة الجزائر، ص ص 119 - 122.

(4) - بن قرية صالح: المرجع السابق، ص 140.

بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس، بالإضافة إلى المساجد والزوايا والرباطات، وكانت الأوقاف والصدقات تؤدي دورا هاما في انتشار المدارس ونشر التعليم.

فدروس "سعيد قدورة" بالعاصمة ودروس "سعيد المقرئ" في تلمسان ودروس "أبي راس" في معسكر و"عبد الكريم الفكون" في قسنطينة و"أحمد البوني" في عنابة، كانت مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرقي، غير أنّ شهرة هؤلاء العلماء كانت نتيجة جهودهم الشخصية، وليس نتيجة انتمائهم لنظام شامل تخضع له المؤسسات التابعين لها فالدروس التي كانت تلقى في مساجدها الكبيرة وزواياها تضاهي أو تفوق مستوياتها في بعض الأحيان دروس الجوامع الكبرى في المشرق والمغرب العربي كالجامع الأموي في دمشق، وكذلك في جامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس والقرويين بفاس.

ونجد أنّ المدن الرئيسية بالجزائر خلال هذه الفترة، اشتهرت بكثرة مدارسها ذات التعليم الثانوي العالي⁽¹⁾، فمدينة تلمسان عاصمة الدولة الزيانية عُرِفَت قبل مجيء العثمانيين، بوفرة المدارس والعلماء رغم تدهورها السياسي، فبالإضافة إلى المدارس الابتدائية كان بها على الأقل خمس مدارس ثانوية وعالية. وهذه المدارس هي التي أشاد بها الكاتب المغربي "الحسن الوزان المعروف بـ ليون الإفريقي"⁽²⁾، كما وجد الفرنسيون بها بعد احتلالها خمسين مدرسة ابتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي منها مدرسة أولاد الإمام، ومدرسة الجامع الكبير. وكان بمدينة قسنطينة تسعون مدرسة ابتدائية وسبعة مدارس للتعليم الثانوي العالي مثل المدرسة الكتانية، التي أنشأها صالح باي، والتي تميزت بانضباطها وتعليمها العالي، حتى قورنت بالمدارس الأوروبية المعاصرة⁽³⁾. وفيما يخص مدينة الجزائر فكان بها حوالي مائة مدرسة ابتدائية وثلاث جامعات لتدريس الفقه المالكي⁽⁴⁾.

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص ص 273-274.

(2) - الوزان الحسن بن محمد: المصدر السابق، ج2، ص19.

(3) - مريوش أحمد وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، طبعة خاصة، المركز الوطني لدراسة والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص17.

(4) - Michel, J: **Op.cit**, p216.

- يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي... المرجع السابق، ج1، ص276.

- Berteuil. A: **L'Algérie Française, Histoire-Mœurs-Coutumes-Industrie-Agriculture**, tome premier, Dentu Libraire éditeur, Paris, 1856, P46.

مرتفع، وفي يده عصا يستعين بها لحفظ النظام، ولإثارة انتباه الطلبة وبهذه الطريقة يتعلم التلميذ في نفس العملية القراءة والكتابة⁽¹⁾.

وفيها ينتقف الأطفال ويتربوا على قواعد الإسلام، وعلى نمط اجتماعي محدد، وهي تقوم بتحفيظ القرآن الكريم الذي هو أساس الثقافة الإسلامية، كما يتعلمون مبادئ العلوم والقراءة والكتابة، فيحفظون لسانهم من العجمة ويتوحدون في التفاهم والتخاطب حيثما كانوا وهي أيضا تساهم في إعطاء الطفل رصيда من المعارف التي تساعد على شق طريقه في المجتمع بعد خروجه منها، عندما يبلغ عادة الرابع عشرة سنة.

ب- التعليم الثانوي: لم يكن الانتقال من التعليم الابتدائي إلى التعليم الثانوي يتم بطريقة منتظمة، فكثيرا من التلاميذ كانوا ينقطعون عن الدراسة تماما، ولاسيما أبناء الفقراء، فقليل منهم من يسعفه الحظ لمواصلة تعليمه، وقد اقتصرت العلوم المدروسة على العلوم الدينية واللغوية وبعض كتب التاريخ والسيرة والطب.

ج- التعليم العالي: يصل إلى هذا المستوى الطلبة المتفوقون، الذين يتميزون بالذكاء والحفظ والإدراك، إذ لا يسمح لذوي المستوى المحدود أن ينتقل إليه، أما من ناحية المواد المدرسة فلا يوجد اختلاف كبير بينه وبين الطور السابق، إلا من ناحية التعمق في الدراسة، ومهما كان الأمر فإن أهم العلوم التي كانت تلقن بشكل محدود هي: الحساب، الفرائض، الوثائق علم الفلك والطب والصيدلة.⁽²⁾

2-4- مصادر تمويل التعليم في المؤسسات الدينية والتعليمية:

كانت تعتمد المدارس في استمرار أداء وظيفتها على مصدرين هامين هما:

أ- الأوقاف (الحبوس): يعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، فهو أساسا يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم، وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي وقد تطور تطورا ملحوظا عبر الزمن، خاصة في العهد العثماني، نتيجة اعتبارات سياسة واقتصادية.

(1) - مذكرات وليام شالر: قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب وتعليق وتقديم، إسماعيل العربي، د. ط، ش.

و. ن. ت، الجزائر، 1982، ص 82.

(2) - نفسه: من ص 279 إلى ص 352.

أنواع الوقف كثيرة وليس من السهل حصرها، فهناك من يوقف عقارا من أرض أو دكان أو دار أو نحو ذلك، ويستعمل في أغراض كثيرة، منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة الفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل. ومن أهم أغراضه العناية ليس العناية بالمدارس فقط بل تعدى إلى المساجد والزوايا والأضرحة، ويظهر من ذلك أهميته في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية، فهو مصدر العيش لهذه المؤسسات التعليمية وغيرها من المؤسسات الدينية كما أنه مصدر الحياة والنمو للمساجد والمدارس والكتاتيب ومعيشة العلماء والطلبة، وهذا ما ذكرته مختلف المصادر عن أوقاف المؤسسات الدينية والتعليمية في الجزائر، ومساهمتها في تطور العلم واستمرار طالبه، فرغم الإهمال الذي كان يحدث لبعض مصادر الوقف بين الفينة والأخرى من سرقة ونهب، إلا أن الحكام والولاة كانوا يعيدونه عندما يعلمون بذلك، كما حدث في فترة حكم "الباي محمد الكبير"، الذي أعاد أوقاف المساجد والمدارس والزوايا خاصة في مدينة تلمسان (1).

وهكذا تتضح أهمية مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني، فقد كانت تؤدي وظائف عديدة أهمها في هذا المجال خدمة الدين والتعليم.

ب - الصدقات والتبرعات: كانت تقدم من طرف المحسنين، على كافة أطيافهم، سواء كانت عبارة عن بضائع كالأفرشة، أو مواد غذائية كالمأكولات، أو في شكل نقود أو مجوهرات هي بمثابة مورد مالي هام جدا، يتمثل أساسا في أموال الزيارات، خاصة إذا كانت بجوار ضريح، وكذلك الوعدات^(*) التي تتضمن خلال فترة معينة، أين تصرف هذه الأموال على الطلبة لحفظ القرآن الكريم والقائمين على خدمتها من وكلاء، مقدمين، مؤذنين، الأئمة والمشايخ. (2)

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، من ص227 إلى ص231.

(*) - الوعدات: هي عبارة عن مناسبات سنوية تدخل ضمن العادات والتقاليد، تقام خصيصا لإحياء ذكرى الألياء الصالحين، حيث يتم فيها توزيع الصدقات وإقامة الاستعراضات من طرف فرق الخيالة.

(2) - بوعزيز يحيى: موضوعات وقضايا... المرجع السابق، ج1، ص280.

2-5- مدارس معسكر:

2-5-1- المدرسة المحمدية:

2-5-1-أ- نبذة تاريخية:

تعتبر المدرسة المحمدية بأمر معسكر من بين المدارس المشهورة بالجزائر خلال العهد العثماني⁽¹⁾، فهي تنسب إلى بانيها أبي الفتوحات المنصور بالله محمد بن عثمان فاتح وهران⁽²⁾، الذي شيدها إلى جانب الجامع الأعظم المسمى بجامع عين البيضاء، وذلك تماشياً مع التقاليد الإسلامية، كما هو الحال بالنسبة لجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب، وجامع الزيتونة في تونس⁽³⁾، وكان الفراغ من بنائها سنة 1196هـ، حيث عين الباي أعظم عالم كمدير لها، وهو الشيخ محمد بن عبد الله الجيلالي⁽⁴⁾، الذي اشتهر بتنظيم رباط وهران⁽⁵⁾.

اعتبرت هذه المدرسة من أهم المدارس التي أسسها الباي محمد الكبير بالغرب الجزائري، لما كان لها من صدى واسع في العالم العربي والإسلامي، وصارت أكبر معهد علمي، يضم أساتذة أكفاء متفرغين لمهمة التعليم لا غير⁽⁶⁾، مثل: "محمد مصطفى بن زرفة الدحاوي" و"الطاهر بن حواء" وغيرهم من العلماء الأجلاء⁽⁷⁾، فكانوا بمثابة الموجه للتلميذ والمرشد للمجتمع، والأستاذ والإمام أحياناً، والمفتي أحياناً أخرى، والقاضي في غالب الأمر⁽⁸⁾، وتمكن محمد الكبير بفضل تلك المدرسة أن يجعل من مدينة معسكر عاصمة

(1) - كما عُرفت بمدرسة الحايطة، كما ورد على اللوحة التذكارية للجامع، للمزيد يُنظر: Leclerc : Op,cit, p44, -

(2) - أبي رأس الناصري: المصدر السابق، ص188.

(3) - جاكور لحسن: المرجع السابق، ص30.

(4) - محمد بن عبد الله الجيلالي: هو محمد بن عبد الله بن الموفق بن محمد بن عبد الرحمان بن محمد بن محمد المشهور بأبي جلال، أحد أحفاد الولي الصالح محمد بوجلjal، يرجع نسبه إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولد في معسكر، وبعد من أبرز علماء الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر الميلاديين، تلقى علمه على يد علماء فاس، ورجع من هناك غزير العلم نفع به طلابه المتعطشين. وذهب إلى الحج حيث التقى بعلماء المغرب والمشرق، من جملة من تخرج على يده العالم محمد بن حواء بن يخلف، والعالم الكبير أحمد بن سحنون الراشدي، لمزيد من المعلومات يُنظر: - بن جلول أحمد البدوي، رسالة النسب، د.ط، الجزائر، 1990، ص33.

(5) - بوعبدلي المهدي: "مراكز الثقافة وخزائن الكتب"، مجلة الأصالة، ع 11، 1973، ص94.

(6) - فركوس صالح: "الباي محمد الكبير"، مجلة الثقافة، العدد71، ص17.

(7) - عليو محمد: المرجع السابق، ص135.

(8) - عميراوي احميدة: من تاريخ الجزائر الحديث، ط2، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ت، ص207.

علمية كبيرة، بدليل ما قاله أبو رأس الناصر بشأنها: " إن المدرسة المتعارفة عندنا الآن وهي التي تبنى لدراسة العلم، أي لتعليمه وتعلمه كالمدرسة البوعنانية بفاس ومدرسة ابني الإمام بتلمسان والمدرسة المستنصرية والباشية بتونس والقشاشية في الجزائر⁽¹⁾". وقد وصفها الكثير من الشعراء منهم: السيد أحمد بن السيد محمد بن علال المشور بالمقري القرومي في قوله⁽²⁾:

وترى المدرس قد علا كرسيه يلقي على العلماء حب الجواهر
تحويه مدرسة غدت آثارها تحييه بالعلم الشريف الأشعري
تمحي رسوم الجهل من ألواحه تحمي شمائله من الزور السري

ويفسها ابن سحنون الراشدي قائلا: " كاد العلم أن يتفجر من جوانبها"⁽³⁾.

أما المواد المدروسة فلا تقل عن المواد التي كانت تدرس بأشهر الجامعات الإسلامية، حيث يطغ عليها الجانب الديني واللغوي، وبعض كتب التاريخ والسيرة⁽⁴⁾. إذ تخصصت في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد إلى جانب علوم اللغة العربية، فمن كتب الفقه نجد: حواشي شرح الشيخين "الزرقاني" و"الخرشي" وحاشية الشيخ "المكودي"، وفي اللغة كتاب القاموس للشيخ "الفيروز أبادي" ومقامات الحريري وفي الأصول شرح الشيخ المحلي بالإضافة إلى كتب أخرى في التصوف والمنطق وعلم البيان وغيرها من العلوم النقلية⁽⁵⁾.

ويمكن الإشارة إلى الحقيقة التالية، وهي أن العناية بالعلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها ظلت الشغل الشاغل للمدرسة المحمدية، حيث أدى التركيز عليها إلى عدم العناية بالعلوم الأخرى غير أنه يجدر بنا الإشارة إلى أن بعض المدرسين بها، قد تطرقوا في مجالسهم لبعض العلوم العقلية كالحساب والفرائض والفلك، ولكن دراستها لم تكن إلا

(1) - أبو رأس محمد الناصري: المصدر السابق، ص 188

(2) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 131.

(3) - أبو رأس محمد الناصري: المصدر السابق، ص 127.

(4) - جاك لحسن: المرجع السابق، ص 30.

(5) - حمدادو بن عمر: المرجع السابق، ص 43.

وحتى لا نغفل عن دور شيوخ وطلاب المدرسة المحمدية في العهد العثماني، فإنهم شاركوا في تحرير وهران سنة 1792م، فقد كان مديرها محمد بن عبد الله الجيلالي رئيسا لرباط "إيفري" والطاهر بن حواء نائبه وبين زرفة الدحاوي مقيد حوادث الفتح، إلى جانب اعتبار طلاب المدرسة المحمدية من بين الأوائل المستجيبين للمرابطة حول وهران، وتشكيلهم للوفد الذي امتنهم مهمة دعوة الطلبة إليها من أنحاء البايك الغربي (3).

وهكذا يتبين أن المدرسة المحمدية هي من المعاهد العليا، التي عرفت الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني مثل: المدرسة الكتانية التي أنشأها صالح باي في قسنطينة والمدرسة القشاشية في الجزائر العاصمة (4)، غير أن سمعتها ومكانتها العلمية فاقت المدرستين الأخيرتين، لأهميتها الوظيفية في تلبية حاجيات السلطة العثمانية من الإطارات والكفاءات العلمية المتخصصة، ولاشك أن المدرسة المحمدية باحاضرة معسكر، قد فقدت أهميتها ولم يبرز نجمها في التاريخ مع انتقال عاصمة باييك الغرب من معسكر إلى وهران سنة 1792م، وهجرة مدرسيها وفقدان الاهتمام بالمدرسة أيضا، وبالتالي لم تتوفر معلومات عن مصيرها وتاريخ غلقها، كما لم يحص عدد العلماء المتخرجين منها أو حتى المشاهير منهم (5).

2-5-1-ب - المخطط المعماري للمدرسة:

لقد تعرضت المدرسة المحمدية للتهديم من طرف الاحتلال الفرنسي، وذلك لإقامة مباني إدارية، وخلال زيارتنا للرحبة التي كانت توجد فيها، زدنا إمام جامع عين البيضاء

(1) - جاك لحسن: المرجع السابق، ص 43 - 44.

(2) - بوجلال قدور: المرجع السابق، ص 106.

(3) - بوعبدلي المهدي: الرباط والفداء في وهران، مجلة الأصالة، ع13، 1973، ص 27، يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر... المرجع السابق، ص 189، وأيضاً: - بن شهرة المهدي: تاريخ وبرهان لمن حل بمدينة وهران، ط1، دار الريحانة للكتاب، الجزائر، 2007، ص 159.

(4) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي... المرجع السابق، ج1، ص 281.

(5) - بلبروات بن عتو: الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري، رسالة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2001 - 2002، ص 222.

بمعلومات قيّمة، حيث أنه أدلنا على مكانها الأصلي الذي هو اليوم عبارة عن فضاء مكشوف تابع للجامع، كما أخبرنا باكتشاف آثار للمدرسة خلال عملية حفر أساس سور خارجي تتمثل في قطع من الآجر والقرميد والزجاج، الأمر الذي دفعهم للبحث عن أساسها الأصلي، لكن دون جدوى مما يؤكد طمس ومحو الاحتلال لها. وبعد ذلك قمنا بالبحث في مختلف المصادر والوثائق والمخططات المحفوظة في الأرشيف الوطني بأكس أوبروفانس في فرنسا والمتعلقة بمدينة معسكر ووضعية معالمها الأثرية خلال فترة الاحتلال، إلا أننا لم نجد أي وثيقة تتعلق بها.

وأمام هذه الصعوبات التي واجهتنا في معرفة المخطط المعماري للمدرسة، لم يبق أمامنا إلا محاولة إعادة تصور مخططها اعتمادا على مخطط مدرسة خنق النطاح بمدينة وهران التي بنيت من طرف نفس الباي وهو محمد الكبير، وكذلك بعض مخططات المدارس الأخرى. لقد كان مخطط المدرسة في بلاد المغرب في أغلب الأحيان يتكون من صحن أوسط يلتف حوله رواق أو أكثر من جهة أو من الجهات الأربع، تفتح عليها قاعة الدرس وبيوت الطلبة وبقية المرافق، واستمر هذا الطراز خلال العهد العثماني في الجزائر ويظهر ذلك في بعض النماذج نذكر منها: مدرستي سيدي الكتاني والجامع الأخضر بمدينة قسنطينة ومدرسة خنق النطاح بوهران⁽¹⁾.

2-6- المكتبات:

لقد كانت أغلب المؤسسات والمراكز العلمية في الجزائر مزودة بمكتبات يلج إليها الطلبة للبحث وتطوير معارفهم، إذ أن التعليم لم يكن مقتصرًا على ما يلقنه المدرس فقط، بل تعدى إلى الاعتماد على القدرات الشخصية للطلاب لرفع المستوى أكثر، وهذا بزيارة المكتبة لذلك يمكن اعتبار المكتبة من المؤسسات التي لا يمكن الاستغناء عنها، فبدونها لا يتسنى للمساجد والمدارس القيام برسالتها التعليمية والثقافية على أكمل وجه⁽²⁾.

وانطلاقًا من الأهمية الكبيرة للمكتبة، فقد اتخذت عدة إجراءات لتطويرها منها التشجيع على حركة النسخ والتأليف، سواء كانت من المؤسسة أو من الحكام، كما فعل الباي "محمد

(1) - دحدوح عبدالقادر: المرجع السابق، ص515، يُنظر كذلك: - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص163.

(2) - فركوس صالح: "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية"، مجلة الثقافة، العدد71، السنة 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص24.

الكبير" في معسكر وغيرها، فكان التأليف من الطرق الهامة لنمو المكتبات، بالإضافة إلى الاعتماد على جلب الكتب من الخارج، إذ كان الشراء من أهم الطرق للحصول على الكتب خاصة من الجامعات الكبيرة كالزيتونة والأزهر وغيرها؛ وكانت تنقسم إلى قسمين: مكتبات عامة ملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس، وهي مفتوحة للطلبة خصوصا، ثم لجميع القراء المسلمين، وقد ذُكر أنه كان في تلمسان مكتبة عامة خلال القرن 11هـ/17م. أما القسم الثاني فهو ما يعرف بالمكتبات الخاصة، التي كانت كثيرة، وهي ملك للأفراد والعائلات دون غيرهم⁽¹⁾.

2-6-1- مكتبة المدرسة المحمدية:

ولكي تؤدي هذه المدرسة رسالتها العلمية والثقافية على أكمل وجه، فقد جهزها الباي بخزانة تحتوي أنفس الكتب والمخطوطات، التي اشتراها من ماله الخاص مهما كان ثمنها، حيث قال صاحب الثغر الجماني في ذلك: "ولمحببة هذا الأمير للعلم والأدب، كان يشتري كتبه بالثمن البالغ، ويستكثر منها ويستنسخ ما لم تسمح نفس مالكة ببيعه"⁽²⁾، وجعل كتبها من بين الأوقاف، التي حبسها على طلبة المدرسة وأساتذتها⁽³⁾.

(1) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي... ج1، المرجع السابق، ص ص 296-297. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: المؤسسات الدينية... المرجع السابق، ص 117.

(2) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص 147. يُنظر كذلك:

- Caporal. B: Op.cit, p16.

(3) - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص 28.

3- الزوايا:

3-1- تعريف الزاوية:

أ- لغة:

الزاوية في البيت ركنه، وجمعها زوايا، وهي مشتقة من فعل زوى، وانزوى، أي صار فيها. (1) ومصدره الزوي أي: العدول من شيء إلى شيء (2)، ويقال زوى الشيء أو زاوه بمعنى قبضه وجمعه، مما يفيد التركيز والتمكن من الشيء أيضا (3) "زويت لي الأرض جمعت وطويت" (4)، فهي ركنه الذي يجمع فيه بين قطرين، ويضم منه ناحيتين، ومنه زوى الشيء جمعه أو اختاره، وزوى الكلام، هياً في نفسه، وانزوى القوم إلى بعضهم البعض، تضامنوا ومنه كذلك زيا الشيء نحاه، واعتزل، وانفرد، وصار في زاوية. (5) وسميت بذلك لأن الذين فكروا في بنائها أول مرة من المتصوفة والمرابطين، اختاروا الإنزواء بمكانها والابتعاد عن صخب العمران وضجيجه، طلبا للهدوء والسكون، اللذين يساعدان على التأمل والتدبر ويناسبان جو الذكر والعبادة، وهي من الوظائف الإسلامية، التي من أجلها وجدت الزاوية (6).

ب- اصطلاحا:

تعني الزاوية في اصطلاح المسلمين ذلك المكان أو المحل المعد للعبادة والتزهد، كما تعني مدرسة لتتقيف العقول دينيا وأدبيا، وتعتبر أيضا نمطا خاصا من أنماط التعمير وتنظيم المجال (7)، فالأصل فيها أنها ناحية في المسجد يجلس عندها أحد العلماء عند إلقاء دروسه

(1)- الفيروزي آبادي: القاموس المحيط، ط7، بيروت، لبنان، 2003، ص1292.

(2)- ابن منظور: المصدر السابق، مج2، ص67.

(3)- حجاج محمد عبد الرزاق: الزوايا والمجتمع والسلطة بالمغرب، دراسة حول الزاوية الخلميشية بالريف الأوسط، ج1 أطروحة جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهرز، فاس، 2001-2002، ص180.

(4)- ابن منظور: المصدر السابق، مج14، ص363.

(5)- لمزيد من المعلومات يُنظر: - سي فضيل منى: الزوايا بين الماضي والحاضر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، قسم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2005/2004. ص128. وكذلك:- نسيب محمد: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، مطبعة النخلة، الجزائر، د.ت، ص27.

(6)- مؤيد عقبي صلاح: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر (تاريخها ونشاطها)، طبعة خاصة، دار البصائر، 2009 ص204.

(7)- حجاج محمد عبد الرزاق: المرجع السابق، ص180.

على الناس، وكان لكل عالم مكان خاص به، يداوم على الحضور فيه، وكان الناس يطلقون على هذا المكان اسم "الزاوية"، فيقولون هذه زاوية الشيخ الفلاني، أي المحل الذي اختاره لجلوسه عند إلقاء دروسه على طلابه، فلما انتشر التدريس خارج المساجد وأصبح لكل عالم أو أكثر بناء مستقل يحضر فيه الطلاب، اصطاح الناس على إطلاق اسم الزاوية على هذا البناء، كما اصطاحوا على تسمية من يلزم الحضور إلى هذه الزاوية أو يتجرد لخدمتها باسم الزاوي أو الزواوي⁽¹⁾، وبالتالي يمكن القول أنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية، يجتمع فيها مریدوهم لذكر الأوراد، وهي بيوت ملاصقة للمساجد خصصت للذكر والعبادة والاعتكاف والانقطاع للتأمل والتفكير والتدبر وأطلقوا على تلك البيوت اسم "خانقاه"^(*)، ويقابل لفظ الزاوية في الثقافة العربية الإسلامية لفظ الركن⁽²⁾.

وأهل الزاوية من المریدين يؤلفون فيما بينهم عالماً قائماً بذاته، ومجتمعاً له طبقاته المتفاوتة من حيث أهمية كل فرد ومكانته السلوكية وهم على الترتيب التالي:

- أ - المتجود: وهو المنقطع في الزاوية لعبادة الله، لا يعنيه شيء من هموم الدنيا ومطامعها.
- ب - السائح: وهو الذي يأتي إلى الزاوية كعابر سبيل، يمكث بعض الوقت فيها، ثم يستأنف رحلته إلى حيث يريد.
- ج - المنتسب: هو الذي يتردد على الزاوية، على أنه لا يقيم فيها، وإنما هو يسعى لكسب رزقه بعمله.

وجميع هؤلاء يدعون بـ"الفقراء"^(*) وربما دُعا كذلك بـ"الدرأوش"^(**)، ورئيس (شيخ) الزاوية يقال له "خليفة"، وذلك فيما يقولون أن "أبا بكر الصديق" رضي الله عنه خلفه على

(1) - الولي طه: المرجع السابق، ص 91.

(*) - الخانقاه: جمع خانكاه، فهي كلمة فارسية معناها بيت وقيل أصلها "خَوْنَقَاه" أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، إذن تكون الخانكاه نوعاً من المعابد التي يعيش فيها نفر من المسلمين، الذين حسبوا أنفسهم على التعبد دون أن يزولوا أي عمل من شؤون الدنيا، معتمدين على ما يوقفه عليهم مما يكفيهم من مطعمهم وملبسهم وغير ذلك من أغراض الدنيا، التي لا بد منها لمعاشهم وحياتهم اليومية. لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن بطوطة، الرحلة، ج 1، ط 2، مطبعة التقدم، القاهرة ص 89. وكذلك: الولي طه: المرجع السابق، ص 89.

(2) - زاهي نور الدين: طبيعة وآليات الانتقال والتحول من ظاهرة الزاوية إلى ظاهرة الحزب في المجتمع المغربي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1991 - 1992م، ص 75.

(*) - هؤلاء القوم أخذوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الفقر فخري"، وهم يزعمون أن سيدنا "أبا بكر الصديق" رضي الله عنه كان يقود فريقاً من الفقراء، وأن سيدنا "علي" كرم الله وجهه كان يقود فريقاً آخر. لمزيد من المعلومات يُنظر:

فقراءه "سلمان الفارسي"، وهذا خلفه من بعده "الحسن البصري"، فكان كل من "سلمان" و "الحسن" يسمى "خليفة"، ولهذا صار يُطلق على كل شيخ من مشايخ الزاوية لقب "خليفة الزاوية"⁽¹⁾.

كانت الزاوية محلا للتعليم ففيها يتم تحفيظ القرآن الكريم وتدرّس العلوم الدينية كالفقه والتفسير والحديث والتوحيد، والعلوم اللغوية كالنحو والصرف والبلاغة⁽²⁾، وأطلق كذلك على اسم الزاوية المدرسة، لكون تلك الزوايا تضم أحيانا علماء وفقهاء، يلقون الدروس المتقدمة في مختلف العلوم⁽³⁾، وكان التعليم فيها متدرجا في ثلاث مراحل وهي:

- **مرحلة المبتدئين:** كان التلاميذ في هذه المرحلة يتلقون تلقين الحروف والكتابة، وبعدها يدرسون القواعد النحوية وكتب الأجرومية وملحقة الإعراب والأزهرية، وفي مادة الفقه الإسلامي كتب بن عاشر ورسالة بن أبي زيد القيرواني، إلى جانب كتب التوحيد والبلاغة.

- **مرحلة المتوسطين (المستوى الثانوي):** يدرس الطلبة في هذه المرحلة القواعد في كتب "قطر الندى" و"شذور الذهب" وكتاب "الشيخ خليل" في الفقه المالكي.

- **مرحلة المنتهين (القسم العالي):** يتلقى الطلبة فيها دروسا في تفسير القرآن في كتاب "تفسير الواحدي"، والحديث في كتاب "بن أبي حمزة"، والفقه في كتاب "الدير على الشيخ خليل"، إضافة إلى أصول الفقه، التاريخ الإسلامي، السيرة النبوية، المنطق والحساب لعلاقته الوثيقة بعلم الموارد والفلك لمعرفة أوقات العبادات⁽⁴⁾.

- الولي طه: المرجع السابق، ص 94.

(**) - الدرايش: كلمة أعجمية مؤلفة من كلمتين: "دَر" معناها "في"، و "بِيش" معناها "طرف"، فجمعت هاتان الكلمتان بالعربية في لفظة واحدة، بعد إبدال الباء التي في أول "بِيش" بـ"واو" فأصبحت "درويش"، والمراد بأصل معنى هذه الكلمة "المنزورون في الأطراف"، ولهذا فإن الزوايا تكون عادة بأطراف المدن، بعيدا عن منازل الناس. لمزيد من المعلومات يُنظر:

- الولي طه: المرجع السابق، ص 93.

(1) - نفسه.

(2) - مؤيد عقبي صلاح: المرجع السابق، ص 634.

(3) - ابن حموش مصطفى: مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 22.

(4) - شهبي عبد العزيز: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع وهران، د.ت، ص ص 69 - 70.

ج- عمارة:

أما من الناحية المعمارية فهي نوع من الأبنية الدينية الخالية من المئذنة والمنبر وتضم ميضأة وغالبا ضريح مؤسسها، أو أحد رجال الله الصالحين، وبها قاعة تقام فيها الصلوات الخمس، ماعدا الصلوات الجامعة⁽¹⁾، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم العلوم الإسلامية وأخرى لسكنى الطلبة وطهي الطعام وتخزين المواد الغذائية والعلف وإيواء الحيوانات التي تستغل في أعمال الزاوية⁽²⁾، بالإضافة إلى توفرها على خلوات لنسائك يبغون العزلة والإنفراد للعبادة⁽³⁾، ويلحق بها عادة مقبرة للذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها⁽⁴⁾ وعن مخططها ففي أغلب الحالات يقترب من المدرسة منه إلى المسجد، إذ أنها تعتمد على جدار القبلة كقاعدة لتخطيط البناء⁽⁵⁾، لكنها تختلف عنها لكونها قصيرة منخفضة القباب والعرصات، قليلة النوافذ، فهي في مظهرها العام لا تتسم بالجمال، إضافة إلى أنها كثيرة الرطوبة والعنمة وشكلها يوحي بالعزلة والتقصف والهدوء⁽⁶⁾، وخلاصة القول أن الزاوية مكان للعبادة ومأوى ومدرسة.

3-2 - عوامل وأسباب ظهور الزوايا:

إن تاريخ ظهور الزوايا يشوبه نوع من الغموض، إذ اختلف الباحثون عن إعطاء تاريخ معين لتأسيسها، وهذا نظرا لعدم وجود أدلة واضحة تشير إلى ذلك، ويصعب علينا تحديد دقيق لتاريخ ظهورها، لأن المسجد في بداية الأمر كان يأخذ على عاتقه وظيفة التدريس الذي كان لصيقا به، ومرتبطا بالدين والعقيدة⁽⁷⁾، كما أدت المساجد دورا هاما في

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص211.

(2) - بوعزيز يحي: المساجد العتيقة... المرجع السابق، ص15.

(3) - علم الدين سليمان سليم: التصوف الإسلامي (تاريخ، عقائد، طرق، أعلام)، ط1، مطبعة نوفل، بيروت، 1999 ص638.

(4) - نسيب محمد: المرجع السابق، ص27.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص211.

(6) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ط1، دار المغرب الإسلامي، 1998، ص270.

(7) - عزوق عبد الكريم: المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007 /2008، ص73.

وترجع المصادر التاريخية والدينية إلى أن ظهور الزوايا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بظهور الزهد، الذي انبثق عنه ما يُعرف بالتصوف (3)، الذي هو عبارة عن الامتناع عن الدنيا وملذاتها والتفرغ للعبادة ومجاهدة النفس وحملها على الأخلاق الجميلة، أو بصيغة أخرى هو تعبير عن حاجة النفس الإنسانية إلى الإستكانة إلى منطقة روحية خالصة، وإلى تناول المعرفة بالحدس والذوق والوجدان، وذلك لأن النفس الإنسانية تشعر بالخواء عندما تجد نفسها بحكم الحياة المادية الصرفة، منصرفة إلى حقائق المحسوسات وحدها، مما يجعلها تعيش في خواء من أثر تناولها الحياة في شكلها الظاهري، ومعنى ذلك قصور النفس وعجزها في تلك الحالة عن التفاعل مع الحياة في جانبيها الروحي والمادي على السواء (4).

لقد مر التصوف الإسلامي بمراحل تطور مختلفة، بدأت من مظهر الزهد والتعبد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين إلى مظهر ترك الحياة الدنيا والتفرغ للعبادة الفردية في العصر الأموي، وهو مظهر زاد من حدته الغبن والجور الذين أصابا كثيراً من العامة، نتيجة تحول الخلافة إلى ملك عضوض في هذا العصر (5)، واستغلال الثروة والمال من جانب الخلفاء في مظاهر الترف والرفاهية على حساب الفئات البسيطة من

(1) - عبد العزيز لعرج: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية ومعمارية وفنية، أطروحة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر، 1999. ص 295.

(2) - كامل صدر: العمارة العربية الإسلامية، الإسكندرية، 1995، ص 14.

(3) - بركات محمد البيلي: الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، 1993، ص 90.

(4) - حلمي محمود: اللقاء بين التصوف الإسلامي والتجريد التشكيلي، دراسات تاريخية وأثرية، ج 3، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، 1969، ص 96 - 97.

(5) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص 218.

المجتمع. واشتدّ هذا التيار قوة في عهد العباسيين وبدأت ظاهرة التعدد والتنظيم الجماعي لفئة المتصوفة، ودخلت الدولة في صراع معهم تحت تحريض الفقهاء وقوى ذلك من عزم هذه الفئات وساعد على تبلور نظامها، وعلى انتشار أفكارها، وازدياد أعداد المتصوفة، ومع كثرة أعدادهم وتبلور نظامهم، واستقرار قواعد ومناهج التصوف، كانت مهادنة الدولة إياهم والاعتراف بهم، فأنشأت لهم مبان خاصة بهم، يخلتون فيها للعبادة ويقيمون فيها إقامة تامّة أطلق عليها "الخانقات".

يقول المقرئ أن الخوانق حدث عملها في الإسلام خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وهي بيوت أعدها الصوفية لكي يخلو فيها إلى عبادة الله تعالى، بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى⁽¹⁾، إلا أن بعض الباحثين يرون أنّ بداية إنشائها كان في نهاية القرن الخامس الهجري بإيران، فأعطيت لها اهتماما كبيرا ووقفت الأوقاف الكثيرة عليها، وبدأ الاتجاه السياسي في اعتمادها أداة من أدوات نشر المذهب السني، مما ساعد على انتشارها⁽²⁾ - فقد كان الاهتمام بها إذن - له أهداف سياسية ومذهبية، تدخل في إطار محاربة التشيع الفاطمي والرغبة في نشر وتثبيت أركان المذهب السني في مصر والعالم الإسلامي. وكان ذلك على يد السلاجقة الذين وقفوا في وجه المد الشيعي بالعراق والشام كما تبقى سياسة السلطان "صلاح الدين الأيوبي" في هذا الإطار مثلا واضحا على ذلك⁽³⁾ حيث أنه أدخلها إلى مصر بعد القضاء على الفاطميين لتدعيم نشر المذهب السني، واعتمد إنشائها على المماليك، وتطورت تطورا كبيرا في عهدهم، فحدث التقارب بين الفقهاء والمتصوفة في هذا العصر، وأصبح هناك ما يسمى "الطالب المتصوف" و"المتصوف الطالب" فأدت المدرسة وظيفة الخانقات وأدت الخانقات وظيفة المدرسة⁽⁴⁾.

لقد ظهرت طرائق ومناهج مختلفة في التصوف لكلّ منها شيوخ، وانتشرت هذه الطرائق في البلاد الإسلامية، ودخلت في عالم التصوف شوائب كثيرة، وأصبحت الحياة في

(1) - المقرئ تقي الدين: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2، ص414.

(2) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص218. يُنظر كذلك:

- بعارسية صباح: حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005 / 2006، ص49.

(3) - حجاج محمد عبد الرزاق: المرجع السابق، ص180.

(4) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص ص218 - 219.

مباني التصوف مدعاة إلى التواكل والكسل لما يجده الناس من موارد الحياة الرغدة المريحة المعتمدة على الأوقاف الموقوفة على هذه المباني، فكانت المطامع المادية في كسب هذه الحياة بعيدا عن حياة البؤس والفقر التي تعيشها طبقات العامة، فدخل في هذا المجال من هم ليسوا أهلا له، ففسد مظهر التصوف وانتقد أهله، وحدث ذلك في عهد المماليك الجراكسة، الذي فسدت أحوال المتصوفة فيه فسادا واضحا، فاننقذت التكايا التي هي مباني المتصوفة وأهلها في ذلك العصر⁽¹⁾.

أما عن وجود الزوايا في المغرب الإسلامي فهو لا يختلف كثيرا من حيث ظروف وتاريخ الظهور، وقد سبق وجود هذه المؤسسة الدينية، منشأة معمارية دفاعية تسمى بـ"الرباط"، المأخوذ من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"⁽²⁾، وكذلك في قوله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا..."⁽³⁾، إذن فالرباط مرتبط ارتباطا وثيقا بالجهاد والدفاع عن النفس، ومنه يمكن تعريفه بالحصون التي تبنى على الحدود، أو ما يعرف بالثغور التي تفصل البلاد الإسلامية وبلاد العدو، وكانت لها خطة خاصة في بنائها، تتكون عناصرها الأساسية من سور حصين يحيط بالرباط ويحميه من الخارج، وتقام في الداخل حجرات للسكنى ومخازن للأسلحة والمؤن وبرج للمراقبة والإشارة، ويتكون الرباط أحيانا من قصر (حصن)، أو عدة قصور، أو محارس متجاورة أحيانا أخرى، وتقطنه حاميات من الجند المتطوعين، وعادة ما يصطحب هؤلاء الجنود أسرهم معهم، ويزاولون أعمالهم اليومية بصورة طبيعية لكسب أقاتهم وأرزاقهم، دون الطمع في أجر أو هبة من الأمراء والحكام، ودون أن يلهيهم ذلك عن الاستعداد للحرب كلما دعا إليها داعي⁽⁴⁾.

كان ظهور الأربطة خلال القرن الثاني للهجرة الموافق للقرن الثامن الميلادي على سواحل إفريقية، لكونها أكثر عرضة للخطر من غيرها من السواحل المغربية، فقد عجت بالرباطات التي انتشرت على طول امتدادها، ثم تلتها في ذلك بقية السواحل المغربية، وصار

(1) - عثمان عبد الستار: المرجع السابق، ص 219.

(2) - سورة الأنفال: الآية 16.

(3) - سورة آل عمران: الآية 200.

(4) - بركات محمد البيلي: المرجع السابق، ص 66. يُنظر كذلك:

- خالف محمد نجيب: "الأربطة"، مجلة آثار، العدد 06، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، ص 90.

للرباط نظاما عسكريا دينيا، له أصوله وقواعده، وما لبث أن عبر إلى الأندلس خاصة بعد إغارات النورمان الأولى على الأندلس في إمارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم⁽¹⁾. والمعروف أنّ أول رباطات إفريقية إنشاء وأكثرها شهرة هو رباط "المنستير"، الذي أنشأه "هرثمة بن أعين" إبان ولايته على إفريقية، ثم انتشرت الربط على طول الساحل الإفريقي، فقد تحمس أولو الأمر والناس لإقامتها، يدفعهم إلى ذلك دوافع أمنية ودينية، إذ ابتغوا بها مرضاة الله وثوابه، فأقيمت الربط في سوسة وشفافس وغيرها، وحض المسلمون بعضهم بعضا على سكنى الرباط والحرس فيه اجتهادا واحتسابا، وكان للزهاد والعباد في ذلك الدور الكبير.

انقسمت الربط على الساحل المغربي إلى نوعين: أحدهما قامت الدولة على تشييده والإنفاق عليه، والآخر أقامه الأفراد احتسابا ومشاركة مع الدولة في الجهاد بإذن منها وتنسيقا معها، وإذا استعرضنا سلسلة الربط التي أقيمت على امتداد هذا الساحل من شرقه إلى غربه وجدنا عدة مناطق رئيسية، كان يتجمع في كل منها عدد من الربط المتجاور أو المتقاربة مثلما كان في "طرابلس" وفي شفافس وسوسة والمنستير وتلمسان، وكانت تتناثر بين تلك المناطق الرئيسية رباطات متفرقة، تملأ الفراغات وتسد الثغرات بينها، فشكلت الربط على طول الساحل المغربي حزاما قويا، يصعب اختراقه والتسلل منه، ويقلل من فرص العدو في المباغثة ويحذر المسلمين من شر الإغارات المفاجئة ويقيهم خطرها⁽²⁾. لقد كانت هذه الأربطة ذات وظيفة عسكرية لتحمي ثغور المسلمين وصد الأعداء عنها، ووظيفة روحية حيث كان يلتقي فيها أناس زهدوا مما في الدنيا وقدموا أنفسهم فداء للإسلام والمسلمين دون طمع أو قهر، بل رغبة صادقة وإخلاص تام، واستجابة لدعوة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكانت تتوزع أوقاتهم في هذه الأربطة على عدة أشغال، كالحراسة والتدريب والتمرن على القتال، وفي العمل لكسب الرزق، والعبادة والتقرب إلى الله. ومع تغير المعطيات السياسية واستقرار أحوال المغرب والسواحل على الخصوص من الهجمات الصليبية، تحول الرباط ابتداء من القرن 5/11م إلى رابطة، وقد عرفت هذه الأخيرة فضلا عن استمرار الوظيفة الحربية التي كان يقوم بها الرباط، بروز الوظيفة الروحية أكثر مما مضى، حيث

(1) - بركات محمد البيلي: المرجع السابق، ص 67.

(2) - نفسه: ص 67.

أصبحت الرباطات تستهوي المتصوفة والزهاد حيث وجدوا فيها مبتغاهم كمان يقضون فيها بقية حياتهم متفرغين للعبادة والصلاة⁽¹⁾، أي أنها كانت بمثابة "الملاجئ" التي يأوي إليها العجزة و"البطّالون"، الذين ليس لهم دخل أو يعيشون منه حياة راضية متفرغين للعبادة. ولعل أبرز مثال عن الأربطة هو ذلك الرباط الذي أسسه عبد الله بن ياسين قبل قيام الدولة المرابطية، حيث كان دوره في بداية الأمر مقتصرًا على تعليم الناس تعليماً دينياً، ثم تحضيراً وتدريباً عسكرياً لتغيير الوضع السائد، الذي كان يشوبه الانحراف والبدع والخرافات، لذلك نجد أن العمارة التي غلبت على تلك الأربطة تبدو عسكرية بحتة، ولذلك فالرباط مركز حربي، وثقافي معاً، حربي حسب بناءه الذي يشبه القلعة المحصنة، وثقافي حسب تعليم القيم المرابطين للثقافة الإسلامية، والمعارف الدينية، إذ نجد بأن هناك تداخلاً واضحاً من حيث الوظيفة بين الأربطة، والزوايا⁽²⁾. لم تُعرف الزاوية في المغرب إلا بعد القرن الخامس الهجري، وسُميت في بادئ الأمر بـ "دار الكرامة"، كالتي بناها "يعقوب المنصور الموحي" في مراكش، ثم أطلق عليها تسمية "دار الضيوف" على ما بناه المرينيون من الزوايا، كالزاوية العظمى التي بناها السلطان "أبو عنان المريني" خارج فاس، ولئن كان السلطان "أبا يعقوب يوسف الموحي 1258 - 1286م" باعتباره أول من أسس زاوية بالمغرب، قد حدد وظيفة هذا البناء في استقبال الوفود الأجنبية، مما يعزز دورها كواحدة من المؤسسات الرسمية، التي كانت تدخل ضمن إستراتيجية تنظيم العلاقات الخارجية للدولة الموحدية⁽³⁾.

استمرت الزاوية في توسعها وتطورها خلال العهد العثماني، لتشهد اهتماماً كبيراً من طرف أهالي المدن والقرى من جهة، وبدعم من الحكام الأتراك من جهة أخرى، إذ أنها لاقت استحساناً وقبولاً لديهم، وذلك لأن شيوخها وقفوا إلى جنبهم أثناء حملاتهم الأولى لصد الغزو الإسباني وطردهم من السواحل الجزائرية، وقد كانت الكثير من الزوايا في مثل هذه المناطق عبارة عن رباطات، يقيم فيها الجند ليكونوا تحت الطلب كلما دعت الضرورة، وبعد تحرير المناطق الشرقية بقيت هذه المهمة مقتصرة على زوايا الغرب الجزائري، نظراً لاستمرار الغزو الإسباني لمدينتي مستغانم ووهران وبعض السواحل المجاورة لها، حيث أنها شكلت قوة كبيرة

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 219.

(2) - عبد الكريم عزوق: المرجع السابق، ص 75.

(3) - حجاج محمد عبد الرزاق: المرجع السابق، ص 181.

وقد كان للزاوية في الريف دورا أكثر ايجابية من الزاوية في المدينة، ففي بداية العهد العثماني كانت عبارة عن رباطات أو نقط أمامية ضد الأعداء، فكان المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب الجهادية وينصرون المجاهدين ويطعمونهم في زواياهم، ويتحالفون مع الأمراء المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد، وعلى هذا النحو تحالف بعضهم مع العثمانيين، وقدموا لهم المساعدات الأساسية، فجنّدوا من ورائهم الشعب وجمعوا لهم المؤن والمعدات ورفعوا الروح المعنوية للمحاربين، ولكن الدوافع الجهادية كانت تضعف بالتدريج بعد القضاء على الخطر الخارجي الدايم. فعاد المرابطون إلى قواعدهم وكانوا على صلة بالشعب أكثر من صلتهم بالسلطة العثمانية، وكان على هذه السلطة أن تؤيد المرابطين بالعطايا السخية والإعفاء من الضرائب، حتى لا تضعف الرابطة بينهما، مما جعل للزوايا مكانة مهمة في المجتمع، كما زاد في مداخنها، مما نتج عنه فتح أبواب التعليم أمام مختلف طبقات المجتمع.

ولكن بعض الزوايا أصبحت مراكز لتدريب الأتباع على الثورة ضد السلطة، ولاسيما في أواخر العهد العثماني، فقد ثار "يحيى الأوراسي والزبوشي"، وثار الدرقاويان "ابن الشريف وبن الأحرش"، وتملمت الزاوية القادرية والرحمانية، كما تمردت الزاوية التيجانية في عين ماضي ونواحيها.

أما عن الزوايا في المدن، فقد كانت أقل دورا بمقارنتها مع تلك الموجودة في الأرياف، إذ أنّ معظمها كانت معطلة عن التعليم لوجود الكتاتيب من جهة، والمساجد والمدارس المتخصصة من جهة أخرى، ورغم ذلك فقد اشتهرت بعضها في نشر التعليم بجميع مستوياته مثل: الزاوية القشاشية وشيخ البلاد اللتان ارتقتا إلى مدارس عليا، وزاوية ابن الفكون في قسنطينة، وزاوية مازونة بغليزان وزاوية عين الحوت بتلمسان وزاوية محمد التواتي ببجاية، أما البقية فقد أصبحت ذات طابع اجتماعي لتوفير الخدمات والأعمال الخيرية كإيواء الفقراء والعجزة والغرباء، وحماية الهاربين إليها من المجرمين والسياسيين المغضوب عليهم.⁽¹⁾

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص ص266 - 267 - 268.

3-3- دور الزوايا في الجزائر:

أدت الزوايا في الجزائر عامة دورا بارزا ومهما في تاريخ الجزائر الثقافي، إذ تعد الجزائر من بين البلدان الغنية بالزوايا، فالعدد الهائل الموجود بها لدليل قاطع على ذلك وهذا ناتج عن اهتمام أهلها بالعلم والعلماء، وكذلك تمسكهم بالدين الإسلامي، وتشجيع ذلك بكل الوسائل سواء كانت مادية أو بشرية، حيث كان لها دور كبير بعد ذلك في إخراج وتطهير البلاد من المحتلين، كما كانت ملاذا للفقراء والمساكين وغيرهم من الطبقات الاجتماعية المحرومة، ومعاقلا للأحرار ورباطات للمجاهدين، نذروا حياتهم للعلم والدين والقرآن، وفيها عُلِّموا وتدرّبوا، ومنها تخرجوا لمحاربة الجهل والأمية والمحافظة على كتاب الله، فهي جمعت بين وظيفة التعليم والجهاد في آن واحد، أو بصيغة أخرى تطورت من الرباط إلى مبنى ديني، وهذا ما أعطاهم مكانة هامة في قلب كل مسلم.

ولكن الوضعية الحالية لبعض الزوايا، توحى بفقدان مكانتها في المجتمع، إذ أنها البعض منها أصبح عرضة للخراب والتهديم، وكمنتجع وراعي للبدع والمعتقدات المتنافية مع الشريعة الإسلامية الصحيحة، كما أصبحت الأضرحة والمقامات الملحقة بها كملجأ لممارسة بعض الطقوس والمعتقدات التي حرّمها العلماء، ووضعوها في مرتبة الشرك بالله، هذا إضافة إلى انتشار ظاهرة السرقة والاحتيال، خاصة لمخطوطاتها التي تعتبر من المصادر الهامة للدراسات والبحوث.

إلا أن الزوايا الدينية بمختلف أشكالها وأنواعها تعد ظاهرة من المظاهر العمرانية الإسلامية عبر العصور المتتالية، أدت أدوارا كبيرة في الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية بل وحتى السياسية بالجزائر وكل بلدان المغرب، أغلبها إيجابي والبعض سلبي.

فمن الناحية الإيجابية:

- اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم ونشره بصورة مكثفة في الأجيال الإسلامية المتعاقبة، وعمته بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وساعد ذلك على حمايته من النسيان والضياع والاندثار.
- احتضنت اللغة والثقافة العربية الإسلامية ونشرتها بشكل واسع ومكثف، كما فتحت أبوابها لطلاب العلم والمعرفة، وأنفقت عليهم بسخاء، وكان ذلك شكلا من أشكال مقاومة الجهل والأمية ونشر العلم والمعرفة، وعملا ضد سياسة التجهيل التي كانت الإدارة الإستعمارية الفرنسية تتبعها ضد الأهالي الجزائريين.

- عملت على نشر الإسلام في المواطن والأصقاع التي لم يصل إليها، خاصة الأقاليم الصحراوية النائية، أي أنها أتمت الفتح الإسلامي بعد توقفه، كما فعلت التيجانية والسنوسية.

- عملت على إنهاء الفوارق بين الفئات الاجتماعية المختلفة، فقربت بين الأغنياء والفقراء والعلماء والأميين، وشرفاء الأصل وغيرهم، وصهرتهم في بوتقة واحدة، وألفت بينهم جميعا في إطار مفهوم الآية القرآنية "إِنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم"، ومفهوم الأحاديث النبوية المختلفة مثل: "المسلمون كأسنان المشط" و "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى"، وهذا الجانب له أهمية خاصة في تاريخ الزوايا بالجزائر ومعظم البلاد الإسلامية.

- ساهمت في إنهاء الخلافات والخصومات بين مختلف القبائل والفئات وطبقات المجتمع وذلك بفضل مركز شيوخها وعلمائها، فأدت دور الحكم، وقللت من المشاكل، وتمتع المجتمع الجزائري بنوع من الاستقرار النفسي والخلقي، وساعد ذلك على التفرغ لمقاومة السيطرة الأجنبية الاستدمارية⁽¹⁾.

- كانت هذه الزوايا مركزا هاما ومخزنا آمنا لدواوين الكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون، وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها بالعلم والتعليم والنسخ والنقل والتأليف والجمع على مر الأزمنة والفترات التاريخية، والتي لا تقدر بثمن، غير أنّ معظم ما بها من تراث تسرب إلى البلدان الأوروبية خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر وبلدان المغرب الأخرى وتعرض جزء هام من هذا التراث إلى التلف والضياع خلال مرحلة المقاومة للزحف الاستدماري الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين ميلادي، وخاصة في حرب التحرير الأخيرة في الجزائر.

- شاركت هذه الزوايا مشاركة فعالة في مقاومة نظم الحكم الطاغية والمستبدة، سواء منها المحلية أو الأجنبية، فاتخذت كرياضات، انطلق منها المجاهدون في سبيل تحرير الجزائر فحاربت الدرقاوية الولاية الأتراك المستبدين في شرق الجزائر وغربها، ودحر الاحتلال الإسباني الذي تمركز في الغرب الجزائري، وحاربت الرحمانية والسنوسية الاحتلال الفرنسي في الجزائر. كما أنها أصبحت الملاذ الوحيد للفقراء والمعوزين⁽²⁾.

(1) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا... ج1، المرجع السابق، ص ص 217 - 218. يُنظر كذلك:

- عبد الكريم عزوق: المرجع السابق، ص 85.

(2) - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا... ج1، المرجع السابق، ص ص 218 - 219.

أما من الناحية السلبية:

- اتبعت هذه الزوايا أساليب عتيقة ومناهج مختلفة، وتمسكت بتقاليد بالية لم تكن تتلاءم مع التطورات الحديثة، التي صحبت النهضة الأوروبية الحديثة، حتى ولو كانت لا تتعارض مع التقاليد العربية الإسلامية، وكان ذا بمثابة تجرؤ إن لم نقل أنه عناد وتحدّ، ومن هنا ساد التخلف الذهني والاجتماعي بين أتباعها الكثيرين إلا القليل منهم، وعمّمهم الركود والتفوق.

- انتشرت الدروشة والخرافات والأباطيل والبدع الدينية بين أتباعها وشيوخها، بسبب ضعف أفقهم الفكري وعجزهم عن فهم التطورات والحركات الإصلاحية، التي ظهرت في بعض بلدان الشرق الإسلامية، حتى ولو لم تكن في المستوى المطلوب، وبالطبع فإنّ عزل الجزائر على العالم العربي الإسلامي من طرف الاحتلال الفرنسي له دور في هذا التحجر.

- احتدت الخلافات والخصومات بين بعض شيوخ هذه الزوايا لأغراض شخصية، حول النفوذ والمكانة الاجتماعية، وحول بعض القضايا الدينية الهامشية التافهة، وكان ذلك سببا في قيام المشاحنات والحزازات بين الأتباع، وكذلك في بعض الأحيان كان لإدارة الاحتلال دور بارز في خلق هذا الخلاف وإذكائه من أجل إشغال لأهالي عن فكرة الثورة والتحرر.

3-4-4- زوايا مدينة معسكر:

3-4-1- زاوية سيدي بوسكرين:

أ- الموقع:

تقع هذه الزاوية في الجهة الغربية من حي باب علي، يتم الوصول إليها عبر شارع الغزالي من الجهة الشرقية وكذلك عبر طريق من وسط المدينة، وهي معزولة عن مساكن الحي بطريق شقه الاحتلال الفرنسي للطريق. (يُنظر الشكل رقم 15)

ب- نبذة تاريخية عن الزاوية:

يكتنف تاريخ هذه الزاوية الكثير من الغموض، وذلك لقلة المصادر التي تتحدث عنها، باستثناء رسالة مخطوطة محفوظة في الزاوية، تشير إلى أنها كانت قائمة في أواخر القرن التاسع هجري، وبالتحديد سنة 893 هـ، غير أن تاريخ تأسيسها مجهول.

توضح لنا هذه الرسالة أن هذه الزاوية كانت عامرة بالطلبة، حتى أنه لا يكاد يمر زائر بمعسكر إلا ويسمع دوي وأصوات الطلبة، فيقول عبد السلام الإدريسي في ذلك: "...والذي

وذلك لتراجع اللغة العربية وعدم النطق الصحيح لها. عاش ما بين القرن التاسع والعاشر الهجريين، كان عالما عاملا زاهدا كاملا، أخذ العلم عن معاصريه من العلماء في تلمسان⁽¹⁾. عند رجوعه من تلمسان توجه إلى الكرط للرباط وممارسة التعليم، وبدخول الإسبان إلى وهران دخل مدينة معسكر واتخذ له زاوية مسجدا لتعليم القرآن. وإذا قلنا أنه أنجب الصلحاء فمن ذلك: سيدي علي بن يحيى، سيدي محمد بن يحيى، سيدي أحمد بن يحيى⁽²⁾. استطاع بعلمه الغزير وزاويته التي ذاع صيتها في المغرب الإسلامي أن يكون لنفسه علاقات مع علماء الجزائر، منهم "سيدي الحسني" بوهران، وعلماء المغرب أيضا. كما بلغ عندهم حظوة كبيرة، لما تمتع به من معرفة واسعة حتى قال عنه مشايخ وزان: "...نحمد الله الذي أرانا هذا البلد، رجلا سخر الله له الريح"⁽³⁾، أي أنه استطاع بعلمه أن يهون من الصعاب ما فاقت قوتها قوة الريح.

د - وصف المخطط المعماري للزاوية:

تقع زاوية سيدي بوسكرين برحبة باب علي وبالضبط في حي سيدي بوسكرين. تتخذ شكلا هندسيا غير منتظم الأضلاع، تشغل مساحة واسعة مقارنة بزوايا المنطقة في الفترة العثمانية. وكأي منشأة دينية فإنها تحتوي على العديد من المرافق، يتم الدخول إليها عن طريق مدخل رئيسي يقع في الجهة الشرقية عليه باب خشبي مقاساته (2,10م × 1,25م) ولإشارة فإن المدخل الرئيسي الأصلي كان في الجهة الجنوبية نصل من خلاله مباشرة إلى الضريح، وهذا حسب ما ذكره القائم عليها، وتوضحه صورة التقطت له خلال فترة الاحتلال الفرنسي. وعبر هذا المدخل نصل إلى الصحن بعد المرور عبر سلم يتكون من 13 درجة والصحن عبارة عن فضاء واسع تحيط به مجموعة من المرافق الهامة والتي نذكرها على النحو الآتي:

أ - قاعة التدريس: تقع في الجهة الغربية وهي تؤدي وظيفتين التدريس والصلاة، وهي ذات شكل شبه مستطيل بمقاسات غير منتظمة، فمن الجهة الشمالية تبلغ 7,27م ومن الجهة

(1) - بن بكار بلهاسمي: المرجع السابق، ص 370. يُنظر كذلك:

- جلول جيلالي: معسكر رجال وتاريخ، دار الأديب للنشر والتوزيع، د.م، د.ت، ص 90.

(2) - بن جلول أحمد البدوي: رسالة النسب، د.ط، الجزائر، 1990، ص 12.

(3) - الرسالة المخطوطة السابقة الذكر.

الجنوبية 7,55م، أما الجهة الشرقية فتبلغ 5,20م ومن الجهة الغربية 4,76م، وسبب هذا الانتظام هو بنائها على أرض مائلة، ويتم الدخول إليها عبر مدخل بباب خشبي يبدو أنه أصلي، يقع في الجهة الشرقية تبلغ مقاساته (2×1,60م)، وتظهر هذه القاعة بسيطة في شكلها العام، تتكون من ثلاث أساكيب وبلاطتين، بعقود منكسرة متجاوزة، محمولة على أعمدة أسطوانية ارتفاعها 1,40م متوجة بتيجان بسيطة. (يُنظر الشكل رقم 17/16) و (تُنظر الصور 64/63/62/61)

أما المحراب فهو يتوسط جدار القبلة يظهر بسيطاً في شكله العام. كما فتحت في هذا الجدار نافذتين، واحدة يمين المحراب مقاساتها (1,40م×88سم)، والثانية يسار المحراب مقاساتها (1,87م×88سم)، والشيء المستحدث بقاعة التدريس هو مكتبة صغيرة في الجهة الغربية تضم مجموعة من كتب القرآن والفقه ومختلف العلوم الدينية، وهي موقوفة على الطلبة. وعن تسقيفها فهو مسطح بسيط خال من أية زخرفة. وهذه القاعة مازالت على حالتها الأصلية. (تُنظر الصورة 65)

ب- قاعة تدريس الطلبة الخارجيين: تقع في الجهة الشمالية يتم الدخول إليها عبر مدخل يقع في الجهة الجنوبية، وهي ذات شكل به مربع بسيطة في مظهرها العام، وحسب شيخ الزاوية أنها مخصصة لاستقبال الطلبة الخارجيين، أي الذين لا ينتمون إلى الزاوية، حيث أنهم يقومون بدورات تكوينية الغرض منها تطوير معارفهم ومستواهم العلمي، وكذلك الاحتكاك بطلبة الزاوية، وهي إحدى الأهداف المسطرة من قبل شيوخ الزوايا، كي لا يكون هناك اختلاف في المسائل الدينية. (يُنظر الشكل رقم 17) و(تُنظر الصورة 62)

ج- الخلوة: تقع في الجهة الغربية، وهي عبارة عن بيت صغير، يتم الدخول إليها عبر مدخل عليه باب خشبي مفتوح من الجهة الشرقية مقاساته تبلغ (1,75م×55سم)، وهذه الخلوة خاصة بشيخ الزاوية كانت يخلو فيها للمراجعة وترتيل القرآن والاطلاع على مختلف الكتب الدينية، وهي حالياً لا تؤدي هذه الوظيفة، حيث تم تحويلها إلى مخزن للزاوية.

د- المطبخ: يقع في الجهة الغربية من الزاوية، ويبدو من خلال طريقة بنائه أنه حديث البناء، وهو مخصص للجانب المعيشي للطلبة.

هـ- الكنيفات: تقع في الجهة الشرقية، يتم الدخول إليها عبر مدخل يقع في الجهة الشمالية و يبلغ عددها ثلاثة، مزودة بأحواض مائية للوضوء، وتبدو من خلال مظهرها العام أنها مستحدثة. (يُنظر الشكل رقم 17)

و- العين المائية: تقع هذه العين في الجهة الجنوبية بجانب الضريح، وشكل بنائها يشبه إلى حد كبير شكل السبيل، وقد كانت مخصصة لطلبة الزاوية وكذلك للزوار، وحسب ما سمعناه من أهل الرحبة أنّ ماءها صالح عذب ويستعمل في مداواة بعض الأمراض، لذلك اشتهرت عند سكان المنطقة ككل، ولكن للأسف هذه العين تعرضت للغلق من قِبَل السلطات المحلية في الفترة المعاصرة، لأسباب مجهولة. (يُنظر الشكل رقم 19)

3-4-2- زاوية أبي راس الناصري:

أ- الموقع:

تقع زاوية أبي راس الناصري في حي باب علي العتيق، وبالضبط عند شارع الأمير عبد القادر، وهي مرقمة إداريا بالرقم 62، إذ أنها تعد من بين المعالم الأثرية القليلة الباقية في هذا الحي.

ب- نبذة تاريخية عن الزاوية:

أسست هذه الزاوية أيام حكم الباي المشهور محمد الكبير، غير أنها لم تتل الشهرة كباقي المنشآت الدينية والتعليمية الأخرى، وبقيت على هذه الحالة إلى غاية حكم الباي مصطفى العجمي^(*) في ولايته الثانية، إذ أنه وعلى إثر حادثة سياسية تمثلت في أن العلامة أبي رأس امتحن مرة، فرمي من طرف خصومه الحسدة بالمشاركة في ثورة درقاوة القائمة ضد السلطة التركية سنة 1217هـ/1802م، وله تأليف في هذه الثورة أسماه "درء الشقاوة في حروب درقاوة"، فعزل الشيخ يومها. ولما ظهرت براءته أعاد صديقه الباي مصطفى منازل بناء وتجديد هذه الزاوية ووسعها، حسب ما ذكره "أبو راس" في كتابه "فتح الإله" في قوله: "وهذه المصرية بناها لنا الملك الأضفى والخليل الأوفى والمحب الأصفى، السيد الباي

(*)- الباي مصطفى العجمي: هو الباي مصطفى بن عبد الله العجمي، رابع بايات وهران، تولى أمر البايلك مرتين الأولى ما بين 1215 - 1220 هـ / 1800 - 1805م، والثانية في سنة 1222 هـ / 1808م حكم فيها مدة تسعة أشهر، عرفت فترته بالاضطرابات وظهور ثورة درقاوة. لمزيد من المعلومات يُنظر: المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص302.

مصطفى، برّد الله ضريحه.. " وكذلك في قوله "...بنا الله لك بيتا في الجنة كما بنيت لنا بيت الكتب بلا أذى ولا منّة..."⁽¹⁾

بالإضافة إلى شهادة بعض المؤرخين منهم "الآغا بن عودة المزارى" في كتابه "طلوع سعد السعود" قائلا: "وهو الذي بنا للعالم العلامة القدوة الدراكة الفهامة، شيخ الراشدية وغيرها على الإطلاق ومجدد القرن الثالث عشر بالاتفاق، من هو بعين العناية ملحوظ ومخلص من الضرائر والحاصر، الحافظ محمد أبو راس بن الناصر، المصريّة ذات العلو الأرفع، وبيت الكتب والمذاهب الأربع"⁽²⁾.

وقد تعرض لذكرها بعض المؤرخين، إلا أنهم اختلفوا في تسميتها، فقد أطلق عليها الكاتب عبد الرحمان الجبلاي في كتابه "تاريخ الجزائر العام" اسم "المسجد" في قوله: "فابتنى له صديقه الباي مصطفى منازل مسجدا بمعسكر وأسس له به مكتبة حافلة، تحتوي على ما ينيف عن ثلاثة آلاف مجلد، وبها غرفة للمطالعة تدعى بيت المذاهب الأربعة"⁽³⁾، أطلق عليها هذه التسمية - المسجد - ربما لوجود المصلى بها، أو ربما لأنها كانت ولا تزال مكانا لصلاة بعض السكان المجاورين لها، ولا يمكن أن تكون كذلك لأن طريقة بنائها تختلف عن طريقة بناء المساجد.

أما الدكتور أبو القاسم سعد الله فيقول عنها في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي: "كان لأبي رأس مكتبة كبيرة بناها له أحد بايات وهران وسماها بيت المذاهب الأربعة..."⁽⁴⁾، وهنا نجد أن كلا المؤرخين ذكرا وجود مكتبة، غير أنه حاليا لم يعد لها أي أثر. أما أبي رأس الناصر فقد ذكرها باسم "المصريّة" التي هي بيت المذاهب الأربعة والتي كان يفتي ويدرس بها وكذلك باسم "بيت الكتب"⁽⁵⁾، ولما توفي العلامة في سنة 1238هـ حوالي 1823م دفن بهذه الزاوية، وأصبح ضريحه علما على المكان.

(1) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله...المصدر السابق، ص 74.

(2) - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 328.

(3) - الجبلاي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ج 3، ط 2، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، الجزائر، 1980، ص 572.

(4) - سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2... المرجع السابق، ص 379.

(5) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله...المصدر السابق، ص 74. يُنظر كذلك:

- المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 10.

1751م⁽¹⁾، وهناك من يرى أنه ولد في سنة 1150هـ/ 1737م⁽²⁾ وهو رأي أغلبية المؤرخين.

يتضح من سيرته الذاتية أن أسلافه رجال علم ودين وتصوف، فأبوه من القراء الماهرين وجده أعجوبة الزمان في الولاية والصلح، وجد أبيه يضرب به المثل في معرفة الفقه والفتوى ولاسيما علم الفرائض، وأمه "زولة" فيقول عنها أنها كانت "كربوعة العدوية علما وورعا". غير أن أسرته لم تكن ميسورة، فهي لا تنتمي إلى الخاصة التي جمعت بين الجاه والمال. وقد طاله الفقر في طفولته وصباه على الأقل⁽³⁾، فيقول في هذا الصدد: "لقد استمرت عشر سنين عريانا لا لباس لي إلا خرق كالعدم وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي... ولما قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت، ثم أبيع وأكسي"⁽⁴⁾. نشأ فقيرا متسولا، وعاش حياة متقلبة⁽⁵⁾ تجرع رغم نعومة أظافره قسوتها ومرها. نشأ بسهل متيجة حيث استقرت عائلته، وهناك فقد أمه، ثم انتقل مع أبيه إلى حوز مجاجة^(*)، وبعد أن توفي أبوه وهو صغير، كفله هو وأخاه عبد القادر أخوهما الأكبر ابن عمر وانتقل بهما إلى المغرب الأقصى، قبل أن يستقر به المقام في معسكر، بالضبط في منطقة القيطنة⁽⁶⁾.

تربى الشيخ أبي راس الناصري في بيت علم وتقوى وصلاح، ويقول أبو راس في هذا المقام "فأخذنا بعد موت أبينا وانقلب بنا إلى المغرب، أما أخي فيمشي وأما أنا فيحملني على عاتقه لصغري، فكنا معه في الشرائع فقرأت القرآن في حال صغري، ثم قرأت أحكام القرآن

(1) - بن شهرة المهدي: تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، القبة، دار الرياحنة للكتاب، الجزائر، 2007 ص166. يُنظر كذلك: - الجيلالي عبد الرحمن: المرجع السابق، ج3، ص570.

(2) - أبو راس محمد الناصري: الكوكب الدرّي في الكلام على الجدي، تحقيق بوكعب بلقرد، سلسلة تراث أعلام الجزائر - 1، - مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص8. يُنظر كذلك:

- المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص10.

- سعيدوني ناصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص460.

(3) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص11.

(4) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص19.

(5) - نفسه: ص5.

(*) - تقع في ولاية الشلف حاليا.

(6) - سعيدوني ناصر الدين: من التراث التاريخي والجغرافي...، المرجع السابق، ص460.

وحفظتها على ظهر قلبي". وبعد أن استقر بالقيطنة^(**) درس الفقه على يد علمائها وفقهائها نذكر منهم الشيخ "محمد بن علي بن سحنون" قاضي معسكر ووالد المؤرخ الشيخ "أحمد بن سحنون" صاحب "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" والشيخ "الموفق بن عبد الرحمن الجبالي"، الذي تخرج عنه عدد من العلماء⁽¹⁾.

ثم توجه وسنه لا يتجاوز 15 سنة إلى مازونة، التي ذاع صيتها في تلك الفترة، وهو ما يؤكد في قوله: "... ولما أتقنت القرآن بأحكامه مع الأنصاف التي للشيخ "ابن آزقاق" والشيخ "الطاهر بن عمرو المغراوي" وغيرهما، انتقلت لقراءة الفقه فقرات على فقهاء أم معسكر...، ثم سافرت أول صومي لمازونة فلقيت على صغري مشقة المشي، لكن ذلك شأن العلم"⁽²⁾. وكذلك في قوله: "ولما ذكر لي الطلبة مازونة وكثرة مجالسها... وقريحة أشياخها سافرت إليها..."⁽³⁾. استقر بها ثلاث سنوات لتحصيل العلوم الدينية واللغوية، فدرس على فقهاء مختصر خليل وحفظه حفظا وفهما معنى ولفظا، نذكر منهم: الشيخ "مصطفى بن هني" والشيخ "محمد بن إبراهيم" والشيخ "مصطفى بن يونس"، كل منهم مختص في باب من أبوابه، وقرأ الفرائض على الشيخ "البدالي" والقضاء والشهادات والأحكام على أجل قضاة مازونة الشيخ "محمد بن عبد القادر" وتحقيق الصرف وبيع الأجل على الشيخ "أحمد بن نافلة"⁽⁴⁾. خلال إقامته بمازونة، تميز عن بقية الطلبة بشدة الذكاء وقوة الذاكرة رغم صغره. وكان حينذاك يقوم بخدمة الطلبة يسأل لهم الأكل والشراب من بيوت أهل مازونة⁽⁵⁾.

(**) - القيطنة: مشتقة من القطن، وهي موضع القطن، أي الإقامة، وهي قرية تتربع على سهل واسع وفي انعطاف مجرى النهر، بها زاوية سميت باسمها، تخصصت في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد، إلى جانب الحديث وعلوم اللغة العربية من نحو وبيان، لمزيد من المعلومات ينظر كل من: - الآغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ج1، ص12. وكذلك: الأمير عبد القادر: مذكرات الأمير عبد القادر، سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1844، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، طبعة خاصة، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص48، وكذلك: محمصاجي قدور: شباب الأمير عبد القادر (أصله، طفولته، تربيته، تكوينه، زواجه، معاركه العسكرية الأولى، توليه الإمارة)، ترجمة مختار محمصاجي، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص39.

(1) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص14.

(2) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص19.

(3) - نفسه: ص43.

(4) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص12.

(5) - نفسه: ص11.

ولما سمع أبو راس الناصر بالشيخ عبد القادر المشرفي^(*)، الذي أتقن علوما جمة وبرع فيها، وكان "يخضع له القضاة والولاة ويهابونه ويرجعون إليه في مهمات الدين وفي مصالح عباد الله المهتدين"⁽¹⁾ قدم إليه وهو بضاحية معسكر، والتي يقصد بها زاوية القيطنة حيث التقى به، ودرس على يديه ألفية بن مالك على شرح المكودي التي جعل لها حاشيتين صغرى وكبرى، فتأثر به ولازمه مدة، كان خلالها يغسل ثيابه وثياب أهله⁽²⁾.

ولما شعر بشيء من الاستقلال العلمي، خرج إلى الريف وتزوج وبدأ التدريس، ثم تولى القضاء وقد بقي على هذا الحال سنتين كاملتين تبين له خلالهما: "أن آفات العلم في الريف بادية"⁽³⁾، فانتقل من جديد إلى مدينة معسكر كي لا يذهب علمه. يقول "وشمرت ساق الجد للتدريس ليلا ونهارا وداومت ذلك ستا وثلاثين سنة متصلة وما بطلت فيها يوما واحدا"⁽⁴⁾، وفي معسكر ذاع صيته وقد رشحه الشيخ "المشرفي" إمام الراشدية ليكون خليفته في التدريس، كما خصه بايات الغرب الجزائري بعناية، وأجروا عليه جرايات يستفيد منها في مهماته التعليمية⁽⁵⁾. فاستفاض ذكره وذاع صيته بين الناس، وصارت حضرته في العلم تذكر في الآفاق وتتأثر دروس مصر والشام وتونس والعراق⁽⁶⁾.

أما عن رحلاته فيذكر أبو راس أنها إنما كانت اقتداءً بالجهاذة التحارير، كرحلات الإمام "ابن رشيد السبتي"، و"الخطيب بن مرزوق"، والشيخ "أبي سالم عبد الله بن محمد

(*) - عبد القادر المشرفي: هو عبد القادر بن عبد الله، بن أبي جلال المشرفي الغريسي المعسكري، كان عالما محدثا أمينا، أخذ عن فطاحل العلماء من المغرب والمشرق، ومن مؤلفاته "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسمانيين بوهران من الأعراب كبني عامر". للمزيد من المعلومات ينظر: المشرفي عبد القادر: المصدر السابق، ص 6. ينظر كذلك: شاوش محمد بن رمضان، بن حمدان الغوثي: الأدب العربي الجزائري عبر النصوص (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، مج 2، د. ط، د. ت، ص 462.

(1) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله...، المصدر السابق، ص 53.

(2) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 12.

(3) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله...، المصدر السابق، ص 53.

(4) - نفسه: ص 22. يُنظر كذلك: - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 12.

(5) - نفسه.

(6) - فيلالي كمال: "هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني"، مجلة المواقف: عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول: الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أبريل 2008، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطبولي، معسكر، ص 378.

العياشي⁽¹⁾، وكانت أولى رحلة له نحو الجزائر العاصمة سنة 1789م، التي لقي فيها الفقيه القاضي المفتي "محمد بن جعدون"، والقاضي الفقيه الشيخ "محمد بن المبارك"، وكذلك الفقيه والخطيب والمفتي "محمد بن الحَقَّاف"، وعندما ساءله في مسألة نحوية، أجاب عنها ببراعة فلقَّب على غيرها بـ "الحافظ"، ومن علماء الجزائر الذين لقيهم أيضاً، العلامة "الحاج بن الشَّاهد" الذي حضر له يُدرِّسُ الموطأ. ثم توجه نحو "قسطينة" (كما يذكرها وهي قسنطينة) أتاه علماءها يسلمون عليه، ومنهم قاضي الجماعة "الونيسي" الذي كان "فقيهاً علامة حافظاً بارعاً"⁽²⁾.

أما بالنسبة لرحلاته خارج الجزائر، فكانت البدايات نحو أقطار المغرب الإسلامي فرحل إلى فاس (1215هـ/1801م)، حيث رحَّب به علماءها أحسن ترحيب، وممَّن لقيهم، العالم العامل الشيخ "حمدون" (ت: 1332هـ)، والنَّحوي الشَّيخ "عبد القادر بن شقرون" (ت: 1219هـ)، والفقيه النَّابِه الشَّيخ "محمد بن بنَّيس" (ت: 1214هـ)، والفقيه "الهوري" (ت: 1220هـ). وبعد فاس، عاد إلى تلمسان⁽³⁾. ثمَّ ذهب إلى تونس وفيها قال: "اجتمعت بعلمائها وأجلَّة فقهاءها... فتذاكرنا وتناظرنا وترافعنا وتشاجرنا وتقابضنا في جميع الفنون الدقيقة..."⁽⁴⁾، وقد نزل فيها على شيخها المفتي "محمد بن المحجوب" (ت: 1243هـ) واجتمع بالعالم الكبير والأديب الأريب "إبراهيم الرِّيَّاحي" (ت: 1266هـ)، معارض الحريري في المقامات⁽⁵⁾. بعد ذلك وجه أنظاره اتجاه المشرق الإسلامي، نحو بيت الله الحرام ولأول مرة سنة 1790م، فركب البحر إلى مصر⁽⁶⁾، وفيها كتب أبي راس الناصري قائلاً: "..... ففي القاهرة لقيت بها العلماء الكبار، أهل العلم والأدب الأخيار..... فتناظرنا

(1) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص 91.

(2) - نفسه: ص ص 98 - 99.

(3) - لقد حجَّ أبي راس مرتين، إذ كان الحج وطلب العلم والتجارة، هي العوامل التي دفعت المسلمين إلى الرحلة. للمزيد من المعلومات ينظر: أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص ص 101 - 108. يُنظر كذلك: أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، د.ت، ص 14.

(4) - أبو راس محمد الناصري: فتح الإله... المصدر السابق، ص 115.

(5) - نفسه: ص ص 109 - 110.

(6) - خدوسي رابح: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر، 2003، ص 19. يُنظر كذلك:

- بن شهرة المهدي: تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، دار الريحانة للكتاب، الجزائر، 2007، ص 162.

بالمشاركة في ثورة درقاوة القائمة ضد السلطة العثمانية، وله في تاريخ هذه الثورة تأليف أسماه: "درء الشقاوة في حرب درقاوة". لیتجه بعد ذلك إلى فاس، حيث لجأ إلى السلطان "مولاي سليمان"، فأجازه وأقام هناك مدة أهدى خلالها السلطان الكثير من المؤلفات، كما احتك بالعديد من العلماء والفقهاء، فاشتهر بالمدينة لغزارة علمه وكثرة تأليفه⁽¹⁾.

ترك لنا أبو راس الناصري مصنفات كثيرة، في جميع الفنون والعلوم، بيد أن أغلبها لا يزال إلى يومنا هذا مخطوطا. لقد أكثر أبو راس من التأليف، حيث لا يضاويه في ذلك أحد من الجزائريين باستثناء "أحمد البوني" الذي تجاوزت تأليفه المئة⁽²⁾.

إن هذا العرض البسيط والموجز لمؤلفات أبي راس الناصري، لا يغفل قيمته والإنتاج الفكري لهذا العقل الخصب، ولا يخفي كونه مؤرخ لامع، وأديب بارع، ناظر أشهر رجالات ذلك العصر، وأثبت وجوده وقيمه العلمية، رغم قسوة الظروف في بعض الأحيان⁽³⁾. فهو شخصية لها وزنها، خلفت لنا الكثير من المؤلفات، ظل أغلبها مخطوطا، كما ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية.

اختلف المؤرخون في تحديد التاريخ الحقيقي لوفاة أبي راس الناصري، فيذكر الكتاني أنه توفي رحمه الله يوم الأربعاء 13 جمادى الثانية 1239هـ / 1824م⁽⁴⁾، بينما يورد

(1) - فيلالي كمال: المرجع السابق، ص 378.

(2) - للمزيد من المعلومات حول مؤلفات أبي راس الناصري ينظر:- أبو راس محمد الناصري: فتح الإله ... المصدر السابق، ص5. - بوعزيز يحي: موضوعات وقضايا ...، المرجع السابق، ج1، ص ص 165 - 173.

(3) - من بين المصاعب التي لاقاها العلامة أبي راس حينما أبطل مزاعم بعض الأسر من غريس المدعية النسب الشريف، من خلال مؤلف أسماه "مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتمى إلى الشرف وذهب"، فانزعج لذلك سكان الراشدية، قاموا بسبه وشتمه وإحراق كتبه وإتلافها. للمزيد من المعلومات ينظر: بوركية محمد: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار للشيخ أبي راس الناصري المعسكري 1165 - 1238هـ / 1755 - 1823م، دراسة وتحقيق، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة وهران، 2007 - 2008، ص16.

(4) - الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، ج1، د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د.ت، ص 150. ينظر أيضا: نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980، ص278.

المؤرخين أنه توفي بمرض الطاعون يوم 15 شعبان 1238هـ / 27 أبريل 1823م، ودفن بالقرب من بيته في حي باب علي بمعسكر، وعليه بناء مشهور⁽¹⁾، يتألف من ضريح وزاوية سنأتي على ذكرها.

د - وصف المخطط المعماري للزاوية:

الواجهات والمدخل الرئيسي:

تتكون زاوية أبي راس من أربع واجهات، تظهر منها واجهتين فقط وهي الواجهة الجنوبية والشرقية المطلتين على الشارع، أما الواجهة الغربية فهي ملتصقة بمساكن خاصة والواجهة الشمالية يحدها الضريح، أما عن مخططها العام فهي تظهر على شكل غير منتظم.

يتم الدخول إليها عبر مدخل رئيسي مستحدث يقع في الجهة الشرقية، يبلغ طوله 2,10م وعرضه 91سم ومن خلاله نصل إلى الصحن وهو عبارة عن فضاء مكشوف يتخذ شكلا مستطيلا غير منتظم الأضلاع، طوله 7,90م وعرضه 6,50م للعلم أن المدخل الرئيسي الأصلي حسب القائم على تسيير الزاوية كان موضعه في الجهة الجنوبية، وقد غُيِّر عند توسيعها. (يُنظر الشكل رقم 18) و(الصورة رقم 66)

غرفة الشيخ:

يتم الوصول إلى هذه الغرفة عبر مدخل بباب خشبي مفتوح على الصحن من الجهة الجنوبية، وهو متوسط الحجم، ارتفاعه 2,17م، وعرضه 1,03م، وتظهر الحجرة بسيطة في مظهرها العام، فهي ذات شكل مستطيل يبلغ طوله 4,35م، وعرضه 2,20م، كما قد فتح فيها نافذتين واحدة في الجهة الجنوبية والأخرى في الجهة الغربية، كما فتح في جدارها الشمالي، مدخل نصل من خلاله إلى المسجد. كانت مخصصة للشيخ أبي رأس الناصري إذ أنه اتخذها لاستحضار الدروس، والاجتماع بأعيان المنطقة والنظر في الخلافات والقضايا الاجتماعية. (الصورة رقم 67)

(1) - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص12. يُنظر كذلك: - الحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف الفاسي الحسني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص 333.

بيت الصلاة (قاعة التدريس):

تقع في الجهة الشمالية الغربية، نصل إليها عبر مدخل مفتوح في الجدار الغربي من غرفة الشيخ، تبلغ مقاساته 1,90م×81سم، وهي ذات شكل شبه مستطيل طوله 11,71م أما عرضه فهو غير متساوي، حيث أنه يبلغ 4,70 م من الجهة الشمالية، و4,60م من الجهة الجنوبية، نجد المحراب في وسط الجدار الشرقي، وهو عبارة عن تجويف يعلوه عقد نصف دائري، وشكله نصف أسطواني من الداخل ومضلع من الخارج، يبلغ ارتفاعه 2,15م وعرضه 90سم، وهو بسيط في مظهره العام زين بإطار من المربعات الخزفية حديثة الصنع كما تحتوي بيت الصلاة على ثلاثة نوافذ، اثنان منها في الجدار الشرقي وواحدة في الجدار الجنوبي، وذلك لتوفير الإضاءة اللازمة ولتجديد الهواء، نظرا لكثرة الطلبة الوافدين عليها إليها.

أما عن تسقيفها فنجدته مقسم إلى قسمين متساويين، القسم الأول من الجهة الجنوبية مبني على شكل مسطح، أما القسم الثاني من الجهة الشمالية فهو على شكل أقبية نصف أسطوانية، يبلغ عددها 12 قبوا، ولا نعلم إن كان قد طرأ عليه تجديد أم لا؟ بينما أرضيتها فهي مبلطة ببلاطات حديثة. (يُنظر الشكل رقم 18) و (تُنظر الصور رقم 70/69/68)

الصحن:

يقع صحن الزاوية في الجهة الشرقية أين نجد المدخل الرئيسي وهو ذو شكل غير منتظم، كان يحتوي على مدخل من الجهة الشمالية يوصل إلى الضريح، لكنه أغلق في فترة حديثة بسبب الفوضى التي كان يحدثها الزوار.

وما لفت انتباهنا خلال دراستنا لهذه الزاوية هو عدم وجود بيت الوضوء، رغم أنها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها، وهو ما دفعنا للاستفسار عن ذلك لكن لم نجد إجابة مقنعة، وأغلب الظن أنها كانت موجودة وأزيلت في فترات لاحقة لأسباب تبقى مجهولة.

(يُنظر الشكل رقم 18)

4- الأضرحة:

4-2- تعريف الضريح:

أ- لغة:

الضريح من الناحية اللغوية كلمة مشتقة من فعل "ضَرَحَ"، بمعنى القبر حفره أو شقه ويقال ضرح القبر، جعله ضريحا ولم يلحده ويقال: ضرحوا لميتهم ولحدوا له. وضرح الشيء رمى به ونحاه. وضرحت عني الثوب، ألقيته. وقد سمي ضريح لأنه يشق في الأرض شقا وقد يسمى القبر كله ضريح، كما قد يسمى القبر الذي بلا لحد ضريحا، أما جمعه فهو أضرحة، يقصد بها المبنى الذي يقام على قبر الميت⁽¹⁾.

ب- اصطلاحا:

هو مدفن سلطان أو أمير أو رجل صالح أو أي إنسان آخر له مكانة تدعو إلى تخليد ذكره⁽²⁾، ومما تجدر الإشارة إليه هو أن التسمية التي ردها علماء الآثار العرب والأجانب على السواء، وأطلقوها على المدافن الإسلامية وهي الأضرحة، ليست صحيحة في غالب الأحوال، لأن المدفن لا يكون ضريحا إلا إذا كان شقا في وسطه، وهذا يعني أن ليس كل مدفن ضريحا، فقد يكون لحداء، ومن جملة الخطأ الواقع في هذا الصدد ما نراه في غالبية المراجع العربية والأجنبية من وصف مدفن أو قبر النبي صلى الله عليه وسلم - بأنه ضريح وهذا ليس بصحيح لأنه لحد للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يضرح له كما تذكر كتب السنة والفقهاء الإسلامية⁽³⁾.

ولقد تعددت مفاهيمه من الناحية الاصطلاحية وأطلق عليه عدة تسميات مختلفة باختلاف المناطق والأزمنة التاريخية نذكر منها ما يأتي:

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 11، ص 526. يُنظر كذلك: - الولي طه: المرجع السابق، ص 126.

- نوار سامي محمد: الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم اللغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2002، ص 112.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 156.

(3) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 93.

- **القبّة:** وهي من المظاهر المعمارية التي تلفت النظر في العمارة الإسلامية⁽¹⁾، وهذا العنصر موروث عن الساسانيين والبيزنطيين. ثم ظهرت لتغطي الغرف المربعة والمستديرة للأضرحة وأطلق الجزء على الكل وأصبح يسمى بها الضريح كله.
- **التربة:** المقصود بها المبنى الضريحي الذي يقام على رمس الميت، واستعمل هذا المصطلح عند الأتراك⁽²⁾.
- **المشهد:** هو من الكلمات التي تحمل مدلولاً دينياً معيناً، وهو المسجد المدفني، أي الذي بُني في الأساس ليكون مدفناً للشخص أو الأشخاص الذين يتمتعون بمكانة روحية خاصة لدى الناس، وهذا المدفن غالباً ما يكون مخصصاً للمتوفين من آل البيت النبوي الطاهر، ذكرانا كانوا أم إناثاً، وأحياناً يُدفن فيه غيرهم من الأفراد العاديين، الذين عرفوا بين أهل زمانهم بالتقوى والصلاح والعبادة، وهذا المصطلح مشهور عند الشيعة ومتداول في مصر والعراق⁽³⁾.
- **المزار:** هو البناء الذي يستهدفه عامة الناس بالزيارة ويقدمون له الهدايا والندور والقرايين تعبيراً عن عاطفتهم نحو الميت الذي دفن فيه. وقد أطلق عليه هذا المصطلح نسبة إلى الزيارة، وفي بلاد المغرب استعملت كلمة "مربوط" للدلالة على المدفن⁽⁴⁾. وقد عرف أول مزار في قبة الصخرة بالقدس⁽⁵⁾.
- **المقام:** المقصود به ذلك المكان الذي فيه قبر لنبي أو شيخ أو عالم له مكانة عند الناس لعلمه وتقواه وورعه، وقد لا يكون في المزار قبر وإنما يرمز المكان إلى واقعة أو حدث

(1) - مرزوق محمد عبد العزيز: **الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه**، مطبعة أسعد، بغداد، 1965، ص 40.

(2) - عزوق عبد الكريم: "الأضرحة ببجاية، دراسة نموذجية"، مجلة دراسات تراثية، يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط بمعهد الآثار - جامعة الجزائر، ع01، 2007، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، ص 136 - 137.

(3) - الولي طه: **المرجع السابق**، ص 111. يُنظر كذلك: لمعي صالح مصطفى: **القباب في العمارة الإسلامية**، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، د.ت، ص 23.

(4) - عزوق عبد الكريم: **المرجع السابق**، ص 137.

(5) - سامح كمال الدين: **العمارة الإسلامية في مصر**، الهيئة العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1988، ص 9.

أو الاثنتين معا، مع تشكيل هذه الأسطح بالمقرنصات في بعض الأحيان، كذلك تنوعت طرق تشكيل السطح الخارجي لمنطقة الانتقال.

أما السطح الخارجي للقبة فقد استعملت له الزخارف الجصية الملونة أو غير الملونة عند البناء بالطوب كما أنه في إيران وتركستان وبعض مباني الأناضول، شاع استعمال البلاطات المزججة والطوب المزجج في عمل الزخارف، أما في حال استعمال الحجارة كما هو الحال في العمارة المملوكية في كل من مصر وسوريا، فقد استعملت الزخارف الهندسية أو النباتية أو تشكيل مشترك من الاثنتين⁽¹⁾، وقد يقام الضريح قريبا من مدرسة أو ملاصقا لها أو ملحقا بجامع أو يكون هو النواة الأولى لمسجد فخم المظهر متعدد المآذن، محاطا بالبرك والجنانن والأشجار، وتحتوي غرفة الضريح على محراب أو يلحق بهام صلة منفصل⁽²⁾. وقد يقام الضريح قريبا من مدرسة أو زاوية أو ملاصقا لهما أو ملحقا بجامع أو يكون هو النواة لمسجد فخم المظهر متعدد المآذن محاطا بالبرك والجنانن والأشجار⁽³⁾.

4- 2- نشأة الأضرحة وتطورها خلال العصر الإسلامي:

لقد عرف الإنسان الدفن منذ عصور قديمة جدا، حددها العلماء منذ فترة فجر التاريخ، فتعددت أساليب بناء القبور باختلاف المناطق والأزمنة التاريخية، حيث وجدت مدافن على شكل مسكن، وهي عبارة عن مناضد حجرية تتكون من عدة غرف، وأشكال أخرى عبارة عن مغارات في الصخور، وفي العمارة المصرية القديمة ظهرت عمارة الأهرامات والمصاطب ونفس الفكرة ظهرت في حضارة بلاد الرافدين، وفي العصر الإغريقي ظهرت عمارة المعابد وفي العصر الروماني ظهرت بعض الأنواع من الأضرحة عبارة عن أقبية تحت الأرض، ثم المقابر التذكارية المستديرة ثم الأضرحة الهرمية⁽⁴⁾.

ومن تقاليد العرب خلال تلك الفترة أنهم كانوا يضررون الخيام على قبور موتاهم، ويتلقون التعازي فيها، ثم يقيموا فيها مدة غير محددة اعتقادا منهم بأن الموتى يأنسون

(1) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص ص 93 - 94 .

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص ص 256 - 258.

(3) - نفسه: ص 256.

(4) - عزوق عبد الكريم: المرجع السابق، ص 137.

بوجودهم إلى قريهم، ولما جاء الإسلام استمر هذا التقليد، ولعل أول خيمة أقيمت في الإسلام كانت على قبر أم المؤمنين زينب بنت جحش بعد وفاتها في سنة 20هـ / 641م⁽¹⁾. وفيما يخص ضريح الرسول صلى الله عليه وسلم فأصله حجرة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عليها التي توفي فيها عليه الصلاة والسلام، ثم ألحقت بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم في عهد الوليد بن عبد الملك، ثم زودت بقبة في عصر المماليك⁽²⁾. وقبل أن نبدأ الحديث عن تاريخ نشأة هذا التقليد وعن تطور بناء الأضرحة في الإسلام وما يقام فوقها من القباب والأقباء وما يجاورها من المساجد والزوايا والربط، لابد أن نعرف أولاً تاريخ نشأة زيارة القبور، وفي ذلك يحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: "زار النبي صلى الله عليه وسلم فبكى وأبكى من حوله، وقال استأذنت ربي أن استغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزورها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت وفي رواية تذكركم بالآخرة". وروي عن السيدة فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم أنها كانت تزور قبر عمها حمزة في بعض الأيام وتبكي عنده، وقيل عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

أما حكم الدين في زيارة القبور عامة وأضرحة الأولياء بصفة خاصة، فقد جاء في كتب الفقه على المذاهب الأربعة أن زيارة القبور مندوبة، على أنه ينبغي عند زيارة القبور أن يشتغل الزائر بالدعاء والتضرع والاعتبار بالموتى وقراءة القرآن للميت، فإن ذلك ينفع الميت على الأصح، كما ينبغي أن تكون الزيارة مطابقة لأحكام الشريعة، فلا يطوف حول القبر ولا يقبل حجراً، ولا عتبة ولا خشباً، ولا يطلب من المزور - أي الولي أو الشيخ - شيئاً إلا غير ذلك⁽³⁾.

أما عن مباني القبور، فقد كره الإسلام البناء على الأضرحة كما كره أيضاً إقامة المزارات واتخاذها أماكن للصلاة، حيث يروى أن الخليفة "عمر بن الخطاب رضي الله عنه" كان في سفر فرأى قوماً ينتابون مكاناً للصلاة فقال: "ما هذا؟ فقالوا: هذا مكان صلى فيه

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 362.

(2) - الباشا حسن: المرجع السابق، ص 139.

(3) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 46.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إنّما هلك من كان قبلكم بهذا، أنهم اتخذوا آثار أنبيائهم مساجد، من أدركته الصلاة فليصل والّا فليمض" (1).

ومع مرور الزمن نشأت في العمارة الإسلامية دون غيرها عمائر أقيمت على المقابر عرفت بالقباب، وقد كانت القبة في أول أمرها عنصرا معماريا أريد به إظهار أهمية بعض أجزاء المسجد، كما هو الحال في المسجد الأموي بدمشق ومسجدي الأزهر والحاكم في مصر، ومن ناحية أخرى للإشارة إلى هذا الجزء من المبنى، وقد أقبل المسلمون على استعمال القباب في تغطية المبنى المقام على قبور الشخصيات البارزة مثل الملوك والسلاطين، أو قبور أولياء الله الصالحين، حتى أطلق اسم الجزء على الكل وصارت كلمة "قبة" اسما للضريح كله، ومن هنا جاء المثل السائر "تحت قبة الشيخ".

وعن أقدم ضريح في الإسلام أقيمت عليه قبة يعود إلى القرن الثالث الهجري، حيث عُرف هذا الضريح باسم "القبة الصليبية للخليفة العباسي "المنتصر" المتوفي سنة 246هـ/821م، وهو يوجد في مدينة "سامراء" بالعراق على الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الجنوب من قصر العاشق، وقد ضم الضريح إلى جانب المنتصر الخليفة المعتر والمهتدي. ويتكون الضريح من مئنتين خارجي وآخر داخلي وفي الوسط توجد غرفة مربعة، فهو بذلك يشبه في تخطيطه إلى حد كبير قبة الصخرة (69 - 72هـ/688 - 691م)، وقد بني في أركان الغرفة الأربعة مقرنصات حولت المربع إلى مئمن أقيمت فوقه القبة (2).

وانتشر بعد ذلك اتخاذ الأضرحة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولاسيما إيران والهند، ومن أشهر الأضرحة الإسلامية نذكر "ضريح إسماعيل الساماني" المبني سنة 296هـ في مدينة "بخارى"، ثم ضريح الإمام "علي" في "النجف" الذي بناه الحمدانيون سنة 317هـ، ثم ضريح "محمد بن موسى" في مدينة "قم" بإيران سنة 366هـ، وضريح "أولغ بك" في غزنة و"تاج محل" (*) في أكرا، ومقابر الأئمة الزيدية في سعدا باليمن، وكذلك ضريح "السبع بنات" في الفسطاط المبني سنة 400هـ، كما احتفظت لنا جبانة أسوان بمجموعة كبيرة من

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 364.

(2) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج 1، ص 46. يُنظر كذلك: - الباشا حسن: المرجع السابق، ص 139.

(*) - ضريح تاج محل: أنشأه السلطان "شاه جيهان" في سنة 1041هـ/1631م، ليكون ضريحا لزوجته "ممتاز محل". لمزيد من المعلومات يُنظر: - الباشا حسن: المرجع السابق، ص 140.

الأضرحة ذات القباب التي يرجع تاريخ معظمها إلى العصر الفاطمي في القرن الخامس الهجري⁽¹⁾، هذه الدولة التي أقامت الكثير من الأضرحة وقصرتها على آل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة مثل: السيدة "نفيسة" و "رقية" و "عاتكة" و "الجعفري" و "بدر الجمالي"، وعرفت بالمشاهد أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة العلويين. فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الأنظار عن أضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة. فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الإمام الشافعي سنة 608هـ، وأجرت عليها الماء من بركة الحبش، ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مقابر موتاهم بجوار الإمام الشافعي، وهو يعتبر أكبر الأضرحة في مصر على الإطلاق وأقدم قبة خشبية فيها، وذلك إذا استبعدنا الأضرحة بالمدارس والخانقاوات⁽²⁾.

أما في بلاد المغرب فإنه من الصعب تحديد تاريخ ظهور الأضرحة المغطاة بقبة، ولعل أقدم الأضرحة المعروفة قبة "سيدي بوخريسان" (486هـ - 1096م)، ثم تليها قبة البروديين المرابطية المشيدة فيما بين (514 - 525هـ / 1120-1130م)، يليها ضريح "المهدي بن تومرت"، الذي ذكرت النصوص التاريخية بأنه من بناء "عبد المؤمن بن علي" (524 - 558هـ / 1130 - 1163م)، وتواصل بعد ذلك بناء الأضرحة منها ضريح "سيدي أبي مدين" بتلمسان، الذي بناه الخليفة الموحي "محمد الناصر" (595 - 610هـ / 1198 - 1218م)، وإلى هذه الفترة بنيت العديد من الأضرحة منها: ضريح "سيدي إبراهيم" (765هـ / 1363م)، وفي المغرب الأقصى توجد نماذج تعود إلى العهد المريني، مثلما هو الحال في الأضرحة الأربعة التي تقع "بشلة" بالقرب من مدينة الرباط، والتي دفن فيها كل من السلطان أبو يعقوب والسلطان أبو ثابت والسلطان أبو سعيد والسلطان أبو الحسن، وهي مؤرخة فيما بين (763 - 805هـ / 1361 - 1398م)، وأضرحة السلاطين السعديين بفاس⁽³⁾.

وخلال العهد العثماني كثرت الأضرحة والقباب، وأصبحنا لا نكاد نجد مدينة أو قرية بدون العديد من الأضرحة والمشاهد، وعند كل بناية أناس يتبركون ويدعون ويزورون

(1) - الباشا حسن: المرجع السابق. يُنظر كذلك: - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص46.

(2) - ماهر سعاد: المرجع السابق، صص 26- 27.

(3) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، صص 365 - 366.

ويتقربون، يقيمون الحضرة ويقدمون الهدايا ويذبحون الذبائح، آتين من كل فج. وأصبح المشاهد المحايد لا يعرف وهو أمام ذلك هل يشاهد مادب أو ماتم، وهل العابدون يعبدون الله أو يعبدون الشيوخ والمرابطين⁽¹⁾.

وكان العثمانيون يتقربون إلى المرابطين بشتى الوسائل كبناء المشاهد والزوايا والوقف عليها، فهذه مدينة الجزائر عاصمة الدولة كانت تعج بالأضرحة والقباب المقامة على الأولياء والصالحين، ولقيت اهتمام من طرف الحكام، حيث قام الداوي الحاج أحمد العليج الأشجي في سنة 1108هـ / 1696م ببناء ضريح "عبد الرحمن الثعالبي" المتوفي سنة 875هـ / 1470م⁽²⁾، كما اشتهرت أيضا مدينة تلمسان ونواحيها بأضرحتها ومشاهدها منها ضريح سيدي الحلوي الأندلسي، وضريح الولي "محمد بن علي حفيد الولي عبد الله بن منصور" الذي بناه الباي إبراهيم الملياني في سنة 1174هـ بأمر باشا الجزائر، كما أن الباي مصطفى المانزالي قد جدد سنة 1218هـ ضريح الولي "عبد الله بن منصور"⁽³⁾. وفي مدينة مستغانم بنى الباي مصطفى بوشلاغم بمنطقة المطمر قبة جليلة في سنة 1126هـ / 1714م وحبسها على نفسه ودفن عقبه وعقب عقبه⁽⁴⁾، كما عرف عن الباي محمد الكبير انه اعتنى ببناء مشهد الولي "محمد بن عودة" والولي "أحمد بن يوسف الملياني"⁽⁵⁾. وفي مدينة قسنطينة عرفت بمجموعة من الأضرحة نذكر منها ضريح الشيخ "سيدي الكتاني"⁽⁶⁾.

وعن مدينة معسكر في هذه الفترة، فقد شهدت بناء العديد من الأضرحة تخليدا لعلمائها وبياتها، وهي على أنواع، فمنها أضرحة ملحقة بمؤسسة دينية سواء كان جامعا مثلما نجده في الجامع الكبير، أين نجد قبة اشتهرت باسم سيدي عبد القادر الجيلاني، التي تضم قبور بعض بايات معسكر، أو تكون ملحقة بزواية مثلما نجده في زاوية سيدي بوراس

(1) - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص467.

(2) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص99.

(3) - نفسه: ص ص 263 - 265.

(4) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص ص 275 - 276.

(5) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص132. يُنظر كذلك:

- سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج1، ص469.

(6) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 367.

وزاوية سيدي بوسكرين، ومنها ما هو ملحق بمقبرة كضريح سيدي موفق، كما نجد أضرحة منفردة لا تتصل ببناء كضريح سيدي محمد أبي جلال.

وبالإضافة إلى ما ذكر سابقا لاحظنا وجود الكثير من الأضرحة خارج المدينة، إذ أننا وجدنا تقريبا في كل قرية ومدينة ضريحا أو أكثر، سواء كان متصلا بمقبرة أو منفصلا عنها، حتى أصبح رمزا أو تقليدا متعارفا عليه، وهناك من يربط وجود البركة والخيرات بوليهم الصالح، لذلك تعددت أوجه الاحتفالات ومواعيد المناسبات وأصبح هناك تنافس بين القبائل والعشائر على كيفية إقامتها، كما أنها غدت وجهة للنسوة والزوار لطلب الشفاء من الأمراض المستعصية، وأماكن لممارسة بعض الطقوس الدخيلة على الدين الإسلامي، وقد اعتبرت من طرف العلماء مظهرا من مظاهر الشرك بوحداية الله تعالى.

4-3 - ضريح سيدي بوسكرين:

أ- الموقع:

يقع هذا الضريح في الجهة الجنوبية الغربية من زاوية سيدي بوسكرين، وهو يعتبر كملحق معماري تابع لها.

ب - المؤسس وتاريخ التأسيس:

هذا الضريح يفتقر إلى تاريخ تأسيسه ومؤسسه، إذ أننا لم نستطع التعرف على ذلك بسبب عدم وجود لوحة تأسيسية أو تذكارية، كما أن المصادر لا تتطرق إليه، لكن من المحتمل أنه بني خلال القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي، وهو التاريخ الذي توفي فيه هذا العلامة.

وصف المخطط المعماري:

يقع ضريح سيدي بوسكرين في الجهة الجنوبية الغربية للزاوية، يتم الوصول إليه عبر مدخل يقع في الجهة الجنوبية الغربية للزاوية يبلغ ارتفاعه 1,90م وعرضها 80سم، وعبر سلم يتكون من 12 درجة نصل إلى صحن صغير مقاساته 5,20م طولا و4,52م عرضا، كما كان يوجد بجانبه في الجهة الغربية ثلاث عيون مائية وهو ما توضحه الصورة القديمة للضريح، غير أنها الآن أغلقت، وذلك بسبب التعديلات التي طرأت عليه، وقد تم فصل الضريح عن الزاوية لتفادي اختلاط الطلبة بالزوار، وفيما يخص مظهره العام فهو بسيط خال من الزخرفة، إذ أنه يتخذ شكلا شبه مربع بمقاسات تبلغ 3,72م من الجهة الغربية و3,96م

من الجهة الشرقية، و3,69م في كل من الجهة الشمالية والجنوبية. يتم الدخول إلى الضريح عبر مدخل بعقد منكسر يعلوه إطار بدون زخارف، مزود بباب حديدي مقاساته (1,84م × 69سم)، كما زُين في الأعلى من جهاته الأربعة بإفريز مسنن من مادة الآجر.

ومن الداخل لا نجد فيه أي زخرفة، إذ أنه يتخذ الشكل المربع بمقاسات تبلغ 3,40 م طولاً و3,23م عرضاً بمساحة تقدر بـ10,90م⁽²⁾. تحتوي جدرانه الأربعة على حنايا مزودة بعقود صماء منكسرة متجاوزة، الغرض منها حمل القبة التي تتوسط الضريح، ويقع ضريح العالم في الجهة الغربية. (يُنظر الشكل رقم 19) و(تُنظر الصور رقم 74/73/72/71)

4-4 - ضريح أبي رأس الناصري:

أ- الموقع:

يقع هذا الضريح في الجهة الشمالية الشرقية من زاوية أبي الراس الناصري، وهو يعتبر كملحق معماري تابع لها، لا يفصل بينهما سوى سور. (يُنظر الشكل رقم 18)

ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

لقد وجدنا صعوبة كبيرة في معرفة تاريخ تأسيس هذا الضريح لعدم وجود لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك، لكن حسب ما أشار إليه بعض المؤرخين من أمثال المزارى في قوله "...ودفن بعقبة بابا علي من المعسكر، فنسبت له تلك العقبة إلى أن بها اشتهر وعلى ضريحه قبة نفعنا الله به"⁽¹⁾، وهذا يعني أنه بني في السنة التي توفي فيها أبي الراس الناصري (1238هـ / 1823م)، في عهد حكم الباى حسن (1817 - 1831م) المشهور عنه ببناء القباب مثلما فعل للعالم سيدي علي أبي الوفا في سنة 1828م⁽²⁾.

ج- وصف المخطط المعماري:

يظهر الضريح في شكله العام بسيطاً كبساطة صاحبه، يتم الوصول إليه حالياً عبر مدخل يقع في الجهة الشمالية، ندخل من خلاله إلى صحن صغير تتجمع فيه النسوة للتبرك بكرامات هذا الولي الصالح، لكن المدخل الأصلي كان مفتوح في الجهة الجنوبية، حيث صحن الزاوية، ويرجع سبب تغييره إلى تفادي اختلاط النساء الوافدات للزيارة مع الرجال القادمين للصلاة داخل الزاوية. ندخل إليه عبر مدخل بباب خشبي أصلي قليل الارتفاع مما

(1) - المزارى الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، ص351.

(2) - نفسه: ص353.

يؤدي بالزائر إلى الانحناء، تبلغ مقاساته (1,79م طولا و79سم عرضا)، ومن الداخل فهو يبدو بسيط في مظهره العام لا نجد فيه زخرفة، إذ أنه يتخذ الشكل المربع بمقاسات تبلغ 3,40م طولا و3,23م عرضا بمساحة تقدر بـ10,90م². فنجد في جدرانه الأربعة حنايا مزودة بعقود صماء منكسرة متجاوزة، الغرض منها حمل القبة التي تتوسط الضريح، ويقع ضريح العالم في الجهة الغربية. (يُنظر الشكل رقم18) و(تُنظر الصور رقم75/76/77)

4-5- ضريح سيدي محمد أبي جلال:

أ- الموقع:

يقع هذا الضريح في الرحبة التي سميت على اسمه، أي في الجهة الغربية من المدينة، وهو لا يبعد كثيرا عن ساحة الركابة حاليا.

ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

ج- نبذة تاريخية عن سيدي محمد أبي جلال أمغاري:

هو من ذرية الولي الصالح الشريف الحسني مولاي يعقوب بن محمد بن أحمد بن عبد الله، المعروف بجبل مغراوة، وقد استقر بأمر عسكر وله نسل كثير، ومنهم فرقة في غريس يقال لهم أولاد سيدي إبراهيم المغراوي⁽¹⁾.

د- إعادة تصور المخطط المعماري للضريح:

لقد تعرض ضريح سيدي محمد أبي جلال للهدم خلال فترة الاحتلال الفرنسي، حسب ما ذكره لنا القائم عليه وبعض سكان الرحبة، ومن حُسن حظنا أننا وجدنا صورة قديمة له استطعنا من خلالها إعطاء وصف ولو محدود عن شكله العام، كان يتم الوصول إليه بعد عبور درج يوصل إلى مدخل رئيسي مستطيل الشكل، الذي يؤدي بدوره إلى قاعة صغيرة وأقل ارتفاعا، حيث يوجد فيها مدخل يؤدي إلى الضريح، وهو عبارة عن قاعة مربعة الشكل بسيطة في مظهرها العام، تعلوها قبة مثمثة الأضلاع، ونجد الضريح في وسط القاعة، أما من الخارج فقد زينت النهاية العليا للضريح بشريط زخرفي شكل من مادة الآجر. (تُنظر الصور رقم78/79/80/81/82)

(1) - بن بكار بلهاسمي: المرجع السابق، ص276.



0 1A AP Fr AA: i BA 1/2 v °A

DBA -1
3/4 BA -2
0 A, A-3
P B BA -4

على غرار المنشآت الدينية التي ذكرناها سابقا، تحتوي مدينة معسكر على عدة منشآت مدنية، منها ما اندثر ومنها ما يزال قائما إلى غاية اليوم، وهي تتمثل أساسا في الدور والمحكمة والحمامات، وقد استطعنا من خلالها معرفة موقعها داخل النسيج المعماري للمدينة وكذلك طرازها المعماري والفني، وفيما يأتي دراسة مفصلة عن كل منشأة.

1- دار الباي:

أ- الموقع: (ينظر الشكل 23)

تقع دار الباي المسماة حاليا بـ"دار القيادة" في وسط مدينة معسكر، وبالضبط في ساحة الشهداء، يحدها من الجهة الغربية شارع القدس، ومن الجهة الشرقية شارع يخلف بلعيد، وعند التمعن في موقعها نجد أن اختياره لم يكن عشوائيا، وإنما روعي فيه أهمية موقع المراكز الإدارية في قلب المدينة، وهو ما أشرنا إليه في الفصل السابق.

ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

هناك غموض كبير يكتنف تاريخ هذه المنشأة، إذ وجدنا صعوبة كبيرة في تحديد تاريخ بنائها وكذا مؤسسها، وهذا نظرا لعدم وجود كتابة تأسيسية تشير إلى ذلك، لكن عندما بحثنا في مختلف المصادر، وجدنا بعض المعلومات ذكرها الأسير "تيدنا"، حيث أنه قدّم لنا وصفا لأحد أقسام دار الباي، ألا وهي قاعة الاستقبال وهذا في قوله: "واندهشت كل حواسي عند رؤية منظره وأبهة مجلسه... ويجلس فوق سرير العدل، الذي لم يكن سوى من القماش المطرز وكذلك ملابسه. وكل شيء يلمع منه إلى حد يشد الإعجاب، وكانت حيطان القاعة مغطاة بزرابي رائعة الجمال، وفوقها لا نرى سوى الذهب وبنادق، ومسدسات وسيوف بأنواع مختلفة، حيث زُيّنت بالذهب والفضة. ولم يكن بلاطه المحيط به أقل لمعانا"⁽¹⁾.

وحسب علمنا ومما جمعناه من الروايات الشفوية، أن مدينة معسكر لا تحتوي إلا على هذه الدار الإدارية التي وردت في المصدر المذكور، وفيها عاش كاتبها خلال فترة حكم الباي محمد الكبير، لكن السؤال المطروح هو: هل كان في مدينة معسكر مقرا آخر للبايات الذين تولوا الحكم قبل تولي هذا الباي زمام الحكم؟ أم أنّ هذا الباي ربما قام بإعادة بناء مقر البايلك وتوسيعه، أو أنه شيد مقرا جديدا في المدينة، كل هذه الأسئلة تبقى مطروحة ومفتوحة

(1) - عميراوي أحميدة: المرجع السابق، ص54.

على كل الاحتمالات، ويمكن تحديد فترة زمنية للبناء وذلك لضرورة إنشاء مقرا لإدارة بايلك الغرب، وهي منذ أن اتخذت مدينة معسكر كعاصمة للبايلك، أي منذ تولي الباي مصطفى بوشلاغم إلى غاية نقل العاصمة إلى وهران في عهد الباي محمد الكبير.

بعد نهاية الفترة العثمانية وتعرض الجزائر للاعتداء الفرنسي، اتخذت هذه الدار كمقر لقيادة الأمير عبد القادر الجزائري، منذ مبايعته كسلطان على الجزائر سنة 1832م، وإلى غاية 1841م تاريخ سقوط المدينة في أيدي الاحتلال. وعندها تم تحويل هذا المعلم إلى ثكنة عسكرية إلى غاية 1962م.

وفي سنة 1962م قامت مجموعة من العائلات العسكرية، باتخاذ هذه الدار كمسكن لها إلى غاية ترحيلها في سنة 1996م، وفي يوم 06-03-1996م تم تصنيفها كمعلم أثري، وبتاريخ 12/08/1999م صدر قرار التصنيف بالجريدة الرسمية تحت رقم 87-99.

تعرضت هذه المنشأة إلى كل أنواع التشويه والتغيير في فترة الاحتلال، لكن بعد عملية التصنيف أعيد لها الاعتبار من طرف السلطات الرسمية، فتم ترميمها وتحويلها إلى متحف، غير أن عملية الترميم لم تكن في المستوى ولم تراعى فيها المعايير المتعارف عليها لذلك سارعت عوامل التلف بكل أنواعها في مهاجمة عناصرها المعمارية، فتنشقت سقفها وأرضيتها على اثر تسرب المياه إلى داخلها، وتشوهت واجهاتها، كما تضررت أعمدتها وتيجانها، حتى أصبحت آيلة للانهييار، وهذا ما دفع السلطات المعنية إلى المسارعة إلى إعادة ترميمها، وهو ما تم بالفعل خلال سنة 2011م، وانتهت العملية خلال سنة.

ج- وصف المخطط المعماري:

ج-1- المظهر الخارجي:

تظهر دار الباي في مخططها وشكلها العام شبيهة لقصور مدينة الجزائر، وهو ما أكده لنا المؤرخ "محمد بن عبد القادر الجزائري" في وصفه لدور مدينة معسكر في قوله "...وتأنقوا في تشييد دورها على نحو دور الجزائر"⁽¹⁾، وعلى العموم فهي تتكون من طابقين وأربعة أجنحة، بشكل شبه مستطيل، حيث تظهر واجهاتها بسيطة، إلا أن الملاحظ

(1) - الجزائري محمد بن عبد القادر: المصدر السابق، ص22.

أنها تعرضت إلى تغيير كبير خلال فترة الاحتلال، من حيث فتح الكثير من النوافذ الكبيرة خاصة في الطابق العلوي، أما واجهاتها فكلها ظاهرة للعيان، فالواجهة الرئيسية وهي الشرقية تبلغ مقاساتها 14,3م، أما الواجهة الغربية فمقاساتها 16,5م، وفيما يخص كل من الواجهتين الشمالية والجنوبية فهما متساويتين من حيث المقاسات والتي تبلغ 25,7م. (تُنظر الصور رقم 90/89/88/87/86)

ج-2- الأقسام الداخلية:

تتكون هذه الدار من طابقين يحتويان على مجموعة من الأقسام، وفيما يأتي وصف مفصل لهما. (يُنظر الشكل رقم 21 و 22)

1- المدخل الرئيسي: يتم الدخول إلى الدار عبر المدخل الرئيسي الذي يقع في الجهة الشرقية مقاساته (2,20م × 1,78م)، أما عن شكله فهو الآخر تعرض للتغيير، وقد اكتشفنا ذلك خلال عملية الترميم الثانية التي أجريت على الدار، إذ أنه كان في الأصل كبير الحجم يعطوه عقد نصف دائري مبني من مادة الآجر. وحسب القائمين عليها كان المدخل في فترة ما قبل الترميم، يتكون من باب كبيرة بمصراعين تتوسطهما ما يعرف بالخوخة، بطريقة تشبه تماما مداخل دور مدينة الجزائر في العهد العثماني، وحاليا غُيّرت واستبدلت بباب أخرى. (يُنظر الشكل رقم 24) و(تُنظر الصورة رقم 91)

2- الأروقة:

تعرضت أروقة هذه الدار إلى عدة تغييرات في فترة الاحتلال الفرنسي، تمثلت في غلق رواقين كاملين في كل من الجهتين الشمالية والجنوبية في الطابق الأرضي، حيث تم إدماجه مع الحجرة الرابعة ومع مكان الحمام والغرفتين الثانية والثالثة، وكذلك الرواق الجنوبي في الطابق العلوي الذي أزيل نهائيا، كما تم إدماج الأروقة الثلاثة المتبقية مع الغرف وسدّها كلية بإطارات خشبية، جُعل في وسطها نوافذ، وهو ما أفقدها صورتها الأصلية، وقد تبين لنا من خلال تتبعنا لأطوار عملية الترميم التي خضعت لها، أنها شبيهة في تخطيطها لأروقة دور مدينة الجزائر، إذ أنّ هذه الدار كانت تتكون من أربعة أروقة مزينة بالأعمدة والتيجان والعقود، وهو ما يظهر في الأروقة المتبقية في الطابق الأرضي والمحتفظة ببعض صفاتها الأصلية، إلا أنّها تختلف من ناحية المقاسات، فالرواق الشرقي يبلغ طوله 4,5م وعرضه 1,6م، والرواق الغربي طوله 5,4م وعرضه 2,7م، والرواق الشمالي طوله 3,1م

وعرضه 2,1م، وإن اختلفت في المقاسات إلا أنها اشتركت في عناصرها المعمارية، فكلها تحتوي على عمودين وتاجين بسيطين من الحجر الجيري عليها ثلاثة عقود حدوية. (تُنظر الصور رقم 92/93/94/95/96/97)

3- الفناء:

هو وسط الدار، تشرف عليه تقريبا كل الأقسام الداخلية، أما عن شكله فهو غير منتظم، وربما ذلك يعود إلى التغييرات التي أدخلها الاحتلال الفرنسي عليه، حيث يبلغ طول الجهة الشمالية والجنوبية 5,50م، والجهة الشرقية طولها 4,57م وعن الجهة الغربية طولها 5,19م، كانت تتوسطه فسقية من الحجر الجيري هي حاليا محفوظة في المتحف، وقد استبدلت بنافورة حديثة، أما أرضيته فقد بلطت ببلاطات من الرخام. (تُنظر الصورتان رقم 98/99)

4- الوحدات السكنية:

4-أ- الحجرات:

الحجرة الأولى: نلج إليها عبر المدخل الرئيسي، والتي نعتقد أنها كانت في الأصل قاعة للانتظار أو ما يُعرف بالسقيفة، وهي بسيطة في مظهرها العام مقاساتها (3,4 × 2,7م) وبمساحة تبلغ 9,70م²، سقفها شُكّل من ستة أقبية نصف أسطوانية، وعبر هذه الحجرة نصل إلى رواق مفتوح على الفناء، حيث فُتح في نهايته مدخل معقود بعقد منكسر محمول على عمودين صغيرين، أما سقفه فهو من مادة الخشب وهو مستحدث، كما نجد في جانبيه الشمالي والجنوبي مدخلان يعلوهما عقدان منكسران.

الحجرة الثانية: يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في جدارها الغربي، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها (3 × 3,75م) بمساحة تبلغ 8,95م²، تحتوي على نافذتين واحدة في الجهة الشرقية والأخرى في الجهة الشمالية، أما تسقيفها فهو عبارة عن أقبية نصف أسطوانية، ولم نستطع تحديد وظيفة هذه الحجرة، لكن حسب القائمين عليها أنها كانت تحتوي على سلم يؤدي إلى الطابق العلوي، وقد أزيل خلال عملية الترميم الأولى.

(تُنظر الصورة رقم 100)

الحجرة الثالثة: تقع في الجهة الشرقية، نصل إليها عبر الرواق حيث يوجد مدخلها، وهي حجرة تشبه إلى حد كبير الحجرة السابقة، نعتقد أنها كانت غرفة الاستقبال، بالنظر إلى

موقعها وكبر حجمها، فهي ذات شكل غير منتظم، يبلغ طولها 4,7م من الجهة الشرقية و4,76م من الجهة الغربية، أما عرضها فهو 3,83م، وتبلغ مساحتها 15,18م²، تحتوي على نافذتين واحدة في الجهة الشرقية والأخرى في الجهة الجنوبية، أما سقفها فقد عمل بنفس طريقة الحجرة السابقة، وفي نهاية الرواق فُتح مدخل بباب خشبي يؤدي إلى الحديقة كما فُتح في وسط الرواق مدخل آخر بعقد نصف دائري، ندخل من خلاله إلى الرواق الشرقي المطل على الفناء، وهو يتكون من عمودين مزينين بتاجين والتي بدورها تحمل ثلاثة عقود منكسرة، ونجد في الجدار الشرقي خزانيتين جداريتين مزينة بعقدين نصف دائريين.

الحجرة الرابعة: تقع في الجهة الجنوبية، نصل إليها عبر الرواق الشرقي، أين يوجد مدخلها وهي حجرة كبيرة مقاساتها تبلغ (5,2×8,5) وبمساحة تصل إلى 45,00م²، فتحت فيها خمسة نوافذ، ثلاثة في الجدار الجنوبي واثنان في الجدار الشمالي تطل على الصحن، كما فتح مدخل آخر في جدارها الشرقي يربطها مع الرواق الأوسط، أما عن سقفها فهو على شكل أقبية نصف أسطوانية.

الحجرة الخامسة: يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في الجهة الغربية، وهي حجرة ذات شكل غير منتظم (5,25 × 5,50م)، ومن خلال مظهرها العام يبدو لنا أنها تعرضت إلى تغيير كبير خلال فترة الاحتلال، ويظهر ذلك في إضافة نصف جدار في وسط الحجرة الذي قسمها إلى قسمين، تحتوي هذه الحجرة على مدخل في الجهة الجنوبية يؤدي إلى الحديقة وكذلك نافذة وخزانة جدارية صغيرة مزينة بعقد نصف دائري في الجهة الجنوبية، ومدخلان بدون باب، واحد في الجدار الشمالي والآخر في الجهة الغربية، يؤدي إلى السلم الصاعد إلى الطابق العلوي.

الحجرة السادسة: تقع في الجهة الغربية وهي مستطيلة الشكل مقاساتها تبلغ (2,5×6م)، يتم الدخول إليها في الأصل عبر مدخل يقع في الرواق الغربي، لكننا لم نستطع تحديد المدخل الرئيسي لوجود ثلاثة مداخل، اثنان متشابهين في التصميم والمقاسات ويعلوها عقدان نصف دائريان، أما الثالث فيقع بينهما لكنه يظهر حديث البناء مقارنة معهما، وهذه الحجرة مزينة بإفريزين متصلين بسقفها، والمسقف باستعمال مادة خشب الصنوبر والعراعر، والملاحظ أن هذه الحجرة تعرضت للكثير من التغييرات والإضافات، منها فُتح مدخلين آخرين متقابلين ومتشابهين من حيث الشكل والمقاسات. (تُنظر الصورة رقم 101)

4-ب - الغرف:

تقع الغرف في الطابق العلوي والتي نصل إليها عبر درجين، يقع الأول في الركن الغربي الجنوبي، والثاني يوجد في الجهة الغربية، حيث يبدو لنا أنه مستحدث، تحتوي هذه الدار على سبعة غرف موزعة على الأجنحة الأربعة.

الغرفة الأولى: تقع في الجهة الغربية نصل إليها بعد صعود السلم الغربي الجنوبي، الذي يؤدي بنا إلى بهو تقدر مساحته بـ 13,60م²، ومن خلاله نجد المدخل الذي يؤدي إليها وهو مفتوح في الجهة الغربية، وهي ذات شكل شبه مربع مقاساتها (6,3 × 6,10م)، تحتوي على نافذتين فتحتا في الجدار الغربي عرضها 1م، أما من ناحية ارتفاعها فقد أحدثت عليها تغييرات من طرف سلطات الاحتلال الفرنسي لتشبه النمط الأوروبي، وفي الجدار الشرقي فتح مدخلان معقودان بعقد نصف دائري يؤديان إلى غرفة أخرى.

الغرفة الثانية: تقع في الجناح الجنوبي، نصل إليها عبر مدخلان، والأول مفتوح على البهو والثاني يربطها مع الغرفة الأولى، وهي ذات شكل مستطيل مقاساتها (5,3 × 3,10م) تحتوي على نافذتين فتحتا في الجدار الشمالي تطلان على الصحن، وهي في الأصل تشغل مكان الرواق، كما نجد في جانبيهما خزانة جدارية مستطيلة الشكل، هذا بالإضافة إلى خمسة نوافذ كبيرة فتحت في الجدار الجنوبي.

الغرفة الثالثة: هي الأخرى تقع في الجناح الجنوبي، وتعد من أكبر الغرف تبلغ مقاساتها (5,20 × 10,95م)، تحتوي على أربعة مداخل، اثنان مفتوحان في الجدار الشمالي وواحد في الجدار الغربي والرابع في الجدار الشرقي.

الغرفة الرابعة: تقع في الجناح الشمالي وهي شبه مربعة مقاساتها (2,5 × 2,55م)، تحتوي على مدخلان بعقد نصف دائري، واحد في الجدار الشرقي والآخر في الجدار الجنوبي يؤدي إلى الغرفة الخامسة، كما تحتوي على خزانة جدارية صغيرة يعلوها عقد نصف دائري.

الغرفة الخامسة: توجد في الجناح الشمالي كذلك، وهي الأخرى تعتبر من أكبر الغرف تتخذ الشكل المستطيل بمقاسات تبلغ (2,55 × 11,50م)، تحتوي على خمسة نوافذ، ثلاثة منها فتحت في جدارها الشمالي واثنان في الجدار الجنوبي، هذا بالإضافة إلى خزانة جدارية ومدخل يؤدي إلى رواق نطل من خلاله على الصحن، يحتوي على عمودين أسطوانيين عليهما تاجين بسيطين، تحمل ثلاثة عقود منكسرة متجاوزة سُدت بأطر من الخشب، وفي

وسطها فتحت نوافذ، كما نجد رواق آخر به ثلاثة أعمدة أخرى أسطوانية الشكل في الجهة الشرقية، تحمل ثلاثة عقود منكسرة متجاوزة، وفي نهايته نجد مدخل بباب خشبي يؤدي إلى الغرفة السادسة.

الغرفة السادسة: توجد في الجناح الشرقي وهي مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (7,65×3,25م)، تحتوي على نافذتين كبيرتين فتحتا في كل من الجهة الشمالية والشرقية، يتضح من كبرهما أنهما من العناصر المعمارية التي أدخلت عليهما تغييرات خلال فترة الاحتلال، كما فتح في الجهة الشرقية مدخل يؤدي إلى شرفة مفتوحة على الخارج يبدو أنها من الإضافات التي تعود إلى فترة الاحتلال، وفي الجهة الجنوبية فتح مدخل يصلها بالغرفة السابعة.

الغرفة السابعة: تقع في الجناح الشرقي، وهي ذات شكل مستطيل مقاساتها تبلغ (6,10×4,70م)، يتم الدخول إليها عبر مدخلين، الأول يربطها مع الغرفة السادسة والثاني مع الغرفة الثالثة، وهي تحتوي على ثلاثة نوافذ، نجد اثنان منها في الجهة الجنوبية والأخرى في الجهة الشرقية.

الملاحظ على أرضية كل الغرف أنها بُلطت ببلاطات آجرية سداسية حديثة الصنع وسقفها مسطح. (تُنظر الصورة رقم 103/102)

5- المرافق المعيشية:

5-أ- المطبخ:

يعتبر هذا المرفق من بين المرافق الأساسية التي يحتويها كل مبنى، وذلك يعود إلى أهميته الخاصة التي تتمثل في تحضير وإعداد حاجات الإنسان البيولوجية، وهذا ما جعل البناء يوليه عناية كبيرة من حيث الاهتمام بطريقة بنائه، واختيار مكانه المناسب ويتم التعرف على المطبخ في المباني عامة والقصور خاصة، بالاستناد على معلومات عدة من بينها المواعد والمداخل التي تظهر من السطح، بالإضافة إلى الاعتماد على السقف المتقاطع الأضلاع، أو السقف ذي العقود الطويلة المتقاطعة خاصة إذا كان الحمام يقع فوقه مباشرة وذلك ما يدل على عدة مبررات منها توفير شبكة مشتركة لقنوات المياه، وكذلك وضع مدخنة مشتركة بين المرفقين.

ونجد في معظم الأحيان مواقع المطابخ بالطابق الأرضي، بعيدا عن هبوب الرياح لمنع تصاعد الدخان إلى الفضاءات الأخرى في المسكن⁽¹⁾، وهذا ما يطرح عدة تساؤلات منها: ما هي الأسباب والعوامل التي جعلت مكانه بهذا الطابق؟ ومن خلال دراسة توزيع المكونات الداخلية للبيوت تتبين هذه الأسباب، منها سهولة تزويده بالمواد الأولية كالحطب والماء وغيرها، بالإضافة إلى عزله عن الغرف، خاصة منها الخاصة بالضيوف والنوم، وذلك لتفادي الإحراج والفوضى التي قد تنتج عنه، أو لسبب التأمين من المخاطر التي قد تحدث كالحريق وغيره، بالإضافة إلى تزويده بفتحات تكون مفتوحة على الخارج، وبنوافذ مفتوحة نحو الداخل، وذلك لتوفير الإنارة والتهوية اللازمة، خاصة وأن الجو الداخلي للمطبخ يكون حارا ومختلفا عن الجو الخارجي، وذلك ناتج عن أعمال الطهي وغيرها.

وفيما يخص مطبخ دار الباي، فلم نعثر على أثره، حيث تم إزالته نهائيا خلال فترة الاحتلال، لكن من خلال تتبعنا للمخطط المعماري للدار، توصلنا إلى احتمال أن يكون موقعه في الجهة الغربية، اعتمادا على الأسباب المذكورة سابقا.

5-ب - الحمام:

يعتبر الحمام من بين المرافق الأساسية والهامة التي يجب أن تتوفر في المباني عامة والمساكن خاصة، لأنها تتعلق بنظافة الإنسان المرتبطة بالعقيدة الإسلامية، ولكن هذا لا يعني أن كل المساكن تحتوي على حمام، إذ أن ذلك يكون حسب إمكانيات صاحب البيت ولو كانت كل المساكن تحتوي على حمام لما وجدت الحمامات العامة وهذا دليل صريح على ذلك، ويكون موقعه في معظم الأحيان بالقرب من المطبخ وأحيانا فوقه⁽²⁾، وذلك لعدة اعتبارات منها توفير قنوات مشتركة لإيصال الماء وكذا قنوات لصرفها، وهذا وصف مفصل لحمامات هذه المباني.

يقع حمام دار الباي في الجهة الشمالية من المبنى، حيث اكتشف خلال عملية الترميم مغطى بالتراب، وكان هذا الردم في فترة الاحتلال، يتم الدخول إليه من مدخل الرواق الشرقي، وهو يتكون من ثلاث قاعات مثل تلك الحمامات التي كانت تعرف في عصر

(1) - الزركال خليل حسن: التصميم المعماري للمساكن في المدينة العربية الإسلامية، دراسات في آثار الوطن العربي كتاب المؤتمر الرابع للأثريين العرب، الندوة العلمية الثالثة، القاهرة 1422هـ/2001م، ص 731.

(2) - عقاب محمد الطيب: قصور مدينة الجزائر... ص 13.

كأنما كفه في الجود أنهار
والخير منها مسلسل وخرخار
كأنه شاهن في الجو طيار
كأنما فلك في الأفك دوار
كأنه علم في رأسه نار
وما عتي مذ أتى في الغرب جبار
محمد خير من قاموا ومن ساروا
يسطو ويردع من عتوا ومن جاروا
أما ترى البدر يبد اليوم أو دار

لا يسأم البذل والأقوام تسمه
الجود منها نشى والحلم فيها فشى
رقى السماك وعز الملك يرفعه
حتى غدت فوق الناس همته
وازداد بين جميع الأكملين سنى
أما ترى الملك قد ضاعت جوانبه
ذاك الجواد أمير الناس قاطبة
لا زال يسطو ويعطي ثم يقطع من
إن شئت تعرف تاريخ البناء فقل

تعرفنا على تاريخ بناء هذا المنزل عن طريق الحساب بالجمال، لعجز البيت الأخير
من قصيدة بن سحنون الراشدي المذكورة أعلاه، والذي يشير إلى سنة 1204هـ الموافق لـ
1789م، حيث لا تزال مدينة معسكر عاصمة للبايلك في عهد الباي محمد الكبير.

2-2- منزل الميزابي (الدار الكبيرة):

أ- موقعها وتاريخها: تقع في رحبة باب علي وبالضبط في شارع الأمير عبد القادر، وهي
مقابلة لزوية أبي راس الناصري. أما عن تاريخها فلم نجد ما يثبت تاريخ بنائها، إلا ما
جمعناه من روايات شفوية تشير إلى أن تاريخ بنائها يعود إلى أواخر القرن الثامن عشر
وهي حاليا ملكا لأسرة من منطقة بني مزاب، والذي يؤجرها لبعض العائلات من مدينة
معسكر.

ب- وصف المخطط المعماري:

لقد وجدنا صعوبة كبيرة في وصف هذه المنشأة المعمارية، وذلك نظرا لأنها ذات
ملكية خاصة، وبعد جهد جهيد سمح لنا ساكنوها بالدخول إليها ووصفها وصفا عاما، وأخذ
بعض الصور لها فقط.

- المظهر الخارجي:

تظهر هذه الدار بسيطة في مظهرها الخارجي مشابهة للمنازل الإسلامية المعروفة، تتكون
من طابقين خالية من أي زخرفة أو فتحات كبيرة، وهذا تماشيا مع تعاليم وروح العقيدة

الإسلامية، التي تدعو إلى التواضع والالتزام بالحياء والبعد عن الافتخار، الذي قد يولد نوعا من الكراهية والحسد، وهذا راجع إلى اختلاف وضعية الناس من حيث الحالة الاجتماعية فهناك الغني والفقير، وهذا ما يجعل كل البيوت متشابهة كأنها كتلة واحدة وتظهر واجهاتها الأربعة واضحة للعيان، فالواجهة الرئيسية تقع في الجهة الشمالية وهي تختلف نوعا ما عن الواجهات الأخرى، إذ يوجد فيها المدخل الرئيسي الذي يعلوه عقد حدوي عليه باب خشبي يعود إلى فترة الاحتلال الفرنسي، وقد زُين في الأعلى بإطار من المربعات الخزفية، وشريط من المقرنصات، كما نجد فوقه شرفة أو ما يُصطلح عليها في العمارة الإسلامية اسم "المشربية"، وكذلك تحتوي هذه الواجهة على ثلاثة نوافذ مزدوجة يتوسطها عمود يحمل عقدين حدويين كما أنها غير نافذة، بحيث أنها تظهر مخرمة، ربما الغرض من ذلك هو ستر حريم الدار. (تُنظر الصورتان رقم 106/105)

- المظهر الداخلي:

عند اجتياز المدخل الرئيسي نصل إلى ممر زُينت جوانبه بمربعات خزفية بارتفاع قدره متر، ونجد في نهايته سلم صاعد إلى الطابق العلوي، كما يقابلنا في نهايته مدخل مزود بباب خشبي نصل من خلاله إلى الطابق الأرضي مباشرة، تتكون هذه الدار من أربعة أجنحة، يتوسطها صحن مركزي تتوسطه نافورة مائية ويحيط به أربعة أروقة، وكل رواق يحتوي على ثلاثة أعمدة أسطوانية الشكل، تحمل عقدين حدويين وهذا في كلا الطابقين فالطابق الأرضي مخصص للمرافق المعيشية كالمطبخ والحمام والكنيفات وكذلك المخازن أما الطابق العلوي فهو مخصص للوحدات السكنية، بحيث نجد تقريبا كل رواق يحتوي على غرفتين، كما استوقفنا شيء يشد الانتباه هو وجود بائكة تتكون من ثلاثة دعامات، تحمل أربعة عقود نصف دائرية صماء في كل رواق، وبعض منها تتوسطها مداخل ونوافذ الغرف تعلوها عقود حدوية، وهذا يندر مشاهدته في الدور التي تعود إلى الفترة العثمانية. (تُنظر الصور رقم 111/110/109/108/107)

وحسب ما سمعناه من أصحاب هذه الدار، أنها تعرضت إلى بعض التغييرات وهو ما وقفنا عليه، نذكر منها غلق الرواق الغربي في الطابق العلوي، كما لاحظنا تصدع بعض الجدران جراء الأمطار وعوامل طبيعية أخرى.

3- المحكمة:

كانت في مدينة معسكر محكمتان، حسب ما جاء في المصادر التاريخية، وهما المحكمة التي مازالت قائمة إلى غاية اليوم، وكذلك محكمة أخرى أشار إليها الآغا بن عودة المزاري.

3-1- المحكمة الملحقة بالجامع الكبير:

أ- الموقع: كانت تقع في وسط مدينة معسكر في الساحة المسماة حالياً بساحة مصطفى بن التهامي، حيث أنها كانت ملاصقة للجامع الكبير.
ب- المؤسس وتاريخ التأسيس:

كانت هذه المحكمة في الأصل قبة، بنيت من طرف الباي الحاج عثمان بن إبراهيم بتاريخ فاتح المحرم عام 1167هـ الموافق لـ 29 أوت 1753م، وقد خصصت الدار الملاصقة لها لدفن هذا الباي، أما الجزء المتبقي فقد اتخذ كمقر لمحكمة قاضي معسكر حسب ما ذكره الآغا بن عودة المزاري في كتابه لطلوع سعد السعود وذلك في قوله: "ثم بنى الدار والقبة الملحقة للجامع الأعظم بالمعسكر المعروفة عند الناس بقبة الباي إبراهيم لكونه مدفوناً بها، وإلا فهي قبة الشيخ عبد القادر الجيلاني نفعنا الله به، التي هي الآن محكمة قاضي المعسكر"⁽¹⁾.

تعرضت هذه المنشأة للإزالة خلال فترة الاستقلال، إذ أنها هدمت وأدمجت في بيت الصلاة للجامع الكبير، خلال التوسيعات التي أحدثت عليه في سنة 1962م. (تُنظر الصورة رقم 112).

3-2- المحكمة الرئيسية:

أ- الموقع:

تقع المحكمة المسماة حالياً باسم "محكمة الأمير عبد القادر" في وسط مدينة معسكر، وبالضبط في ساحة الشهداء عند ملتقى شارع بوقصري طاهر من الجهة الشرقية وشارع مصطفى بن بولعيد من الجهة الجنوبية الغربية، وهي تقع بمحاذاة دار الباي، بحيث أنه لا يفصل بينهما إلا الطريق. (يُنظر الشكل رقم 23)

(1) - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج1، صص 284 - 285.

ب - المؤسس وتاريخ التأسيس:

إن الباحث في تاريخ هذه المنشأة سيجد صعوبة كبيرة في معرفة سنة تشييدها وتتفق أغلب آراء المؤرخين أنها أنشأت من طرف الباي محمد الكبير في منتصف القرن الثامن عشر، حيث أنها كانت المحكمة الرئيسية للغرب الجزائري، باعتبار أن مدينة معسكر عاصمة للبايلك، وبعد الفترة العثمانية اتخذها الأمير عبد القادر كمحكمة لدولته الناشئة في سنة 1832م وإلى غاية 1841م وهو تاريخ سقوط المدينة في أيدي الاحتلال الفرنسي. ومنذ هذا التاريخ تحولت إلى مركز للعمل الخيري حتى سنة 1901م. وخلال سنة 1901م حولها الاحتلال إلى حانة للمعمرين ودام ذلك إلى غاية حصول الجزائر على الاستقلال. وبعد هذه الفترة حولت إلى مقهى، وبقيت على هذه الحالة حتى تم تصنيفها بتاريخ 06/03/1996م كمعلم تاريخي وأثري.

تعرضت هذه المنشأة إلى تغيير رهيب، خاصة في فترة الاحتلال الفرنسي، إذ تم تهديم جناح بأكمله لتسهيل شق طريق بالمدينة، وهو ما أفقدها تخطيطها المعماري الأصلي وأثر كثيرا على عناصرها المعمارية، وبعد فترة الاستقلال تم ترميمها وإعادة الاعتبار لها لكن للأسف لم تكن هذه العملية سليمة نظرا لعدم احترام المعايير المتعارف عليها في عملية الترميم، وهو ما أثر سلبا على عناصرها المعمارية، التي تعرضت للتلف لعدم تناسب مادة الترميم مع المادة الأصلية، وبالتالي أصبحت عرضة لمختلف العوامل الطبيعية، خاصة منها الأعمدة والتيجان، وكذلك تشقق السقف وتآكل الأرضية، الأمر الذي دفع بالسلطات المحلية إلى إعادة ترميمها، لإنقاذها من الانهيار، وفعلا تم ذلك خلال سنة 2011م وقد حضرنا أطوارا من هذه العملية، التي اكتملت خلال سنة 2012.

ج - وصف المخطط المعماري:

ج-1 - المظهر الخارجي: تظهر المحكمة من الخارج على شكل مستطيل، وهي تتكون من ثلاثة واجهات فقط، كلها ظاهرة للعيان، وهي الشمالية والجنوبية اللتين تبلغ مقاساتهما 11,93م وكذلك الغربية التي تبلغ مقاساتها 23,12م، أما الواجهة الشرقية فقد تعرضت لإزالة كاملة خلال فترة الاحتلال الفرنسي، بسبب شقهم لطريق داخلي. (تُنظر الأشكال رقم 29/28/27) و(تُنظر الصورتان رقم 114/113)

الشمالي فمقاساته هي (2,17×7,08م) ويحتوي على ثلاثة أعمدة أسطوانية متوجة يعلوها عقدين حدويين، كما نجد في نهايته من الجهة الشرقية نافذة يعلوها عقد إهليجي، وفيما يخص الرواق الجنوبي فمقاساته هي (2,24×7,08م) لها نفس مكونات الرواق السابق من حيث الأعمدة والعقود، بالإضافة إلى أنه يحتوي على نافذة يعلوها عقد إهليجي في نهايته من الجهة الشرقية، وعقد ذو شكل منكسر في نهايته الغربية. (يُنظر الشكل رقم 27) (تُنظر الصورتان رقم 117/119)

أما أروقة الطابق العلوي فهي مختلفة تماما عن أروقة الطابق الأرضي، بحيث لا نجد فيها لا أعمدة ولا عقود، وهو ما يفتح عدة تساؤلات، لأن هذه الظاهرة لا نجدها في المنشآت العثمانية في الجزائر، ولعل ذلك يعود إلى التغييرات التي أحدثها الاحتلال الفرنسي عليها بإزالتها كلية، مما أثر كثيرا على طابعها المعماري والجمالي، ولقد كسيت الأجزاء السفلية من الجدران بمربعات من الزليج على ارتفاع 1.10م، كما بلطت أرضية أروقة الطابق الأرضي ببلاطات آجرية حمراء مثمثة، أما الطابق العلوي فقد بلطت ببلاطات رخامية بيضاء مستطيلة الشكل، وبالنسبة لسقفها فهو من الألواح والعوارض الخشبية في الطابق الأرضي، أما الطابق العلوي فهي بدون سقف، حيث يبدو أنه أزيل خلال فترة الاحتلال، مما جعل الغرف معرضة لمختلف العوامل الطبيعية كالأمطار والرياح. (يُنظر الشكل رقم 28) (تُنظر الصورة رقم 118).

5- الحجرات: بحكم أنّ هذه المنشأة هي بناية إدارية فأغلب الظن أنّ حجرات الطابق السفلي وغرف الطابق العلوي كانت عبارة عن مكاتب، وما يلاحظ أنّ حجرات الطابق الأرضي تتطابق تماما مع غرف الطابق العلوي.

الحجرة الأولى: تقع في الجهة الغربية، نلج إليها عبر مدخل مستحدث مفتوح في الرواق الغربي، حيث كان مدخلها الأصلي بجانب مدخل السلم المؤدي إلى الطابق العلوي والذي ظهر لنا بوضوح خلال عملية الترميم الثاني، تتخذ هذه الحجرة الشكل المستطيل تبلغ مقاساتها (2,86 × 9,48م)، ومساحتها تقدر بـ 29,72م²، تحتوي على ثلاثة نوافذ، اثنان منها مفتوحتان في الجدار الغربي تتوسطهما خزانة جدارية، والثالثة تقع في الجدار الجنوبي والملاحظ أنّ سقفها مازال على شكله الأصلي فهو من مادة خشب العرعار والصنوبر مُشكّل من ألواح تحملها عوارض أفقية.

الغرفة الأولى: تقع في الجهة الجنوبية، نلج إليها عبر مدخل مفتوح على الرواق الجنوبي وهي ذات شكل شبه مربع مقاساتها (3,74 × 3,99م) وبمساحة تبلغ 16,32م²، تحتوي على نافذة فتحت في الجدار الجنوبي، كما فتح مدخل آخر في جدارها الغربي والذي يبدو أنه استحدث خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

الغرفة الثانية: تتواجد هذه الغرفة في نفس جناح الغرفة الأولى، يتم الدخول إليها عبر مدخل رئيسي ومدخلين ثانويين، فالأول مفتوح على الرواق الجنوبي، أما الآخرين فيربطها مع الغرفة الأولى والثالثة، وهي ذات شكل شبه مربع تبلغ مقاساتها (3,99 × 3,11م) بمساحة تقدر بـ 14,05م²، كما أنها تحتوي على نافذة فتحت في الجدار الجنوبي.

الغرفة الثالثة: نجد هذه الغرفة في الجناح الغربي، يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في نهاية الرواق الغربي، وهي مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (9,42 × 2,79م) بمساحة تقدر بـ 28,66م²، وهي تحتوي على أربعة نوافذ، ثلاثة منها فتحت في الجدار الغربي والرابعة فتحت في الجدار الجنوبي.

الغرفة الرابعة: تقع في نفس الجناح - أي الجنوبي - يتم الدخول إليها عبر مدخل مفتوح في نهاية الرواق الغربي، وهي ذات شكل مستطيل مقاساتها (8,75 × 2,79م) وتقدر مساحتها بـ 49,26م²، وهي تشبه تماما الغرفة الثالثة من حيث تخطيطها وعناصرها المعمارية، إذ أنها تحتوي على أربعة نوافذ، نجد ثلاثة منها مفتوحة في الجدار الغربي والرابعة في الجدار الشمالي، كما نجد في جدارها الشرقي مدخل يربطها مع الغرفة الخامسة، والذي يبدو أنه مستحدث.

الغرفة الخامسة: تقع في الجناح الشمالي، ندخل إليها عبر مدخل مفتوح في نهاية الرواق الشمالي، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها تبلغ (4,27 × 2,93م) وتبلغ مساحتها 13,93م² تحتوي على نافذة واحدة مفتوحة في الجدار الشمالي وكذلك مدخلان مستحدثان، الأول يربطها مع الغرفة الرابعة والثاني مع الغرفة السادسة.

الغرفة السادسة: توجد كذلك في الجناح الشمالي، وهي الأخرى مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (4,28 × 3,8م) وبمساحة تبلغ 17,73م²، تحتوي على نافذتين الأولى مفتوحة في الجدار الشمالي والثانية في الجدار الشرقي، بالإضافة إلى مدخل مستحدث يربطها مع الغرفة السابقة، وللإشارة فإن تسقيفها كلها مسطح.

7- الكنيف:

تحتوي هذه المنشأة على كنيف واحد فقط، يقع في وسط الجناح الغربي بجوار السلم الصاعد للطابق العلوي، وهو ذو شكل مستطيل مقاساته (2,83×2,25م²)، كما أنه تعرض إلى تغييرات جذرية خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

4- الحمامات:

4-1- تعريف الحمام:

أ- لغة:

أصل هذه الكلمة من الحَم أي الحرارة، ويقال أتيته حَم الظهرية أي في شدة حرها والحَمِيم والحَمِيمَةُ هو الماء الحار، وحَمَمَت الماء أي سخنته، والحَمَّام بالشد هو واحد الحمامات المبنية، وهو الديمَّاس، مشتق من الحَمِيم⁽¹⁾.

ب- اصطلاحا:

إن المصطلح العربي الحَمَّام والمشهور بالاسم اللاتيني Thermae عند الرومان كان يطلق على المياه "الساخنة"، ثم عُم هذا الاسم على المنشآت المرتبطة بالاغتسال ونظافة جسم الإنسان، وعليه فهو منشأة معمارية بنيت وشيِّدت وفق أسلوب خاص لأداء وظيفة معينة وتقديم خدمات محددة⁽²⁾.

والحمامات من الأبنية العامة التي أقيمت في المدن الإسلامية منذ الأيام الأولى للفتح، لا لأنه دليل حضارة وترف وغنى فحسب، بل لحاجة ضرورية أوجبها فريضة الاغتسال في الإسلام، على الرجال والنساء من دون تفریق. ولم يقتصر دور الحمام على الخدمة الوظيفية وحدها، بل تعدَّاهما إلى أبعد من ذلك بكثير، ليحتل مركزا رئيسيا على الأصعدة الدينية والاجتماعية والفنية والأدبية وحتى الخرافية. ولم تكن الحمامات أقل أهمية من المساجد والمكتبات والخانات والأسواق⁽³⁾.

(1) - ابن منظور أبو الفضل: المصدر السابق، ج12، ص ص 153 - 154.

(2) - لمزيد من المعلومات يُنظر: حضري عز الدين: حمامات القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي بمدينة البلدية، دراسة وصفية تحليلية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008 - 2009، ص20.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص138.

ومن أخبار الحمّامات الأولى في الإسلام: ثلاثة قامت في البصرة، وكذلك حمّام الفأر الذي أقامه عمرو بن العاص في الفسطاط، الحاضرة التي صار فيها عام 539هـ/1144م ألف وست مئة وسبعون حمّاما. وراح عددها يزداد في كل المدن، إلى أن بلغ في بغداد في القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد ستين ألفا، بينما كان العدد في نهاية القرن نفسه ستمائة في قرطبة، أرقام يصعب تصديقها ولكن يستخلص منها دلالة أكيدة على الكثرة. وتجدر الإشارة إلى أنّ المبالغت لم تكن ترافق كل الروايات، فدمشق مثلا كان فيها في القرن السادس للهجرة، الثاني عشر للميلاد اثنان وخمسون حماما، وفي عام 1362هـ/1943م ستون، يعمل منها أربعون.

لقد انتشرت الحمّامات حيث انتشر الإسلام من المشرق إلى المغرب وعلى مدى كل العصور، وكان عددها ينحصر أمام ازدياد قيام الحمّامات الخاصة في القصور والأبنية الفخمة، ثم في المتواضعة. ولعل المسلمين هم أول من ألحق الحمّام ببناء المسكن، كما هي الحال في حمّامات قصير عمرة (93هـ/712م) وقصر الصرخ (107هـ/725م) والاثنتان في بادية الأردن، وقصر الحير الغربي (109هـ/727م) في بادية الشام وقصر الزهراء (القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد) في الأندلس⁽¹⁾.

وخلال العهد الفاطمي والمملوكي تواصل الاهتمام بإقامة الحمّامات العمومية، فهذه مدينة الفسطاط كان بها ألف ومائة وسبعون حمّاما، وفي مدينة القاهرة بلغ عددها ثمانين حمّاما في أواخر القرن السابع الهجري، فمنها ما كان مخصصا للرجال وبعضها خاصا للنساء، وأحيانا كانت مشتركة بين الجنسين، بأوقات مخصصة لكل منهما⁽²⁾. ومما يلاحظ عن الحمّامات المملوكية أنها انطبعت بخطة متميزة على غرار منشآت تلك الفترة في مصر

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 138. يُنظر كذلك:

- حضري عز الدين: المرجع السابق، ص ص 38 - 39.

(2) - المقريزي تقي الدين: المصدر السابق، ص 81.

وبلاد الشام، تمثلت في الانتشار والتوسع في كل الاتجاهات وهو ما يسمى بالمخطط المتقاطع المتعامد⁽¹⁾.

وكانت بلاد المغرب والأندلس لا تقل أهمية عن المشرق في الاهتمام بالحمامات فهذه مدينة في قرطبة كان فيها في نهاية القرن الرابع للهجرة، العاشر للميلاد ستمائة حمام وكان في مدينة فاس خلال القرن العاشر للهجرة، السادس عشر للميلاد أكثر من مئة حمام بقي منها ثلاثون حتى عام 1361هـ / 1942م⁽²⁾. ومن الحمامات المتبقية آثارها في الجزائر نذكر الحمام المكتشف بمدينة تاهرت الرستمية الذي يعد من أقدم الحمامات التي لا تزال بقاياها الأثرية ماثلة إلى يومنا هذا⁽³⁾. هذا بالإضافة إلى حمامات مدينة تلمسان خلال العهد الزياني⁽⁴⁾.

وفي الفترة العثمانية شهدت الجزائر بناء الكثير من الحمامات في مختلف مدنها فتنوعت بين الخاصة والعامة، نذكر منها حمامات مدينة الجزائر، التي اشتهرت بحمام سيدنا وحمام دار عزيزة وحمام دار عبد اللطيف وحمام الداوي بابا حسن وحمام الداوي حسين⁽⁵⁾، كما بنيت العديد من الحمامات بمدينة قسنطينة، التي بلغ عددها اثنا عشر حماما، حيث اندثر الكثير منها ولم يبق إلا القليل، نذكر منها حمام سوق الغزل⁽⁶⁾. هذا بالإضافة إلى حمام الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي بمدينة مليانة⁽⁷⁾.

أما عن مدينة معسكر فهي الأخرى اشتهرت بحماماتها، إذ أنها لازالت تحتفظ بحماماتها المشهورة، منها مازال قائما إلى غاية اليوم ومنها ما اندثر كحمام الأدهم

(1) - زغلول عبد الحميد سعد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1986، ص 485.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 138.

(3) - دحدوح عبد القادر: "تاهرت - تاقدمت معطيات ميدانية ورؤية جديدة"، عن كتاب المؤتمر العاشر للإتحاد العام للآثاريين العرب، ج2، القاهرة، 2007، ص ص 625 - 626.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص 451.

(5) - موساوي سليمة عربية: الحمامات الجزائرية من العصر الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار 1990/1991، ص 113. يُنظر كذلك:

- راجعي زكية: مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دراسة أثرية، معمارية وفنية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2007، ص ص 121 - 124.

(6) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص ص 459 - 460.

(7) - قرمان عبد القادر: المرجع السابق، ص ص 92 - 93.

بالإضافة إلى أنّ المنطقة تشتهر بحماماتها المعدنية والموجودة بمدينة بوحنيقية، لكن للأسف لم نجد فيها أي أثر لحمام يعود بناؤه إلى الفترة العثمانية.

3-4-3- حمامات مدينة معسكر:

3-4-1- حمام البركة:

أ- الموقع:

يقع هذا الحمام في وسط مدينة معسكر، وهو ملاصق للجامع الكبير، وبالضبط عند شارع بوقصري الطاهر. (يُنظر الشكل رقم 30)

ب- أصل التسمية: (*)

أطلق على هذا الحمام تسمية حمام "البركة"، كما أنه يُعرف بتسمية أخرى يطلقها عليه سكان المدينة وهي "الحمام البالي"، بمعنى القديم والعتيق.

ج- المؤسس وتاريخ التأسيس:

لقد وجدنا صعوبة كبيرة في تحديد مؤسسه وتاريخ بنائه، وهذا نظرا لعدم وجود لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك، كما أن مختلف المصادر لم تذكره، وهذا ما جعل الغموض يكتنفه إلى غاية اليوم، لكن حسب ما ذكره مالكه الحالي أنّ تاريخ بنائه يعود إلى سنة 1753م وهي معلومة غير مؤكدة تفتقد إلى المصادقية لعدم وجود ما يثبتها، وحسب ما جمعناه من روايات شفوية تشير كلها إلى أنّ بانيه هو الباي محمد الكبير.

د- وصف المخطط المعماري للحمام:

د-1- المظهر الخارجي والمدخل الرئيسي:

يظهر حمام البركة ككتلة معمارية شبه مستطيلة بسيطة في شكلها العام، وهو يحتوي على ثلاث واجهات ظاهرة للعيان من الخارج، منها الواجهة الشمالية التي يبلغ طولها 23,70م، والواجهة الغربية بطول 16,50م، وأيضا الواجهة الشرقية التي يصل طولها إلى 14م، أما الواجهة الرابعة فهي الواجهة الجنوبية، إذ أنها تلتصق مع صحن الجامع الكبير ويبلغ طولها طول 23,50م. (يُنظر الشكل رقم 33) و(تُنظر الصورة 120)

(*)- أشارت بعض الأبحاث إلى أنّ هذا الحمام هو حمام "الأدهم" الذي بناه الباي محمد الكبير، لكن عند مراجعتنا للمصادر والوثائق الأرشيفية والروايات الشفوية والبحث في المدينة، تبين لنا إلى أنّ هذا الحمام بُني في رجة عين البيضاء وقد هُدم خلال فترة الاحتلال الفرنسي لإقامة مباني للمستوطنين.

يتم الدخول إلى الحمام عبر المدخل الرئيسي الذي يقع في الجهة الشرقية، عليه باب خشبي مغير يعود إلى الفترة الاستعمارية، والملاحظ أن هذا الباب بسيط في مظهره العام وهذه ظاهرة لا نجدها في الحمامات الجزائرية التي تعود إلى الفترة العثمانية، إذ أننا نجد الباب الرئيسي في معظم الأحيان مزين بإطار من الرخام أو الحجر الجيري يحتوي على زخارف هندسية أو نباتية أو رمزية⁽¹⁾. لكن حسب صاحب الحمام أنّ المدخل الرئيسي غير مكانه الأصلي الذي كان في الجهة الغربية، وهذا هو سبب عدم تطابقه من ناحية الشكل العام مع الحمامات التي تعود إلى الفترة العثمانية. (تنظر الصور 127/126/125)

د-2- الأقسام الداخلية:

تعرض هذا الحمام إلى عدة تغييرات أثرت كثيرا على شكله الأصلي العام، وحسب ما ذكره لنا صاحبه ومالكه الحالي أنه كان يتكون من أربع قاعات، وبالتالي فهو يشبه إلى حد كبير التكوين المعماري للحمام الإسلامي، الذي كان هو الآخر مشكل في غالب الأحيان من أربع قاعات وملحق خاص بالموقد⁽²⁾، وفيما يأتي وصف مفصل لهذه القاعات ووظيفة كل قاعة. (يُنظر الشكل رقم 31)

د-2-1- قاعة الاستقبال:

ذكر لنا صاحب الحمام أن المدخل الرئيسي كان في الجهة الغربية، لكنه تعرض للتغيير وفتح في الجهة الشمالية، وهو ما لاحظناه عند زيارتنا له، فعند اجتياز المدخل الرئيسي نصل إلى قاعة الاستقبال أو الانتظار أو المحرس، التي تقع في الجهة الغربية، وهي ذات شكل مستطيل طولها 10،5م وعرضها 4،40م، وأرضيتها مبلطة ببلاطات متنوعة الزخارف، وفي الجدار الشمالي الشرقي منها فتح مدخل بباب خشبي نصل من خلاله إلى القاعة الباردة. (يُنظر الشكل رقم 31) و(تنظر الصورة رقم 126).

(1) - موساوي سليمة عربية: المرجع السابق، ص 90.

(2) - سوردال (ج): "حمام"، ترجمة محمد معتز، ج 14، دائرة المعارف الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

1986م، ص ص 17 - 43.

خاصة في استعمال مواد البناء التي تتحمل شدة الحرارة، وهو يتكون من الفرن والنحاسية.
(تنظر الصورة رقم 132)

- الفرن (الموقد):

هو المكان المخصص لوضع الحطب وحرقه، شكله أسطواني يتكون من فتحتين حيث يدخل من الفتحة الأولى الحطب المعد للاحتراق، كما ينظف عن طريقها الفرن من الرماد، بالإضافة إلى أنها تسمح بمرور الهواء الساخن والدخان المنبعث منه إلى أروقة الحرارة عبر الفتحة الثانية، من خلال ممرات أرضية مبنية من الآجر وموزعة على القاعة الساخنة ارتفاعها حوالي المتر، وقد ذكر لنا صاحب الحمام أنه يدخل إليها حبوا لتنظيفها وصيانتها في كل عام، وهي تساعد على تسخين بلاط الحمام وأرضيته ليعطيها ذلك نوع من الدفء، وجو ملائم للاستحمام، وما تبقى من تلك البقايا يتجمع ليصعد في المدخنة (فحل الحمام) في الركن الغربي، وهذه المدخنة تقوم داخل الجدار وترتفع إلى عدة أمتار⁽¹⁾، لكي لا يتأذى السكان المجاورين للحمام من الدخان المنبعث من الداخل.

- النحاسية (البرمة):

هي الوعاء الذي يتم فيه تسخين الماء المعد للاستحمام، حيث أنه يتكون من جزئين الجزء الأسفل المقوس، وهو الذي يستقبل ألسنة اللهب، ويسمى حلة الدخاني⁽²⁾ والجزء العلوي الذي تثبت بواسطته النحاسية فوق الفرن، ويتغذى خزان الماء الساخن عن طريق فتحة تربطه بخزان الماء البارد، ويحتوي الخزان أيضا على فتحات تغذي عيون الأحواض الصغيرة. (أنظر الشكل رقم 16-6).

كما يوجد في القاعة مخزن للفحم، وهو مبني من الآجر على شكل دهليز مسقف بسقف نصف أسطواني. والملاحظ أنّ صاحب الحمام أدخل عدة تغييرات على الفرناق كاستعمال الوسائل الحديثة في عملية التسخين. (يُنظر الشكل رقم 33) و(تنظر الصورتان رقم 133/134)

(1) - كيال منير: المرجع السابق، ص 166.

(2) - نفسه.

وارتفاعه 2,43م نصل من خلاله إلى غرفة الانتظار أو ما يسمى المحرس، وهي مستطيلة الشكل مقاساتها (2,80×2,69م)، تحتوي على مصطبتين عرضهما 69سم وارتفاعها 60سم هما تمتدان على طول وعرض القاعة، ومبلمتان ببلاطات حديثة، أما عن أرضية القاعة فهي من بلاطات آجرية حمراء أصلية، وسقفت بأقبية نصف أسطوانية طولية تتوسطه فتحتان مستطيلتان مزودتان بقطع زجاجية، الغرض منها توفير الإضاءة، كما فتح في جدارها الجنوبي مدخل بباب خشبي بدفتين عرضه 1,17م وارتفاعه 2,47م. (تُنظر الصورة رقم 136)

د-2-2- القاعة الباردة:

تقع في الجهة الجنوبية وهي ذات شكل غير منتظم، يتم الدخول إليها من باب المحرس، وهي واسعة جدا تحتوي على مكان القابض في ركنها الشرقي الشمالي، ونجد في وسطها أربعة أعمدة أسطوانية مصنوعة من الحجر الجيري ومتوجة بتيجان بسيطة تحمل أربعة عقود نصف دائرية، وقد ربطت ببعضها البعض بأوتاد حديدية، الغرض منها تثبيتها وتقويتها ومنع تصدعها أثناء الكوارث الطبيعية، وكذلك وضع بعض أغراض الحمام مثل المناشف، كما نجد في هذه القاعة مجموعة من المشابج مثبتة في كل جدرانها، وكذلك على أسرة خشبية موزعة على كل جوانبها، مخصصة لاستلقاء المستحمين بعد الانتهاء من الاستحمام.

وحسب صاحب الحمام فقد أدخلت عدة تعديلات عليها منها الإنقاص من ارتفاع المصاطب الموجودة فيها، والتي كانت تحتوي على فراغات صغيرة لوضع الأحذية، كما تم إزالة المكان المخصص لتحضير الشاي للزبائن الذي كان موقعه في الركن الغربي الشمالي الذي مازال فيه المدخنة الممتدة إلى السطح الخارجي، كما استحدثت منفذ للنجدة يربطها مع القاعة الساخنة في الجهة الشمالية، وتحتوي القاعة على مدخل منزوع الباب الخشبي في الجدار الشمالي يربطها مع القاعة الدافئة وكذلك مدخل آخر في الجدار الشرقي يؤدي إلى ممر ضيق يوجد به السلم المؤدي إلى السطح، أما عن تبليط الأرضية فهي من بلاطات آجرية حمراء أصلية، وسقفها فقد سُكِل من أقبية نصف أسطوانية عرضية. (تُنظر صورتان رقم 143/137)

د-2-3- القاعة الدافئة:

يتم الدخول إليها عبر مدخل بدون باب من القاعة الباردة مقاساته (2,5م×96سم) وتتخذ هي الأخرى شكلا غير منتظم، تحتوي على مقاعد حجرية موزعة على الجهتين الشمالية والجنوبية، كما فتح في جدارها الشمالي ثلاثة فتحات للإضاءة والتهوية، وحسب ما صرح به صاحب الحمام أنها عرفت عدة تغييرات، مست غلق مدخلين كانا في الجهة الشمالية يؤديان إلى مخزن الحطب، وحولا حاليا إلى خزانة وحوض مائي، كما استحدث بداخلها مرحاضين، وعند استفسارنا عن مكانهما الأصلي من صاحب الحمام أجاب بعدم معرفته لذلك، وفي الجهة الشرقية فتح مدخل بباب حديث الصنع يؤدي إلى القاعة الساخنة أما عن أرضيتها فهي ببلاطات حديثة، وسقفها من الأقبية النصف أسطوانية. (تُنظر الصورة رقم 138)

د-2-4- القاعة الساخنة:

تقع في الجهة الشمالية الشرقية، يتم الدخول إليها من القاعة الدافئة عبر مدخل بباب ينغلق آليا، وهي ذات شكل مستطيل، تحتوي على رواقين سقفهما نصف أسطواني في كل من الجهتين الشمالية والجنوبية، يتوسطهما فضاء مغطى بقبة نصف كروية ومحمولة على أربعة عقود نصف كروية ترتكز على أربعة دعائم ضخمة قليلة الارتفاع ومدمجة في الجدران، وهذه القاعة هي الأخرى عرفت عدة تغييرات إذ أنها كانت تحتوي على 24 حوضا صغيرا موزعة على جوانبها للاستحمام، ثم استبدلت بأحواض جديدة وتم زيادة عددها ليصل إلى 34 حوضا، كما كانت تحتوي على فتحة لمراقبة منسوب الماء في الأحواض، ثم سدت بالإضافة إلى إزالة مقعد حجري رخامي في الجهة الجنوبية كان مقابلا للمقعد الموجود حاليا في الجهة الشمالية، وذلك لفتح منفذا للنجدة يؤدي إلى القاعة الباردة. (يُنظر الشكل رقم 33) و(تُنظر الصورتان رقم 140/139)

د-2-5- الفرناق:

هو قسم معماري قائم بذاته ويقع خارج الحمام في الجهة الشمالية وهو يقع في مستوى منخفض عن الحمام، ويتم الوصول إليه عبر مدخل من الجهة الغربية، إذ أنه يتكون من الفرن والنحاسة ومخزن الحطب.

4-3-3- حمّام حمزة:

أ- الموقع:

يقع حمام حمزة في رحبة باب علي، وبالضبط في شارع بن دادة مصطفى، في وسط مجموعة من البنايات الخاصة.

ب- أصل التسمية: كان يُعرف هذا الحمّام عند سكان رحبة باب علي باسم حمّام "الحاج سعيد ماسري" وقد سُمّي بهذا الاسم نسبة إلى مالكة الأول، ثم اشتهر بعد ذلك عندهم باسم حمّام "حمزة".

ج- المؤسس وتاريخ التأسيس:

بُني هذا الحمام من طرف "الحاج سعيد ماسري" وهو من بني ميزاب، حيث أنه مات ولم يخلف من يرثه، لذلك جعله وقفا لله، ومداخيله حبسا على الفقراء من المسلمين. أما عن تاريخ تأسيسه فهو غير معروف بالضبط، وهذا نظرا لعدم وجود لوحة تأسيسية تشير إلى ذلك، بالإضافة إلى أننا بحثنا في مختلف المصادر ولم نجد له ذكرا وهذا ما جعل الغموض يكتنف تاريخه، لكن حسب المعلومات التي ذكرها لنا مالكة الحالي أنه بُني خلال القرن الثامن عشر.

د- وصف المخطط المعماري للحمّام:

د-1- المظهر الخارجي والمدخل الرئيسي:

يتكون هذا الحمّام من مستوى أرضي وطابقين، وتظهر منه واجهة واحدة فقط وهي الواجهة الرئيسية، التي زخرفت بمجموعة من الأطر، ويقع المدخل الرئيسي في وسط الواجهة الشمالية، حيث يبلغ ارتفاعه 2,5م وعرضه 1,5م، فهو مزود باب خشبية ويعلوه عقد نصف دائري. كما يوجد مدخل آخر تبلغ مقاساته (2,17×1م) يؤدي إلى المستوى الأرضي للإشارة فإن الحمّام في حالة ترميم شاملة يقوم بها صاحبه، نظرا لتدهور حالته وانهايار جزء من سقف إحدى غرف الطابق العلوي، وقد سمحت لنا عملية الترميم من الإطلاع على مواد البناء وكذلك طريقة تخطيطه، ومعرفة العناصر المعمارية الأصلية والمستحدثة.

أنه مصنوع من مادة الحديد ومزخرف بدوائر بارزة. (يُنظر الشكل رقم 39) تُنظر الصورة رقم (154/148/147).

د-2-2-2- القاعة الباردة:

يتم الوصول إلى هذه القاعة عبر باب السقيفة، الذي يؤدي إلى مدخل منكسر جدرانه مكسوة ببلاطات خزفية أصلية، والغرض منه هو كسر التيار الهوائي القادم من الخارج وحجب المستحمين من نظر الناس الموجودين في السقيفة وهم في حالة عارية في هذه القاعة، فهي ذات شكل مستطيل مقاساتها (7,79×11,88م)، تحتوي على صفين من الدعامات عددها ستة في كل صف، بالإضافة إلى دعامتين في وسطهما، كما فتح في جدارها الشمالي مدخل عرضه 0,77م، يؤدي إلى قاعة غير منتظمة القياسات وهي غير محددة الوظيفة، كما نجد مدخلين في جدارها الغربي، فالأول يؤدي إلى سلم صاعد إلى الطابق العلوي، أما الثاني فهو يؤدي إلى المصلى، وهو ذو شكل مستطيل مقاساته (2,23×3,03م)، أما الجدار الجنوبي فقد فتح فيه مدخلان، المدخل الأول عرضه 1,08م يؤدي إلى ممر طوله 4,09م وعرضه 1,56م، والذي بدوره يؤدي للسلم الهابط إلى المستوى الأرضي، أما المدخل الثاني فهو يوصل إلى القاعة الدافئة. (تُنظر الصورة رقم 149)

د-2-2-3- القاعة الدافئة:

نصل إليها عبر مدخل يربطها مع القاعة الباردة، وهي مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (1,60×5م) وما لفت انتباهنا أنها ضيقة جداً، ولعل ذلك يعود إلى احتمال تعرضها إلى التغيير في مرحلة ما، كما أنها تحتوي على دكة في جدارها الشمالي وهي مخصصة للجلوس، وكذلك نجد في الجهة الشرقية منها مرحاضين، بالإضافة إلى مدخل مفتوح في جدارها الجنوبي يربطها مع القاعة الساخنة.

د-2-2-4- القاعة الساخنة:

تقع في الجهة الجنوبية من الحمام، يتم الدخول إليها عبر مدخل يربطها مع القاعة الدافئة، وهي ذات شكل شبه مربع مقاساتها (8,24×8,18م)، تتوسطها "مصطبة" مربعة الشكل طول ضلعها 1,25م، إذ أنها تسمى عند أهل المنطقة بـ "السرة"، يتوسطها عمود أسطواني الشكل، متوج بتاج بسيط يحمل أربعة عقود ترفع القبة المضلعة، والتي زودت بأربعة فتحات مغطاة بالزجاج، الغرض منها إضاءة القاعة، كما أنها تحتوي على أحواض

الأرضي مقاساته (2,92×4,22م)، كما فتح في جدارها الغربي نافذة وكذلك مدخل مزود بباب خشبي في الجهة الجنوبية، يؤدي إلى ممر طوله 5,50م وعرضه 1,36م، يحتوي في نهايته الشرقية على كنيف، وفي نهايته الغربية مدخل بدرج يؤدي إلى غرفة صغيرة مقاساتها (2,56×3,34م)، تحتوي على كنيف في الجهة الجنوبية وعلى مدخل يؤدي إلى سلم نازل إلى المستوى الأرضي، كما توجد غرفة أخرى معزولة تقع في الجهة الجنوبية الغربية مقاساتها (2,82×3,94م)، ليست محددة الوظيفة، وقد سقطت قاعات هذا الطابق بالأقبية النصف أسطوانية. (تنظر الصورتان رقم 156/155)

4-3-4- حمام الأدهم:

أطلق على هذا الحمام تسمية حمام "الأدهم"، والتي تعني "الأكل"، وهو يرمز إلى الإنسان الأسمر اللون، نسبة إلى بانيه الباي محمد الكبير، الذي كان ذو بشرة سمراء، ومنه أخذ لقب "محمد الأكل"⁽¹⁾، لكن للأسف أنّ هذا الحمام هُدم وأزيل خلال فترة الاحتلال الفرنسي.

أ- المؤسس وتاريخ التأسيس:

يُنسب هذا الحمام من حيث البناء إلى الباي محمد الكبير المقدم الذكر، وهذا حسب ما ذكره أحمد بن علي بن سحنون الراشدي في كتابه "الثغر الجماني"، في قوله "...كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناءً وشكلاً، الذي بناه قريه وهو من أعز مبانيه"⁽²⁾. لكن لم نستطع تحديد تاريخ بنائه بالضبط، لعدم ورود ذلك في مختلف المصادر التي تصفحناها وهذا ما جعل الغموض يكتنفه.

(1) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن هطال أحمد التلمساني: المصدر السابق، ص15.

(2) - الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص128.

4-3-5- حمام الباي:

أ- الموقع:

يقع حمام الباي- الازدهار حاليا- وسط مدينة معسكر، وبالضبط في نهج محمود مقابلا لشارع المسرح الجهوي.

ب- أصل التسمية:

كان يُعرف هذا الحمام باسم حمام "الباي"، ثم غُيّر اسمه بعد الاستقلال تحت اسم حمام "الشفاء"، وبعد ذلك باسم "الازدهار".

ج- المؤسس وتاريخ التأسيس:

يكتنف هذا الحمام غموض كبير من حيث تاريخ تأسيسه ومؤسسه، ولكن حسب الوثائق التي بحوزة ملاكه حاليا فهو يعود إلى الفترة العثمانية⁽¹⁾، ويرجح أن بنائه يعود إلى سنة 1789م، وهي الفترة التي حكم فيها الباي محمد الكبير بايلك الغرب (1779-1799م)، ولعل تسميته "بحمام الباي" والتي اتخذها في بداية الأمر تزيد من احتمال بنائه من طرف هذا الباي، كما أنّ "ابن سحنون الراشدي" ذكر أن هذا الباي أنشأ مباني كثيرة في المدينة وحبسها على جامعها الأعظم ومدرسته، فمنها ما قام بذكره ومنها ما لم يذكره وذلك في قوله: "...وبنى له فرنا وغير ذلك تكفي غلات أحباسه جميع وظائفه ولوازمه..."⁽²⁾. أما عن وضعه الحالي فهو ملك لعائلة "وذان محمد"، وهو مغلق بسبب نزاع بين الورثة.

د- وصف المخطط المعماري للحمام:

د-1- المظهر الخارجي والمدخل الرئيسي:

بني هذا الحمام ملتصقا مع عدة مباني، إذ لا تظهر منه إلا واجهة واحدة وهي الواجهة الشمالية، أين نجد المدخل الرئيسي، الذي تقدر مقاساته بـ (1,75 × 0,60م)، وهو مزود بباب حديدي حديث نو مصراعين. كما فتحت في هذه الواجهة ثلاثة نوافذ متوسطة الحجم مزينة بعقود مصنّجة، الغرض منها الإضاءة والتهوية، لأنها المنفذ الوحيد لذلك. كما ثبتت فيها لوحة فيها كتابة تشير إلى اسمه "حمام الازدهار". (تُنظر الصورة رقم 157/158)

(1)- Archivo historicos nacional, Oran, Madrid campana.

(2)- الراشدي أحمد بن سحنون: المصدر السابق، ص ص 128.

د-2- الأقسام الداخلية: (يُنظر الشكل رقم 42)

د-2-1- قاعة الانتظار (المحرس):

بعد اجتياز المدخل الرئيسي نصل إلى قاعتين مخصصتان للاستقبال والانتظار وهي ظاهرة لم نجدها في الحمّامات السابقة، فالأولى تقدر مقاساتها بـ(1,75 × 0,80م) زودت بمصاطب تمتد على طول وعرض الحجرة وهي مكسوة بمربعات خزفية حديثة، كما فتح فيها مدخل بباب خشبي يؤدي إلى الحجرة الثانية، وهي مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها (2,45 × 1,80م)، وهي الأخرى مزودة بمصاطب تمتد على طول وعرض الحجرة ومكسوة بمربعات حديثة، كما فتح فيها مدخل بباب خشبي يؤدي إلى القاعة الباردة. (تُنظر الصورتان رقم 160/159)

د-2-2- القاعة الباردة:

يظهر شكل هذه القاعة غير منتظم، وهي تشبه إلى حد كبير قاعة حمّام القرشالي فهي تظهر على شكل فضاء في الوسط محاط بأربعة أروقة ترتفع عن الأرضية بحوالي 50سم، وتشرف عليه أربعة بوائك تحتوي على أربعة أعمدة أسطوانية في ثلاثة منها وخمسة أعمدة في البائكة المتبقية، وهي متوجهة بتيجان بسيطة، تعلوها عقود نصف دائرية وتحتوي هذه القاعة على سدة مبنية في الجهة الجنوبية تقدر مقاساتها بـ(11 × 2م)، يتم الصعود إليها عبر سلم خشبي عدد درجاته تسعة درجات، وكانت تستخدم هذه السدة كمبيت لعابري السبيل حسب ما صرح به صاحبه. (تُنظر الصورة رقم 161)

ونجد في الركن الشمالي مجلس صاحب الحمّام الذي تقابله مجموعة من الخزائن الجدارية، مخصصة لوضع لوازم الاستحمام، وكذلك مدخل مقاساته (1,50 × 0,75م) يؤدي إلى حجرة مستطيلة مقاساتها (5,5 × 4,5م) تستعمل كمصلى لوجود المحراب فيها. لقد زودت هذه القاعة بثلاثة نوافذ، كما نجد في وسط سقفها فتحات دائرية صغيرة مزودة بزجاج الغرض منها توفير الإضاءة، أما عن أرضيتها فهي مبلطة ببلاطات حديثة وسقفها مسطح بسيط.

د-2-3- القاعة الدافئة:

يتم الوصول إليها عبر مدخل يربطها مع القاعة الباردة مقاساته (1,40 × 0,70م) وهي ذات شكل مستطيل تبلغ مقاساتها (15 × 4م)، تظهر وكأنها رواق، وهي تحتوي على

باستقراء كل الفترات التاريخية التي شهدتها مدينة معسكر، يلاحظ أن كل المنشآت المتبقية تعود إلى الفترة العثمانية، وقد تنوعت بين الدينية والمدنية والعسكرية، فالدينية جمعت بين الجوامع والمدارس والمكتبات والزوايا والأضرحة، وهو ما يدل على تطور الحياة الثقافية والتعليمية خاصة في فترة الباي محمد الكبير، الذي سخر إمكانيات كبيرة لجعل المدينة كقبة للعلماء والطلبة، كبنائه للمدرسة المحمدية وإقامة أوقاف لها، كما اشتهرت بعلمائها الفطاحل الذين كان لهم دور فعال في مجال التعليم، ولعل بناء الأضرحة على قبورهم لتكريمهم لخير دليل على ذلك.

أما المدنية فنتمثل في الدور والمنازل والمحاكم والحمامات وهي الأكثر عددا بمقارنتها بالمنشآت الأخرى، وعن المنشآت العسكرية فهي قليلة وقد تعرضت للتهديم والتخريب بسبب الأحداث والوقائع التي عرفتتها المدينة، خاصة في أواخر العهد العثماني، ولم يبق منها إلا السور الخارجي وأثار بعض طابانات المدافع.

قام كل باي بتخليد ذكراه بمنشأة تحفظ اسمه وأعماله، إلا أن منجزات الباي محمد الكبير في مجال البناء والتعمير تبقى هي الأكثر على الإطلاق وفي كل مدن البايك، نظرا للسياسة السلمية التي اتبعها في حكمه التي تميزت بالصرامة في تنفيذ القوانين، وكذلك كسب حب الرعية من خلال بناء منشآت عمومية خاصة منها الدينية والتعليمية.

أما عن مخططاتها المعمارية فهي لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في عواصم مدن البايك كمستغانم ووهران ومدينة قسنطينة عاصمة بايالك الشرق ومدينة المدية عاصمة بايالك التيطري، لكن ما يعاب فيها هو قلة الثراء الفني، إلا في بعض النماذج منها كجامع عين البيضاء.



Ò ÍBÀ¨ •AÒ mAf½ :S BRAÁn ½
 Ò Î¼½ZNA

Ò ÍBÀ¨ •AP Bñb•A:¾ÉPA½v °A
 Ò ÍBÀ¨ •AjuBÄ•A :Í ß RA½v °A
 É MÄTÈ ÖÄAeÄ½ :S BRA½v °A

الفصل الأول: المخططات المعمارية:

1- الجوامع:

من خلال الأبحاث التي أجريت على جوامع ومساجد الجزائر عامة، يلاحظ أنه ابتداءً من القرن 11/هـ 17م - أي مع دخول الجزائر تحت سلطة العثمانيين - استحدث طراز وفن معماري جديد ومميز بذاته، وبرغم استقرار أصوله ومعالمه الرئيسية في عصر بايزيد الثاني (1481- 1512م) فإنه مضى في تطوره سعياً وراء أشكال جديدة وصور وملامح مبتكرة والطابع الأساسي في فن العمارة العثماني هو القبة الوحيدة أو القباب المتعددة، وقد اتبع هذا الطراز في البناء بأشكال وصور متنوعة وبوحدات مختلفة، ويحتل المسجد الأخضر في مدينة بورصا منزلة مرموقة في العمارة العثمانية، يليه مسجد مراد الثاني بأدرنة الذي بناه سنة 1436م.

وقد أثر فتح القسطنطينية سنة 1453م على الفن العثماني تأثيراً واضحاً، أدى إلى العديد من التغييرات التي طرأت على المساجد المتنوعة التي أنشئت في العاصمة الجديدة مثل تحويل كنيسة القديسة "آيا صوفيا" بعد الفتح إلى مسجد، الأمر الذي كان له وقعه البالغ على سائر فنون العمارة، حتى أصبح مقصد كل المعماريين لدراسة مصادر الجمال داخل قبته، ويرجع الفضل إلى المهندس المعماري "سنان باشا" (*) في إدراك أبعاد البناء العظيم في مسجد آيا صوفيا، وفي تطويع عناصره لمجارية الفن المعماري الإسلامي، استطاع سنان أن يحقق هذا الهدف في مسجد "شاه زاد" الذي بناه سنة 1548م، كذلك شيد هذا المهندس مسجد السلطان "سليم الثاني" في أدرنة (1).

لقد أصبح هذا الابتكار المعماري الذي قدمه المهندس المعماري البار "سنان باشا" منطلقاً لتخطيط المساجد العثمانية، وأصبح علامة خاصة بالدولة العلية العثمانية. وبالتالي أصبحت العمارة الدينية الإسلامية - في آخر أدوارها وأعلى درجات تطورها - مجموعة من الطرز المعمارية الرائعة التي يختلف بعضها عن بعض في التفاصيل، ولكنها تتحدث جميعاً عن روح إسلامي غلاب، ولا تخطئ العين تبين الأسس المعمارية العربية الأولى في أعماق

(*) - ينحدر أصله من أب مسيحي، عاش ما بين (1489-1578م)، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- ثروت عكاشة: المرجع السابق، ص 117.

(1) - نفسه: ص ص 117 - 118. يُنظر كذلك: مؤنس حسين: المرجع السابق، ص ص 90-91.

- التأثير العثماني في تخطيط الجوامع بالجزائر:

من خلال فحص تخطيط الجوامع والمساجد الجزائرية في العهد العثماني ونظامها المعماري، يتضح أنها بنيت وفق طرازين رئيسيين، سارا جنبا إلى جنب طيلة هذه الفترة. **الطرز الأول:** هو طراز الجوامع التي نجد بيت الصلاة فيه قائم على الأعمدة والدعامات ومزود بصحن مكشوف تتوسطه - غالبا - فسقية للوضوء، وتحيط به أروقة تغطيها قباب ضحلة.

أما **الطرز الثاني:** فهو الجوامع ذات القبة المركزية في بيت الصلاة، تكتنفها مجموعة من القباب وأنصافها⁽²⁾، وفيما يأتي تفصيل لمميزات وخصائص كل طراز.

أولا/ الطراز المحلي القائم على الأعمدة والدعامات:

يعتبر هذا الطراز النواة الأولى للجوامع الإسلامية عامة، إذ أن أصوله تعود إلى المسجد النبوي في المدينة، حيث تقوم فيه بيت الصلاة على الأعمدة والدعامات، سواء كان يشتمل على صحن أو يخلو منه، ويغطي بسقف مسطح أو جمالوني، ويكون حجم هذا النوع من المساجد كبيرا أو متوسطا أو صغيرا، منتظم التخطيط أو غير منتظم، وينتشر في معظم المدن الكبيرة والصغيرة، يتوسط مراكز المدينة أو في أحيائها السكنية أو على مشارفها. ومن ناحية مظهرها فهي قليلة الزخرفة أو تخلو منها نهائيا، ونجد منها نماذج كثيرة في الجزائر⁽³⁾، خاصة منها المدن الكبيرة كمدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة ومعسكر ومليانة

(1) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 101.

(2) - أبو رحاب محمد السيد محمد: "ملاحح تخطيط العمائر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط- دراسة أثرية مقارنة"، أعمال ملتقى دولي - تلمسان الإسلامية بين التراث المعماري والعمراني والميراث الفني ج1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان 2011، ص 144. يُنظر كذلك:

- مؤنس حسين: المرجع السابق، ص ص 89-90.

(3) - لمرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر"، المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي 3، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، 2002، ص 530.

وغيرها، ولكنها عرفت عدة تغييرات وتجديدات لعدة أسباب منها: الممارسات التي مارسها الاحتلال الفرنسي، حيث أنه هدم جلها ولم يبق منها إلا القليل.

أما من حيث التخطيط العام للمساجد الجامعة الجزائرية في العهد العثماني، فيمكن تقسيمها إلى نمطين رئيسيين من خلال نظام توزيع البلاطات داخل بيت الصلاة.

النمط الأول: هو النمط التقليدي المحلي الذي تكون عقود بائكاته موازية لجدار القبلة، أو ما يعرف بنمط البلاطات الموازية لجدار القبلة، وهو على نوعين فالنوع الأول يحتوي على المجاز القاطع أو الرواق الأوسط العمودي على جدار القبلة ومقابلا للمحراب، أما النوع الثاني فهو يخلو منه، ونجد أن الجامع الكبير بمعسكر ينتمي إلى النوع الأول، الذي اعتمد في تخطيطه على بيت الصلاة المتكونة من بلاطات وأسايكيب تتوسطها البلاطة المستعرضة المتصلة مباشرة بالمحراب، بالإضافة إلى الأروقة والصحن، رغم أن هذا العنصر الأخير قد استغني عنه وتم دمج في بيت الصلاة، وهذا النوع سابق لفترة الأتراك، وهو يتميز باتساع بيوت الصلاة وكثرة الأعمدة التي تحمل السقف، وكذلك تتميز بالتفنن في هياكل المحاريب واتجاهها إلى زيادة عمق الحنية، والتوسع في استعمال الأقواس المدببة وأقواس حذوة الفرس والسقوف الخشبية المزخرفة. (يُنظر الشكلان 07 - 08)

ونجد هذا النوع بالمشرق في الجامع الأموي بدمشق وجامع الأزهر بالقاهرة⁽¹⁾، كما نجد منه نماذج بالمغرب كجامع القرويين والأندلسيين بفاس ومساجد أخرى تعود إلى الفترة المرينية بالمغرب الأقصى، كمسجد شالة، وجامع المدرسة البوعنانية بفاس القديمة، ومسجد أبي الحسن، ومسجد الشرابليين، ومسجد جزام بن عامر، ومسجد رأس عين أزيلتين بفاس القديمة⁽²⁾، وكذلك لجوامع ومساجد الجزائر كالجامع الكبير المرابطي بتلمسان الذي جُدد سنة (1136/هـ) ومسجد سيدي أبي الحسن (696/هـ1296) ومسجد أولاد الإمام (710/هـ1313) ومسجد سيدي بومدين (739/هـ1339) ومسجد سيدي إبراهيم

(1) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص86، يُنظر كذلك: نوبصر محمد حسني: المرجع السابق، ص124، وص184.

(2) - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص146.

(759هـ/1358م)، وكذلك جامع القصبية الخارجي بالجزائر العاصمة⁽¹⁾، وجامع سيدي لخضر وجامع سيدي الكتاني بقسنطينة⁽²⁾.

وما يتميز به مخطط الجامع الكبير بمعسكر هو وجود البلاطة المستعرضة أو ما يصطلح عليه بالمجاز القاطع التي تربط المحراب بمؤخرة الجامع، حيث أنه يظهر أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى، كما أنها أصبحت تقسم الجامع إلى قسمين متساويين تقريبا وهذا التقليد المعماري عُرف قبل الفترة العثمانية، فقد ظهرت إرصاصاته الأولى في الجامع الأموي بدمشق، ثم انتقل إلى جوامع أخرى مثل جامع الأزهر بالقاهرة (359-361هـ/ 969-971م)⁽³⁾، وكذلك في جامع قرطبة بالأندلس الذي شيده عبد الرحمن الداخل الأموي عام 170هـ/786م، بالإضافة إلى جامع القيروان عندما أعيد بناؤه في عام 221هـ/836م، والمسجد الجامع بمدينة سوسة الذي شيّد في عام 236هـ/851م، وجامع الزيتونة الذي وُسع سنة 250هـ/864م⁽⁴⁾، والجامع الكبير الذي جُدد سنة 530هـ/1136م وجامع سيدي بومدين بتلمسان المؤسس سنة 739هـ/1339م⁽⁵⁾، وأيضا نجده في بعض الجوامع المرينية كما هو الحال في الجامع الكبير بفاس الجديد، وجامع الحمراء بفاس الجديد أيضا، وجامع باب الجيسة بفاس القديمة⁽⁶⁾. (تُنظر الصورة 26)

أما من ناحية شكل الجامع الكبير بمعسكر فهو يتكون من مسقط أفقي يشغل مساحة مستطيلة أكثر اتساعا منها عمقا، أي أنّ المحراب يتوسط أحد الضلعين الطويلين للجامع ووزعت بلاطاته في مساحات مستطيلة أيضا أكثر اتساعا منها عمقا، في حين شغل الصحن مساحة مستطيلة متوسطة يقع في الجانب الشمالي الشرقي (يُنظر الشكل رقم 07)، وهذا النوع من المساقط لبيت الصلاة نشأه في الجامع الأموي بدمشق وجامع الأزهر⁽⁷⁾، وكذلك في جامع القرويين وبعض الجوامع الموحدية كجامع تينملل والكتيبة الأول المندثر، والكتيبة

(1) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 454.

(2) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 505.

(3) - نويصر محمد حسني: المرجع السابق، ص ص 124 - 174.

(4) - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص ص 96 - 97.

(5) - قرمان عبد القادر: المؤسسات التعليمية... المرجع السابق، ص ص 106 - 107.

(6) - أبو رحاب محمد السيد محمد: المرجع السابق، ص 147.

(7) - نويصر محمد حسني: المرجع السابق، ص ص 124 - 174.

قموش⁽¹⁾، بالإضافة إلى مسجد سيدي الهواري ومدرسة خنق النطاح التي دفن بها البابي محمد الكبير بوهران. (2)

ثانيا/ طراز الجوامع ذات القبّة المركزية (الطرّاز الوافد):

تعددت أنماطه المعمارية وتنوعت أشكاله التخطيطية، ولكن هل كان نظام هذه الجوامع وتخطيطها هو طبق الأصل لما هو موجود في تركيا؟ وهل يشترك معها ومع نظام الجوامع وتخطيطها في الولايات العثمانية الأخرى في المشرق والمغرب؟ الواقع أنه طراز صاغته الجزائر وشكلته بطريقة خاصة بها، ولكن بتأثير من المظاهر المعمارية العثمانية فمن أبرز عناصره القبّة، وبفحص مخططات هذه المساجد ومقارنتها بمخططات المساجد العثمانية في تركيا في أنماط تخطيطها المتعددة، يمكن استشفاف طبيعتها وصلتها بها، وبالتالي يمكن تحديد مظاهر التأثير العثماني فيها، وأهمها ثلاثة يمكن حصرها في التالي:

1- مساجد قاعة الصلاة فيها مربعة، مغطاة بقبة مركزية قاعدتها مثمثة ورواق يحيطها من جميع جهاتها، مقسم إلى فراغات مربعة، غُطي كل منها بقببية صغيرة مثل جامع عين البيضاء وجامع الباشا بوهران وجامع البابي بعناية.

2- مساجد بيوت صلاتها مربعة، تغطيها قبة مركزية تقوم على حنايا ركنية، مثل جامع صفر.

3- مساجد أتبع في تخطيط قاعة الصلاة فيها على هيئة صليب، أحد أضلاعه أكثر امتدادا من الأضلاع الأخرى، وغطي فيه الفراغ المربع الكبير بقبة مركزية، تحيطها قبببات صغيرة والباقي بأقبية اسطوانية⁽³⁾ كالجامع الجديد بالجزائر العاصمة.

لقد كان اختيار مدينة الجزائر كعاصمة فيما يعرف بدار السلطان، تأثير مباشر على الحركة والإنتاج المعماري خاصة الديني منه، الذي أخذ القسط الوافر فيها، وما طراز المساجد ذات القبّة المركزية إلا دليل واضح على ذلك، وقد أنجز هذا الطراز من الجوامع

(1) - دحدوح عبد القادر: المرجع السابق، ص 509.

(2) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - ابن عبد القادر مسلم: المصدر السابق، ص 65، يُنظر كذلك: - الزباني محمد بن يوسف: المصدر السابق، ص 204. وأيضا: - المزاري الآغا بن عودة: المصدر السابق، ج 1، ص 298.

- عميرايوي أحميدة: المرجع السابق، ص ص 82-83.

(3) - لرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص ص 530-531.

جنباً إلى جنب مع الجوامع ذات بيوت الصلاة القائمة على الأعمدة والدعامات، ومن أشهرها في الجزائر نذكر: جامع صفر، جامع علي بتشين، الجامع الجديد، جامع الداوي بمدينة الجزائر، وجامع الأخضر وسيدي الكتاني بقسنطينة وجامع الباشا بوهران وجامع عين البيضاء بمعسكر.

ومن خلال دراسة مخطط جامع عين البيضاء، الذي يعتبر النموذج الوحيد الموجود في مدينة معسكر، تبين لنا أنه ينتمي إلى النوع الأول من المساجد التي تكون فيها قاعة الصلاة مربعة، مغطاة بقبة مركزية قاعدتها مثمثة ورواق يحيطها من جميع جهاتها، مقسم إلى فراغات مربعة، غُطي كل منها بقببية صغيرة وأقبية متقاطعة. (يُنظر الشكل رقم 11) و(تُنظر الصور رقم 39-44-58)

ولعل أن استعمال المخطط القائم على القبة المركزية في الجوامع العثمانية يعود إلى أول مسجد عثماني واضح المعالم هو "أولو جامع" الذي أنشأه "أورخان" في "بروسة"، وهو مسجد جميل له بيت صلاة فسيح متعدد الأروقة، وفي منتصف الرواق الأوسط تقوم قبة كبيرة، وهناك قباب صغيرة فوق الرواقين المحيطين بذلك الرواق الأوسط، وقد كثرت المساجد الشبيهة بمسجد "بروسة" في بلاد الأناضول والروملية (*).

ولكن المساجد العثمانية الكبرى التي أنشئوها بعد أن أصبحت دولتهم إمبراطورية كبرى أخذت تنظر إلى عمارة كنيسة "آيا صوفيا" وتتأثر بها تأثراً واضحاً، فقد وجد المعماريون الأتراك في مبنى تلك الكنيسة الرائعة - التي تحولت إلى مسجد - حلولاً مرفقة لمشاكل كثيرة كانت تحول بينهم وبين الإنشاء الفخم الوافر الضوء، فاستطاع المعماري العثماني من خلالها تقليد هذا الشكل المعماري في مهارة بالغة، وبدا ذلك بوضوح في جامع "المحمدية" الذي أنشأه السلطان "محمد الفاتح" فيما بين سنتي (1463 و 1469م)، وكذلك في مسجد السلطان "بايزيد" (1501 - 1507م) الذي أنشأه المهندس "خير الدين" في اسطانبول ثم دخلت العمارة العثمانية في مرحلة جديدة من التطور على يد "سنان باشا" المذكور آنفاً حيث قام بهندسة مسجد "شاه زاده" (1543 - 1548م) وجامع السليمانية (1550 - 1556م)

(*)- الروملي: يراد به ما دان للعثمانيين من بلاد النصارى في بلاد اليونان ومقدونيا، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 90.

ومسجد السليمية في أدرنة (1570-1574م) منطلقاً من تخطيط الكنيسة المذكورة الذي طوره وفق المنظور العثماني للعمارة الدينية⁽¹⁾.

لقد تأثرت إيالة الجزائر كغيرها من الإيالات العثمانية كمصر وليبيا وتونس وغيرها بهذا الطراز الوافد، ولعل النماذج القائمة من المساجد الجزائرية التي تعود إلى هذه الفترة لخير دليل على ذلك، نذكر منها جامع صفر بالجزائر العاصمة (940-941هـ / 1534م) وجامع الباشا بوهران (1206هـ / 1792م) وجامع الباي بعنابة (1206هـ / 1792م).

أما أوجه التشابه بين الجامع الكبير وجامع عين البيضاء بمعسكر فهو وجود المحراب في وسط جدار القبلة والقبّة التي تعلوه، وهذه الميزة المعمارية ظهرت قبل العهد العثماني حيث نجدها في جامع القيروان التي أضيفت له سنة (221هـ / 836م) عند تجديده وتوسعته من قبل الأغالبة، وكذلك في جامع الزيتونة (250هـ / 864م)، وكذلك بالجامع الكبير بتلمسان ومسجد سيدي أبي مدين بالعباد، بالإضافة إلى احتواء كل منهما على صحن مكشوف لا يتوسطهما، رغم أن صحن الجامع الكبير حالياً أدمج مع بيت الصلاة، وقد زود كل منهما بأماكن للوضوء. بالإضافة إلى وجود مئذنة واحدة في كليهما، لكنهما يختلفان من حيث الشكل.

2- الزوايا:

لقد اتخذت الزوايا في مخططاتها المعمارية عدة أنماط وأصناف.

فالنمط الأول اصطلح عليه الجامع الزاوية أو الخانقاه.

أما النمط الثاني فسُمي المدرسة الزاوية.

وبالنسبة للنمط الثالث فهو القبّة الزاوية.

إلا أن هذه الأصناف لا توجد بينها فوارق كبيرة، فالزاوية في هذه النماذج جاء تخطيطها متأثراً بتخطيط عمارة المسجد أو المدرسة أو الضريح⁽²⁾.

وعند دراسة المخططات المعمارية لزاويتي أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين في مدينة معسكر، توصلنا إلى أنهما تنتمي إلى النمط الأول من الأنماط المذكورة سابقاً، والتي تجمع بين مهمة التدريس في الزاوية وإقامة الصلوات الخمس، رغم وجود قبّة الضريح التي

(1) - مؤنس حسين: المرجع السابق، صص 89-91.

(2) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، صص 522.

فُصِلت عن المكونات المعمارية للزاوية، حيث جُعِلت لها مدخلا خاصا بها غير المدخل الرئيسي للزاوية، فالزاوية الأولى أُطلق عليها بعض المؤرخين اسم المسجد كما ذكرناه سابقا وهذا يعود إلى كثرة روادها للصلاة فيها. أما عن المخطط العام لهاتين الزاويتين فهما مختلفتان من حيث المكونات المعمارية فزاوية أبي راس الناصري تتكون من قاعة التدريس وبيت الشيخ أو المدرس والضريح وفي وسطها نجد الصحن، أما زاوية سيدي بوسكرين فهي مكتملة من ناحية التكوين المعماري للزاوية، فهي تضم المكونات المذكورة سابقا وتزيد عليها بغرف الطلبة والمخزن والمطبخ والكنيفات وبيت الخلوة وغرفة خاصة بالضيوف، كما أن الصحن الذي يتوسطها كبير المساحة. (تُنظر الأشكال رقم 16-17-18)

وعند التمعن في مخطط هاتين الزاويتين نستخلص أنهما عبارة عن مجمع معماري جمع بين عناصر المعمار الديني والمدني، فمن المسجد أخذنا اتجاه القبلة نحو مكة، ومن المعمار المدني أخذنا وحدات الإعاشة والمطابخ⁽¹⁾، ومن ناحية الحجم فهما صغيرتان، وقليلة النوافذ، وخاليتين من الزخرفة والجمال المعماري، لذلك فشكلهما العام يوحي بالعزلة والتشف والهدوء، ووظيفتهما تتطلب بأن تكون فيهما غرف لتحفيظ القرآن، وأخرى لترتيبه، وأخرى لنوم شيخ الزاوية والطلبة وحتى المنتسبين والزوار والمسافرين⁽²⁾.

أما عن ظاهرة إلحاق الأضرحة بالزوايا في بلاد المغرب فكان خلال الفترة العثمانية وهو ما نجده في الجزائر، ومن أمثلتها نذكر زاوية سيدي عبد المؤمن وزاوية بن عبد الرحمن بقسنطينة، وكذلك بتونس في زوايا المنستير مثلما هو الحال في زاوية سيدي بوعلي وزاوية سيدي مسعود⁽³⁾، وحتى في المغرب الأقصى كزاوية سيدي الغازي^(*) بتافيلالت⁽⁴⁾، كما

(1) - سلام أيمن شاهين: المرجع السابق، ص 32.

(2) - عزوق عبد الكريم: المرجع السابق، ص 72، يُنظر كذلك: - سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج 1، ص 269. وكذلك: - صباح بعارسية: المرجع السابق، ص 76.

(3) - لمزيد من المعلومات يُنظر: - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 522 - 525.

(*) - سيدي الغازي: هو العلامة والشيخ أبي القاسم سيدي الهادي السوسي الأصل والذي ولد سنة 1403/801م، وتوفي حوالي سنة 1483/878م بتافيلالت (سجلماسة عاصمة دولة بني مدرار)، كان طالبا متفقا في العلوم الدينية، انتقل من سوس إلى تافيلالت واستقر بقصر تبوكرت وأسس به مسجدا لإقامة الصلاة والتعليم قبل أن يشيد الزاوية. لمزيد من المعلومات يُنظر: - تاوشيخت لحسن: عمران سجلماسة، دراسة تاريخية وأثرية، ج 2، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، 588.

(4) - نفسه: ص 592.

عرفت مصر هذه الظاهرة المعمارية، حيث يظهر ذلك في ضريح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره أول ضريح ألحق بمدرسة، ثم أصبحت القاعدة بعد ذلك إلحاق القباب بالمدارس والمساجد والخانقاوات⁽¹⁾.

3- الأضرحة:

تعد الأضرحة من المنشآت المعمارية الدينية التي لاقت اهتماما كبيرا من طرف المسلمين، إذ أنها اعتبرت كطريقة مثلى لتكريم العلماء والأولياء الصالحين، وقد عرفها معماريا الجنرال "كوفي Cauvet" بأنها منشآت جنازية صغيرة ومقببة، بأشكال مختلفة ومتعددة حسب طبيعة كل منطقة⁽²⁾، وعليه فقد اتخذت الأضرحة في تصميمها المعماري الشكل التقليدي المعروف، وهو مربع فوقه قبة، على واجهاته الأربع فتحات عبارة عن عقود، وقد استعمل هذا التخطيط لأول مرة في "باليرمو palermo" بصقلية، كما يوجد في بعض الأضرحة صحن ذو بوائك يمتد أمام حجرة القبر، كما هو الحال في أضرحة بني مرين وبني زيان بتلمسان، مثل ضريح سيدي أبي مدين وسيدي إبراهيم⁽³⁾.

لقد تعددت الأضرحة في مخططاتها المعمارية واتخذت أشكالا مختلفة حسب مكانة صاحب الضريح في المجتمع وكذلك طبيعة المنطقة الجغرافية، وقد قدم لنا الجنرال كوفي Cauvet في مقاله هذه الأنواع نوردها على النحو الآتي:

- أضرحة ذات قباب نصف كروية.
- أضرحة عبارة عن أكواخ صغيرة مسقفة بسقف مسطح أو بسقف يعلوه قرמיד.
- أضرحة ذات قباب مغطاة بقرמיד.
- أضرحة ذات قباب مخروطية.
- أضرحة هرمية الشكل بدون شرفات⁽⁴⁾.

ورغم تنوع الأضرحة وظهورها بأشكال مختلفة ومتعددة، إلا أنّ النوع الشائع في الجزائر والأقدم هو الأضرحة المربعة ذات قباب نصف كروية محمولة على منطقة انتقال

(1) - ماهر سعاد: المرجع السابق، ج1، ص27.

(2) - Cauvet. (C) : « Les Marabouts, petits monuments funéraires et votifs du nord de l'Afrique », revue Africaine, Paris, 1923, p435.

(3) - عزوق عبد الكريم: الأضرحة... المرجع السابق، ص138.

(4) - Cauvet. (C) : **op.cit**, p...

يُنظر كذلك: عزوق عبد الكريم: الأضرحة... المرجع السابق، ص138.

مثمثة الشكل، وفي بعض الأحيان لا نجد منطقة انتقال، ويظهر لنا الضريح على شكل مربع توضع فوقه القبة مباشرة⁽¹⁾، وهذا الطراز هو الشائع في الأضرحة الموجودة في مدينة معسكر، إذ أن ضريح أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين وسيدي محمد بوجلال وسيدي موفق اتخذت الشكل المربع عليه قبة نصف دائرية مضلعة ترتكز على مربع انتقل فيه إلى المثلث عن طريق حنايا ركنية مجوفة وبسيطة، نجد في جدرانها الداخلية الأربعة عقود نصف دائرية صماء، أما القبر فهو بسيط يخلو من الشواهد المزينة والمبينة فيها تاريخ الوفاة والأدعية المعروفة في بعض الأضرحة والقبور التي تعود إلى العهد العثماني في كل من مدينة الجزائر وتلمسان وقسنطينة في مقبرتي سيدي الكتاني والجامع الأخضر⁽²⁾. (تُنظر الأشكال رقم 18-19-20)

4- المنشآت السكنية والإدارية:

كان من الطبيعي أن يتأثر المخطط العام للبيت العربي بالدين الجديد كما تأثرت العمارة والفنون وأسلوب الحياة⁽³⁾، حيث أتبع في طريقة تصميمه تعاليم الدين الإسلامي التي تدعو إلى التواضع وعدم الافتخار والتخلي بالتقشف، وتجنب التطاول في البنين، لتفادي الفروق الطبقيّة وإيذاء المستضعفين⁽⁴⁾، لذلك جاء تصميمه تصميمًا مشتركًا في هيكله العام الذي روعي فيه ظروف المناخ ونوعية المكان⁽⁵⁾، لتتماشى مع حياة الناس، ويوفر لهم الأمن والراحة والاستقرار، ثم سعى بأن يجد فيه كذلك الرفاهية والجمال، وكان لتحقيق هذه الأغراض يختلف باختلاف الزمان والبيئة ومستوى الفرد من حيث الفقر والغنى⁽⁶⁾، وهكذا نجد مساكن الفئات الفقيرة بسيطة لا تغنى بالزخارف والتزيين، كما نجد بيوت الفئات الغنية مستكملة لكافة الشروط الصحية، وجميع ضروب الرفاهية⁽⁷⁾.

(1) - Marçais. G: Op.cit, p300.

(2) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص536.

(3) - الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص612.

(4) - عبد الفتاح رؤاس قلعه جي: مدخل إلى علم الجمال، ط1، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1411هـ/1991م، ص55.

(5) - عكاشة ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 1961م، ص92، يُنظر كذلك:

- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص609.

(6) - فاجة أحمد جمعة: موسوعة فن العمارة الإسلامية، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، دمشق، 2000م، ص141.

(7) - رفعت موسى محمد: المرجع السابق، ص237.

وعلى العموم فإن طبيعة الدور وكيانها في العالم الإسلامي جاءت متشابهة، وذلك نتيجة لتفاعلات كبيرة بين العوامل الدينية والاجتماعية وغيرها من المؤثرات، التي تطبع كل مجتمع بطابع خاص من مكان إلى آخر ومن عصر لآخر⁽¹⁾، لأنها تعبر دائماً عن المظهر الثقافي والحضاري للأسرة والمجتمع، فهو الخلية الأساسية للمدينة ومحور نموها وتنظيمها وتطورها⁽²⁾.

لقد تطورت الوحدات السكنية في المدينة الإسلامية عبر العصور بطريقة لبست ثوبا واحدا هو الإسلام، كما تطورت من حيث امتدادها الأفقي وصورتها العمودية، وكانت في منشئها تخضع للمنظومة القيمية الإسلامية في جانبها الإنشائي وتحولاتها المعمارية، وذلك بطريقة تحفظ كيان الأسرة وحرمتها وحربتها الشخصية، ولا تحدث ضررا بالغير جارا كان أو عابر سبيل، وذلك بكيفية تتفق مع القاعدة الأصولية المنافية للضرر والإضرار: "لا ضرر ولا ضرار"، وهي قاعدة أخذ بها الفكر العمراني للمسلمين⁽³⁾، ويتضح تفاعل المعمار معها فيما ابتكره من عناصر معمارية وما طبقه من كتل في المنشآت السكنية، حيث تعود المسلمون في القرون الأولى للهجرة (1-2هـ/7-8م) في الأقاليم المفتوحة، بناء مساكنهم في المدن الجديدة المنشأة على أيديهم، أو المدن القائمة قبلهم بشكل أفقي وعلى المستوى الأرضي، وهو ما حدث في مدينة الفسطاط في مصر التي أنشأها عمرو بن العاص بعد فتح مصر في سنة 21هـ/641م، حيث أنها شهدت حركة عمرانية ومعمارية كثيفة في وقت قصير، بما وفد عليها من عناصر سكانية عديدة من العرب وغيرهم فازدحمت بالمباني⁽⁴⁾ وحدث في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وكان واليه على مصر عمرو بن العاص أن "خارجة بن حذافة" كان من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومتولي الشرطة لعمر بن العاص، استقر بفسطاط مصر، وضاق عليه سكنه فبنى غرفة في طابق علوي، وكان أول من أحدث ذلك في مصر، وربما في المدن الإسلامية جميعا، وفهم الناس ذلك خطأ أن

(1) - إبراهيم عبد العالي محمد: العمارة والعمران في الوطن العربي، ط3، دار الراتب الجماعية، بيروت، 1986، ص26 يُنظر كذلك: - لرج عبد العزيز: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية: دراسة أثرية معمارية وفنية، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1999م، ص 374.

(2) - قاجة أحمد جمعة: المرجع السابق، ص141.

(3) - لرج عبد العزيز: العمران الإسلامي...المرجع السابق، ص87.

(4) - نفسه: ص ص 90 - 91.

خارجة يتعدى على عورات المسلمين من جيرانه، ولا شك أنهم اشتكوا أمره إلى والي مصر عمرو بن العاص، فلما لم يحصلوا منه على جواب، رفعوا القضية إلى الخليفة عمر نفسه فكتب الخليفة إلى واليه على مصر يقول: "...أما بعد فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها... والسلام"⁽¹⁾، ومن خلال هذه الحادثة يتضح لنا أمران:

الأول: استهجان المسلمون الأوائل بناء المساكن عمودية على شكل طوابق.

الثاني: إن هذا الاستهجان لم يكن لذاته، وإنما كان توجسا من المسلمين ومن الجيران من كشف حرمتهم والإطلاع على خصوصياتهم وأسرارهم الخاصة، والاعتداء على حرمتهم الفردية، وهو ما يتنافى والقيم الإسلامية⁽²⁾.

لقد خضع الامتداد الأفقي للمنازل في الفترة العثمانية لعدة أمور هامة أولها المكان الذي أنشئ عليه الأثر⁽³⁾، أي مساحة تلك الدور وامتدادها، والتي تتحكم فيها ظروف النفوذ وسيطرة بعض العائلات في الأحياء المختلفة من المدينة⁽⁴⁾، بالإضافة إلى وظيفة صاحب المنشأة وقدرته المالية التي تساعد على الصرف⁽⁵⁾، وكذلك طبيعة المواد التي بنيت منها وقلة كثافة السكان وضآلة أثمان الأرض أيضا⁽⁶⁾.

كان هذا التصميم شائعا في مدينة معسكر منذ الفترة العثمانية، حيث كانت تكثر المساحات الفارغة من جهة، وقلة السكان من جهة أخرى، ولكن بعد أن عرفت المدينة اكتظاظا بالسكان أدى إلى نمو المدينة، وتقلص المساحات المخصصة للبناء، وبالتالي كلما نمت المدينة وازدادت كثافتها السكانية كلما ضاقت بهم وانحصر البنيان في داخلها أفقيا

(1) - ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العرب، القاهرة 1961، ص 148.

(2) - لعرج عبد العزيز: العمران الإسلامي...، ص 92.

(3) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 203.

(4) - كيال منير: المرجع السابق، ص 152.

(5) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 203.

(6) - كيال منير: المرجع السابق، ص 152.

وهو ما كان يؤدي بالمهندس المعماري إلى الارتفاع بالوحدات السكنية في صورتها العمودية كحل عمراني ومعماري لتناقص الفراغات، وانعدام الفضاءات داخل الأسوار لدرجة لم يكن ممكنا معها الحفاظ على المساحات الخضراء من حدائق ويساتين، ومن جهة أخرى فإن الارتفاع بالمبنى لم يكن مسموحا له أن يتجاوز ارتفاع أسوار المدينة، وهو ما كان يؤدي أمام النمو الأفقي والعمودي للوحدات السكنية إلى اكتظاظ المدينة بالمباني، والذي عنه انفجار عمراني تخرج المدينة عن أسوارها أو تمتد خارج أسوارها⁽¹⁾، وهذا ما عرفته مدينة معسكر حيث وصلت البناءات إلى غاية حدود الأسوار الخارجية، الأمر الذي دفع الباي وإدارته للبناء في فحوص المدينة والسماح للسكان للبناء فيها، وهو ما نتج عنه تكون ما يعرف بالرحبات التي بلغ عددها خمسة كما ذكرناه سابقا.

ورغم هذه الإجراءات الإدارية للقضاء على مشكلة الاكتظاظ إلا أنه مع مرور الزمن دفع بالمهندسين المعماريين إلى تغيير نمط وطريقة البناء، فتحول الامتداد الأفقي إلى التركيب العمودي الذي يتطلب التوسع على حساب الطابق الأرضي، بحيث أن كثرة الأفراد في الأسر وغلاء المساحات الأرضية المتبقية من المدينة، دفع الأهالي إلى التفكير في بناء الطوابق العليا باعتباره الحل الوحيد والمناسب الذي يرفع الحرج عنهم، ويوفر لهم الاتساع ويخرجهم من المحنة والصعوبة التي يعيشون فيها.

أما عن فكرة تعدد الطوابق في البيوت والارتفاع بالوحدات السكنية عموديا، قد عرفت في الحضارات القديمة كتكريت ومصر⁽²⁾، حيث بينت ذلك الحفريات وأعمال التنقيب التي أجريت في الفسطاط بين عامي 1970/1964م⁽³⁾، وفي بلاد الرافدين بين عامي 1927/1926م، والتي أكتشف فيها مباني ذات طابقين بسلم داخلي، وغرف تتجمع حول حوش مفتوح⁽⁴⁾، وكذلك المجسمات والرسوم الجدارية التي نشاهدها في قبور الفراعنة وتواصل ذلك في العهد الروماني، والتي تظهر في الرواق المحمول على الأعمدة الذي كان

(1) - لرج عبد العزيز: العمران الإسلامي... المرجع السابق، ص 88.

(2) - نفسه: ص 610.

(3) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 189.

(4) - لمعي مصطفى صالح: عمارة الحضارات القديمة، دار النهضة العربية، 1983، ص 53.

"إبلا" في أواخر القرن الألف الثالث، وفي "ماري" أوائل الألف الثاني قبل الميلاد⁽¹⁾.
لقد تأثر مسقط البيت العربي الإسلامي بذلك، لتلاؤمه مع الحياة الدينية والاجتماعية
والمناخية السائدة، ويلاحظ في هذا التصميم الانتماء إلى الداخل⁽²⁾، ويتجلى ذلك في
المساكن والقصور الإسلامية التي بنيت في فترات مختلفة، حيث بدأت تظهر جذورها الأولى
منذ حوالي منتصف القرن 7/هـم بالفسطاط في مصر وفي مساكن بلاد الرافدين⁽³⁾، وكانت
عملية مستهجنة آنذاك، ومع حلول القرنين الثالث والرابع الهجريين الموافق للقرنين التاسع
والعاشر الميلاديين، ازدادت الظاهرة وضوحا ليصل عدد الطوابق في العصر الفاطمي في
مصر إلى أربع طوابق كحد أدنى، ولا شك أن المدن الكبرى كدمشق وبغداد والقيروان وفاس
قد شهد نفس الأحوال⁽⁴⁾. كما تجسد ذلك في عمارة سدراتة⁽⁵⁾، والقصر الزيري بمدينة أشير
وقصور قلعة بني حماد التي تتألف من صحن حوله الأجنحة⁽⁶⁾.

ويفسر عدم تعدد الطوابق في المساكن الإسلامية في العصور المبكرة إلى التزام
المسلمين بسياسة التقشف، والبعد عن التعالي في البنين، التي قد تخلق نوعا من الغيرة
والحسد بين الأفراد، أي بين الغني والفقير، وكذا تجسيد مبدأ احترام الجار وعدم كشف
عوراته، وذلك ما أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما إقبال المسلمين على تعدد الطوابق في المساكن، فيعود ذلك إلى تأثر المسلمين
بالبلدان الأخرى، خاصة بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية على إثر الفتوحات، والتي كانت
فيها العمائر تتكون من أكثر من طابق، وهذا ما حفز المسلمين إلى إتباع نفس النمط في
البناء، كما أن ازدياد عدد السكان واكتظاظ المدن وغلاء أسعار الأراضي المخصصة للبناء

(1) - الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص 610.

(2) - لمعي مصطفى صالح: المرجع السابق، ص 53.

(3) - الشافعي فريد: العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج 1، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
القاهرة، 1970، ص 445، يُنظر كذلك: - بهنسي عفيف: المرجع السابق، ص 321.

(4) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 445.

(5) - Bouruiba. R : Cites disparues, art et culture, Ministère de l'information, Alger, 1979, p63.

(6) - Golvin. L : Le Maghreb centrale..., p180. يُنظر كذلك:

- Marçais. G : Algérie médiévale, monuments et paysages historiques, arts et métiers
graphiques, Paris, 1957, pp 34-35.

ومن جهة أخرى ربما يعود إلى محدودية الإمكانيات المادية للأفراد، لأن أغلب سكانها فلاحين، وهذا مما جعل مساكنها متشابهة، بحيث أنها تظهر كتلة واحدة على مستوى واحد. لقد صممت مخططات المساكن على شكل أربعة أجنحة من طابق أو أكثر حول فناء تتوسطه نافورة⁽¹⁾، وتشرف عليه المرافق المعيشية والوحدات السكنية المختلفة، والتي تتخللها العناصر المعمارية بمختلف أنواعها من عناصر الحمل والتدعيم والارتكاز، والتي لها دور كبير في الحفاظ على توازن المبنى وتوزيع أقسامه بطريقة منظمة، بعيدة كل البعد عن الفوضى وبشكل يراعي التناظر والتناسق في التوزيع.

والملاحظ على مباني ودور مدينة معسكر أنها خضعت لهذا التخطيط، حيث اتخذت في تخطيطها شكل المربع والمستطيل، وأحيانا بشكل غير منتظم، وذلك يعود إلى طبيعة المكان أو الموضع الذي بنيت فيه الدار في الشارع أو الحي المرتبط بتخطيطه (مستقيم أو منحرف مائل)، وكذا من حيث المساحة المخصصة للبناء، بالإضافة إلى التغييرات التي أحدثتها الاحتلال الفرنسي عليها، وعموما فهي تتكون من طابقين - طابق أرضي وعلوي - تتوسطها أفنية محاطة بأربعة أروقة، تفتح عليها مداخل ونوافذ المرافق المعيشية والوحدات السكنية بطريقة التناظر والتقابل والتشابه في المظهر العام، ومزينة بأعمدة متنوعة تحمل عقودا لها نفس النمط.

فالمخطط العام لدار الباي جاء شبه مربع، مقاسات أضلاعه غير منتظمة يتكون من أربعة أجنحة بواجهات بسيطة المظهر، يتوسطها فناء مركزي يحتوي على حوض بداخله نافورة، كما تحيط به مجموعة من الأعمدة عليها تيجان تحمل عقود موحدة النمط، وفي جوانبه أربعة أروقة تتوزع عليها الوحدات السكنية والمرافق المعيشية، والملاحظ عليه هو كثرة النوافذ المفتوحة على الخارج، وذلك ما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي، لكن ذلك يعود إلى التغييرات التي أدخلها الاحتلال الفرنسي عليه، لأن المبنى حُوّل إلى مركز إداري خاص بالجيش الفرنسي، كما أنه يحتوي على مرافق كانت عبارة عن مخازن حُوّلت خلال فترة الاحتلال إلى اسطبلات، محاطة بسور خارجي يحمي المبنى من أي اعتداء خارجي. (يُنظر الشكلان 21-22)

(1) - الباشا حسن: المرجع السابق، ص ص 223-224.

وفيما يخص الوحدات السكنية بمفهومها العام فهي تتكون من قسمين رئيسيين في المبنى ونجد لكل قسم مميزاته الخاصة، و هذان القسمان هما الحجرة والغرفة، حيث أن الحجرة يكون موقعها دائما في الطابق الأرضي، أما الغرفة فيكون موقعها دائما في الطوابق العلوية، وكلاهما يعتبران كمكان للسكون في البيت، حيث أن منها ما تتخذ لاجتماع أهل الدار، وأخرى للأكل والنوم، ومنها ما يخصص للاستقبال والضيوف.

وقد وجدت في المنازل الإسلامية ولاسيما في العصر العثماني أكثر من قاعة في المنزل الواحد، ومن هنا أطلقت عليها الحجرات للسفلية والغرف للعلوية تمييزا لها عن بعضها البعض⁽¹⁾، ويكون توزيع الوحدات السكنية حسب ما تفرضه العوامل الطبيعية، حيث أن حجرات الطابق الأرضي لقضاء فصل الصيف لتوفر الرطوبة، وغرف الطابق العلوي لفصل الشتاء، وذلك لكونه أكثر استفادة من أشعة الشمس مما يبعث الدفء إلى الغرف، كما يخصص منها جناح خاص لاستقبال الضيوف يسمى "البراني" أو المضافة التي تعرف بـ"السلامك"، وجناح للسيدات وهو القسم الداخلي الذي يعرف بـ"الحرملك"⁽²⁾، وفي معظم الأحيان نجد الطابق العلوي مخصص للحياة العائلية⁽³⁾ وكل هذه العوامل جعلت النساء خاصة يفضلن الطابق العلوي على الطابق الأرضي.

وانطلاقا من هذه المعطيات نستنتج أن التصميم الداخلي للغرفة يأتي حسب الوظيفة التي تؤدي فيها، وكلها تقريبا تشترك في خاصية واحدة تتمثل في الشكل المستطيل، فقد تمكنت الدراسات من ضبط بعض المقاييس التي يكون فيها العمق أكبر من العرض⁽⁴⁾، كما أن توزيعها يكون حول الصحن من جهاته الأربع، وكذلك في تخطيطها الطولي تبعاً للأروقة، جعل التصميم العام للمسكن يفرض هذا المقياس، وذلك يعود إلى عدة اعتبارات

(1) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 231.

(2) - نفسه: ص 237، يُنظر كذلك: - خماس نجرة: المرجع السابق، ص 21،

- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 183.

(3) - قاجة أحمد جمعة: المرجع السابق، ص 142.

(4) - Reveault. J: palais et résidence d'été de la région de Tunis, XVI- XIV siècle, C.N.R.S, Paris, 1947, p63.

وعوامل فرضت هذا التصميم منها تلاصق البيوت مع بعضها البعض وبالتالي ضيق المساحات المخصصة للبناء والتوسع، وجعلها في اتجاه واحد دون الإخلال باستقامة الشارع بالإضافة إلى الطول المحدود للأعمدة والألواح الخشبية المستخدمة في التسقيف والتي تتراوح أطوالها غالبا ما بين 2 و 2.50⁽¹⁾، كما أن هذه الوحدات إذا كانت ذات طول وعرض كبيرين تكلف صاحب البناء أموال باهظة في تهيئتها وخاصة في تسقيفها، كما أنها تكون معرضة للتشقق والانهييار إذا لم تراعى فيها شروط البناء، وهذا ما جعل البناء المسلم يستغني عن ذلك ويختار الاستطالة المحدودة حسب توفر المواد اللازمة والابتعاد عن التكلفة.

والملاحظ من خلال دراسة الوحدات السكنية في دور مدينة معسكر أن المعمار أو البناء لم يجعل مقاسات الحجرات والغرف متشابهة، حيث أنها اختلفت فيما بينها وذلك حسب الوظيفة التي تؤدي فيها، كما أن اهتمامه انصب على الغرف في الطابق العلوي دون الحجرات في الطابق الأرضي، حيث نجدها أكثر اتساعا وحجما، ومزينة بمختلف العناصر المعمارية كالخزائن الجدارية، والزخارف الفنية، بطريقة متقنة، خاصة منها البلاطات والمربعات الخزفية، مما أضفي ذلك عليها جمالا وبهاءً، وهذا دليل واضح على مكانة غرف الطابق الأول عند الأسر، حيث جعل منها كمكان لاستقبال الضيوف والنوم والاجتماعات وأحيانا للأكل (أنظر الصورتان رقم 27/25)، أما الحجرات فلم يوليها اهتماما كبيرا، إذ أن مظهرها العام جاء بسيطا فأحيانا مزدانا بالزخرفة وأحيانا أخرى دون ذلك.

ومن خلال دراسة مخططات المساكن والدور العثمانية بالجزائر لاحظنا أن هذه المباني مفتحة نحو الداخل، وذلك ما يتلاءم تعاليم الدين الإسلامي واتجاهاته الاجتماعية، وخاصة فيما يتعلق منها بالمرأة⁽²⁾. بالإضافة إلى أن عامل المناخ الذي كان له دور كبير في تصميمات هذه المباني، حيث يظهر ذلك في سقفها التي جعلت على شكل جمالوني مائل وذلك لقسوة المناخ في مدينة معسكر خاصة في فصل الشتاء التي تعرف تساقط الأمطار والثلوج، وهو ما جعلها خالية من السطوح التي نشاهدها بكثرة في مباني مدينة الجزائر خلال العهد العثماني.

(1)- Marçais. G: **Op.cit**, p442.

(2)- الريحاوي عبد القادر: **قلم عالمية... المرجع السابق**، ص 612.

فنجدها تسمى في تونس "الزقاق"، وفي القاهرة "الحرارة"، وفي دمشق "الجواني"، وفي فاس "الداخلي"، وهذه القاعة هي مكان الاستحمام الحقيقي، فيها مخادع أو خلوات أو مقصورات وتكون مجهزة بمقاعد حجرية أو مصاطب ومغاطس وأجران من حجر أو رخام، تعدّل فيها حرارة المياه التي تصل إليها من حنفيات مركزة فوقها يجري الماء البارد من بعضها إلى بعضها الآخر⁽¹⁾.

لقد جاء تخطيط هذه القاعة بشكل متشابه في كل من حمامات البركة وحمة والباي فقد اتخذت الشكل المربع الذي تتوسطه مربعة تُعرف بـ"السرة"، وسقفها من قبة مضلعة محمولة على أربعة عقود نصف دائرية تتركز على عمود متوج موضوع فوق السرة، كما نجد في هاتين القاعتين خلوات ودخلات غائرة في الجدران تشبه الأواوين، لكل منها خاصية تشتهر بها مثل "بيت العروسة" المخصصة للمرأة المتروجة حديثاً، وهي من التقاليد المحلية التي نجدها كذلك في حمام "الشيخ" بمدينة مليانة⁽²⁾، وكذلك منها ما هو مخصص للاغتسال.

أما القاعة الساخنة في حمام القرشالي فشكلها يختلف عن سابقتها، فهي مربعة الشكل تحتوي على رواقين مسقوفين بقبوين نصف دائريين، ويتوسطهما فضاء مغطى بقبة نصف كروية تقوم على حنايا ركنية.

والملاحظ أن كل القاعات الساخنة تميزت بميزات مشتركة منها احتوائها على أحواض للاستحمام وفتحات مزججة لتوفير الإضاءة ومصاطب حجرية للجلوس، وكذلك استخدام القبة في التسقيف، وهي ميزة عرفت كذلك في حمامات الجزائر خلال العهد العثماني منها حمامي "سيدنا" (القرن 10هـ/16م) و"الجيش" (القرن 11هـ/17م) بالجزائر العاصمة⁽³⁾، وكذلك في حمام "بن البجاوي" في قسنطينة⁽⁴⁾ وحمام "الشيخ" بمليانة (القرن 11هـ/17م)⁽⁵⁾.

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 141. يُنظر كذلك: - كيال منير: المرجع السابق، ص 151.

(2) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 99.

(3) - موساوي عريبة: المرجع السابق، ص 128 - 140.

(4) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 551.

(5) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 99.

وفيما يخص القسم الثاني فهو مخصص للخدمات التقنية والتشغيل، ويسمى في الشام الخزانة وفي تونس الفرناق ويضم الموقد والمرجل، المعروف بالحلّة في الشام والنحاسة في تونس، وفيه توجد خزانات المياه الباردة والحارة، وتتدفع منه لتتوزع داخل الحمام بواسطة سواقي أو أفنية فخارية أو رخامية أو رصاصية أو خشبية، وحسب دورها تجري المياه مكشوفة، أو تحت الأرض أو في الجدران. وتصل إلى الحمام من شبكة المدينة أو من بئر ترفع مياهها بآلات تديرها حيوانات الجر، وتتصرف المياه المستعملة بواسطة "بلاليع" ومجارير خاصة. (تُنظر الأشكال رقم 31-35-39-42)

ومن هذا القسم أيضا تتم تهوية الحمام، ويفصل بين القسمين جدار حاجز رقيق تتخلله فتحات تسمح بدخول البخار إلى قاعة الاستحمام، بينما نجد الجدران الأخرى سميكة جدا، لتساعد على حفظ الحرارة، ويتم تسخين الماء بوقد الزيل والحطب اللذان يخزان بمستودعات ملحقة. وقد أقيم مخزن هذه الحمامات على أرض أقل انخفاضا من مستوى الحمام، وذلك لتمكين الدخان والبخار من المرور تحت بلاط الحمام واستغلاله ليسهم في تدفئته⁽¹⁾. وهذا الوصف ينطبق تماما على حمامات معسكر إلا في بعض التفاصيل الصغير، وهو ما وقفنا عليه في حمام حمزة الذي من حسن حظنا أننا شاهدنا مكان الفرناق بكل مكوناته الأصلية وبالتفصيل قبل إزالته وتعويضه بآلات حديثة، لأننا زرناه وهو في حالة ترميم، وفيما يخص فرناق حمامات البركة والقرشالي والباي فقد أحدثت عليها تغييرات كثيرة إذ أنها زودت بآلات حديثة، ولكن من خلال الأوصاف التي قدمت لنا فإنهم جميعا متشابهين من حيث المكونات، وكذلك من حيث الموقع فكلهم متواجدون خارج الحمام في المستوى الأرضي، ويتكون أساسا من حجرة للفرنناق وحجرات أخرى مخصصة كمخازن للحطب.

كما تشترك هذه الحمامات من حيث وجود دهاليز أو ممرات أرضية متصلة بالفرنناق مبنية من مادة الآجر، وهي مخصصة لمرور الهواء الساخن لتسخين أرضية الحمام، وكذلك مرور الدخان إلى المدخنة، فهي متوسطة الارتفاع ويتم تنظيفها سنويا من قبل صاحب الحمام من الرماد، (يُنظر الشكل رقم 37) ولعل ما يتصل بالفرنناق هو مخازن المياه، حيث

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 140.

مساجد الفسطاط الأخرى. أما مآذن المسجد الأموي فمتأخرة عن هذين التاريخين وعن إقامة المسجد نفسه. ذلك أن الوليد أبقى على الأبراج الرومانية والمسيحية ورفع بعضها لتصبح في مستوى واحد⁽¹⁾.

تتكون المئذنة معماريا من مدخل وقاعدة وبدن وشرفة وجوسق وسلم داخلي أو خارجي، وهو ما ينطبق على مئذنتي الجامع الكبير وجامع عين البيضاء بمعسكر، لكنهما مختلفتان من ناحية الشكل والمخطط، فمئذنة الجامع الكبير مربعة الشكل تقوم على قاعدة مربعة يعلوها بدن مكون من ثلاثة أقسام مفصولة بطنفين، فالقسم الأول بسيط يحتوي على فتحات صغيرة، ويليه القسم الثاني الذي زين في واجهاته الأربع بإطار عليه عقد مفصص أصم تتوسطه فتحات صغيرة، أما القسم الثالث فهو أكثر زخرفة إذ أنه زين بصفين مختلفين من العقود تتكرر في واجهاته الأربعة، فالصف الأول عبارة عن إطارين عليهما عقدين منكسرين متجاوزين من النوع الأصم، والصف الثاني هو عبارة عن ثلاثة عقود صماء مفصصة متوسطة الحجم، وينتهي البدن بأفاريز متدرجة، ثم تليه الشرفة وهي المكان المرتفع الذي يصل إليه الدرج، حيث نجد فيها فراغا يسمح بحركة المؤذن في الاتجاهات الأربع وتنتهي هذه المئذنة بالجوسق المثمن الأضلاع، المزود بقبيبة مضلعة عليها جامور يحمل هلال. (يُنظر الشكل رقم 09) و(تُنظر الصورتان رقم 21-37)

وفيما يخص التكوين الداخلي للمئذنة فنجد كلاهما تحتوي على مدخل مفتوح في بيت الصلاة يؤدي إلى الدرج الصاعد الذي يلتف حول نواة مركزية مربعة مفرغة أو ملئ، ينتهي عبر عدة دورات بذروة البرج الأول، وهي مزودة بفتحات تشعب المزازل للإضاءة والتهوية.

لقد اتخذ شكل المئذنة الشكل المربع أو الطراز المحلي رغم أنها بنيت خلال الفترة العثمانية، ويعود جذور هذا الطراز في بلاد المغرب إلى أول مئذنة مربعة بجامع القيروان ومنه انتشرت عبر كامل البلاد وتعدت إلى الأندلس، ومن أمثلتها نذكر مئذنة جامع صفاقس وقلعة بني حماد والمآذن الموحدية كمئذنة جامع الكتبية والمآذن الزيانية كمئذنة الجامع الكبير بتلمسان. كما استخدم هذا الطراز في كثير من المباني التي تعود إلى الفترة العثمانية ونجد

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 333، يُنظر كذلك: مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 114.

أشهرها وأكثرها رقة ورشاقة مئذنة جامع "علي بنتشين 1032هـ/1622م" وجامع "سفير 941هـ/1534م" وجامع سيدي عبد الرحمن "1108هـ/1696-1697م" والجامع الجديد "1070هـ/1660-1661م"⁽¹⁾.

أما مئذنة جامع عين البيضاء فهي تنتمي إلى الطراز الوافد من تركيا، فقد بنيت بقاعدة مربعة يعلوها بدن مئمن الأضلاع نجد في أركانه ثلاثة كريات متراكبة تشبه التقافيح من الحجر الجيري، وينتهي بدنها بذروة على شكل طنّف يبرز عن جدارها يسمح باستدارة الفارغ العلوي الذي يلتف معه المؤذن في الدعوة إلى الصلاة، وقد رُود بدرابزين حجري لحمايته من السقوط وإعطائه حرية التحرك في كل الاتجاهات، وقد اتخذ الجوسق نفس شكل البدن وهو تعلوه قبيبة مضلعة عليها جامور يحمل التقافيح الثلاثة والهلال. أما من الداخل فهي الأخرى يتم الدخول إليها عبر مدخل في بيت الصلاة، يتم الصعود على الذروة أو ممشى المؤذن عبر درج مبني من الآجر يلتف حول نواة مركزية تنتصب كتلة واحدة، وقد فتح في البدن والجوسق فتحات للإضاءة والتهوية وتخفيف الضغط العلوي، وهي واسعة من الداخل وضيقة من الخارج تظهر على شكل مستطيل. (يُنظر الشكل رقم 14) و(تُنظر الصورتان رقم 38-59)

وهذا النوع من المآذن لم يكن مألوفاً في بلاد المغرب، وإنما هو من التأثير العثماني الذي حلّ بالبلاد بعد التحاقها بالدولة العثمانية. علماً بأنه الطراز الأكثر تردداً في مصر وكثيراً من البلاد الشرقية، ولا يستبعد أن يكون هذا التأثير قدم من مصر قبل قدومه من تركيا نفسها، ونجد منه أمثلة كثيرة في الجزائر منها مئذنة جامع القصبية البراني (1233هـ/1818م) ومئذنة جامع القصبية الجواني (1234هـ/1818-1819م) ومئذنة جامع سفير بالجزائر العاصمة ومئذنة جامع الباشا في وهران (1207هـ/1792م) ومئذنة جامع الأخضر بقسنطينة⁽²⁾.

والملاحظ أن هذا النوع من المآذن الوافدة من تركيا ذات البدن المئمن أو الأسطواني لا يرقى في حجمه وفي شكله ومظهره ولا في رشاقته وتوازنه وانسجامه للمآذن العثمانية في

(1) - لمرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص 532.

(2) - نفسه، يُنظر كذلك: - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 290 - 293. وكذلك:

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 567.

تركيا، كما أن جامع بايزيد الثاني في "أدرنة" ومآذن جامع السلطان "سليمان" و "الشاه زاده" في اسطنبول. كما أن المعمار الذي قام بتخطيط جامعي معسكر احترام خصائص ومميزات كل طراز، فالطراز المحلي الذي مثله الجامع الكبير القائم فيه بيت الصلاة على البلاطات والأسايب والأعمدة والعقود وضع له المئذنة المربعة، أما الطراز الوافد المتمثل في جامع عين البيضاء القائم في بيت الصلاة على القبة المركزية والقببات فقد جعل له مئذنة مضلعة.

والمخطط المذكور لا يعني أنه احترام في كل الجوامع، إذ نجد في بعض النماذج أن المعمار الجزائري استخدم الطرازين معا في منشآته دون اعتبار للتخطيط المعماري للمسجد فالتخطيط ذي الطراز العثماني يجعل له مئذنة ذات طراز محلي مغربي، كجامع "علي بتشين" والجامع الجديد بالجزائر العاصمة، أو يبني مئذنة ذات طراز عثماني في تخطيط محلي تقليدي كمئذنة جامع "القصة البراني" بالعاصمة، أو مئذنة جامع الأخضر بقسنطينة.⁽¹⁾

2- المحراب:

جمع محاريب: صدر بيت أو قاعة أو مجلس أو مصلى، أرفع مواضعها وأكرمها ومنها سُمي محراب المسجد، ومحاريب بنو إسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلسون فيها، وفي ذلك قوله تعالى: "لَا أَلْبَسُوا" ⁽²⁾. ويرى بعض علماء اللغات السامية أن اللفظ حميري، أي من اللهجات العربية الجنوبية. وقد دخل إلى اليمن من الحبشة مع النصرانية في صورة Mikrab، وأصله الحبشي Mekurab بمعنى الكنيسة أو المعبد أو الحنية التي يوضع فيها تمثال القديس.

أما معماریا فهو عنصر من أهم العناصر الأساسية في العمارة المسجديّة، والمحاريب نوعان: مسطحة ومجوّفة. تميزت الأولى بالأضرحة، وظهرت كذلك في بعض المساجد رديفة للأساسي المجوف، وتأخذ المحاريب المسطحة غالبا شكل الحنية ولكن دهنا بالألوان أو رسما بالخزف أو حفرا في الحجر أو تنزيلا بالرخام أو نقشا على الخشب⁽³⁾.

(1) - لعرج عبد العزيز: "مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص 533 - 534.

(2) - سورة مريم: الآية 11.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 351. يُنظر كذلك: - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 67.

الأرض وترتفع فوق القامة بقليل، وتتعدد أنواعها وأهمها أربعة:
الأول: مسقطه نصف دائري تعلوه قبة أو قبو طولي قليل العمق، والثاني مسقطه مستطيل
يغور في الجدار وتعلوه نصف قبة، والثالث مسقطه كالسابق ولكن لا قبة له ويكون أكثر
اتساعاً وارتفاعاً، والرابع تطور للثالث يتداخل فيه محرابان أو أكثر.

لقد اختلفت الروايات حول زمن ظهور المحراب الأول، غير أنها أجمعت على أنه
متأخرة عن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فأول الروايات ترى أنه ظهر أيام الخليفة أبي
بكر الصديق رضي الله عنه في سنة 11هـ/632م في المسجد النبوي بالمدينة، وثانيها ترى
بأنه ظهر في سنة 13هـ/634م أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المكان
الذي أقيم فيه المسجد الأقصى، وهناك يرجع ظهوره إلى زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي
الله عنه سنة 24هـ/644م أثناء زيادته في المسجد النبوي، كما يرى آخرون أنه يعود إلى أيام
عقبة بن نافع في العمارة الأولى للمسجد الجامع في القيروان عام 50هـ/670م، وكذلك إلى
أيام ولاية عمر بن عبد العزيز لدى إكمال بناء المسجد النبوي بالمدينة سنة 90هـ/708م
هذا بالإضافة إلى روايات أخرى وكلها لا تتعدى زمن الخلافة الأموية⁽¹⁾.

تميزت محاريب المنشآت الدينية بمدينة معسكر والمتمثلة في الجوامع والزوايا
بتشابهها واتخاذها شكلاً موحداً، إذ أنها عبارة عن تجويف مضلع وبارز عن جدار القبلة،
وهذا النوع من المحاريب عُرف قبل العهد العثماني، ويظهر ذلك في محراب جامع القيروان
وجامع قرطبة بالأندلس والجامع الكبير بتلمسان، كما نجد منه نماذج عديدة بالجزائر
العثمانية كمحراب الجامع الجديد وضريح سيدي عبد الرحمن، وكذلك جامع الباي بعنابة
وجامع الباشا بوهران وجامع سيدي الكتاني بقسنطينة⁽²⁾.

والملاحظ أن محرابي الجامعين زُينا بعمودين بتاجين مختلفين في الجانبين، كما جُعِل في
الفتحة العلوية لكل المحاريب عقود مختلفة الأشكال سيأتي ذكرها لاحقاً يُنظر الشكلان
رقم 12 و 14) وتُنظر الصورتان رقم 27-46). أما زخرفة الحنية من الداخل اقتصر على
محراب جامع عين البيضاء، وهي عبارة عن زخارف جصية متنوعة وبجانبيها كتابة تأسيسية

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 352-353. يُنظر كذلك: - مؤنس حسين: المرجع السابق، ص 69.

(2) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 205. وكذلك: - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 573.

للجامع تعلوها طاقبات مضلعة تم وصفها سابقا. ولم ينفرد هذا الجامع بهذه الزخرفة، إذ نجد بعض محاريب الجوامع السابقة لهذه الفترة وخلالها قد زخرفت بها أيضا، نذكر منها على سبيل المثال محراب الجامع الكبير الحمادي وجامع سيدي الكتاني ومدرسته وزاوية بن عبد الرحمن بقسنطينة، وكذلك الجامع الجديد بالجزائر العاصمة⁽¹⁾.

وقد عُطي البروز الخارجي لمحرابي الجامع الكبير وجامع عين البيضاء بنصف قبيبية مضلعة متناسقة في شكلها مع المحراب، أما محراب زاوية أبي راس الناصري فقد عُطي بغطاء حديدي نصف دائري. (تُنظر الصور رقم 70/52/28)

3- المنافذ وعناصر التهوية والإضاءة:

3-1- المداخل وأطرها:

المدخل هو الفتحة القائمة في سور المدينة أو الحصن أو الخان أو في واجهة المسجد والقصر والبيت وغير ذلك⁽²⁾، وقد عرف هذا العنصر منذ القدم نظرا لأنه يعتبر المنفذ الرئيسي للدخول إلى المبنى وذلك بعدة أشكال، ففي مصر القديمة مثلا بني على شكل منحنى⁽³⁾، وفي المباني الإسلامية تميزت بالضخامة وارتفاع عقودها وأطرها⁽⁴⁾، كما أن المعمار المسلم حرص على أن المدخل الخارجي للمنازل لا يؤدي إلى الفناء مباشرة⁽⁵⁾ عكس ما كان في بعض العمائر القديمة، حيث كان الباب مفتوحا مباشرة نحو الداخل، لذلك جعل تخطيطه على شكل ممر منكسر، والذي عُرف في العمارة الإسلامية بالمدخل المنكسر، كما أطلقت عليه تسمية "الباشورة" في العراق.

وظهوره بهذه الطريقة راجع إلى سببين، أولها: وقاية وحماية من بداخل المنزل من الحریم من أعين المتطفلين والفضلاء والمارين الأجانب⁽⁶⁾، حيث إذا ما فتح الباب فإن الزائر

(1) - يُنظر كل من: دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 576.

- بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 206.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 218. يُنظر كذلك: - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(3) - خماش نجرة: المرجع السابق، ص 67.

(4) - نفسه: ص 357.

(5) - الباشا حسن: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، مج 1، ط 1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ/1999، ص 218.

(6) - الزركالي حسن خليل: المرجع السابق، ص 730.

يجد أمامه جداراً ومن ثم ينحرف يمينا أو يسارا حتى يدخل، وبذلك إذا فتح الباب لا يشاهد من الداخل، ولا تتكشف عورات المبنى بمختلف أنواعه سواء كانت مسكن أو حمام⁽¹⁾ وهذا ما يعطي نوعاً من الطمأنينة والاستقلالية للعائلة أو الزبائن⁽²⁾، كما أنه يحافظ على جو المبنى ونظافته من العوارض الجوية كالتيارات الهوائية المحملة بالغبار⁽³⁾، وثانيها: يرجع إلى الاستحكامات الحربية في أن دور المسلمين أشبه بالحصون والقلاع فالمدخل المنكسر يحد من قوة اندفاع أي عدو مهاجم وبذلك يحميها من الفتن والثورات التي تحصل في الداخل والخارج، فالداخل إلى الدار يستغرق وقتاً حتى يدخل إلى رحبة الدار⁽⁴⁾، وهذه التقاليد المعمارية استمرت مع التقاليد الإسلامية، والتي بدأت منذ العصور الأولى الإسلامية في منازل الفسطاط⁽⁵⁾ وفي دار الإمارة في الكوفة ودور سامراء⁽⁶⁾، ثم استمر مع العمارة المغربية في مساكن تيهرت الرستمية ومساكن مدينة أشير وقصور قلعة بني حماد وبجاية ومساكن تلمسان وندرومة، ثم مساكن مدينة الجزائر في العصر العثماني مثل منزل الداوي بابا حسن ومنزل الداوي حسين⁽⁷⁾.

ومن خلال دراستنا لمباني مدينة معسكر بمختلف أنواعها لاحظنا أن بعض مداخلها مزودة بممرات منكسرة، خاصة منها الحمامات كحمام القرشالي وحمزة وكذلك الدور كدار الباي ودار الميزابي، حيث جاءت مقاسات المداخل متفاوتة حسب كل مبنى، ففي دار الباي يظهر عبارة عن ممر يؤدي إلى رواق بانكسار واحد فقط، أما دار الميزابي فمدخلها يؤدي إلى ممر متصل بدرجين الأول يؤدي إلى الطابق الأرضي، والآخر صاعد إلى الطابق

(1) - الباشا حسن: موسوعة العمارة... المرجع السابق، ص 211، يُنظر كذلك: - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 435.

(2) - جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص 68.

(3) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 108.

(4) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 68، يُنظر كذلك: - جودي محمد حسين: المرجع السابق، ص 435.

(5) - الباشا حسن: موسوعة العمارة... المرجع السابق، ص 218، يُنظر كذلك:

- الريحاوي عبد القادر: البيت في المشرق العربي...، ص 19.

(6) - جودي محمد حسين: المرجع السابق، ص 68. يُنظر كذلك: - محمد رفعت موسى: المرجع السابق، ص 108.

(7) - راجعي زكية: مساكن الفحص بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دراسة أثرية معمارية وفنية، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، الجزائر، 2007، ص 159.

العلوي، أما الحمّات فمداخلها متصلة بممرات بانكسار واحد تؤدي إلى قاعة الانتظار (المحرس). (تُنظر الصور رقم 91-105-126-135-145-158)

وما يلاحظ على أغلب مداخل المباني المدنية في الجزائر عامة وجود مجموعة من الأطر، والتي تعتبر من العناصر المعمارية الزخرفية التي تظهر من الخارج ولعل سر ذلك هو الاستعداد لاستقبال الضيوف، وكذلك منع مياه الأمطار من الولوج إلى الداخل، وذلك ما يظهر في منشآت مدينة معسكر، فمدخل الجامع الكبير الأصلي زُيّن بإطار حجري تعلوه ظلّة خشبية عليها زخارف نباتية وهندسية ورمزية، كما ثبتت تحتها لوحة التأسيس، أما مدخل جامع عين البيضاء فهو الآخر يوجد به إطار من الحجر الجيري مزين بعقد مفصص وهلالين يعلوه إفريز مدرج.

كما نجد حمّام حمزة مزود بإطار لكنه غير مكتمل، حيث لم يبق منه إلا العقد وكذلك بصفة أقل في حمّام القرشالي بسبب تعرضه للتغيير، أما بالنسبة للدور فنجد منها دار الميزابي التي يظهر إطار مدخلها غير مكتمل، فقد زُيّن بعقد وتجميعات من المربعات الخزفية، كما نجد في دار الباي آثارا لإطار المدخل، ظهر خلال عملية الترميم.

ويتكون إطار الباب من مجموعة من الأقسام وهي كالآتي:

أ- **العتبة:** يطلق عليها اسم الأسكفة عند أهل الشام⁽¹⁾، ثم انتقلت لفظة أسكفة إلى الأتراك فيقولون أسقوفة، وهي القاعدة الأرضية التي يوطأ عليها، ويدور فيها صائر الباب⁽²⁾ والتي يرتكز عليها العمودان أو الدعامتان، لها شكل مستطيل مصنوعة من الرخام، حيث أنها تعتبر كموضع للقدم قبل الدخول، وتثبيتها في الأرض يعطي الباب مزيدا من القوة، ويمنع تسرب الماء، أو الغبار، أو الهواء، أو الحشرات، أو غير ذلك إلى داخل المبنى⁽³⁾، كما نجدها مرتبطة بعادات وتقاليد متنوعة منها ما هو متعلق بالأعراس.

ب- **الدعامتان:** وظيفتهما حمل عقد الباب، تتميزان بشكلهما المستطيل المزين بزخارف فنية قوامها زهرة محورة داخل مستطيل.

(1) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 3، ص 172. يُنظر كلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 15.

(3) - نفسه: ص 51.

ج - الفقرة: وهي حلقة تقع في وسط العقد، مزينة بزهرة يتوسطها رمز نجده في أغلب الأحيان عبارة عن هلال رمز الدولة العثمانية.

د- البنائى: وهي عبارة عن قوسان متقابلان تصل بينهما الفقرة اللذان يكونان العقد وهما مزخرفان بزخارف هندسية ونباتية قوامها أزهار محورة موضوعة داخل شكل مستطيل.

هـ- الكتف أو المنكب: ويسمى ذلك في تونس بكوشة العقد، وهي عبارة عن جزء مكمل للبنائى يشبه المثلث مزين في وسطه بهلال أو نجمة سداسية⁽¹⁾. (ينظر الشكل 45)

وتصنع هذه الأجزاء من الرخام أو الحجر الكلسي، ويتم ذلك عن طريق تقديم طلبات إلى الجهات المعنية مثل إيطاليا لتصنع القطع المطلوبة بطريقة متفق عليها⁽²⁾، وقد شاع استعمال هذه الأطر في مختلف المباني الجزائرية خلال العهد العثماني، حيث نجدها في مداخل جامع صفر والجامع الجديد⁽³⁾ وقصر عزيزة ومنزل عبد اللطيف والرايس حميدو والداي باب حسن والداي حسين بالجزائر العاصمة⁽⁴⁾، وكذلك في جامع سيدي الكتاني وقصر أحمد باي بقسنطينة⁽⁵⁾، والملاحظ أنّ معظمها صنعت بطريقة متقنة ومزينة بمختلف الزخارف.

3-2- الأبواب:

يعتبر الباب عنصرا مهما في مختلف المنشآت المعمارية، فهو ما تسد به فتحة المدخل من خشب ونحوه، أو مما يخلق عليه من مصراع أو مصراعين أو أكثر⁽⁶⁾، وهي ضرورات المسكن، لأنها تحافظ على حرمة وتمنح سكانها الأمن⁽⁷⁾، وقد تكون هذه المصاريع بسيطة متواضعة من خشب عادي ساذج بغير زخارف، أو المزخرف والذي لا شك فيه أن المسلمين كانوا قد برعوا في عمل الأبواب الخشبية، وتفنونوا في تزيين كل جزء من أجزائها، حتى صارت هذه الأبواب تحفا فنية رائعة، كانت تحمل الحشوات الصغيرة

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص ص 122 - 123.

(2) - Marçais. G: L'architecture musulmane... op.cit, p449.

(3) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 349.

(4) - راجعي زكية: المرجع السابق، ص 159.

(5) - دحدوح عبدالقادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 601.

(6) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(7) - الزركالي حسن خليل: المرجع السابق، ص 730.

المتبقية في عمل أشكال هندسية مختلفة⁽¹⁾، تجمع بعضها إلى بعض في توزيع فني رائع وهذه المباني المخصصة للدراسة تحتوي على مجموعة من الأبواب المختلفة باختلاف مرافقها، حيث أنها تميزت بالضخامة في المداخل الرئيسية والبساطة والصغر في الأقسام الداخلية، وهذا ما جعل طريقة بنائها مرتبطة بنوعية الوظيفة التي تؤدي داخل المبنى، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية وهي كالآتي:

أ- الأبواب الرئيسية:

هي عبارة عن مداخل كبيرة مزودة بأبواب تتميز بالضخامة والتركيب⁽²⁾ مؤطرة بأطر من الرخام، أو الحجر الكلسي، ونجدها في الواجهات الرئيسية للمباني كما هو الحال في هذه المنشآت المخصصة للدراسة، حيث أن الباب الرئيسي لجامع العين البيضاء يظهر كبير الحجم مازال محافظا على شكله الأصلي المتكون من مصراعين ومزين بأطر هندسية ومسامير نحاسية، وبالإضافة إلى ذلك نجد باب حمام القرشالي مازال على حالته الأصلية فهو يتكون من مصراعين مزخرفان بزخارف هندسية، أما أبواب المنشآت المتبقية فهي حديثة وتتكون من مصراعين ومنها بدون باب مثل حمام حمزة.

وعادة ما نجد هذه الأبواب تصنع من خشب الأرز المتين، والذي يدعم بمسامير من البرونز والنحاس، حيث أنها تتخذ أشكال هندسية تتمثل في الرؤوس المستديرة المحزوزة⁽³⁾ كما أنّ الأبواب في المباني العامة والرسمية والأبواب في المباني الخاصة بالحكام وعلية القوم وأبواب مساكن عامة الناس كل منها يختلف للاختلاف في الحجم والقدرة المادية، ويتم فتح هذه الأبواب نحو الداخل، كما أنها مؤطرة بإطار خشبي تكمن أهميته في تثبيت الباب ومنعه من الخروج عن إطاره نحو الخارج بواسطة مسامير كبيرة، ونجد أبواب الدور عادة تحتوي على فتحة مربعة في أعلى الباب، مؤطرة بإطار خشبي بارز مسيَّج بقضبان حديدية متقاطعة، تستعمل لإدخال النور والهواء، وتُمكن من بالداخل برؤية الطارق من الخارج وتكون مزودة بحلقة حديدية في الوسط تستعمل لطرق الباب.

(1) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(2) - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 150.

(3) - سبينسر وليم: الجزائر في عهد رياح البحر، تعريب عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر

1980، ص 98.

ب - أبواب الأقسام الداخلية:

تظهر كل هذه الأبواب متشابهة تقريبا في مظهرها وشكلها في كل مبنى، ففي دار الباي والمحكمة تعرضت كلها للتغيير أثناء عملية الترميم، لكن على نفس النمط الأصلي تتميز بالتشابه في كل من الطابق الأرضي والعلوي، وهي تتكون من مصراعين، وهي مصنوعة من حشوات خشبية بأشكال مستطيلة نفذت بطريقة عمودية وأفقية، الهدف منها إعطاء الباب أكثر قوة وصلابة وتحمّل (أنظر الصورة رقم 36). أما بالنسبة لأبواب المنشآت المتبقية فقد تعرضت للتغيير واستبدلت بأبواب حديثة دون مراعاة شكلها الأصلي.

وفيما يخص التركيب المعماري فيتكون الباب من العناصر التالية:

* الساكف:

هو عنصر يوازي العتبة بالجهة العليا من الباب⁽¹⁾، والذي يدور فيه الصائر والصائر أسفل طرف الباب الذي يدور أعلاه⁽²⁾، كما عرفها الإيطاليون كذلك فيطلقون عليها اسم «scuffa»⁽³⁾، وله مدلول في المعتقدات الجزائرية إذ يعتبر ملامسة العروسة له فالأ سيئا، ويصنع الساكف من الخشب يحفر في أحد جانبيه ثقب يدخل فيه محور الباب لتسهيل عملية دوران المصراع وتثبيته.

* المصراع:

وهو ضلفتا الباب الذي يتكون منه، وهو إما يتكون من ضلفة واحدة، أو من ضلفتين، وذلك حسب موقع الباب والوظيفة التي يؤديها في المبنى، ويتكون المصراع بدوره من إطار وعوارض تتخللها حشوات مجمعة تصغر وتكبر وتزداد زخارفها أو تنقص تبعا لإمكانية صاحبها⁽⁴⁾.

* الخوخة:

هي الفتحة الصغيرة في الباب الكبير، إذ أنها تقطع من وسط كل مصراع في الأبواب الكبيرة والعريضة، ولقد كان السبب في تصميمها هو أن بوابات المباني كانت كبيرة

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 218، يُنظر كذلك: - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 3، ص 172.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 16.

(4) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 23.

ونظرا إلى أن فتح هذه البوابات بكاملها للاستخدام اليومي، لم يكن أمرا عمليا سهلا أو ميسورا، فقد لجأ الصنّاع إلى عمل خوخة في وسطها على هيئة باب صغير للاستعمال اليومي، دون حاجة إلى فتح الباب الكبير الذي لم يكن يفتح- في حالة القلاع والحصون- إلا للجند عند خروجهم للقتال أو عودتهم منه، وفي حالة الأبنية الأخرى إلا للضرورة التي تقتضيه⁽¹⁾ وتستعمل الخوخة في الحالات العادية، حيث أن المصراعين لا يفتحان إلا للضرورة، كالمناسبات والأعراس، أو لإدخال متاع كبير إلى المبنى، كما أنها تبعث الطمأنينة والمحافظة على من في داخل البيت⁽²⁾.

* المزلاج:

يطلق عليه اسم "زلاج" أو "شجار" وكذلك اسم الضبّاب في مصر، وهو القفل الحديدي أو النحاسي أو الخشبي⁽³⁾، الذي يستخدم في غلق الباب ويفتح بدون مفتاح، وإذا كان الباب يفتح بمفتاح فإنه يسمى "مزلاق"، وعادة ما يكون في أغلب الأحيان من حديد "مبسط"، يثبت على الباب بواسطة قطع حديدية، ليستقر بعدها في فتحة حديدية أخرى في صندوق الباب أو في المصراع الثاني الثابت، ولا يفتح الباب إلا من الداخل، أو يحيط بربط بالمزلاج ويخرج من ثقب فيه، ويكفي أن يسحب من الخارج ليفتح الباب، ويسمى "سقاطة" أو "ساقوطة" أو "ضبة"⁽⁴⁾ الذي يتخذ كمقفل لغلّق الأبواب، ونجد مركزه في غالب الأحيان في وسط حافة الباب.

* **الحلقة:** هي ما تعلق على الباب ليقرّع بها، وتسمى أيضا مدق الباب أو مدقة، أو مطرقة⁽⁵⁾، كما أنها مأخوذة من الفارسية "زُرْفِين" ومعناها حلقة صغيرة تغلق في سلسلة ليدق بها على الباب⁽⁶⁾، وهي عبارة عن دائرة مفرغة تعلق بالجزء العلوي من الخارج ليقرّع بها الباب، ونجد بعضها عادية على عدة أشكال، كشكل يد متحركة تحمل كرة صغيرة يطرق بها على مسمار كبير الدائرة مثبت بالباب، وربما شابهت حدوة الفرس، وهناك حلقات تعد آية

(1) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 99.

(2) - جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص 68.

(3) - نفسه.

(4) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 376.

(5) - نفسه: ص 138.

(6) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 84.

المثال أو النموذج الأصلي الذي ظهر فيه المنزل القديم بصفة عامة⁽¹⁾، كما عرف في عمارة بلاد الرافدين في العصر السومري والأشوري، وفي عمارة مصر القديمة، كما أنه سمة من سمات المباني السكنية لحوض البحر الأبيض المتوسط منذ العصور القديمة اليونانية والرومانية، وكان يعرف بالمسقط ذي الفناء المحاط بأعمدة.

كان الفناء النواة التي تجمعت حولها عناصر المسكن اليوناني، كما وجد في الجزيرة العربية، وفي عهد الإسلام ظهر لأول مرة في منزل الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجده في المدينة المنورة سنة 622هـ⁽²⁾.

ومهما يكن عن أصول الفناء فهو في الحقيقة قلب المبنى أو جوهره وضابط الإيقاع بالنسبة للمنزل، وكذلك الرئة الخاصة بأهله، وبذلك فهو يشكل الجزء الرئيسي له، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأجزاء الأخرى⁽³⁾، وله مكانة كبيرة في أسلوب السكن والحياة المعيشية، يفاجئ الداخل إليه بإحساس الانتقال من جو البساطة إلى جو غني بكل مظاهر الجمال والبهجة، لما يراه في الفناء وعناصره⁽⁴⁾، والحجرات التي تطل عليه من جميع جهاته بألوانها وزخارفها وحليتها حول الفتحات والأبواب⁽⁵⁾، وكذلك الواجهات المحيطة به من عناية فائقة معمارياً وفنياً، فالأرض مبلطة بالحجارة أو الرخام الملون⁽⁶⁾، وهذا يوحى إلى أن الإسلام اهتم بجوهر الأمور وليس بظواهرها⁽⁷⁾، وزيادة على ذلك له وظائف ومنافع عديدة وهي:

أ- **الناحية الصحية:** يمد الفناء أقسام البيت من حجراتها وغرفها وملاحقها النور والهواء وأشعة الشمس، ويلطف من برودة الجو شتاءً وحرارته صيفاً، فهو يتحول إلى خزان كبير للهواء البارد في ليالي الصيف⁽⁸⁾، ذلك أن الهواء يهبط إلى أدنى مستوى ليلاً، ثم ما يلبث أن

(1)- Marçais. G: *Manuel d'art musulman*, T2, Paris, 1926- 1927, p804.

(2)- محمد حسين جودي: المرجع السابق، ص62، يُنظر كذلك: - عفيف بهنسي: المرجع السابق، ص191.

(3)- يُنظر كل من: - محمد حسين جودي: المرجع السابق، ص63. - رفعت موسى محمد: المرجع السابق، ص222.

- خمّاش نجدة: دراسات في الآثار الإسلامية، مطبعة رياض، دمشق 1401-1402هـ/1981-1982، ص3.

(4)- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص628.

(5)- جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص62.

(6)- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص628.

(7)- جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص62.

(8)- الريحاوي عبد القادر: قمم عالمية... المرجع السابق، ص629، يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق

ص240. - لرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص389. - Shaw : Op,cit, p 95.

يتسرب إلى الغرف فيلطف حرارتها، ويظل محصورا بين جدران الصحن حتى ساعة متأخرة من الليل كأنه خزان للترطيب⁽¹⁾، كما أنه يقلل من نسبة الغبار ويبعد منافذ البناء عن الجو الخارجي⁽²⁾.

ب - الناحية الاجتماعية:

يعتبر الفناء النافذة التي يطل منها الإنسان على الكون اللانهائي تظله على الدوام قبة السماء بشمسها ونجومها وغيومها، ويحس فيه بالحرية المطلقة والهدوء والطمأنينة، كما أنه مكان التقاء أفراد الأسرة وتعاونهم، ومقر الجلسات الصباحية والمسائية واللقاءات الاجتماعية، وهو مكان نشاط كثيف لأهل البيت للجلسات والاجتماعات وإحياء الحفلات والسهرات ومناسبات أخرى⁽³⁾، كما أنه مجال واسع تقضي فيه النساء جل ساعتهم الطويلة في النسيج والطرز⁽⁴⁾، وبذلك نستنتج أن اهتمام المعمار المسلم كان ينصب على الواجهات الداخلية للمبنى أكثر من الواجهات الخارجية، لذلك طُور الفناء إلى أن تحول إلى حديقة فيحاء تفجرت فيها المياه، بحيث أصبح الحوش فردوسا أرضيا⁽⁵⁾.

ويكون الفناء في غالب الأحيان مركزيا مكشوبا ذو شكل مربع⁽⁶⁾، وأحيانا مستطيلا تتوزع عليه عناصر الدار المختلفة، وتتوسطه نافورة أو فسقية يجري إليها الماء ليلطف جو الدار، كما يزرع حولها لإعطاء مدخل الدار منظرا جميلا⁽⁷⁾، بالإضافة إلى أنه أستعمل كخزان لجمع مياه الأمطار النازلة من على سطح المنازل عبر الأفنية المكشوفة، حيث أنها تصل إليه بواسطة قنوات من الفخار توضع في صلب الجدران وتحت الأرض⁽⁸⁾، لذا اعتنى المعمار بتبليطه ببلاطات رخامية، أو بمربعات من الآجر أو الحجر الجيري⁽⁹⁾.

(1) - عكاشة ثروت: المرجع السابق، ص 85.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 240.

(3) - Golvin. L: **palais et demeures d'Alger à la période ottomane**, paris, 1988, p48.

- يُنظر كذلك: الزركالي حسن خليل: المرجع السابق، ص 730.

(4) - Cotreau M.J: **Op.cit**, p 552.

(5) - جودي حسين محمد: المرجع السابق، ص 62.

(6) - Raymond. A: **Grand villes arabes à l'époque ottomane**, Paris 1985, p307.

(7) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 223.

(8) - Marçais. G: **L'architecture musulmane...Op.cit**, p442.

يُنظر كذلك: - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 124.

(9) - محمد موسى رفعت: المرجع السابق، ص 188.

لقد جاءت أشكال أفنية المباني المخصصة للدراسة مختلفة الأشكال، ففي المساجد لم يبق منها إلا صحن جامع عين البيضاء، الذي طرأ عليه تغيير في بلاطات أرضيته والتي كانت من الحجارة المنحوتة، غير أنه مازال يحتفظ بالحوض المائي والنافورة التي تتوسطه أما صحن الجامع الكبير فقد تم إزالته وإدماجه في بيت الصلاة وفيما يخص الزوايا فصحن كلا الزاويتين مكشوفان وتخطيطهما غير منتظم وخاليان من النافورة، غير أن صحن زاوية سيدي بوسكرين أكبر حجما من صحن زاوية أبي راس الناصري. (تنظر الصورتان 60-62)

أما عن الدور، فنفاء دار الباي يظهر شكله غير منتظم بمقاسات مختلفة، وذلك يعود إلى التعديلات التي أدخلت عليه أثناء فترة الاحتلال، وكذلك عند الترميم، ولم تبق منه إلا عنصر النافورة على حالتها الأصلية، أما فناء دار الميزابي فمازال محافظا على طابعه الأصلي العام دون أن يطرأ عليه تغيير ما عدا تغيير النافورة، وفيما يخص فناء المحكمة فإنه تعرض كذلك إلى تغيير كبير، على إثر هدم الجناح الرابع وهو ما أثر على شكله العام. (تنظر الصور 98-62-107-115-116)

ورغم التغييرات التي طرأت على هذه الأفنية إلا أنّ المعمار كان يراعي الدقة في مقاسات تشكيل أضلاعها، وكذلك في توزيع العناصر المعمارية التي تحيط بها، حيث نلاحظ تساوي الأبعاد بين الأعمدة وبنائها في اتجاه مستقيم، والتي تحمل بدورها العقود بتنظيم محكم، مما أدى ذلك إلى توافق وتراكب مسقط الطابق الأرضي مع مسقط الطابق العلوي دون اختلال، وهي ميزة تميزت بها البيوت ذات الطوابق⁽¹⁾، كما قام البناء بهذه العملية من أجل المحافظة على التوازن لأجزاء المبنى، حتى لا تختل تلك الأجزاء المعمارية⁽²⁾، لأنها نقاط اتصال بين مختلف الأجنحة وأجزائها⁽³⁾.

(1)- Golvin. L: palais...Op.cit, p48.

(2) - عقاب محمد الطيب: قصور...المرجع السابق، ص62.

(3) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية...المرجع السابق، ص389.

الدار عادة ما يكون فيها عمال سواء كانوا رجالا أو نساءً، ومن ثمة فإن حريم الدار لا يضعون ثقتهم الكاملة فيهم، خوفا من أي سرقة أو عمل آخر قد يؤدي إلى خلق المشاكل بين أفراد العائلة، وبذلك هذا يتطلب غلق الأبواب والنوافذ بعد الخروج، وبذلك تفتقد الدار للتهوية وأشعة الشمس، مما قد يتسبب في ظهور الأمراض بمختلف أنواعها ولتفادي هذا الأمر قام البناء بوضع تسييجات من الحديد على النوافذ، من أجل حماية الدار من أي اعتداء قد يحدث من جهة، و تمكينها من التهوية والإضاءة من جهة أخرى.

وهذا الانفتاح على الداخل كانت له مبررات دون شك، وذلك لتعويض الانغلاق على الخارج الذي يظهر على الجدران من خلال ضيق الفتحات عليها⁽¹⁾، بالإضافة إلى دواعي صحية لأن المثل يقول: "الدار التي تدخلها الشمس لا يدخلها الطبيب".

لقد جاءت نوافذ هذه المباني مختلفة من مبنى لآخر في أشكالها وأحجامها، ففي دار الباي، نجدها مفتوحة بكثرة نحو الخارج وموزعة بين الطابق الأرضي والعلوي ، وذلك يعود إلى أن المبنى تعرض للتغيير وحول إلى مركز إداري أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، وهي متشابهة كلها تقريبا في أشكالها ومقاساتها، وهي مسيجة بقضبان حديدية متقاطعة من الداخل والخارج، كما أن نوافذ المحكمة تظهر بنفس الشكل لتعرضها هي الأخرى للتغيير وهي مسيجة بقضبان حديدية متقاطعة كما أنها زينت بعقد إهليلجي، وهي تغلق بدفتين خشبيتين تتخللها قطع من الزجاج الملون بمختلف الألوان زادت من جمالها خاصة عند سطوع أشعة الشمس عليها. (تنظر الصورة رقم 122).

أما بالنسبة لنوافذ دار الميزابي فمازالت على حالتها الأصلية، فنجد عدد منها مفتوح على الخارج في الطابق العلوي، وهي عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يتوسطها عمود أسطواني متوج يعلوه عقدان حدويان يقسمها إلى قسمين، وضعت عليها شبكة مخرمة من الجص، الغرض منها صيانة حرمة الدار من أعين الناس في الخارج عند تطلع المرأة للخارج، وكذلك حماية الغرف من الغبار وكسر أشعة الشمس خاصة في فصل الصيف. (تنظر الصورتان 106-111)

(1) - عقاب محمد الطيب: قصور... المرجع السابق، ص 121.

وفيما يخص الحمامات فالغالب عليها أنها قليلة النوافذ بسبب المحافظة على الجو الداخلي، لكن ذلك لم يمنع من وجود بعضها في كل من حمام البركة والباي في القاعة الباردة وكذلك في غرف الطابق العلوي، والأمر ذاته في حمام حمزة التي فتحت في الطابق العلوي وهي كبيرة الحجم ومزينة بعقود حدوية. (تنظر الصورتان 156-157)

ب- الشمسيات:

هي نافذة صغيرة مؤلفة من لوح حجري أو رخامي أو جصي مفرغ بزخارف هندسية أو نباتية أو كتابية، وغالبا ما تملأ الفراغات بزجاج ملون⁽¹⁾، وأحيانا تترك فارغة، وبعضها يتكون من دفتين، أحدهما على الوجه الخارجي، والأخرى على الوجه الداخلي للحائط، وتكمن أهمية هذا العنصر المعماري في تخفيض نسبة تسرب الطاقة الحرارية إلى داخل الغرف، والحد من قوة الانبهار الضوئي الناتج عن الشمس، وذلك بواسطة التخاريم الجصية المدعمة بالزجاج الملون والمتعددة الأشكال، تعطي ضوءا مريحا للعين يضفي جوا خاصا من الراحة والهدوء، كما يمكن تحديد وظيفتها في حركة الهواء وتجديده⁽²⁾، واستعمل المسلمون ذلك لأول مرة في العصر الأموي لتخفيف شدة ضوء الشمس⁽³⁾، والملفت للانتباه هو أن الشمسيات الموجودة في العمائر المدنية الجزائرية موزعة بطريقة منظمة فوق العناصر المعمارية، عكس ما نجده في العمائر التونسية مثلا التي توضع بعدد الأفراد فقط أي واحدة فوق الباب والأخرى فوق النافذة⁽⁴⁾.

تحتوي المنشآت المخصصة للدراسة على نموذج واحد فقط من الشمسيات ويظهر ذلك في المحكمة، وقد كانت قبل عملية الترميم الثانية مغلقة وغير ظاهرة للعيان، لكن بعد تعرية الجدران ظهرت آثارها فوق باب الحجرة الثالثة في الطابق الأرضي، وتتميز هذه الشمسيات بشكلها المستطيل المتوج بعقد نصف دائري، ويتراوح ارتفاعها ما بين 0,20م و0,30م وعرضها ما بين 0,15م و0,20م، وتظهر كأنها مفرغة بمظهر بسيط من الخارج أما من الداخل فقد تعرضت التخريعات الجصية للتلف جراء التغييرات التي أحدثت على

(1) - زكي محمد حسن: *أطلس الفنون الإسلامية*، ج1، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1981 ص 497، يُنظر كذلك:

- غالب عبد الرحيم: *المرجع السابق*، ص 234.

(2) - وزيري يحيى: *المرجع السابق*، ج4، ص 68.

(3) - جودي حسين محمد: *المرجع السابق*، ص 65.

(4) - Reveault. J: *Op. cit*, p95.

المحكمة ككل، والمتعارف عليه أنها تزين بزخارف جصية هندسية تتخلله قطع من الزجاج الملون، مثلما نجده في مباني مدينة الجزائر ومليانة⁽¹⁾. (تُنظر الصورة 120)

3-5- الدعائم والحوامل:

أولاً - الدعائم والأعمدة:

أ - الدعامة:

هي عماد البيت الذي يقوم عليه⁽²⁾، وتكون كركيزة من خشب أو عمود حجري من قطعة واحدة أو مبني من عناصر بنائية مختلفة تدعم حائطا أو تحمل سقفا أو تحمل العقود الحاملة للسقوف مثل الأعمدة، وتكون أضخم من الأعمدة العادية قاعدتها مستطيلة أو مربعة وتقام الدعائم بشكل رئيسي لإسناد الجدران والسقوف وتقويتها، وتوزع لهذه الغاية في الأركان أو على بوائك أو تحت الأقواس والعقود وحيث يرى المعمار حكمة في وضعها⁽³⁾، وهناك ظاهرة يجب الإشارة إليها وهي الاستخدام المزدوج من أعمدة ودعامات في مبنى واحد، حيث أنه يعد قديما في العمارة الإسلامية، وربما جاء ذلك بسبب عدم توفر الأعمدة الرخامية وندرتها، وصعوبة الحصول عليها، وما تكلفه من جهد ومال في سبيل ذلك، مما كان يدعو المعمار إلى استعمال ما توفر منه واستكمال ما نقص ببناء الدعائم⁽⁴⁾.

لقد استعملت الدعائم بصفة قليلة في هذه المباني بالمقارنة مع الأعمدة، ونجد القسط الأكبر منها في حَمَّام القرشالي، حيث أنها استخدمت في رفع قبة القاعة الساخنة وكذلك في حَمَّام حمزة في نفس القاعة وهي كلها مدمجة مع الحائط، بالإضافة إلى ذلك استعملت في قاعة صلاة الجامع الكبير. (تُنظر الصورتان 30-139).

(1) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 273 - 274. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 132 - 133.

(2) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 108.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 189.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية...، ص 557. يُنظر كذلك: - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل في العمارة الإسلامية، دراسة نموذجية للمنشآت المدنية لمدينة مليانة في العهد العثماني"، مجلة آثار، العدد 8-2009، معهد الآثار جامعة الجزائر، دار الملكية للنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، ص 216.

ب - الأعمدة:

هي ما تحامل الثقل عليها من فوق كالسقف يُعمدُ بالأساطين المنصوبة⁽¹⁾، أو ما يدعم به السقف أو الجدار⁽²⁾، فنقول عمد السقف: أقامه بعماد ودعمه وعمد الحائط دعمه وجعل له عماداً⁽³⁾، ولقد أخذ العمود تسميات عدة، فهو عمود في المشرق، وسارية في المغرب، وشمعة في لبنان، وللأعمدة دور كبير في حمل العقود والسقوف، حيث أنها تعتبر بمثابة الركيزة الأساسية التي تحمي المبنى من الانهيار، لذلك نجد استعمالها في المباني يعود إلى الفترة القديمة، حيث خصصت لها مراكز خاصة لصناعتها، وقد تطورت مع مرور الزمن والعصور اللاحقة، واستخدمت منها أنواعاً مختلفة، منها الأعمدة المربعة والمستديرة والمركبة وغيرها في العمارة المصرية القديمة، وكذلك اشتهرت بها العمارة الإغريقية حيث ابتكر العمود الدوري والأيووني والعمود الكورنثي الذي انتقل من العمارة الرومانية إلى العمارة البيزنطية، ثم أضاف الرومان إلى هذه الأعمدة المشار إليها نوعين آخرين، أولهما العمود التوسكاني الذي كان اشتقاقاً مبسطاً من العمود الدوري، وثانيها العمود المركب⁽⁴⁾.

أما في العصر الإسلامي فقد بدأ المسلمون باستخدام جذوع النخيل لحمل سقوف مساجدهم الأولى، مثلما حدث في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة، وفي مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط وغيرهما⁽⁵⁾، ثم أخذوا بعد ذلك في استخدام ما وجدوه من أعمدة الأبنية القديمة خاصة منها المهجورة، في البلاد التي فتحوها، ولاسيما الأبنية الإغريقية والرومانية والبيزنطية والقبطية⁽⁶⁾، فانتقوا بأعمدتها وتيجانها وقواعدها فيما شيدوه من عمائر⁽⁷⁾.

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، مج4، ص295.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص34.

(3) - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص194.

(4) - وزير يحيى: المرجع السابق، ج2، ص49، يُنظر كذلك:- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص293.

- رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص194.

(5) - نفسه: ص203.

(6) - نفسه: ص194، يُنظر كذلك:- غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص34.

(7) - حسن محمد زكي: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1401هـ/1981م ص152. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، صص211-212.

ولكن ما لبثوا أن استنفذوا ما وجدوه من الأعمدة في هذه العمائر القديمة واعتمد البناء على عموده الخاص به، بعد أن أتقنت الصناعة ونضج الفن واستقل، واستعملوا طرازهم الفني الجديد فابتكروا أول هذه الأشكال أعمدة أسطوانية البدن ذات تيجان قوسية أو رمانية نرى أمثلة منها في أطلال "قصر المعتصم" المعروف "بالجوسق الخاقاني"⁽¹⁾، وبعدها تنوعت أشكال الأعمدة الإسلامية ما بين الشكل الدائري والمثلث والمستطيل⁽²⁾، واستعملت لعدة أغراض منها ما ألصقت بالجدران للتدعيم حيناً وللزخرفة في أغلب الأحيان الأخرى خاصة عند استعمالها على جانبي الأبواب والمداخل⁽³⁾.

لم تكن الأعمدة الإسلامية كثيرة الارتفاع، ولم تتجاوز المترين إلا قليلاً، وكان يعوض عن هذا القصر برفع العقود فوقها، ثم يعلوا بعضها بعضاً أحياناً للحصول على العلو المطلوب للسقوف، ومن الناحية المعمارية للعمود يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية وهي: التاج وتعلوه القرمة وتعلوه هذه الحدارة، التي يستريح عليها كتف العقد ويرتكز التاج على البدن وهذا يتكئ على قاعدة دائرية تحملها حليات، قد تخرج عن دائرة أسفل العمود، وعادة تحمل الدائرية وله أساس تحت مستوى بلاط الأرض تسمى وسادة⁽⁴⁾.

تحتوي مباني الجزائر العثمانية على نوعين من الأعمدة هي الأعمدة المصنوعة من الرخام، والأعمدة المصنوعة من الحجر الجيري أو الكلسي، فالنوع الأول مستورد من إيطاليا بحيث لم يكن للأتراك مثل هذا الإنتاج المتقن الصنع⁽⁵⁾.

أستعمل في هذه المباني المخصصة للدراسة أربعة أنواع من الأعمدة، وذلك حسب كل مبنى، منها ما هي مشتركة ومنها خاصة بكل مبنى، كما أنها تشترك في مادة الصنع بحيث أن كلها مصنوعة من الحجر الجيري، وسنذكر مميزاتها وخصائص كل نوع فيما يأتي:

(1) - كونل أرنست: المرجع السابق، ص 34، يُنظر كذلك: - رزق محمد عاصم: المرجع السابق، ص 207.

(2) - حسن محمد زكي: المرجع السابق، ص 153.

(3) - وزير يحيى: المرجع السابق، ج 2، ص 49.

(4) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 193. يُنظر كذلك: - عقاب محمد: المرجع السابق، ص 130.

(5) - Marçais. G: L'architecture musulmane...op.cit, p443.

يُنظر كذلك: قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 213.

في العمارة الأندلسية أو الطولونية أو المملوكية أو العثمانية، وبدأ التغيير في الشكل وفي الزخرفة وحتى في المادة، فمنذ القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد⁽¹⁾ اتخذ العمود في العمارة الإسلامية تاجا خاصا إسلامي الانتماء، وراح يتطور ويتلون ويتنوع ضمن الخط العربي الجميل بأنواعه المختلفة، ولقد أعطى فن العمارة الإسلامية للتيجان أشكالاً وزخارف متنوعة حيث ابتكر الصانع المسلم أنواعاً عديدة من التيجان⁽²⁾، اختلفت باختلاف المادة المصنوعة منها، أو البلد المقامة فيه، أو العهد الراعي لرفعها تلك الرعاية، وذلك الاهتمام وأصالة الحضارة أضافت إلى الفن الإنساني بشكل عام روائع جديدة تختلف اختلافاً بيناً عن كل ما سبق، وإن بقي التاج البيزنطي مثلاً على صلات مع جذوره الأولى، فالتيجان الإسلامية المتأخرة، وحتى الكثير من المتقدم منها يعد ابتكاراً جديداً وإبداعاً إنسانياً وعطاءً حضارياً رائعاً⁽³⁾.

لقد توجت أعمدة مباني مدينة معسكر العثمانية المتبقية بثلاثة أنواع من التيجان المنحوتة من الحجر الجيري، والتي تميزت بالبساطة وعدم التكلف في معظمها، فقد استعمل النوع الأول من هذه التيجان بكثرة في دار الباي والمحكمة، رغم أنها فقدت الكثير من عناصرها الزخرفية ولم يبق منها إلا القليل، الذي مازال محافظاً على حالته الأصلية، وهذا بسبب عمليات الترميم غير السليمة، كما أن مادة الصنع غير صلبة تأثرت بالعوامل الطبيعية. وهي عبارة عن تاج قديم شكله ناقوسي يبلغ طوله 20سم، وبه أربعة فصوص محورة وبارزة، تستدير في نهايتها لتشكل ما يشبه القرون، وقد شغل الأوساط بمثلث بسيط في شكل برعم نباتي، كما يظهر هلال صغير كرمز للخلافة العثمانية، ومن خلاله يتبين مدى اهتمام الصانع بهذه القطعة المعمارية التي جسد عليها مظهر من مظاهر الفن وهذا النوع ميزة من مميزات العمارة الجزائرية، حيث أطلق عليه "جورج مارسي" اسم "التاج الجزائري"⁽⁴⁾

(1) - كونل أرنست: المرجع السابق، ص 25.

(2) - جودي محمد حسين: المرجع السابق، ص 70. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 217.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 96-97.

(4) - Dokali, R: *Les mosquées de la période turque à Alger*, S. N. E. D, Alger 1974, p43.

لم يظهر حيث تكثر الغابات والصخور⁽¹⁾، إذ أنه انتقل بعد ذلك إلى الحضارة الرومانية والبيزنطية⁽²⁾.

لقد تبنت العمارة الإسلامية العقود لفتحاتها ولمآرب أخرى، ولاسيما في الأماكن العامة والقصور، ولكنها لم تتوقف أمام العقد الكامل (نصف دائري)، إلا قليلا وطغى على الأبنية الدينية والمدنية العقد المنكسر في المشرق والعقد الحدوي في المغرب، كما ابتكر المسلمون أنواعا عديدة منها⁽³⁾، وكان كل إقليم من أقاليمها يفضل بعض العقود عن البعض الآخر⁽⁴⁾.

أما بالنسبة للوظيفة التي تقوم بها العقود بمختلف أشكالها وأوضاعها وأحجامها في المباني هي نقل الأحمال المؤثرة عليها إلى الحوائط أو الأعمدة والدعامات الحاملة لها⁽⁵⁾ كما أنها من الوسائل الهامة والأساسية في حفظ توازن المبنى، وتخفيف الضغط العلوي والثقل وتوزيعه بما يقوي المبنى ويزيد في مداه الزمني، غير أن تحقيق هذه الغاية يرجع بالدرجة الأولى إلى المواد المستعملة في بنائها وطريقة البناء نفسها، وكلما كانت المواد المستخدمة ثقيلة كلما كان الدفع العلوي أشد، وهو ما يقال بالنسبة للحجارة، أما الآجر والجص والخشب فهي المواد الأكثر خفة والأسهل استخدامًا، والأجمل مظهرًا بما يدخل عليها من أساليب النقش والزخرفة⁽⁶⁾، ويبني العقد عادة إما برفع الفقرات على صقالة خشبية تنزع بعد وضع المفتاح⁽⁷⁾، وتتنوع طريقة تنظيم الآجر في مداмик بناء العقود، ولكنها تعتمد جميعها على قالب خشبي يحدد خطوطه التحديدية القائمة أو المقوسة وتنقسم إلى جزئين تفصلهما قطعة مستعرضة، تمتد بين نقطتي منبت العقد على الجانبين، وإذا كان العقد منكسرا أو مدببا تزداد لوحة أخرى في منتصفه.

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص276.

(2) - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص219.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص279، يُنظر كذلك:

- Violet. D: Dictionnaires d'architecture, article « arc », Bruxelles, Belgique, 1979, p24.

(4) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص150.

(5) - سامي محمد نوار: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000، ص126.

(6) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص667.

(7) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص190.

أما تنظيم الصفوف نفسها فتبدأ من أسفل إلى أعلى بطريقة منتظمة، ثم بطريقة مائلة عندما تصل إلى مستوى بداية التقويس، لتتحول إلى الميل التدريجي والاستمرار في ذلك، حتى تصل إلى مفتاح العقد فيتترك فراغا مثلثا قاعدته مقوسة إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل في منتصف التقويسة، ويحدده تنظيم قطعتي آجر أو أكثر بطريقة شاقولية، وتتنظم على جانبيها في ذلك الفراغ بقية قطع الآجر بطريقة شبه شاقولية⁽¹⁾.

أما شكل العقد فيأتي من فتحة بطنه، وليس من واجهته المقابلة للنظر، لأنه عندما لا يوازي الخط المقوس للفتحة قد لا يتماشى مداميك الجدار، ويشكل معها سطحاً واحداً، أو يبرز عنها أو يغور فيها⁽²⁾. ويتكون العقد من الناحية المعمارية من:

1- **الجنزير:** وهو عبارة عن مجموعة الكتل المتركب منها العقد، وتسمى الكتلة الواحدة منها صفحة.

2- **مفتاح العقد:** وهي الصفحة العليا التي تتوسط الصنج إذا كانت مساوية لباقي صنج العقد شكلاً وحجماً.

3- **تاج العقد:** وهو الصنجة المتوسطة في العقد بشرط أن تكون بارزة لأعلى.

4- **خصر العقد:** وهي الصنجة الأولى من العقد عند بدء انحنائه.

5- **رجل العقد:** وهو الجزء الذي يركز عليه الخصر.

6- **التفخيخ:** وهو المستوي السفلي لمنحنى العقد.

7- **التتويج أو التجريد:** وهو المستوى العلوي لمنحنى العقد⁽³⁾.

8- **كوشة العقد:** هي المساحة المثلثة التي تتحصر بين قوس العقد وبين المربع المحيط من أعلاه، وبذلك يكون لكل عقد محاط بإطار مربع كوشتان مثلثتان على الجانبين، كانتا في غالب الأحيان تنقشان بالعديد من العناصر الزخرفية⁽⁴⁾. (يُنظر الشكل 45)

(1) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ص 667. يُنظر كذلك: قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 220.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 276، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 190.

(3) - سامي محمد نوار: المرجع السابق، ص 126 - 127.

(4) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 329. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 143.

ج- العقد المنكسر:

يتألف هذا العقد معماريا من قوسين يتقاطعان في رأسه، يقع مركز دائرتيهما في داخل العقد وعلى مستوى قاعدته، والملاحظ على هذه العقود أنها تختلف في كل مبنى وذلك في نسبة الانكسار ويعود ذلك إلى المكان الذي بني فيه العقد والوظيفة التي يؤديها، فنجد العقود الواقعة في الحنايا الركنية في الأروقة ذات انكسار حاد في كل مبني، مثلما نجده في المحكمة وعقود بعض نوافذ جامع عين البيضاء، أما العقد المنكسر المتجاوز فنجد استخدامه في عقود الأروقة ومثال ذلك أروقة طابقي دار الباي، وكذلك في بعض عقود أروقة المحكمة وفي محراب وقاعة التدريس زاوية سيدي بوسكرين ومدخل ضريحه. (يُنظر الشكل رقم 21) و(تُنظر الصور رقم 92-95-72).

(*) - قبة الصخرة: شيدها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة (72هـ/691م)، لحماية الصخرة التي عرج منها الرسول صلى الله عليه وسلم، لمزيد من المعلومات يُنظر: - نجرة خماش: المرجع السابق، ص 21.
- الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 203.

(**) - سامراء: اسمها الأصلي "سر من رأى"، وهي تقع إلى الشمال من بغداد على بعد 130 كلم تقريبا على الضفة اليمنى من نهر الدجلة، شيدها الخليفة المعتصم بالله سنة 221هـ / 736م ونقل إليها مقر الحكم من بغداد، لمزيد من المعلومات يُنظر: - سامح كمال الدين: العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، ص 84.
- خماش نجرة: المرجع السابق، ص 21.

(1) - Bouruiba. R: *Apport de l'Algérie à l'architecture religieuse arabo- islamique*, S.N.E.D ET O.P.U, Alger, 1986, p129.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 195.

أما عن جذوره التاريخية فيرجعه أكثر الدارسين إلى العمارة البيزنطية، على أساس أنه وجد في كنيسة "قصر ابن وردان" قرب حمص في سورية (560-564م)⁽¹⁾، كما أن هناك من يرجعه إلى الفترة الفارسية مدعين رأيهم بالعقد المنكسر الموجود في جدار الواجهة الخلفية لطاق كسرى (271-272م)⁽²⁾، ومنه من يرجعه إلى العمارة المصرية القديمة على أساس أن منه قبو في معبد الرمسوم بمدينة "طيبة"، يرجع تاريخه إلى عصر رمسيس الثاني (1292-1225 ق.م)، ومهما يكن من أصل هذه النماذج السابقة على الإسلام، فإن هذا العقد لم يزدهر إلا في العمارة الإسلامية دون غيرها، وقد وجدت أقدم أمثله في دمشق ولاسيما في المسجد الأموي على عهد الوليد بن عبد الملك (714/هـ96م).

ولم يكتف المعمار المسلم فيما يتعلق بهذا العقد المنكسر الذي يتكون من قوسين وإنما ابتكر منه ووصله بخطوط مستقيمة عند رجليه ورفعته على الأعمدة، حتى استطاع بذلك أن يحصل على العقد المنكسر المتجاوز، مثلما حدث في مسجد صغير في دامغان جنوب بحر قزوين يرجع تاريخه إلى القرن (3/هـ9م)، ثم في مصر في العصر الفاطمي، ثم عرف في المغرب⁽³⁾، وخاصة في العمارة الجزائرية خلال العهود الطويلة من المرابطين إلى العثمانيين⁽⁴⁾.

د - العقد الإهليجي:

يعتبر هذا العقد من مميزات العمارة الجزائرية خلال العهد العثماني، حيث أطلق عليه عدة تسميات منها اسم العقد نصف إهليجي⁽⁵⁾، أو ما يسميه "جورج مارسى" بالعقد ذي مقبض القفة⁽⁶⁾، والذي اقترح بتسميته "العقد الجزائري"، حيث أنه عقد متجاوز مبتور نتج من تراكب عقد مزدوج⁽⁷⁾، ولقد اختلف الباحثون في أصوله المعمارية، ولكنه لم يعرف إلا في الجزائر التي انفردت به عن غيرها من البلدان الإسلامية، بل حتى عن المغرب الأقصى

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص279، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص202.

(2) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص159.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص279، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص202.

(4) - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص224.

(5) - Bouruiba. R: *Apport de l'Algérie...op.cit*, p137.

(6) - Marçais. G: *L'architecture musulmane...op.cit*, p450.

(7) - Cotreau. J: *Op.cit*, p574.

وتونس والأندلس الذي لم يصل إلى عمائرهم⁽¹⁾. ويذكر الأستاذ جورج مارسي أنه يوجد في مباني شبه جزيرة البلقان المشيدة في القرن السابع عشر الميلادي⁽²⁾، ومهما كان الأمر فانه عقد جزائري ذو أصول تركية⁽³⁾. اقتصر استعمال هذا النوع من العقود على المحكمة فقط دون سواها من المباني الأخرى، حيث أنه استخدم في الخزائن الجدارية والنوافذ. (تُنظر الصورة رقم 122)

هـ- العقد المفصص:

فصص الشيء فصل بعضه عن بعض، أما تعريفه معماريا فهو العقد الذي يتألف من سلسلة عقود صغيرة وأقواس متتالية أو أنصاف دوائر صغيرة متتالية⁽⁴⁾، يسمى كل منها فصاً تلتف على بطن العقد وتتفخ مع فتحته، وهو عبارة عن عقد دائري ذي مركز واحد ينتهي رجلاه نهاية مستقيمة، وتنتهي أقواسه نصف دائرية. وقد عرف هذا النوع في العمارة الساسانية في طاق كسرى الذي ينسب إلى شابور الأول (272-274م)، ثم انتقل إلى العمارة الإسلامية المبكرة خلال القرنين (2-3هـ/8-9م)، ومن أمثله في الواجهة الخارجية لبوابة بغداد بمدينة الرقة (155هـ-772م)، كما وجدت له أمثلة أخرى في شبابيك الضلع الجنوبي لجامع سامراء الكبير (234-236هـ/848-850م)⁽⁵⁾، ويكون بثلاثة فصوص كما عرفته العمارة الشامية، وظهر لأول مرة في قصر الحير الغربي (169هـ/727م)⁽⁶⁾.

كما كان نصيب هذا العقد من التطور في عمارة المغرب والأندلس هائلا، فعدد المعمارين في هذه العمائر من أشكاله، وزادوا هذه الأشكال روعة وجمالا⁽⁷⁾، فقد عرفت العقد المفصص الذي يبدأ عدد فصوصه من الخمسة ليصل إلى الواحد والعشرين، حيث أصبح من مميزاتا بشكل خاص منذ عهد الحكم المستنصر بالله في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) في مباني كل من طليطلة وغرناطة⁽⁸⁾، كما عرف في

(1) - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص140.

(2) - Marçais. G: *L'architecture musulmane...op.cit*, p450.

(3) - Cotreau. J: *Op.cit*, p574.

(4) - بهنسي عفيف: فنون...المرجع السابق، ص151.

(5) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص200.

(6) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص336.

(7) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص200.

(8) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص209.

جامع عمرو بن العاص (212هـ/827م)، وفي منبر جامع القيروان (221هـ/836م)، وفي جامع أحمد ابن طولون (266هـ/879م)، وغير ذلك من الأماكن⁽¹⁾.

لكن المستوى التقني المميز الذي يظهر بوضوح على شكل فصوص، وانتشاره الواسع في المغرب تجاوز كل أبعاد الاستعمال المشرقي لها، حيث كان الإقبال على استعماله عظيماً⁽²⁾، لاسيما في تلك التعديلات والزيادات التي قام بها "الحاكم المستنصر بالله" في مسجد قرطبة (350هـ/961م)⁽³⁾، وكذلك في الجامع الكبير بتلمسان وفي محراب الجامع الكبير بقسنطينة (530هـ/1136م)، ثم استخدم في الفترة العثمانية ويظهر ذلك في كل من محراب الجامع الأخضر ومدرسة سيدي الكتاني وزاوية بن عبد الرحمن⁽⁴⁾، وكثرة استعماله جعلت المباني الأندلسية والمغربية تنفرد بها عن باقي العمائر الإسلامية في المشرق.

أما عن استعماله في مباني مدينة معسكر فاقصر على إطار المدخل الرئيسي لجامع العين البيضاء فقط، فالعقد يتكون من ثمانية عشر فصاً، وقد أنجز بطريقة متموجة متقنة ومنظمة ومرتبطة في نسق واحد. (يُنظر الشكل رقم 12)

و- العقد الأصم:

هو العقد المبهم أو الكاذب، أي الغائر غير النافذ⁽⁵⁾، وتكون حوافه بارزة عن سمت الحائط، وغالبا ما يكون نصف دائري الشكل⁽⁶⁾، فهو يأخذ شكل مدخل أو باب أو نافذة وظهور العقود الصماء على المساحات الواسعة يحقق من الرتابة ويُجَمِّل البناء، ويردد خطوط النوافذ وزخارف الأبواب ويحافظ على الوحدة ويجمع بانسجام العناصر المعمارية المختلفة، وربما استعمل العقد المبهم الغائر كمشكاة أو خزانة أو رف لتأدية خدمات وظيفية

(1) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص 337.

(2) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص 151.

(3) - قرمان عبد القادر: "الدعائم والحوامل..." المرجع السابق، ص 226.

(4) - لعرج عبدالعزيز: المباني المرينية...، ج 1، المرجع السابق، ص 253. يُنظر كذلك:

- دحدوح عبدالقادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 626.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 285.

(6) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 191.

بما أن الخزائن الجدارية اشتهرت بها المباني العثمانية فهذا يعني حتما أن مباني مدينة معسكر لا تخلو منها، وقد وجدنا منها نماذج مختلفة الأشكال وبظهر ذلك في الجامع الكبير، حيث أن المعمار جمع بينها وبين النافذة في مكان واحد، وكذلك في دار الباي في الحجرة الخامسة وهي مزينة بعقد نصف دائري، والغرفة الثانية بالطابق الأول وهي مستطيلة الشكل، بالإضافة إلى خزانة أخرى مزينة بعقد نصف دائري في الغرفة الرابعة، وتحتوي المحكمة أيضا على نماذج منها وذلك في الحجرة الأولى والثانية في الطابق الأرضي، كما أنّ الحمامات لم تخلو منها إذ يحتوي حمام حمزة على ثلاثة خزائن في القاعة الأولى من الطابق العلوي (المرفد).

ب - السلالم:

إن المعنى اللغوي للسلم يتمثل في الدرجة أو المرقاة، وسُمي السلم سلماً لأنه يسلمك إلى حيث تريد، وسمي بهذا الاسم لأنه يؤدي إلى غيره⁽¹⁾، وهو مجموعة من الدرجات بين أدوار المبنى⁽²⁾، أي أنه الدرج الذي يصعد عليه، ودرجة السلم إذا كان لها جزء بارز عن موضع القدم في الصعود يسمى أنف الدرجة، وموضع وضع القدم يسمى نائمة، وارتفاع الدرج يسمى قائمة⁽³⁾، كما يطلق عليه تسمية مراهص⁽⁴⁾.

تعتبر السلالم ضرورة حتمية في المنشآت المعمارية، لذلك نجد معظم المباني المخصصة للدراسة تحتوي على هذا العنصر الهام، باعتبارها تتكون من طابقين وهو ما يستدعي وجودها، حيث اختلف عددها في كل مبنى. فنجد منها ما هي رئيسية وأخرى فرعية، كما أن طريقة بنائها مختلفة منها المبنية على شكل انكسارين، تستند فيه الدرجات على جدارين. وهذه الطريقة في البناء نجدها في المنشآت المدنية، ففي دار الباي التي كانت تحتوي على سلمين، يقع الأول في الركن الجنوبي الغربي حيث أنه مازال محافظا على بعض مميزاته الأصلية، والسلم الثاني كان موقعه في الحجرة الثانية، وقد أزيل خلال عملية

(1) - ابن منظور: المصدر السابق، مج15، ص191.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص150.

(3) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص97.

(4) - نفسه: ص163.

في العمائر الرومانية باستثناء المسارح والمدرجات، وكانت السلالم ضيقة نوعا ما، تستعمل ذات المنحدرات المستقيمة وأخرى لولبية⁽¹⁾، وهي تبني عموما بشكل الانكسار أو الانعطاف مصنوعة من مادة الحجر أو الخشب⁽²⁾، وتبَلَطُ بالأواح من الرخام أو ببلاطات خزفية مزينة بأنواع الزخارف الفنية، وذلك لقطع ودرء الملل الذي قد يحس به الصاعد⁽³⁾. (يُنظر الشكل رقم 46).

اعتاد المعمار المسلم أن يجعل السلالم الداخلية في أماكن خاصة بها عرفت ببيير السلم، وكانت هذه السلالم عبارة عن مجموعة من القلبات (الدرجات)، تختلف أعدادها تبعا لاختلاف الارتفاع المطلوب الصعود إليه، وتنتهي كل منها ببسطة، وكانت القلبة الأولى تستند إلى الأرض مباشرة من ناحية، وعلى الحائط المقابل لها من ناحية أخرى، بينما تستند القلبة الثانية على القلبة الأولى وهكذا، كذلك كانت هذه الحوائط الخارجية لهذه السلالم دور في تماسك الدرجات، أما طريقة عملها فكانت تتم غالبا من خلال عقد حجري تُصب عليه طبقة خرسانية، يشكل سطحها العلوي على هيئة درجات حجرية نائمة وأخرى قائمة، إلا أن تركيب السلم بهذه الطريقة خارجا عن الحوائط كان يؤدي كثيرا إلى عدم بقائه لفترة طويلة، كما أن انهيار درجة منه يؤدي بالضرورة إلى انهيار باقي الدرجات لارتكاز كل درجة فيه على التي قبلها، وكانت تدعم هذه السلالم بذراعين خشبيين يساعد على الصعود⁽⁴⁾. (يُنظر الشكلان رقم 47-48).

ج - الدرايزين:

لفظ فارسي لكلمة لاتينية « Balustrade » وهي كلمة دخيلة أصلها فارسي وتعريبها "جلفق"، ويطلق عليها اسم دربوز في الجزائر، وهو عبارة عن قائم يعلوها متكأ⁽⁵⁾، أو هو كل ما تم بناؤه من حديد أو خشب أو غيرها من المواد في جوانب السلالم أو حواف

(1) - Cotreau. M.J: *la maison mauresque...op.cit*, p584.

(2) - كيال منير: المرجع السابق، ص 152.

(3) - حماد محمد: *السلالم في المباني*، ط3، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، 1997، ص 60.

يُنظر كذلك: - مرزوق محمد عبد العزيز: *الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس*، دار الثقافة بيروت لبنان، ص 72.

(4) - حماد محمد: *المرجع السابق*، ص 24، يُنظر كذلك: - نوار سامي محمد: *المرجع السابق*، ص 150.

(5) - غالب عبد الرحيم: *المرجع السابق*، ص 184. يُنظر كذلك:

- Cotreau. M.J: *la maison mauresque...op.cit*, p584.

الأروقة في الطوابق العليا، المشرفة على الصحن أو السطح كشرفة هوائية تقي جسم الإنسان من السقوط، ولقد اتخذه اليونان في أبنيتهم من الحجر وغيرها ماعدا الخشب، فكان ثقل على الطابق السفلي⁽¹⁾، فاستبدل بالخشب وصنع منه بدقة غير متناهية تطل على الأفنية الداخلية للبيوت، وذلك لما تمتاز به من خفة والسهولة في زخرفتها بأشكال مخزومة من العناصر النباتية والهندسية وغيرها.

ومن خلال وقوفنا على درابزينات منشآت مدينة معسكر وجدناها موجودة فقط في المنشآت المدنية، وكلها تعرضت للتغيير دون معرفة أسباب ذلك، ففي دار الباي لا نجدها تماما بسبب إدماج أروقة الطابق العلوي مع الغرف فسدت بالبناء وكذلك بألواح خشبية فتحت في وسطها نوافذ، ونفس الأمر بالنسبة للمحكمة والتي استبدلت درابزيناتها ببناء جدار على ارتفاع المتر لوضع غطاء زجاجي فوق الفناء لمنع دخول مياه الأمطار، وبأقي المنشآت المتمثلة في دار الميزابي وحمّام حمزة فقد صنعت الدرابزينات من مادة الحديد، والمتعارف عليه أن مميزات درابزينات المنشآت العثمانية أنها تتألف من ثلاث طبقات أفقية، تتمثل في المسند الناتئ في الجزء العلوي والنعل في القاعدة، وفي الوسط شريط من إطارين أفقيين وعموديين، والذي يحدد مساحة مربعة وأخرى مستطيلة، وبهذا شكل أطرا مفرغة، في حين تتصل الطبقات الثلاثة المذكورة بقضبان معزولة⁽²⁾.

3-7- عناصر التسقيف:

تعدد التسقيف في عمارة المباني الإسلامية، حيث أنه تتنوع تبعا لشكلها ومادتها البنائية المتاحة من خشب وحجر أو آجر أو قصب وحسب البيئة ومؤثراتها وخاصة الأمطار⁽³⁾، وقد سُقفت هذه المباني بثلاثة أنواع وهي: التسقيف بالأقباء والتسقيف بواسطة القباب والتسقيف الخشبي، وهذا تفصيل لخصائص ومميزات كل نوع:

(1)- Cotreau. M.J: la maison mauresque...op.cit, p584.

(2)- قرمان عبد القادر: "المنشآت المدنية..." المرجع السابق، ص159.

(3)- نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص96. يُنظر كذلك: - وزير ي يحيى: المرجع السابق، ج4، ص33.

أ- التسقيف بالأقبية:

القبو: هو طاق معقود بعضه إلى بعض⁽¹⁾، أو سلسلة من عقود طولية متتالية، وهو ذو أشكال مختلفة تم استخدامه في تغطية كثير من الأجزاء البنائية في العمارة الدينية والمدنية والعسكرية، ولاسيما في الإيوانان والأروقة والحجرات والممرات والمداخل نحو ذلك، مما شاع استخدام هذه الأقباء فيه بسبب عدم تعرض سطوحها المنحنية لأشعة الشمس خلال ساعات النهار خلافا لما يحدث بالنسبة للسطح الأفقي، وبالتالي يقلل الضغط الحراري على الفراغات الداخلية فيها⁽²⁾. قام المعمار بتطوير هذا العنصر المعماري وابتكر منه نوعين هما الأقبية المتقاطعة والأقبية النصف أسطوانية.

أ-1- الأقبية المتقاطعة: استعمل هذا النوع في تسقيف الفراغات الركنية لبيت صلاة جامع العين البيضاء، وكذلك في حمّام دار الباي، وتكمن أهمية هذا النوع في تحمله لثقل المبنى، بتوزيعه على جوانب الجدران، ومنه حماية البناء من التصدع⁽³⁾، وهي نفس العملية التي يقوم بها العقد ومن ذلك فإن العقد ما هو في واقع الأمر إلاّ قبو دفعٍ موضعي⁽⁴⁾. (تُنظر الصورة 104)

أ-2- الأقبية النصف أسطوانية: نجد هذا النوع الأكثر استعمالا في هذه المباني إذ سقفت به معظم حجرات دار الباي في الطابق الأرضي (من الحجرة الأولى إلى الخامسة)، وكذلك غطيت به القاعة الدافئة ومخزن الفحم بحمّام البركة، بالإضافة إلى استخدامها في تسقيف قاعة الانتظار "المحرس" في حمّام القرشالي وهي عبارة عن أقبية طولية، وأيضا القاعة الباردة والدافئة ورواقين في القاعة الساخنة. (تُنظر الصور 100-134-143)

عُرف التسقيف بالقبو نصف الأسطواني أو ما يسمى بالأقبية الطولية منذ عصور موغلة في القدم، فقد وجد منها مثال في "الرمسيوم" في مدينة طيبة الفرعونية وينسب إلى عصر رمسيس الثاني أي ما بين سنتي (1292 و 1225 ق.م)، ثم انتقل إلى الفارسيين

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص310.

(2) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص232. يُنظر كذلك:

- قرمان عبد القادر: "المنشآت المدنية..." المرجع السابق، ص160.

(3) - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص81.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني الميرية... المرجع السابق، ج2، ص599.

وهي تعتبر من العناصر المعمارية التي عرفت منذ القدم، وذلك في العراق وفارس بسبب عدم تواجد الأحجار الكبيرة من جهة وضرورة ارتفاع السقوف لتخفيف وطأة الجو الحار فيها من جهة أخرى، ثم انتقلت فكرتها إلى الطراز الروماني الذي عرفها بعد أن ورث الرومان الإمبراطورية الإغريقية في الشرق ثم البيزنطيين⁽¹⁾، ويغلب على الظن أن المسلمين كانوا قد نقلوا بناء القباب عن الساسانيين والبيزنطيين والأقباط⁽²⁾، وأقبلوا على استخدامها بشكل خاص لتغطية ما شيده من مباني، وكانت القباب التي عرفت في العمارة الإسلامية ذات أنواع وأشكال مختلفة تم ذكرها سابقاً⁽³⁾، ولعل أبعدها تلك الموجودة في مصر وسوريا. أما في المغرب فقد كانت القباب معظمها نصف كروية تقريباً، ولم تكن فيها زخارف خارجية إلا نادراً.

تؤدي القبة دوراً هاماً في المباني لما لها من وظائف متنوعة، إذ نجد استعمالها بكثرة في التسقيف، وذلك لأنها أكثر تماسكاً من السقوف المستوية، ولها أهمية دينية، حيث تضافي على البناء قدسية وتعطيه نوعاً من الشموخ والعظمة، فالتقعر الحاصل في سقف القبة من الداخل يقود الإنسان إلى تأمل قلما يجده في الأبنية المسطحة، أو القائمة على سلسلة من الأعمدة، ووجود الفراغ في القبة أدى هو الآخر إلى تخفيف الثقل، كما أنها تقلل من الضغط الحراري على الفراغات الداخلية، وبالتالي التقليل من سطوع الشمس على السطح صيفاً وشتاءً⁽⁴⁾، وإعطاء الغرفة أكثر اتساعاً من الداخل، كما أن شكلها النصف كروي يجعل مياه الأمطار تنزل بطريقة انسيابية تحمي السقف من تأثيراتها، وكذلك الرغبة في الحصول على عدد من التكوينات المعمارية بقصد قطع الملل عن الناظرين، وشد أنظارهم إلى ما هو متعدد الجوانب، ومختلف التكوينات المعمارية⁽⁵⁾. ونظراً لأهميتها المعمارية والجمالية لاحظنا من خلال دراسة مباني مدينة معسكر العثمانية كثرة استعمال هذا العنصر المعماري.

(1) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص 166.

(2) - بهنسي عفيف: فنون... المرجع السابق، ص 227.

(3) - عاصم محمد رزق: المرجع السابق، ص ص 223 - 224.

(4) - الجمعة أحمد قاسم: "العناصر المعمارية والفنية المميزة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى"، مجلة نصف سنوية لجامعة

حلب، الندوة العالمية الأولى للأثار الفلسطينية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1402هـ/1982م، ص 47.

(5) - عقاب محمد الطيب: المرجع السابق، ص 186.

كانت هناك طريقتان لبناء القباب بالطوب، حيث يتم في أولاهما وضع الطوب المربع في صفوف أفقية على جوانب مركز القبة صفاً فوق آخر حتى تتلاقى في قمته وكان يتم في جوانبها وضع الطوب المربع رأساً بدلاً من وضعه أفقياً لكي يتكون القبو أو القبة من سلسلة من الحلقات أو الشرائح ذات وصلات تشع من المركز، توضع كل طوبة فيها مقابل الطوبة السابقة عليها، ويتم لصقها بمونة طفلية غروية لدرجة تكفي لأن تبقى في مكانها حتى تكتمل الحلقة وتقل ومقابلة ومطابقة للحلقة التالية قد تم عمله، ولكي تنقص المسافة في عملية الوصول إلى مركز القبة كان ضرورياً وضع ثلاثة أو أربعة مداميك من الطوب المشار إليه بشكل أفقي في البروز، يعلق كل مدامك منها فوق المدامك القائم تحته⁽¹⁾. كما نجدها مزودة بفتحات مغلقة بالزجاج للإضاءة، كما عمد المعمار إلى إحداث نوع من الانحناء البسيط عليها نحو الخارج، بغية منع تسرب مياه الأمطار والثلوج داخل القبة⁽²⁾. وتتنوع القباب حسب طريقة بنائها فمنها المبنية بنمط الرقبة والأخرى بدون رقبة فالنمط الأول نجد منه نموذج واحد وهو القبة المركزية بجامع العين البيضاء، واتخذت هذه الرقبة الشكل المضلع المثلثن يتطابق تماماً مع شكل القبة، كما فتحت فيها نوافذ صغيرة معقودة بعقد حدوي عليها زجاج، ومن الداخل فهي تظهر بسيطة بدون زخرفة، عكس ما نجده في بعض الجوامع التي تميزت بجمال زخرفتها الجصية كقبة محراب جامع سوق الغزل وقباب جامع سيدي الكتاني⁽³⁾. أما النمط الثاني وهو الشائع في مباني المدينة وتميزت به باقي القباب، حيث نجد بدن القبة يرتكز مباشرة على القاعدة بعد انتهاء الحنايا الركنية وتحول المربع إلى المثلثن، وهي ظاهرة ليست مقتصرة على قباب هذه المباني فقط، وإنما نجد هذا النمط أيضاً في جامع الباشا بوههران والجامع الجديد بالجزائر العاصمة والجامع الأخضر وزاوية سيدي عبد المؤمن بمدينة قسنطينة⁽⁴⁾.

أما فيما يخص شكل القبة فقد أحصينا نوعين نحن بصدد ذكرهما:

(1) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 222.

(2) - الجمعة أحمد قاسم: المرجع السابق، ص 47- 48.

(3) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 637.

(4) - بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص 263، يُنظر كذلك:

- دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 637.

وجود مرحلة انتقالية بين المربع والمثلث بل وضع هذا الأخير مباشرة على المربع، بينما زينت المثلثات الناتجة عن ذلك بأربع نجوم مئمنة، كما استخدم في باقي قباب هذا الجامع وكذلك في قبة ضريحي أبي راس الناصري وسيدي بوسكرين وحمّام البركة، كما نجده له عدة نماذج في مدينة قسنطينة زاويتي بن عبد الرحمن وسيدي عبد المؤمن وحمّام سوق الغزل⁽¹⁾ وكذلك في قبة القاعة الساخنة بحمّام دار الباي بمدينة مليانة⁽²⁾.

ج- التسقيف الخشبي:

لقد كان استعمل هذا النوع من التسقيف قليلا، حيث أنه اقتصر على بيت الصلاة في الجامع الكبير والذي وضع على شكل جمالوني وغطي من الخارج بالقرميد لحمايته من مياه الأمطار والثلوج وأشعة الشمس التي تؤثر في هذه المادة، لكن مواد التسقيف المستعملة حاليا حديثة وضعت بنفس الطريقة الأصلية. كما نجده أيضا في سقف الحجرة السادسة لدار الباي ومكان وجود الحمّام، بالإضافة إلى سقف الحجرة الأولى والثانية في المحكمة، والملاحظ أن الألواح الخشبية المستعملة في هذين المبنىين مغيرة حديثا، حيث تم ذلك أثناء عملية الترميم الأولى، أما العوارض فإنها أصلية وهي عبارة عن أعمدة طبيعية مهذبة موضوعة بطريقة عرضية. وقد تمت عملية بنائه بطريقة التقاطع، وذلك بتركيب ألواح خشبية وضعت بطريقة أفقية طولية، بحيث ربطت هذه الأجزاء الخشبية بواسطة غراء يصنع محليا⁽³⁾، تحملها عوارض خشبية عرضية تثبتت في جوانب الجدران. (تنظر الصور 36-101-121)

أما عن نوعية الخشب المستعملة في التسقيف فهو من خشب العرعار الذي يتميز بالصلابة وقوة التحمل والبقاء لمدة زمنية طويلة دون أن يتلف.

عُرف التسقيف الخشبي خلال العصور القديمة خاصة عند الإغريق والرومان، حيث يتوفر الخشب بكثرة في إيطاليا والأقطار الشرقية، والجدير بالذكر أن ظاهرة تغطية المباني بالأخشاب نادرة الشيوخ في العمارة العربية المبكرة في العصر الإسلامي حيث أول ما أستعمل في تسقيف المباني الإسلامية هو جريد النخيل، ثم بعد ذلك عمل سقفه من

(1) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص 634.

(2) - قرمان عبد القادر: "المنشآت المدنية..." المرجع السابق، ص 98.

(3) - خلاصي علي: قصبة الجزائر وقصر الداوي، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه السلك الثالث، جامعة الجزائر، 1985م

الساج⁽¹⁾، كما أستخدم في تغطية قبة الصخرة في المناطق المحصورة بين المثلث الخارجي والمثلث الأوسط فيها، ثم بين المثلث الأخير والدائرة الوسطى التي تحيط بالصخرة، كما أستخدم في تغطية الأروقة والمداخل في المسجد الأموي بدمشق وفي عدة مساجد في العصر الأموي⁽²⁾، ووجد منه مثال آخر في مسجد البصرة الذي غطي بسقف من خشب الساج عند توسيعه من قبل زياد بن أبيه في عهد معاوية بن أبي سفيان⁽³⁾ حسب قول البلاذري "...ثم لما استعمل معاوية بن أبي سفيان زيادا على البصرة زاد في المسجد زيادة كثيرة وبناه بالآجر والجص وسقّفه بالساج"⁽⁴⁾.

د - سقف البسط:

يسمى أيضا السقف المسطح الخالي من العناصر المعمارية ونجد استعماله هو الغالب على هذه المباني، فما تبقى من الأقسام الداخلية للمباني المذكورة سواء كانت دينية أو مدنية غطيت به. ويتكون في غالب الأحيان من مستويين يعلوا أحدهما الآخر، يكون العلوي منهما هو السقف ذو الصفة البنائية الذي يتكون من كتل خشبية ضخمة تتحمل ضغط البناء، أما السفلي فهو عبارة عن عوارض تعلق بالأواح خشبية رقيقة تعمل عليها أحيانا مواضع زخرفية، ويكون من ثمة السقف ذو الصفة الزخرفية⁽⁵⁾، ويترك أحيانا أخرى بسيطا.

(1) - ماهر سعاد: الفنون الإسلامية، ط2، هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، 2002، ص45.

(2) - الشافعي فريد: المرجع السابق، ص199.

(3) - الجمعة أحمد قاسم: المرجع السابق، ص50 - 51.

(4) - البلاذري أبي الحسن: فتوح البلدان، عوني بمراجعتة والتعليق عليه رضوان محمد رضوان مكتبة السعادة، مصر 1959، ص342.

(5) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص142.

الفصل الثالث: مواد البناء وتقنياتها:

1- مواد البناء:

أ- **الحجارة:** تعتبر من المواد الأكثر استعمالاً في البناء، وهي على أنواع كثيرة استغل بعضها للبناء كالبازلتية والجيري والكذّان (نوع من الحجر وسط الطوب والآجر) والحلان (الحجر الجيري الأسمر). كما يختلف اسم الحجر باختلاف مادته، فطريقة قطعه تعطيه أسماء أخرى فهو غشيم ودبش إذا كان غير معالج، وهو منقوش أو منحوت أو منجد حسب مهارة صنعه⁽¹⁾. وقد سار المسلمون على نهج من سبقوهم في الحضارات القديمة من حيث استعمال هذه المادة وذلك في بناء الجدران حيث تيسّر لهم، وأقاموا به الأسوار والدعائم على اختلاف أنواعها. كما استعمل لتبليط الأرض ورفع العقود والقباب ومدّ مجاري المياه الداخلية والسواقي وتعمير قواعد الجدران الترابية وتثبيت أصول الدعائم الخشبية، وقد جعل دبشا مع الطين في أساسات الأسوار. ولعل أهل الشام كانوا من أبرع من أتقن التعامل مع هذه المادة المعمارية المهمة⁽²⁾. ولم يقتصر استعمال الحجارة على الأعمال البنائية فقط بل استخدم مخزماً للنوافذ والزخارف، وكتبت عليه التواريخ والأسماء، وندرته في بعض البلاد لم تمنع إطلاقاً من أن تقام به فيها الأبنية الفخمة والقصور والمساجد.

استعملت الحجارة بكثرة في بناء منشآت مدينة معسكر بمختلف أنواعها، وهذا لعدة اعتبارات منها كثرة هذه المادة في المنطقة وسهولة الحصول عليها، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك هي دار الباي والمحكمة وحمّام حمزة، وقد تسنى لنا معرفة استعمالاتها من خلال مشاهدتنا وتتبعنا لأطوار عمليات الترميم الشاملة لهم، فقد استعملت الحجارة الجيرية الكلسية غير المشذبة بكثرة في أساس الجدران وفي رفعها، وكذلك في صنع بعض العناصر المعماري كالأعمدة والتيجان، كما وجدنا استعمالاً محدوداً للحجارة المنحوتة ويظهر ذلك عند مدخل السلم المؤدي إلى الطابق العلوي للمحكمة، كما استخدمت في تبليط صحن جامع عين البيضاء والتي أزيلت في الفترة المعاصرة.

ب- **الرخام:** هو نوع من الحجارة أبيض أو ملّون أو مجزّع، ناعم وهش⁽³⁾، يتشكل من الحجر الكلسي الصلب، ويتكون من بلورات الكلسيت أو الدولوميت، التي تنشأ من عمليات التحول الطبيعية الشديدة تحت ضغوط كبيرة في طبقات الأرض السفلية، ويختلف لونه تبعاً لاختلاف

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص126.

(2) - نفسه: ص126، يُنظر كذلك:

- Adam. J. P: Op.cit, p23.

(3) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص199.

ما يتخلله من الشوائب، التي تضيف إليه كثيرا من الجمال عند صقل سطحه إذ يصبح ناعما، لكن في غالب الأحيان يكون ناصع البياض، وبذلك فهو يتكون من نوعين: البسيط الذي يتخذ لونا موحدا، وذو الأوعية الذي تختلف فيه الألوان وتكثر فيه الخطوط غير المنتظمة⁽¹⁾.

ويتميز الرخام بدقة جزيئاته وصلابته، حيث أنه مقاوم للضغط الكبير الناتج عن الثقل والذي يقدر بحوالي 300 كلغ/سم²، كما أنه مقاوم أيضا للظواهر الطبيعية مثل الأمطار والتلوج والحرارة، الأمر الذي جعل منه مادة من المواد الأساسية التي تستعمل في المباني المعمارية بعدة أشكال مختلفة، منها كأطر للأبواب وفي الأعمدة والتيجان وفي تغطية الجدران وكنافورة للماء⁽²⁾، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون: "...وربما عولي على الحيطان بقطع الرخام ..."، وكذلك في قوله " ...بعد أن توضع قصاع^(*) الرخام القوراء المحكمة الخراط بالفوهات في وسطها لنبع الماء الجاري إلى الصهريج..."⁽³⁾.

أما عن طريقة استخدامه في البناء، فقد كانت تتم التغطية الرخامية عن طريق صقل الألواح وتجهيزها لكي تلتصق على الجدران والأرضيات، وذلك وفق أسلوبين، الأول يطلق عليه اسم "الوزرات الرخامية" التي تُعمل وتزين بطرق مختلفة مثل الحفر والتلبيس، وإن كانت غالبا ما تعتمد على ألوانها فقط، وذلك بثنيتها متجاورة، إما في أوضاع أفقية أو رأسية، والثاني يطلق عليه اسم "الرخام الخردة"، ويتم عن طريق تجميع قطع صغيرة منتظمة من الرخام وفقا للتكوينات الزخرفية المراد إحداثها، ثم تلتصق بعد ذلك في أماكنها⁽⁴⁾.

لقد استعملت هذه المادة بصفة قليلة في مباني مدينة معسكر، واقتصرت ذلك على حمام القرشالي في مقعدين بالقاعة الساخنة، وسبب ذلك يعود إلى غلائها لكونها كانت تستورد في أغلب الحالات من البلدان الخارجية كإيطاليا، الأمر الذي دفعهم إلى تعويضها بالحجر الجيري، وقلّة مراكز صناعتها بالجزائر رغم توفر المادة الخام.

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية... المرجع السابق، ص 169.

(2) - Docali. R: Op,cit, p59.

(*) - القصاع يقصد بها النافورات.

(3) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر... المصدر السابق، مج 1، ص 435.

(4) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 102.

لقد عُرف الرخام في الحضارات القديمة خاصة منها الإغريقية والرومانية والبيزنطية ثم عرفت العمارة الإسلامية حتى في الأبنية الأولى. فقد استعمله بن الزبير لأزر الكعبة وأرضها، ومنه كانت أعمدة مسجد بني أمية في دمشق ومنبره وكسوات محاريبه وعضائده كما أستعمل في بلاد المغرب والأندلس ويظهر ذلك في محراب جامع القيروان الذي جدده زيادة الله بن الأغلب، وكذلك سقف قصر الزهراء قرب قرطبة⁽¹⁾. كما صنعت منه الأعمدة والتيجان وأطر الأبواب والمنابر والأحواض المائية والسلسبيلات والنوافير في الجزائر العثمانية، كما هو موجود في جوامع الجزائر العاصمة كالجامع الجديد وجامع صفر وكذلك بجامع سيدي الكتاني بقسنطينة وجامع الباشا بوهران⁽²⁾.

ج- الأجر:

هو طين مطبوخ، واحده أجْرَه، أصله من لفظ فارسي معرب⁽³⁾، وهو من أهم المواد التي استعملت في البناء، ومازالت في كل البلاد الإسلامية وخاصة في الأماكن التي يُعزَّر فيها الحجر كإيران، والأبنية المشيَّدة به قليلة المقاومة إذا ما قيست بتلك التي تعمر بالحجارة ويعتبر الأجر من المواد القديمة التي صنعها الإنسان واستعملها في عملية البناء، وهو عبارة عن مادة طينية معالجة يحكم عجنها وتجفيفها، ثم تعرض الطين للحرق في الأفران حتى تتصلب، ويصبح أجر أحمر، وكلما زادت فترة تعرض الطين للنار زادت صلابته⁽⁴⁾، وبذلك تصبح مهيأة للاستعمال.

وتتطلب صناعة الأجر طينة ذات صفاء لكي تسهل عملية القولية التي تتم بواسطة قالب خشبي بدون قاع وتكون مقاساته مختلفة، ولكنه يخضع لقاعدة عامة بحيث يكون طول الأجر يساوي ضعف عرضه، وعرضه يساوي ضعف سمكه، وبعدها يجفف ويدخل إلى الفرن مع قطع أخرى من الزليج والقرميد في غرفة الحرق تحت درجة حرارة تتراوح ما بين 800° و 1200°، وهي حرارة كافية لتحليل مركباتها الكيميائية وتلاحمها حيث تتحول إلى

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص199، يُنظر كذلك: - نوبصر حسني محمد: المرجع السابق، ص118.

(2) - لرج عبد العزيز: مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص335، يُنظر كذلك:

- بن بلة خيرة: المرجع السابق، ص350.

(3) - ابن منظور: المصدر السابق، مج1، ص24.

(4) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص11.

والأعمدة كالتالي في مسجد بن طولون في مصر، والقصور العباسية كالجوسق الخاقاني الذي بناه المعتصم، والأضرحة كمدفن إسماعيل بن أحمد الساماني في بخارى، والدعائم في جامع الحاكم بالقاهرة (990/380م). كما استعمل في مختلف منشآت بلاد المغرب والأندلس منها المرابطية كجامع ندرومة⁽¹⁾ والجامع الكبير بتلمسان والجزائر العاصمة وكذلك مئذنة الجيرالدا بالأندلس⁽²⁾.

وإضافة إلى الآجر كانت تصنع من المادة الطينية مواد بناء أخرى نذكرها على النحو الآتي:

- القرميد:

هو آجر مشوي يصنع من طينة متجانسة وذات جزيئات دقيقة تظلي بالطلاء حتى لا تكون مسامية، وذلك لأنه معرض للأمطار على الدوام، كما أنه يشكل بواسطة قوالب معقدة تصنع من الجص أو الخشب أو الحديد بأشكال متعددة ومختلفة، ولكنه غالبا ما يكون على شكل نصف أسطواني مخروطي الشكل، يوضع عند البناء بالتناوب العكسي أي مقعر ثم محدب، ويكون محيطه السفلي أكبر من نصف محيطه العلوي حتى يمكن تركيبه بطريقة منتظمة وثابتة، ويتم تثبيته بواسطة الملاط. أما من حيث استعماله فهو يوضع على شكل كورنيشات في حواف السقوف وكذلك للسقوف المائلة التي تكون بنسبة متوسطة وذلك لتفادي انزلاقها، ونجدها في غالب الأحيان ملونة بالأحمر أو الأخضر. وقد شاع استخدامه في بلاد الشام والمغرب والأندلس، ولاسيما في قصر الحير الغربي وقصر الحمراء بغرناطة⁽³⁾. (يُنظر الشكل رقم 49 والصورة 36).

وفيما يخص استعمالاته في منشآت مدينة معسكر فنجد أنه استعمل في تغطية سقوفها ويظهر ذلك في سقف الجامع الكبير والمحكمة ودار الباي والذي وُضع على شكل جمالوني

(1) - فيسة محمد رابح: المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004 - 2005، ص 62.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 28، يُنظر كذلك: - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 11.

(3) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 4، ص 24. يُنظر كذلك: - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 28.

- رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 12.

والمدينة التي أنشأت خلال الفترة العثمانية على عدد كبير من البلاطات الخزفية التي استخدمت في تبليط الأرضيات في مختلف الأماكن، وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع منها النوع المصنوع في تركيا، والنوع المصنوع في تونس، والنوع المصنوع في أوروبا⁽¹⁾، وهو ما نجده في مباني مدينة معسكر، ولكن للأسف لم يتبق منها إلا نماذج قليلة في الجامع الكبير، أما المنشآت الأخرى فقد أزيلت واستبدلت بأخرى حديثة. (تُنظر الأشكال 56/55/54) و(الصورتان 34-165)

ج- الملاط :

هو مزيج من جير ورمل، وبصيغة أخرى هو الطين الذي يجعل بين سافتي البناء ويملط به الحائط، كما يستعمل لتطين الحجارة أو طلي الجدران، وقد ينقش فيه ويعالج كالجبص⁽²⁾، وهذه الطينة تستخرج من تحت الأرض، وتطوع في الماء⁽³⁾، ويتكون عموما من مواد طبيعية تتمثل في حبيبات الرمل والطين والماء والتي تعد بطرق مختلفة، ويخلط الكل بنسب متفاوتة بإضافة الجير كمادة لاحمة. وبعد خلطه نحصل على المونة التي توضع بين المداميك لتماسكها، ولإستخدامها في رفع الجدران المبنية من الدبش، وهو أيضا ما يطلى به الحائط بعد تمام بناءه، ويوضع لتقوية الحائط وحمايته من الأمطار، وتهيئته للزينة والزخرفة⁽⁴⁾.

لقد ذكر ابن خلدون هذه المادة في مقدمته في قوله "...فمنها البناء بالحجارة أو الآجر يقام بها الجدران ملصقا ببعضها إلى بعض بالطين والكلس الذي يعقد معها فيلتحم كأنها جسم واحد..."⁽⁵⁾.

ومن خلال هذا القول يتبين أن للملاط دور كبير في ربط وتماسك مواد البناء فيما بينها، كما يمثل هذا الأخير المادة الأكثر ضعفا في البناء، إذ يجب أن يكون مكدسا وكثيفا

(1) - لرج عبد العزيز: الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط1، 1990 ص19.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج9، ص681.

(3) - لرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج2، ص657.

(4) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص176.

(5) - عبد الرحمن ابن خلدون: العبر... المصدر السابق، مج1، ص726.

وذا سمك منتظم حتى يكون الثقل موزعا بين أجزاءه بالتساوي، كما يجب وضع مواد البناء بشكل متداخل منتظم لتفادي تشققها وفقدان تماسكها، وتكمن أهميته فيما يأتي:

- التحامه الجيد مع مواد البناء وسرعته في التصلب.
- مقاومته للضغط الناتج عن الثقل، وكذلك للتأثيرات المناخية.
- تسوية المساحات غير المنتظمة أثناء البناء.
- حماية البناء من الرطوبة لأنه غير مسامي⁽¹⁾.

ونظرا لهذه المميزات التي تتوفر في الملاط، لاحظنا أنه استعمل كمادة أساسية في بناء منشآت مدينة معسكر، وقد وقفنا على ذلك في كل من دار الباي والمحكمة خلال عملية الترميم التي أجريت عليهما، حيث أنه استخدم كمادة لاحمة في بناء الجدران والعقود.

د - الجص :

هو لفظ أعجمي معرب للفظة "كج"، والتي تعني الشيء الجامد⁽²⁾، يسمى أيضا القصة والجبس، وهو يتحصل عليه من الصخور الرسوبية التي تتكون من كبريتات الكالسيوم المائية، يطحن ويسخن إلى درجة حرارة مختلفة من 150° إلى 170°⁽³⁾، تجعل بعضه عاديا صالحا للبناء، والبعض الآخر أرقى سريع التصلب يستخدم في الزخرفة القالبية⁽⁴⁾.

يتطلب الجص كمية كبيرة من الماء ودرجة عالية للحرق، وذلك ليكون أكثر صلابة كما أنه لا تتجز به الأعمال المعرضة للرطوبة لأنه لا يتحمل التأثيرات المناخية، وهو يعتبر من أحسن المواد عازلا للحرارة والصوت، لذا أستخدم في تغطية الجدران والتسقيف والتنميق والتزيين الزخرفي سواء كانت مقولبة أو مخزمة داخل المباني⁽⁵⁾، وفي هذا الصدد يقول بن خلدون: "ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين، كما يصنع من فوق الحيطان

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية... المرجع السابق، ص 167.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج 1، ص 463.

(3) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 64، يُنظر كذلك:

- Adam. J.P: Op.cit, p69.

- نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 34.

(4) - لرح عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج 2، ص 641.

(5) - نفسه: ص 641.

الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء، ثم يرجع جسدا وفيه يقويه البلل، فيشكل على التناسب تخريما بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق وراء." (1). استعمل الجص في هذه كل المباني المخصصة للدراسة، وذلك في تكسية الجدران والسقوف والقباب، حيث تعد قبة محراب جامع عين البيضاء كنموذج رائع يعبر عن مدى قيمة هذه المادة في البناء والزخرفة. (تنظر الصور رقم 47-48-49-50)

لقد عرفت هذه المادة استخداما واسعا منذ الفترات القديمة، مثل الحضارة المصرية والرومانية والفارسية وغيرها، وبعدها استعملت في كل الأبنية تقريبا، منذ العصر الأموي كقصر الحير الغربي، كمادة للبناء أو للزخرفة أو لتكسية حجارة الجدران أو آجرها، جميعها أو في بعض أقسامها، مصقولة أو مقولبة أو مخزّمة ولاسيما في سامراء في القرن الثالث للهجرة (9م)، ومن ثم مع الطولونيين في مصر وبعدها في شمال إفريقيا، وبانتقال صناعة الجص إلى المغرب والأندلس بلغ أرقى درجات الإبداع والفن. ومن نماذجه الجميلة تلك التي تزيّن بركة قصر الزهراء قرب قرطبة، والزخارف الداخلية في جامع القرويين في فاس والمسجد الجامع بتلمسان ومقرنصات العقود في واجهات قصر الحمراء وأعمدته وعقوده (2).

هـ- الخشب:

هو من المواد الأولية التي استعملت جذوعا وأغصانا، ثم خشبًا في البناء عموما والعمارة بشكل خاص، وتعتبر هذه المادة ذات أهمية كبيرة منذ القدم، فهي أساسية من حيث أنها متعددة الاستعمالات، لذلك استخدمت بكثرة في العمارة والفنون الإسلامية (3)، فمن جهة البناء نجدها كمادة تستعمل في عدة عناصر معمارية، كأن تكون عنصرا حاملا، أو نجدها في صناعة عدة أدوات تستعمل في البناء من جهة أخرى، فبهذه المادة يتم تشكيل القوالب أو الصقالة وغيرها من الأدوات، كأساسات الجدران ومداميكها فمنها كانت دعائم ودهاليز المناجم والسدود وآلات المعاصر ومعدّات الحصار، وأعمدة السقوف والسقوف نفسها

(1) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر... المصدر السابق، مج 1، ص 412.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 120.

(3) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 99.

بجسورها وروافدها وألواحها، فهو يمثل الهيكل الرئيسي الذي تركز عليه التغطية، سواءً في حالة وجود القرميد أو في حالة بناء سطح فوق المبنى⁽¹⁾. (تُنظر الصورة رقم 101)

كما أنها تعد مادة أساسية في عمل المنتجات الخشبية، حيث نجده في الأبواب وأغلقها والنوافذ والركائز والسقوف والخزائن والدرابزين⁽²⁾، بالإضافة إلى استخدامها في عمل الظلّات وبناء السلالم⁽³⁾، وهذا التعدد في الاستعمال دليل قاطع على أنها ذو أهمية بالغة في المباني، وفيها يقول العلامة ابن خلدون مبينا ذلك: "... ومن صنائع البناء عمل السقف بأن تمد الخشب المحكمة النجارة أو السانجة على حائطي البيت ومن فوقها الألواح كذلك موصلة بالداياتر..."⁽⁴⁾، ويقول أيضا: "... وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والأغلق لأبوابهم..."⁽⁵⁾.

يعتبر الخشب من المواد العضوية المقاومة للضغط، وتكون هذه المقاومة حسب نوعية الخشب المستعمل في تلك المجالات المذكورة سابقا، ومن هذه الأنواع نذكر خشب العرعار والأرز والصنوبر، كما أنه يعد كعازل جيد للحرارة. وللخشب عدة عيوب إذا قطع في فصل غير مناسب، وكدس في أماكن تكثر فيها الرطوبة، حيث ينتج عن ذلك فقدان الصلابة والتآكل والتسوس مع مرور الزمن⁽⁶⁾.

استعمل الخشب كمادة رئيسية في مباني مدينة معسكر، فمنه شكل سقف بعض المباني كسقف الجامع الكبير وبعض حجرات وغرف دار الباي والمحكمة، كما صنعت منه الأبواب والنوافذ في كل المباني والظلة التي تتقدم المدخل الرئيسي للجامع الكبير، واستخدم أيضا في بناء السلالم كسلم المحكمة وسلم حمام القرشالي، كما استخدم في صنع الخزائن

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص120. يُنظر كذلك: Adam: J .P: Op.cit, pp91.93.

- عمر الأمين: مواد البناء وتقنياته بالمغرب الأوسط خلال القرنين (4-6هـ/10-12م) للفترتين الزيرية والحمادية (أشير، قلعة بني حماد، بجاية)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص128.

(2) - Marçais. G: L'architecture musulmane... Op.cit, p450.

(3) - حماد محمد: المرجع السابق، ص 70.

(4) - ابن خلدون عبد الرحمن: العبر...المصدر السابق، مج1، ص434.

(5) - نفسه: ص436.

(6) - لمزيد من المعلومات عن أنواع الخشب وتلفها وطرق حمايتها من ذلك يُنظر:

- Karsenty. G : La fabrication du bâtiment, le gros-œuvre, T1, édition Eyrolles, Paris 1997 pp424,426.

والأثاث. ويلاحظ أن نوع الخشب المستعمل اقتصر على خشب العرعار والصنوبر لاشتهار المنطقة بهما، ونجد منها ما استعمل كما هو في الأصل دون نجارته كعوارض للحمل ومنها ما هو متقن الصنع حوّل كألواح للتغطية والزخرفة.

لقد نالت هذه المادة اهتماما كبيرا عند المسلمين، فرغم قلة الشجر في أغلب البلاد الإسلامية إلا أن ذلك لم يمنع من الحصول عليه، كما كان على النجارين تدبير أمرهم بالكميات المقننة التي تصل إليهم، وبالقياسات التي بين أيديهم وإلاّ يبدّروا ويسرفوا، وعليهم أن يستغلوا قطع تلك المادة الثمينة مهما صغرت فكانت نجارة إسلامية أهم ميزاتها ابتكار الحشوات وقطع الخرط.

وكانت أنواع الخشب تختلف باختلاف مواطنه وأشهرها الصنوبر في كل المناطق الجبلية، ومنه صنعت أبواب قبة الصخرة في عهد الخليفة العباسي المقتدر، وكذلك سقوف قصر الزهراء بالأندلس⁽¹⁾، ومختلف العناصر المعمارية في جوامع ومساجد والمباني المدنية في بلاد المغرب على مر العصور. وقد كانت الجزائر تحتوي على مراكز لصناعته اقتصرت معظمها على المدن الرئيسية كمدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان⁽²⁾.

و - المعادن:

تعتبر المعادن كمادة أساسية في البناء، وهي تشمل عدة أنواع منها النحاس والحديد والبرونز والرصاص وغيرها، ولكون مدينة معسكر غنية بمناجم النحاس والرصاص والحديد ساعد ذلك على إقامة دور للصناعة فيها وبضواحيها كقلعة بني راشد⁽³⁾.

1 - النحاس:

معادن أصفر أو أحمر يأخذ اللون الأول إذا خالطته معادن أخرى والثاني إذا كان صافيا، وقد سماه العرب بالصفير، أو الشبه لأنه يشبه الذهب. وقد استعمله المسلمون في مجالات كثيرة فصنعوا منه الثريات والمسارج والمباخر والأباريق والأوعية⁽⁴⁾، وبعض الأدوات

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص ص 174 - 175.

(2) - طيان شريفة: الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، دراسة أثرية فنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ج1، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007 - 2008، ص ص 122 - 138.

(3) - Peyssonnel. L, et Des fontaines: Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger, T2, Paris, 1838, p183.

(4) - لمزيد من المعلومات عن الصناعات النحاسية يُنظر: طيان شريفة: المرجع السابق، ص ص 122 - 138.

العلمية كالأسطرلاب والكرة السماوية، وغلفوا برقائقه المخزّمة الأبواب أو بعض حشواتها ومن أشهر المدن في تصنيعه كانت مدينة المرية ومدينة فاس⁽¹⁾.

نجد استعمالات هذه المادة المعدنية في منشآت مدينة معسكر قليلة رغم توفرها، ولا نعلم إذا كانت تحتوي على مصنوعات كثيرة منها أم لا، لكن ما وقفنا عليه اقتصر على النحاسة في كل من حمّام البركة والقرشالي، وأيضا حنفيات الماء وجامور وكريات وهلال مؤذنة جامع عين البيضاء.

2- الحديد:

يعتبر الحديد المادة أكثر شيوعا واستعمالا مقارنة بالمعادن الأخرى، خاصة في مجال البناء، وذلك لصلابته ومقاومته لكل الظروف القاسية، وهو يضم مجموعة من الأنواع، فمنها ما يتميز بعدم النقاوة وهو سهل التكسر، وأنواع أخرى نقية يسهل تشكيلها بالطرق⁽²⁾.

وبما أن مدينة معسكر غنية بهذه المادة المعدنية، فقد سهّل ذلك من الحصول عليها واستخدامها في كل المجالات، حيث صنعت منها شبابيك نوافذ الحجرات ومزالج الأبواب ومسامير طويلة تدعم الأبواب و تربط الباب بإطاره الخشبي وكذلك كأوتار لربط الأعمدة والعقود لتدعيمها وتثبيتها مثلما هو موجود في القاعة الباردة من حمّام القرشالي. (تُنظر الصورة رقم 137)

2- طريقة البناء وتقنياتها:

أ- طريقة البناء:

يعتبر اختيار الموقع المخصص للبناء أولى الخطوات التي يقوم بها المهندس المعماري أو البناء، وذلك وفقا لعدة معايير ومعطيات تتعلق بالأرضية المراد البناء فيها من جهة، وحسب طبيعة المبني من جهة أخرى، وبعد الانتهاء من هذه العملية المهمة تليها الخطوة الثانية وهي اختيار اتجاه المبني، حيث أن المهندس يقوم بمعالجة نوع التربة ومدى تحملها للثقل عبر مختلف الفترات، وذلك لتجنب الظواهر الطبيعية، واختيار الاتجاه الملائم

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 434.

(2) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص 81.

وتقسيم المساحة الداخلية وتحديد المنافذ الرئيسية والثانوية، كما توضع تبعا لموقعها الطبوغرافي⁽¹⁾.

ومن خلال دراستنا لمواقع مباني مدينة معسكر نجدها موزعة حسب نوع المبنى وأهميته في المدينة، فنجد الجوامع والمركز الإدارية تتمركز في الوسط، أما المنشآت الأخرى فتتصل بالأحياء والدروب، وفيما يخص اتجاهاتها فنجدها مختلفة مرتبطة باتجاه الشوارع والأزقة.

الأساس: هو أصل البناء، وبمفهوم آخر هو القاعدة التي في باطن الأرض لحمل البناء داخليا وخارجيا يقوم على عنصر العلم والفن⁽²⁾، وهو يحفر له في الأرض، وتملأ الحفرة بالحجارة والمادة اللاحمة، والأسس لم تكن تختفي كلها تحت الأرض ففي المواقع المنحدرة كانت ترفع لاستواء الأرضية، وعليه فهو مرتبط بالأرضية التي يقوم عليها المبنى وما تتميز به من شدة المقاومة أو ضعفها، مع التأكد من سلامة بيانات جهد التربة ومراعاة عامل الأمان اللازم للتصميم، والتأكد من أن مساحة الأساس كافية لتوزيع الأحمال على المبنى مع مراعاة عمق وأبعاد الأساس⁽³⁾، وذلك يؤثر في قوة المبنى وصلابته ودوامه ومقاومته للارتجاجات الأرضية والزلازل⁽⁴⁾، وذلك ما يستوجب عند عملية بنائه استعمال مادة قوية وصلبة ومتينة وعديمة التأثير بالتغيرات الجوية من درجة الحرارة والرطوبة لتفادي تفتتها تحت تأثير الأحمال، لأن وظيفة الأساس هي نقل ثقل المنشأة إلى تربة الأرض المقام عليها هذا الأساس، وهو نوعان:

1- النوع الأول: يطلق عليه تسمية **الأساس الطبيعي**، وفيه تستغل طبيعة الأرض الصخرية الغير قابلة للضغط، بحيث يمكن البناء عليها مباشرة، وذلك بعد حفر وتسوية الصخرة دون الحاجة إلى عمل أساس لتشييد البناء.

2- النوع الثاني: وهو ما يسمى **بالأساس الاصطناعي** وهو ما يبني من الحجر أو الآجر ويستخدم في الأراضي القابلة للضغط لحمل أجزاء المشيد عليه وتوزيع الضغط على

(1) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج2، ص654.

(2) - ابن منظور: المصدر السابق، مج7، ص301. يُنظر كذلك: غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص48.

(3) - جمعة حسين محمد: الشروخ والترميمات، مكتبة الدراسات والاستشارات الهندسية، الزيتون 1992، ص23.

(4) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية... المرجع السابق، ج2، ص654.

الأرض، وكثيرا ما كانت تبني الأساسات من الدبش (الحجر غير المشدب) أو الآجر والمونة⁽¹⁾.

وطريقة بناء الأساس تتم وفق طبيعة الأرض وشكلها، فالأرض المستوية يبني على مستوى واحدة مثلما نجده في المحكمة (ينظر الشكل رقم 50)، وفي الأراضي المنحدرة يبني الأساس بحجارة ذات أشكال مختلفة الأحجام لتكون صلبة وقوية، وتظهر فيه كل السافات أفقية على شكل سلم، وبما أن موقع مدينة معسكر يغلب عليه الانحدار جعل ذلك أساسات أغلب المباني تنتمي إلى النوع الثاني، كما يتضح ذلك في الجامع الكبير وجامع عين البيضاء والزويتين والأضرحة، ودار الباي وحمّام البركة وحمّام القرشالي وحمّام حمزة وحمّام الباي ودار الميزابي، ويختلف انحدار أرضية كل مبنى حسب موقعه، ويتم استعمال التراب المستخرج من عمق الحفر ليصفي ويستخدم كملاط تملئ به الفراغات استعدادا لحمل الطابق الأول⁽²⁾. (ينظر الشكل رقم 51)

وعند الانتهاء من ملئ الأساس بالحجارة والملاط يشرع في بناء الجدران بالحجارة، لتظهر في الأخير أقسام المبنى موزعة حول الصحن مع مراعاة فراغات المدخل والنوافذ والشمسيات والعقود⁽³⁾.

أما فيما يخص الجدران الداخلية فهي مكونة من سافات متناوبة من الدبش والآجر والخشب الذي يستخدم في التدعيم، وبناء العقود وذلك في حمله للمواد المشكلة له، وهي الطريقة المتبعة في كل من دار الباي والمحكمة وحمّام حمزة بحكم أننا لاحظنا ذلك خلال عملية الترميم التي أجريت عليهم، وهو ما ينطبق كذلك على بقية المباني حسب المعلومات التي قدمها لنا أصحابها عند قيامهم بعملية ترميم الأجزاء المتضررة، كما أننا لاحظنا ذلك في بعض الأماكن التي أصابها التلف. (ينظر الشكل 52)

كان يعتمد في استقامة الجدران على الدقة في النظر والملاحظة، وذلك لعدم وجود خيط المضمار الذي لم يكن معروفا آنذاك⁽⁴⁾، مما فتح ذلك باب الافتراض في استعمال لوحة طويلة لمعرفة استقامة الجدران، وعند الانتهاء من رفع الجدران يتم الانتقال إلى وضع

(1) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 14.

(2) - Reveault. J: L'habitation tunisoise...Op.cit, p53.

(3) - قرمان عبد القادر: المنشآت الدينية...المرجع السابق، ص 175.

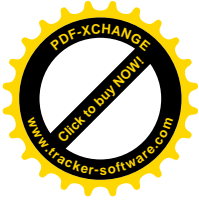
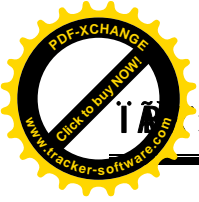
4 - Reveault. J: L'habitation tunisoise...Op.cit, pp54- 55.

أعمدة القاعة الباردة في حَمَام حمزة وبناء مخزن الحطب بحَمَام البركة (تُنظر الصورة رقم 134)، وقد بُنيَّ على شكل سافات منتظمة ومتساوية في طريقة بنائها، وذلك لأن العناصر أو المواد المستعملة لها عدة أشكال ومقاسات موحدة، حيث تلتحم هذه المواد فيما بينها بواسطة ملاط كثيف ذو نوعيات مختلفة حسب غاية البناء والوظيفة التي ستقام داخله مثل القصور والحَمَامات... الخ. (يُنظر الشكل رقم 53)

ويتم الحصول على أشكال وتقنيات مختلفة ومتعددة إذا بنيت بتراكيب متنوعة، غير أن المهم من ذلك هو التداخل الكامل، خاصة إذا بني حائط ذو سمك معتبر، أو يتخذ كدعامة أو ركنا يدعم به البناء كما أنه عازل حراري في نفس الوقت.

بالإضافة إلى طريقة أخرى يكون فيها سمك الحائط مكون من صف واحد من الآجر بوضعية طولية أي بطريقة "الشناوي"، حيث أنها تستعمل في بناء الجدران الداخلية لتقسيم المبنى، وتمثل هذه التقنية تداخلا بسيطا بين المواد، ولكنه ذو دور فعال في حمل سقف المبنى، كما يمكن وضعه بطريقة عرضية ينتج عنها سمك أكبر للحائط وأكثر دعم للبناء وذلك ما يعرف بـ "الأديّة"، وهاتين الطريقتين في البناء بالآجر شاهدناها بوضوح في كل من دار الباي والمحكمة، ويستخدم الآجر في بناء الطوابق العليا لخفته وقوته⁽¹⁾، وما لفت انتباهنا أن البناء قد جمع بين تقنية البناء بالآجر وتقنية البناء بالدبش غير المهدب في نفس الموضع، ومن ذلك نجد تشكيل العقود يكون بالآجر لسهولة عملها والجزء المتبقي من البناء يكون من الدبش، وهو ما يظهر بوضوح في دار الباي والمحكمة وحَمَام حمزة، ولعل هذا المزج بين التقنيتين يرتبط بالتركيب البنائي للعناصر المعمارية من جهة وتقوية المبنى من جهة أخرى.

(1) - نوار سامي محمد: المرجع السابق، ص 11.



جمعت مباني مدينة معسكر في مخططاتها المعمارية بين النمط المحلي والنمط الوافد خاصة منها المساجد، حيث استطاع المعمار أن يوظف كل طاقاته من أجل سد العيوب، آخذا بعين الاعتبار العوامل المؤثرة في المباني كالزلازل والمناخ وغيرها، وذلك باستخدام عناصر معمارية تتناسب مع نوعية المبنى ووظيفته، بالإضافة إلى استعمال مواد بناء محلية مقاومة لمختلفة العوامل الطبيعية وبتقنيات متطورة، ولعل بقاء هذه المنشآت إلى غاية الفترة الحالية لخير دليل على مدى تطور الهندسة المعمارية خلال الفترة العثمانية.



0 mAfA:©HjAAñ 'A
0 TÄ°A

0 TjalAeÄ •A:¾EPA½v °A
0 TÄ°A² iBaA:i ÄRA½v °A

الفصل الأول: المواد الزخرفية:

1- الحجر:

لقد رأينا في السابق أهمية الحجر الجيري في البناء من حيث رفعه وتدعيمه، وقد تعدت هذه الأهمية في استعماله كمادة في الزخرفة والتزيين، نظرا لاعتباره مادة غير مكلفة وغير صعبة في التشكيل الزخرفي، لذلك اتخذ منه الفنان مادة بديلة عن الرخام في حالة عدم الحصول عليه بسبب تكلفته الباهظة وندرته في بعض الحالات، الأمر الذي جعل منه من المواد التي أعطيت اهتماما كبيرا في الجزائر، حيث أنه أستعمل في عدة مجالات مختلفة، كما اعتنى به صناع ونقاش مدينة الجزائر خلال العهد العثماني⁽¹⁾، وأعطوه أشكالا رائعة.

نجد استعمالات هذه المادة كانت بكثرة بدلا عن الرخام في منشآت مدينة معسكر وذلك يعود إلى توفرها في المدينة من جهة، وسهولة استعمالها وتوفر الصناع والحرفيين المهتمين بها، فصنعت منها تيجان الأعمدة وزخرفت بأنواع الزخارف، ويظهر بشكل خاص في تيجان أعمدة الجامع الكبير وجامع عين البيضاء، وتيجان قاعة التدريس بزواوية سيدي بوسكرين، وكذلك في تيجان أعمدة الطابق الأرضي والعلوي في دار الباي وفي المحكمة وأيضا في تيجان القاعة الباردة بحمام الازدهار، ويظهر من خلالها مدى تفنن الصناع في تشكيلها وزخرفتها بإتقان. لكن ما يلاحظ على هذه المادة تأثرها بمختلف العوامل الطبيعية الأمر الذي يجعلها معرضة للتلف وتشويه عناصرها الزخرفية وهو ما نشاهده في تيجان المحكمة، حيث أن أغلبها فقدت زخارفها الفنية.

2- الجص:

يعتبر الجص من المواد الزخرفية المهمة التي استعملها الفنان منذ الحضارات القديمة وذلك لسهولة التحكم فيه لتشكيل العناصر الزخرفية، وبقائه على أصله لمدة طويلة دون أن يتلف إذا وفرت له شروط المحافظة. تعتبر حضارة وادي الرافدين والحضارة الساسانية أكثر الحضارات استخداما للزخارف الجصية⁽²⁾، ثم انتقل استخدامه لدى المسلمين بدءا من الفترة الأموية، حيث استخدمت طريقتين منها: جص ذي زخارف محفورة أو بالقالب، وجص ذي

(1)- Marçais. G: Manuel d'art ...op.cit, p462.

(2) - لعرج عبد العزيز: المباني المرينية...المرجع السابق، ص642.

زخارف مرسومة (فريسكو)، مثلما يتضح في بعض الأمثلة بقصر خربة المفجر وقصر الحير الغربي وقصير عمرة⁽¹⁾، كما تطورت الزخرفة الجصية خلال العصر العباسي ويتجلى ذلك في زخارف سامراء في القرن الثالث للهجرة، ومن ثم انتقلت إلى الطولونيين في مصر وبعدها إلى شمال إفريقيا، وبانتقال صناعة الجص إلى المغرب والأندلس بلغ أرقى درجات الإبداع والفن. ومن نماذجه الجميلة تلك التي تزين بركة قصر الزهراء قرب قرطبة (القرن 3هـ-9م)، وقلعة بني حماد بالجزائر والزخارف الداخلية في جامع القرويين في فاس (القرن 6هـ-12م)، والمسجد الجامع بتلمسان، ومقرنصات العقود في واجهات قصر الحمراء (القرن 8هـ-14م)، وتيجان مدرسة العطارين في فاس (القرن 8هـ-14م)، ومحراب مولاي إدريس في المدينة نفسها⁽²⁾.

أما عن استعمالات الجص خلال الفترة العثمانية فلم يقل عن ما ذكر سابقا، حيث أنه استخدم في زخرفة مختلف المنشآت المعمارية، بل أبدعوا في ابتكار أساليب وطرق زخرفية ترتبط بمميزات وخصائص الفن التركي، ولعل ما تزخر به الجزائر من منشآت تعود إلى هذه الفترة لدليل قاطع على ذلك، منها منشآت مدينة معسكر، والتي يمثلها جامع عين البيضاء بزخارفه البهية والجميلة التي مازالت على أصلها، تحاكي كل من يشاهدها وتبعث في نفسه راحة، وتبين له مدى تفوق الفنان وبراعته في التشكيل وإتقان هذه الزخرفة، وكذلك درجة تحكمه في استعمال الألوان واحترامه للمكان المقدس الموجودة فيه، كما نجد زخارف جصية أخرى في الحجرة الثانية بالمحكمة.

من خلال الزخرفة الجصية الموجودة في هذا الجامع تبين لنا أن الفنان اتبع في عملها طريقتين وهما.

أ- **طريقة الزخرفة بالحفر:** تتم هذه الطريقة بالحفر على الجص مباشرة بعد تفرغ وتسوية مسطحات الجدران، وقبل أن تجف يبدأ بالحفر عليها مباشرة بواسطة أزامل ومثاقب ذات رؤوس مختلفة، حادة ومسطحة ومستديرة على حسب الشكل الزخرفي المراد تشكيله، ويكون التصميم هنا مسطحا، بحيث تظهر الأشكال الزخرفية وكأنها على مستوى واحد، خالية من الروح الآلية المملة التي تسود الزخارف المصنوعة بالقالب، وأغلب الزخارف التي تستخدم

(1) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 643.

(2) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 120. يُنظر كذلك: نويصر محمد: المرجع السابق، ص 369.

وأحيانا تستخدم مادة الطين لعمل القالب السلبي، حيث تأخذ نماذج من الخشب ثم تحرق هذه القوالب الطينية لاكتسابها الصلابة⁽¹⁾.

لقد استعملت هذه الطريقة في بقية الزخارف الموجود في جامع عين البيضاء، ويظهر ذلك في الجزء العلوي من تجويفة المحراب وطاقيته والقبة التي تتقدمه، والعقود التي تحملها. وقد قام الفنان بتلوين العناصر الزخرفية، وتنفيذ هذه العملية إما بخلط الألوان من مادة الجص وهي سائلة، وإما أن تطلّى الجدران بالألوان بعد زخرفتها على الجدران⁽²⁾.

كما نجد منها نموذجا آخر في الحجرة الثانية من المحكمة أين زُينت بها الحواف العلوية للجدران، وهي عبارة عن شريط زخرفي قوام زخارفه أشكال هندسية تتمثل في دوائر وأهلة، وكذلك نباتية محورة عبارة عن أزهار وفروع وأوراق محورة. (تُنظر الصورة رقم 121)

3- الأجر:

لقد رأينا استعمالات هذه المادة بكثرة في مجال البناء نظرا لمواصفاتها ومميزاتها التي تتماشى مع متطلبات البناء، وهو ما دفع الفنان المسلم إلى استغلالها في مجال الزخرفة فالأجر يعطي ترابطا جماليا رائعا، ويعمل في هذه الحالة على هيئة بروز علوي فوق المداخل وفتحات الشبابيك، ويتخذ زاوية ميل مناسبة، تتركب عليه وحدات نصف أسطوانية مفرغة في صفوف متراسة تتحصر في صفين أو ثلاثة، يتم تركيبها بطريقة تصاعدية بحيث يكون الصف العلوي مركبا على الجزء العلوي المسلوب من الصف السفلي وهكذا⁽³⁾ وذلك ما يعرف بالأفاريز، وتكون غالبا عند نهاية الطوابق على شكل صفوف متدرجة البروز⁽⁴⁾، وهو ما يظهر بوضوح في مباني مدينة معسكر، خاصة في جامع عين البيضاء وضريح سيدي محمد بوجلal ودار الباي والمحكمة والدار الكبيرة وحمّام حمزة. (تُنظر الصور رقم 78 - 88 - 108)

(1) - شحاتة عزة علي عبد الحميد: المرجع السابق، ص 64 - 65.

(2) - نفسه: ص 67.

(3) - رزق عاصم محمد: المرجع السابق، ص 12.

(4) - عقاب محمد: المرجع السابق، ص 195.

		الفصوص مشدوخة الوسط وذلك باللون الأصفر على أرضية بيضاء مزرققة وحددت العناصر باللون البني الفاتح.	
ج-165	54	عبارة عن تجميعية مكونة من أربع مربعات قوام زخارفها دائرة تتوسطها زهرة الرمان، يوجد في الأركان أربعة أوراق خماسية، وقد لونت هذه العناصر باللون الأزرق الفاتح والتركوازي على أرضية بيضاء.	نفس المكان والاستعمال
د-165		عبارة عن تجميعية مكونة من أربع مربعات قوام زخارفها أشكال مضلعات تتوسطها زهرة الورد بساق وأوراق.	نفس المكان والاستعمال

5- الخشب:

تعتبر مادة الخشب من المواد المهمة في زخرفة المباني، وذلك نظرا لقيمتها الوظيفية والجمالية، لذلك اهتمدى الفنان المسلم المهتم بمعالجة الخشب إلى الأساليب الصناعية وطرق زخرفية جديدة أملتها عليه حواسه المتفاعلة مع مكونات الطبيعة وعناصرها المختلفة التي كان لها الأثر البالغ في تشكيل التحف والنماذج الخشبية، سواء كانت قائمة على المباني التي لا تتفصل عنها كالسقوف والقباب والأعمدة والأوتار الخشبية بين العقود⁽¹⁾.

ولعل أرقى ما وصلت إليه الصناعة الخشبية الإسلامية هي صناعة التحف المختلفة وخاصة في صناعة الأبواب، إذ عمد إلى استعمال القطع الصغيرة بتقطيعها بأشكال هندسية مختلفة وتشبيك بعضها ببعض بتوزيع متين بديع، مما يرفع عدد القطع في المصراع الواحد أحيانا إلى المئات، وكلها محفورة مخرمة مرصعة ومزينة أحيانا بمختلف المواد من صدف وعاج ونحاس وغيرها، وهذه القطع الصغيرة تستعمل كحشوات، والتي تنتوع تصاميمها وتتداخل مع قطع أخرى، أو في أطر قوية لتشكل مصراع نافذة أو باب أو خزانة أو سقف وهي تحدث أشكال هندسية في غاية التعقيد مثل المستطيلات والمعينات والمربعات والمثلثات والأشكال النجمية.

والمؤسف أن المصنوعات والتحف الخشبية في مباني مدينة معسكر لم يبق منها نماذج أصلية كثيرة، نظرا لتعرضها للتلغف أو التغيير أو التخريب، ولم يتبق منها إلا نماذج

(1) - بورابة لطيفة: المرجع السابق، ص73.

قليلة تظهر في باب المدخل الرئيسي لجامع عين البيضاء وحمّام القرشالي، ومن خلال مظهرهما تظهر لمسة الإتقان والدقة في التركيب والصنع، حيث نتج عن ذلك تكويننا زخرفيا هندسيا بأشكال ومقاييس مختلفة تتمثل في المربعات والمستطيلات والمعينات. (تُنظر الصورة رقم 135) لقد اتبع في صناعة وزخرفة أبواب المداخل والغرف والخزائن الجدارية والنوافذ والدرابزين والخزائن الخشبية، عدة أساليب وطرق نذكرها على النحو الآتي:

أ- **طريقة التجميع والتعشيق:** هي صناعة التحف الخشبية من قطع صغيرة أو حشوات من الخشب ذات أشكال هندسية مختلفة، تُجمع معا وتعشّق داخل إطارات هندسية منتظمة⁽¹⁾. فكانت تتخذ أشكالا هندسية كالأشكال النجمية أو السداسية وغيرها، والتي حفر عليها زخارف عربية مورقة غاية في الدقة والإبداع⁽²⁾. وكان وراء ابتكار الحشوات عاملين أساسيين هما:

1- العامل المناخي: وذلك لأن مناخ أكثر البلاد الإسلامية متشابه يميل إلى الحرارة واختلاف الطقس بين الجفاف والرطوبة والبرودة والحرارة، وذلك ما يعرض الألواح الكبيرة إلى التمدد والتقلص، وبذلك إلى التقوس عبر الزمن فتتعرض إلى التلف، وهذا لا يلاحظ في القطع الصغيرة⁽³⁾.

2- العامل الاقتصادي: وهو أن معظم البلدان الإسلامية تفتقر لأنواع الجودة من الخشب الذي حَمَل النَّجار على التدقيق في استعماله، وعدم التفريط في أية قطعة منه مهما صغر حجمها⁽⁴⁾، وكذلك انسجاما مع فكرة الزهد وعدم التبذير⁽⁵⁾.

ولعل أبرز أنواع التعشيق هي تعشيق النقر واللسان والتعشيق المنطوية⁽⁶⁾، وتعد هذه الطريقة قديمة، ابتكرت من طرف المصريين في العصور الأولى لحضارتهم⁽⁷⁾.

(1) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص165.

(2) - خليفة ربيع حامد: الفنون الإسلامية في العصر العثماني، ط4، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2007، ص198.

(3) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص517.

(4) - مرزوق محمد عبد العزيز: المرجع السابق، ص165-166.

(5) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص517.

(6) - عقاب محمد الطيب: لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002 ص44.

(7) - جودي محمد حسين: الفن العربي الإسلامي، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 1419 هـ - 1998م،

قديمة، حيث بلغت هذه الصناعة قمتها فيهما⁽¹⁾، كما تطورت زخرفة الزجاج في هذين البلدين. وقد اشتملت هذه المباني على عدة أنواع من الزجاج، حيث نجده مستعملا في الأقسام الداخلية، وخاصة العناصر المعمارية التي يكون دورها مرتبط بالإنارة، منها النوافذ والشمسيات والفتحات، وكذلك الأبواب والتي تحتوي على مجموعة من الزجاج الملون بالألوان المختلفة منها الشفاف والأحمر والأخضر والأزرق والأصفر... الخ، وهي موجودة بكثرة في الشمسيات والنوافذ كما أنها قسمت إلى قطع صغيرة أدمجت ووضعت داخل التخريعات والفراغات لكي تعطي ألوان متعددة عند سطوع الشمس عليها وهنا يكمن طابعها الجمالي.

(1) - صالح أحمد الشامي، الفن الإسلامي التزام وإبداع، ط1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1410هـ / 1990م، ص170.

الفصل الثاني: الزخارف الفنية

أولا/ الزخرفة الهندسية:

تعتبر الزخرفة الهندسية من أقدم الزخارف الفنية التي عرفها الإنسان، والتي تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ، ثم عرفت في الفنون التي سبقت الإسلام، ولكن هذه الرسوم لم يكن لها في تلك الفنون شأن كبير، وكانت تستخدم في الغالب كإطارات لغيرها من الزخارف⁽¹⁾ فمثلا استعملت المبادئ الهندسية البسيطة في حضارة ما بين النهرين، كما استعملت في مصر القديمة في قياس الأرض وتأسيس الأبنية، وقد طور الإغريق هذه المعلومات⁽²⁾، ولكن حينذاك لم يكن لها الدور والأثر الذي حظيت به في الفن الإسلامي.

بلغ الفن الإسلامي في الزخارف الهندسية مرتبة يكاد لا يدانيه فيها أي فن آخر وطور المسلمون هذه الزخارف على أسس مدروسة وابتكروا منها أنواعا لم تعرفها الفنون الأخرى⁽³⁾، فأصبحت تستخدم لذاتها وتكون عنصرا أساسيا من عناصر الزخرفة الإسلامية وقد استطاع المسلمون استخراج أشكال هندسية متنوعة من الدائرة، منها المسدس والمثلث والمُعشَر، كما برعوا في استعمال الخطوط الهندسية بأنواعها المختلفة المستقيمة والمنحنية والمظفرة، وصياغتها في أشكال فنية رائعة، نتجت عنها المضلعات المختلفة والأشكال النجمية والدوائر المتداخلة والأشكال المساحية كالمربع والمستطيل والمعين والمثلث، والعقود بأنواعها الحدوية والمنكسرة والنصف دائرية.

ولئن كانت هذه الأشكال الزخرفية دليلا على موهبة فنية عظيمة، فهي أيضا دليل على علم متقدم بالهندسة العملية⁽⁴⁾، ورغم ذلك فهذا لم يكن كافيا في نظر الفنان المسلم الذي أصبح شغله الشاغل أن يبحث عن تكوين جديد مبتكر يتولد عن اشتباكات وتقاطع

(1) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: الزخرفة الإسلامية، ط1، مكتبة المجمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، 1430هـ/2009م، ص205، يُنظر كذلك: - زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1401هـ/1981م، ص32.

(2) - المهدي عنايات: روائع الفن في الزخرفة الإسلامية، المغرب، مصر والشام، تركيا، الفن الفارسي الفن الهندي الإسلامي، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر 1983، ص198.

(3) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص ص 42 - 44.

(4) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: المرجع السابق، ص ص 40 - 205.

الزوايا ومزاوجة الأشكال الهندسية لتحقيق الجمال الرصين الذي يسبغه على التحف⁽¹⁾، وهذا ما جعلها بعد ذلك تتجاوز الأشكال الهندسية البسيطة من مثلثات ومربعات ومعينات وأشكال خماسية وسداسية، وكذلك الأشكال الدائرية والجدائل، والخطوط المنكسرة والخطوط المتشابكة، ووصلت إلى مرحلة التراكيب الهندسية⁽²⁾.

وعلى الرغم مما يبدو في الزخارف الهندسية الإسلامية من تعقيد فإنها في حقيقتها بسيطة تعتمد على أصول وقواعد، من بينها تقسيم المحيط إلى أجزاء متساوية، ثم توصيل النقاط ببعضها البعض للحصول على أشكال هندسية مختلفة، مما يدل على عناية المسلمين بعلم الهندسة. ومن أبرز أنواع الزخارف الهندسية التي امتازت بها الفنون الإسلامية الأشكال النجمية متعددة الأضلاع والتي تشكل ما يسمى "الأطباق النجمية"، فالخطوط المتداخلة والأشعة المتجايزة والمتابذة تبدو لا نهائية، تمنحك سعادة التفكير وتفوقك بقوة إلى المطلق والحركة في كل من المورقات والأشكال الهندسية والنجمية، تجعل الإنسان يحس بشكل غامض بالحركة الكلية للكون في دورانه وتسيبحة⁽³⁾، الأمر الذي استدعى تسميته من قبل أهل هذه الصناعة بـ "الخيظ" ويقصدون به الخطوط المستقيمة، و"الرمي" ويقصدون به الخطوط المنحنية والدوائر.

نلاحظ على هذه الزخارف أن بعضها يشد بعضا، وأن كل مساحة منها لها ذاتيتها وشكلها، وأنها ليست مجرد بقية من مساحة مجاورة تبدو مشوهة⁽⁴⁾، وقد انتشر هذا النوع من الزخارف في مصر والشام في العصر المملوكي، وفي العراق في العصر السلجوقي، وامتد إلى بلاد المغرب⁽⁵⁾.

وسبب هذه العناية الفائقة بالزخرفة الهندسية هو الخروج من دائرة التحريم التي أقرتها الشريعة الإسلامية في مضاهاة خلق الله، وذلك في رسم الصور الحيوانية والآدمية اعتمادا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوِّرون"

(1) - النحاس أسامة: الوحدات الزخرفية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص3.

(2) - قاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص44.

(3) - قلعه جي عبد الفتاح رؤاس: المرجع السابق، ص79.

(4) - أحمد محمد عيسى وتحسين عمر طه أوغلي: "الفنون الإسلامية المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة"، أعمال

الندوة العالمية المنعقدة في اسطنبول أبريل 1983، دار الفكر، دمشق، 1989، ص46.

(5) - النحاس أسامة: المرجع السابق، ص3.

وهذا ما جعل الفنان المسلم يعزف عن ذلك ويلجأ إلى هذه الزخرفة، التي استخدمها في زخرفة جميع العمائر المختلفة من مساجد وقباب وأربطة وحصون وقصور وقلاع⁽¹⁾.
لقد زينت هذه الزخرفة المباني المذكورة، كما وشحت التحف الخشبية والنحاسية والحجرية ودخلت في صناعة الأبواب وأطرها والنوافذ والأفاريز والبلاطات الخزفية والعقود والأواوين والأعمدة والتيجان وزخرفة السقوف.

لقد استطاعت الهندسة أن تفرض سيادتها في الفن الإسلامي، لأن الأسلوب الهندسي يعتبر من الأساليب التي طبعت الزخرفة النباتية، باستعمالها في نفس الموضوع الزخرفي وذلك يعود إلى عدة أسباب من بينها كراهية الفنان المسلم للفراغ الذي أصبح من شعاره، إذ عمد إلى تغطية المساحات بزخارف متنوعة والإقبال إلى تكرارها تكراراً قال عنه الغربيون بأنه لا نهائي⁽²⁾، وبذلك فقد برعوا في استعمال هاتين الزخرفتين بأنواعهما، بل وفي كل شكل من هذه الأشكال، بحيث زادت كلاهما روعة فوق بهائهما، ومع العلم أن الزخارف الإسلامية المغربية مبنية أساساً على الأشكال الهندسية⁽³⁾، التي تتميز بالتنوع بطريقة الأفراد والتجميع وهو ما وقفنا عليه في مباني مدينة معسكر، ويمكن حصرها فيما يأتي:

1. **الأشكال الرباعية:** نجدها في الأبواب الخشبية والنوافذ، ونجد منها المربع والمستطيل والمعين وشبه المنحرف.

أ- المربع:

يعرف هذا الشكل الهندسي بكثرة استعماله، حيث أنه يعد أساساً للأشكال المتعددة الأضلاع الأكثر استعمالاً وللمضلعات أكثر تعقيداً⁽⁴⁾، وتولدت منه نجوم بعشرات الرؤوس ومتشابكات لا أول لها ولا آخر، إلى جانب الشكل الهندسي والقوة الزخرفية يحمل المربع رمزا ما ورائياً، فهو يمثل الأرض، والدائرة التي يدور في داخلها تمثل السماء، وبحركاته الدائرية وبزيادة سرعته نراه يحاول اللحاق بها للإتحاد معها⁽⁵⁾.

(1) - حسن خالد: المرجع السابق، ص 93.

(2) - نفسه: ص ص 93 - 160.

(3) - المهدي عنايات: المرجع السابق، ص 80.

(4) - شريل دانمر: الفن الإسلامي في المصادر العربية، صناعة الزينة والجمال، ط1، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1986، ص 51.

(5) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 369.

استخدم المربع كوحدة زخرفية إسلامية وعمل بتشكيلات متشابكة ومتوالدة منها، كما شكلت هذه الأشكال بطريقة فنية متقنة ومنظمة وضعت بداخلها في بعض الأحيان زخارف نباتية محورة مثلما نلاحظه في الزخارف الجصية التي وشحت بها قبة المحراب في جامع عين البيضاء، وكذلك في بعض زخارف المربعات الخزفية التي ذكرناها سابقاً. (تنظر الصورة رقم 51)

ب - المستطيل:

من المضلعات التي استعملت كنماذج زخرفية، فأحاطت بخطوط بارزة أو مساحات غائرة، وقد اقتصر استعماله على الأبواب والنوافذ، وكذلك في تأطير اللوحة التأسيسية في الجامع الكبير. (تنظر الصورة رقم 16)

2- المضلعات:

وهي عبارة عن أشكال تشكلت من تداخل أو تراكب أو تزواج عدد من الأشكال ومن أنواعها المستعملة في هذه المباني نذكر:

أ- **المثلث:** هو من الأشكال الهندسية التي دخلت في رسوم الزخارف الإسلامية وبشكل خاص متساوية الضلعين أو الأضلاع الثلاثة⁽¹⁾، وقد أدخلت مع العناصر الزخرفية في قبة محراب جامع عين البيضاء ونوافذه. (تنظر الصورة رقم 51)

ب - المسدس:

من الأشكال الهندسية المضلعة والنجمية، والتي ظهرت في الفنون الإسلامية بشكل عام والأعمال الحرفية والمعمارية بشكل خاص، وكانت ضمن المضلعات التي زينّت جامع أحمد بن طولون في القاهرة، وقد توسّلت نجمة داوود كعنصر زخرفي⁽²⁾، أما فيما يخص استعماله في مباني معسكر فهو مقتصر فقط على الأرضية الأصلية للطابق العلوي من دار الباي، وقد استبدلت حالياً بأخرى حديثة خلال عملية الترميم لكن بشكلها الأصلي. (تنظر الصورة رقم 102)

(1) - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 348.

(2) - نفسه: ص 383.

والخطوط المستقيمة والزوايا، وقد استعملت في نطاق واسع من الزخرفة⁽¹⁾، حيث أنها نفذت على شكل دائرة بداخلها عناصر زخرفية نباتية كالأزهار والوردات المحورة، مثلما نلاحظه في مربعتين بالجامع الكبير (يُنظر الشكل رقم 54) و(تُنظر الصور رقم 165-ج).

6- المعينات:

هي من الأشكال الهندسية التي استعملت في العمارة الإسلامية، وقد نُفذت في الزخارف الجصية بقبة المحراب بجامع عين البيضاء. (تُنظر الصورة رقم 51)

7- الخطوط المستقيمة:

وضعت كخطافات على شكل أفاريز متدرجة في المآذن وأطر مداخل وأبواب مباني المدينة تقريبا.

ثانيا/ الزخرفة النباتية:

تقوم الزخرفة النباتية أو ما يسمى "فن التوريق" على زخارف مشكلة من أوراق النبات المختلفة من الزهور المتنوعة، وقد برزت بأساليب متعددة من أفراد ومزاوجة وتقابل وتعانق وفي كثير من الأحيان تكون الوحدة في هذه الزخرفة مؤلفة من مجموعة من العناصر النباتية متداخلة ومتشابكة ومتناظرة، تتكرر بصورة منتظمة⁽²⁾.

لقد كانت هذه الزخرفة في أول عهدها مكونة من ورق الأكانتس المقتبسة من فنون الإغريق والبيزنطيين، ومن الأزهار المستعارة من النمط الفارسي⁽³⁾، ثم قام الفنان المسلم بعد ذلك باتخاذ نمط وأسلوب خاص به، حيث أعطيت اهتمام كبير تجاوز كل الحدود خاصة بعد انصراف المسلمين عن رسم الكائنات الحية (حيوان، إنسان) وذلك لتحريمها أو تكريمها وفي هذا الصدد يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون"⁽⁴⁾.

وانطلاقا من هذا الحديث اتجه الفنان المسلم بشكل خاص نحو النباتات باعتبارها عناصر مجردة تمثل براءة الطبيعة ونقاء العقيدة وصفاء النفس، ومما شبع هذا الاتجاه كثرة

(1) - دانمر شريل: المرجع السابق، ص 51.

(2) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: المرجع السابق، ص 39.

(3) - النحاس أسامة: المرجع السابق، ص 3.

(4) - قلعه جي عبد الفتاح رؤاس: المرجع السابق، ص 73.

الأوصاف النباتية في القرآن الكريم، وفي صفة الجنة، وما أكد الله فيها للمؤمنين نقرأ الوصف النباتي غالباً⁽¹⁾، والقرآن يتحدث عن نبات الجنة وضلالها وثمارها كقوله تعالى: **يَتْلُو صَوَائِرُهَا بِسَوَائِرِهَا**⁽²⁾، وبذلك كان الكائن الحي النباتي هو البديل، حيث ظهرت السيقان والأوراق لتكوين زخارف تمتاز بالترار والتناظر والتقابل، وأنتجوا سجلا حافلا من العناصر النباتية⁽³⁾، والتي سادت في الفنون الإسلامية وكثرت وأصبحت تسمى بفن التزيق التجريدي وفن التزيق^(*) أو الرقش العربي⁽⁴⁾، والتي عملت بطرق وأساليب متعددة من أفراد ومزاوجة وتقابل وتعانق، بحيث أنها تكون متداخلة ومتشابكة ومتناظرة تتكرر بصورة متماثلة ومنتظمة.

جاءت هذه التزيقات عملا مؤسلبا، تخلى الفنان فيها عن العنصر الحي، كما أن الفنان المسلم صدق نيته في أنه لا يرمي البتة إلى التشبه بالله تعالى ومحاكاة مخلوقاته الحية⁽⁵⁾، وساد في مكانه مبدأ التجريد⁽⁶⁾، والبعد عن محاكاة الطبيعة ونقلها حرفيا، وقد أدى هذا التكيف مع متطلبات النهي الديني إلى تصوير خاص جدا للعمل الفني في الحضارة الإسلامية، وهو أن هذا العمل لا ينبغي أبدا أن يكون مرآة أمينة للعالم المرئي، بل عالما خاصا من الأشكال والألوان يحكمه منطق تشكيلي داخلي وتنظيم رياضي دقيق⁽⁷⁾، وبذلك أصبحت العناصر الزخرفية الإسلامية في أكثر الأحيان عناصر رمزية زخرفية مجردة رسما

(1) - عولمي محمد الأخضر: تطور الزخرفة النباتية في العمارة بالمغرب الإسلامي (من القرن الثاني إلى منتصف القرن السادس الهجري)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم الآثار، جامعة الجزائر 2001/2001، ص 24.

(2) - القرآن الكريم، سورة الإنسان، الآية 14.

(3) - شافعي فريد: المرجع السابق، ص 165، يُنظر كذلك:- الباشا حسن: مدخل إلى الآثار... المرجع السابق، ص 395.

(*) - التزيق: أطلق على هذا المصطلح عدة تسميات منها الأرابيسك والعريسة والتوشيح والرقش العربي، وهي كلها تدل على مفهوم واحد وهو تلك الزخرفة النباتية، التي تتألف من عناصر زخرفية مكونة من أفرع نباتية محورة وبراعم وأوراق نباتية ذات فصين متفرعة ومتصلة ومنوعة تتداخل، أو تتشابك دائمة الاتصال مع بعضها بطريقة هندسية منسقة جميلة لمزيد من المعلومات يُنظر:- الباشا حسن: مدخل إلى الآثار... المرجع السابق، ص 242، - غالب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 35 - المهدي عنايات: المرجع السابق، ص 80.

(4) - ألكسندر بابا دويولو: جمالية الرسم الإسلامي، ترجمة وتقديم علي اللواتي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس 1979م، ص 31، يُنظر كذلك:- صالح أحمد الشامي: المرجع السابق، ص 170.

(5) - ألكسندر بابا دويولو: المرجع السابق، ص 6.

(6) - المهدي عنايات: المرجع السابق، ص 170.

(7) - باب دويولو ألكسندر: المرجع السابق، ص 6.

يأت من جمالها وشكلها الزخرفي فقط، ولكن أهميتها تتبع كذلك من الدلالة التي يحملها اسمها، فكلمة "لاله" في الحروف العربية تشكل نفس الحروف التي تكون لفظ الجلالة "الله" ومن ثم فإن هذا التشابه في الحروف أكسب هذه الزهرة جلالا ووقسية لدى الأتراك بصفة عامة⁽¹⁾.

وقد انتقل هذا الوله بالأزهار وزهرة اللاله على الخصوص إلى الفنون الزخرفية وصارت هذه الأخيرة طراز العصر، فرسمها الفنانون في أشكال متنوعة ومتعددة، منها شكل يشبه الهلال وهو الشارة المميزة للدولة العثمانية، وقد وجدت هذه الشارة المؤلفة من زهرة اللاله في "مسجد السليمية بأدرنة" محفورة على عمود على هيئة مقلوبة⁽²⁾، وهو ما نجده أيضا في الجامع الكبير في معسكر في قبة المحراب، حيث أنها رسمت داخل شكل يشبه قبيبة بصلية تتفرع من داخلها ثلاثة نماذج من زهرة اللاله، اثنان منها رسمت في الجوانب والثالثة تتوسطهما، تحمل قرص صغير يعلوه هلال ملون باللون الأصفر ونجمة خماسية ملونة بالأحمر، أما العناصر الأخرى فلونت بالأزرق التركوازي والأصفر والبني. (تُنظر الصورة رقم 29)

ظلت هذه الزهرة محافظة على مكانتها في المجتمع التركي، حتى غزا أسلوب "الباروك" و"الركوكو" من أوروبا الفن التركي في القرن الثامن عشر الميلادي، وستنتقل هذه الزهرة إلى أقاليم الدولة العثمانية، كما يتضح ذلك في الفنون الزخرفية المحفورة والمرسومة بالجزائر وتونس⁽³⁾.

والملاحظ أن استعمال هذه الزهرة قليل في مباني مدينة معسكر - ماعدا ما ذكرناه سابقا - مقارنة باستعمالاتها في مباني الجزائر العثمانية، وكذلك إذا ما نظرنا إلى مكانتها في الزخارف النباتية العثمانية عامة.

ب - زهرة القرنفل:

هي زهرة مجهولة المصدر، فقد تكون جاءت من إيران أو الصين، ومن أهم خصائصها أنها ترسم بأسلوب محور تحويرا شديدا وبطريقة تبدو وكأنها ذات نمط زخرفي

(1) - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 285.

(2) - نفسه: ص 285.

(3) - نفسه: ص 286.

بحت، بعيدا عن البساطة ولكنه ينتج تأثيرا جماليا لطيفا. وتزاحم هذه الزهرة في المكانة زهرة اللاله، فقد رسمت كل منهما إلى جانب الأخرى، وفي كثير من الأحيان تبرزان في زهرية واحدة. لقد انتشرت هذه الزهرة في مختلف أنواع الفنون الخزفية في تركيا والمناطق الخاضعة لها، كمصر وشمال إفريقيا، مثلما يتضح من الخزارف المحفورة والخزارف المرسومة على البلاطات والأواني الخزفية، وتجاوز التأثير التركي إلى أوروبا التي انتشرت في فنونها هذه الزهرة انتشارا واسعا ونفذت على الفنون الخزفية بها⁽¹⁾.

اقتصرت استعمال زهرة القرنفل في خزارف مباني مدينة معسكر على الجامع الكبير فقط، ويظهر ذلك في مربعة خزفية تم الإشارة إليها سابقا، وقد رسمت هذه الزهرة بحجم كبير يغطي كل مساحة المربعة. (يُنظر الشكل 55 والصورة رقم 165-أ).

وزيادة على هاتين الزهرتين استعملت أزهار أخرى كزهرة عباد الشمس المحورة التي زخرفت بها ظلة المدخل الرئيسي الأصلي للجامع الكبير، وكذلك استعمال زهرة الرّمان في زخرفة مربعات هذا الجامع. كما نجد أزهار أخرى متكونة من عدة بتلات، حيث نجد منها ثلاثية البتلات وذات الأربع بتلات أو أكثر، هذه الزهرة التقليدية التي امتد عمرها في الفن الإسلامي، وهي زهرة مشتقة من الفن القديم⁽²⁾. وقد رسمت هذه الأزهار مع السيقان والأوراق الملونة باللونين الأخضر والأزرق والأحمر، زينت بها بعض المربعات الخزفية الموجودة في الجامع الكبير وفي ظلة مدخله. (يُنظر الشكل 54 والصورة رقم 165-ج-د).

4- الأشجار:

تسمى الزخرفة التي تحتوي على عنصر الأشجار بالخزارف المشجرة أو الشجرية، وقد ظهرت كعنصر زخرفي في معظم الحضارات القديمة، كما استخدمت بكثرة في الزخرفة الإسلامية. لقد تواصل استعمال عنصر الشجرة في الفنون العثمانية، حيث وجدت مجموعة من مختلف أشكال الأشجار وشاع منها السرو والنخيل⁽³⁾. أما في مباني معسكر العثمانية

(1) - لرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص ص 287 - 288.

(2) - مالدونادو باسيليو بابون: الفن الإسلامي في الأندلس، الزخرفة النباتية، ترجمة علي إبراهيم علي منوفي، مراجعة

محمد حمزة الحداد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2002، ص 143.

(3) - طيان شريفة: المرجع السابق، ص ص 315 - 316.

فنجذ استعمال واحد للأشجار، وهي شجرة السرو في الزخرفة الجصية بجامع عين البيضاء وقد نفذت بطريقة محورة ولونت باللونين الأخضر والأبيض. (تظر الصورتان رقم 48-50) وكان لشجرة السرو أهمية خاصة لدى الأتراك إذ كانت تغرس في المقابر، لتلطف برائحتها الطيبة الجو السائد فيها، كما أنها ترمز للخلود في عقيدتهم لاخضرار أوراقها على طول فصل السنة. وكانت تلون دائما باللون الأخضر لتحاكي لونها الأصلي في الطبيعة، وهي بذلك تعبر عن الحياة المتجددة، ولعل الأتراك أحبوا هذه الشجرة كذلك لما رأوا فيها من طول وتطلع نحو الأفق، أو قد يكونوا قد رأوا فيها ما يذكرهم بمآذن المساجد، فربما لسبب هذه المعاني الدينية كلها أو بعضها أكثرها من استعمالها في فنونهم الزخرفية المختلفة، وأكثرها منها في تزيين الأجزاء المقدسة من المباني كالمحاريب والميضآت، وفي سجاجيد الصلاة والزخارف المحفورة⁽¹⁾.

ثالثا/ الزخرفة الكتابية:

مما لا شك فيه أن الكتابة تعتبر من الظواهر الإنسانية التي اخترعها الإنسان منذ أن وعى ذاته، وجعل منها وسيلة لتسجيل الأفكار وحفظها، وقد تطورت الكتابة عبر العصور وخضعت إلى كثير من التعديلات والتحسينات إلى أن وصلت إلى صورتها النهائية⁽²⁾. خص الإسلام فن الخط برعاية خاصة لصلته الوثيقة بالعقيدة، كما حظي الخطاطون المسلمون بعناية وتشجيع كبيرين لنفس السبب. ولهذا تعتبر الكتابة والخط العربي حيثما وجد دليلا على سيادة الإسلام وعظم تأثيره، ولأن الكتابة العربية هي الخط الذي دُون به القرآن فقد حرص العرب على إعطاء الخط الجميل عناية خاصة في كتابته، وكانت تحظى بإجلال ووقسية في كل بلاد الإسلام. حيث ظلت قائمة بين الأمم الإسلامية مدة طويلة ولا زالت فانتشرت اللغة العربية بانتشار الإسلام، تخدمه ويخدمها، ويعظم شأنها بعظم شأنه، وكانت قوية التأثير في البلاد المفتوحة باعتبارها لغة القرآن والحديث. وأصبح الحرف العربي واسطة التعبير في جميع اللغات الهندية والفارسية والتركية. وأخذ الخط مكانه كفن رفيع مرتبة مباشرة بالثقافة العربية والعقيدة الإسلامية⁽³⁾.

(1) - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص 294.

(2) - الدرايسة محمد عبد الله، عبد الهادي عدلي محمد: المرجع السابق، ص 169.

(3) - بهنسي عفيف: جمالية الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 93.

تتوعد الخطوط العربية تنوعا كبيرا، وكل منها يمتاز بخصائص جمالية وفنية معينة، بل نجد أحيانا هذا التنوع ضمن النوع الواحد من الخطوط كالخط الكوفي والنسخي اللذان ينقسمان إلى أنواع من الخطوط. وقد استمرت نفس الأنواع من الخطوط السابقة في العهد العثماني، فابتكر الفنانون الأتراك أنواعا أخرى خاصة بهم، كما أنهم نظروا إلى فن الخط نظرة تقديس جعلتهم يهتمون ويعملون على تطويره تطويرا كبيرا حتى بلغ قمته على أيديهم، كما عرف الأتراك جميع أنواع الخطوط العربية السابقة واستعملوها في حياتهم وفنونهم، كالخط الكوفي وخط الثلث والنسخي والتعليق والديواني وخط الرقعة⁽¹⁾.

ويتضح إجلال وتقدير الأتراك للخط العربي من استعمالهم له كجانب زخرفي في العمائر والفنون التطبيقية، كما ضمنوه معان جليلة تتم عن العاطفة الدينية والإيمان العميق وخصوصا حين تستعمل في المباني الدينية من مساجد وأضرحة. كما تتجلى عاطفتهم الدينية وإيمانهم العميق فيما ضمنوه للكتابة من صيغ دينية مختلفة وأشعار صوفية ومن الخطوط نذكر:

1- الخط المغربي:

اشتق الخط المغربي من الخط الكوفي القديم، وأقدم ما وجد منه يرجع إلى ما قبل سنة ثلاثمائة للهجرة (912م)، وكان يسمى الخط القيرواني، نسبة إلى مدينة القيروان عاصمة المغرب بعد الفتح الإسلامي. والخط المغربي من الخطوط القديمة، فهو منتشر حاليا في جميع إفريقيا الشمالية، وقد كان مستعملا في إسبانيا في القرون الوسطى، لكن أمور هذا الخط ساءت بعد سقوط الدولة الموحدية، حيث صارت حروفه بعيدة عن الجودة والإتقان وكثر فيه التصحيف. والخط المغربي هو امتداد للخط الأندلسي الذي اكتسب في المغرب حياة جديدة، وجمالا جديدا⁽²⁾.

استعمل المغاربة نقطة الإعجام، مع تنقيط حرف القاف بنقطة واحدة من أعلى وتنقيط حرف الفاء بنقطة واحدة من الأسفل، واستخدموا كذلك الشكل لتوضيح حركات الإعراب تبعا لطريقة خليل بن أحمد، ثم زادوا في التأنق إذ سطوروا بعض الحروف وخففوا أشكال البعض

(1) - لعرج عبد العزيز: الزليج... المرجع السابق، ص ص 247 - 248.

(2) - الجبوري يحي وهيب: الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994، ص ص

المنشآت المدروسة فهو منعدم، رغم استعمالاته الكثيرة في منشآت الجزائر خلال الفترة العثمانية.

2- خط الثلث:

إن المتتبع للكتابات والنقائش العثمانية يدرك ما وصل إليه هذا القلم من أناقة وحسن وبهاء، سببها درجة النضج الذي بلغه هذا القلم بفضل حذاقة الخطاط العثماني وتحكمه في أسراره التقنية وقواعده الفنية ومعرفته لأبعاده الجمالية هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن طبيعة حروفه التي تتميز بالطراوة والمرونة والسلاسة قد انبعثت عنه صفات كثيرة كالمحقق والمطلق، فضلا عن الجلي والتشابك الزخرفي وغيرها من صفات التراكيب لهذا القلم، وهو ما جعله يحل محل الأقلام الأخرى في هذا العصر ليتربع على الكتابات التذكارية والزخرفية والشاهدية في جميع المجالات وعلى مختلف المواد، في العمائر وفي المعادن والرخام والحجر والخشب والقماش والجبص والزجاج وغيرها من المواد التي مازلت تشهد على عظمة هذا الخط ومكانته المرموقة خلال الفترة العثمانية في الجزائر وسائر الخلافة العثمانية⁽¹⁾.

استخدم هذا الخط على نطاق واسع في عمائر مدينة معسكر، خاصة في كتابة اللوحات التأسيسية، حيث نجده في اللوحة الأولى المثبتة على المدخل الرئيسي للجامع الكبير وكذلك في الكتابة التأسيسية الثانية الموجودة بجانب قبة المحراب، كتبت بلون أبيض على أرضية سوداء، كما نجده مستعملا في اللوحة التأسيسية لقبة سيدي الجيلاني وكذلك في الكتابة التأسيسية والقرآنية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء، هذا إضافة إلى اللوحة الوقفية المثبتة في نفس الجامع الأخير الذكر. (تُنظر الصور رقم 16-17-24-42-43-46-48-50)

أما عن أسلوب الكتابة فيتميز بالإتقان والجودة في التنفيذ والعمل، حيث احترمت فيه القواعد التقنية والفنية، بالإضافة إلى ملئ الفراغ بمختلف أنواع الزخارف الفنية، مما أضفى عليه نظرة جمالية تلفت الانتباه. وفيما يخص الناحية التقنية فنلاحظ إتباع طريقتين في الكتابة، الطريقة الأولى هي النقش البارز الشائع الاستعمال تقريبا في كل كتابات المنشآت

(1) - معزوز عبد الحق: شواهد القبور في الجزائر 2- 13هـ/ 8- 19م، دراسة نمطية وفنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2003- 2004، ص223.

المذكورة، والطريقة الثانية هي الكتابة بالريشة على الخشب ويظهر ذلك في الكتابة التأسيسية الثانية الموجودة بجانب قبة محراب الجامع الكبير.

3- مضمون الكتابات:

3-1- الآيات القرآنية: اقتصرنا على منشأة واحدة وهي جامع عين البيضاء.

المكان	الرقم	السورة	نص الآية
تجويفة محراب جامع عين البيضاء	38 /37	النور	رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)
واجهة محراب جامع عين البيضاء	255	البقرة	اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

نلاحظ من خلال الآيات المنقوشة على محراب جامع عين البيضاء وواجهته تدعو إلى ذكر الله وطاعته وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكذلك تبيان قدرة الله سبحانه وعلمه الواسع، وقد استعمل المسلمون الآيات القرآنية في زخرفة الجوامع والمساجد، حيث نجد منها أمثلة في جوامع الجزائر نذكر منها الجامع الكبير المرابطي بتلمسان ومسجد أبي مدين واستمر ذلك خلال العهد العثماني وهذا ما يظهر جليا في جامع سوق الغزل وجامع سيدي الكتاني⁽¹⁾.

(1) - دحدوح عبد القادر: مدينة قسنطينة... المرجع السابق، ص782.

3-2- الصيغ الدينية: شملت عبارات دعائية، وذلك ما نجده شائعا في كتابات المنشآت الإسلامية عامة وفي مختلف الفترات التاريخية وهذا تفصيل لمضمون كتابات منشآت معسكر.

المكان	الصيغ الدينية
واجهة محراب جامع عين البيضاء.	أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
- الكتابة التأسيسية الثانية الموجودة بجانب قبة المحراب، في الجامع الكبير. - اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني. - الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	البسمة (بسم الله الرحمن الرحيم)
- واجهة محراب جامع عين البيضاء. - اللوحة التأسيسية الأولى والثانية بالجامع الكبير. - الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء. - اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير. - واجهة محراب جامع عين البيضاء. - اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	الحمد لله
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير.	خلد الله ملكه
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير. - واجهة محراب جامع عين البيضاء.	أيده الله ونصره أمين يا رب العالمين
- اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	رحمه الله

3-3- الأسماء والألقاب: وردت مجموعة من الأسماء والألقاب في الكتابات الموجودة في منشآت مدينة معسكر وهي كالاتي:

المكان	الأسماء والألقاب
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير.	سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبدہ
- اللوحة التأسيسية الأولى والثانية بالجامع الكبير. - اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني. - اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	الحاج عثمان باي بن السيد إبراهيم
- الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	السيد محمد باي بن عثمان (تم التعريف به سابقا)
- الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	المعلم أحمد بن محمد بن حج احساين بن صارم شيق
- اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	السيد الحاج مصطفى بن بوشلاغم (تم التعريف به سابقا)
- اللوحة الوقفية الموجودة في جامع عين البيضاء.	السيد ابن محمد بولكباشي بن عثمان
- اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني.	الشيخ الجليل سلطان الصالحين سيدي عبد القادر الجيلاني
- اللوحة التأسيسية الأولى بالجامع الكبير. - اللوحة التأسيسية لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني.	أمير المؤمنين
- الكتابة التأسيسية المنقوشة على واجهة محراب جامع عين البيضاء.	خليفة السلطان

رابعاً/ الزخرفة الرمزية:

تستمد هذه الزخرفة موضوعاتها من العناصر الطبيعية والادمية التي استنبطها الفنان من مخلوقات الله، وذلك عن طريق تدبره وملاحظاته لها، حيث أراد الفنان المسلم أن يجسدها في أعماله الفنية ليظهر مدى تأثره بها من جهة، وجمال مظهرها من جهة أخرى كما استطاع أن يعطي لهذه الرموز عدة مدلولات أصبحت من بين عادات وتقاليد المجتمع وهي في معظمها تتمثل في الهلال والنجوم ويد الإنسان⁽¹⁾.

استخدمت هذه الزخرفة منذ القدم، ويظهر ذلك في الفن المصري القديم وفي حروف الكتابة الهيروغليفية، والكثير من الرسوم المسجلة للحياة اليومية⁽²⁾، بالإضافة إلى فن بلاد الرافدين، ويظهر ذلك في الكتابة المسمارية، كما تميز بها الفن الإسلامي عامة والفن العثماني خاصة، ولكن الرمز في الفن الإسلامي، وإن كان وجد واستخدم في بعض الأحيان، إلا أنه لم يستمر طويلاً في أداء رسالته، فقد تحولت هذه الرسالة إلى زخرفة خالصة خلت نتيجة لذلك من أي معنى مفهوم مباشر، وانضمت إلى الزهور والتوريق والأشكال النجمية التي لم يكن لها ابتداءً رسالة معينة⁽³⁾، ومن أهم العناصر الرمزية التي سادت في العمان في الفترة العثمانية نذكرها على النحو الآتي:

أ- **الهلال**: اتخذ العثمانيون الهلال رمزا وشعارا لدولتهم اعتبارا من عهد السلطان سليمان^(*) القانوني⁽⁴⁾، ويظهر ذلك في علم الدولة، كما اشتهرت به الكثير من البلدان الإسلامية الأخرى منها الجزائر، حيث أنهم تفننوا في رسمه فبرزت مجموعة من التأثيرات الفنية التي

(1) - قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية... المرجع السابق، ص 206.

(2) - المهدي عنايات: فن الزخرفة الفرعوني الآشوري، البدائي والقديم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر، ص 13.

(3) - شاخت جوزيف، ديوزورت كليفور: تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السهموري، حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة ج 1، ط 3، كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978، ص 369.

(*) - هو السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم الأول، ولد في طرابزون سنة 1495م وتوفي سنة 1566م، وهو من أعظم سلاطين آل عثمان، بلغت فترة حكمه حوالي 46 سنة (1520 - 1566م)، ووصلت الدولة العثمانية في عهده إلى أوج مجدها واتساعها، اهتم بتنظيم قوانين الدولة وعمل على تطبيقها بصرامة وحزم ولهذا لقب بالقانوني، كما قام بعدة فتوحات في بلاد النصارى وضم بعض مناطق شمال إفريقيا إلى دولته، لمزيد من المعلومات يُنظر:

- عبد الحافظ عبد الله عطية: المرجع السابق، ص 350 - 341.

(4) - خليفة ربيع حامد: فن الصور الشخصية في مدرسة التصوير العثماني، ط 2، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006 ص 101.

طبعت الزخرفة في تركيا والإيالات التابعة لها⁽¹⁾، وأحيانا نجده مرسوم داخل الأزهار⁽²⁾. في الخزف أو البلاطات الخزفية أو لوحات البلاطات، أو شكّل بأسلوب الحفر في الجص أو في الأشغال المعدنية أو الخشبية أو على الرخام والحجر، والمعروف أن الهلال لم يكن له في المنشآت والزخارف المغربية دلالات محددة أو شعار معين، ولم يتردد صداه في الزخرفة بشكل كثيف ومحدد حتى مجيء العثمانيين.

إن أهم مكان شغله عنصر الهلال في المنشآت الجزائرية في العهد العثماني هو إطارات الأبواب الرخامية والحجرية الخارجية والداخلية، وكذلك في أعلى جواسق المآذن، وفي تيجان الأعمدة ومفاتيح العقود وفي السياجات الحديدية للنوافذ والفتحات المختلفة داخل المباني وخارجها، وأحيانا يرفع على قضيب معدني كناية عن العلم، مثلما يتضح في المنحوتات الحجرية والرخامية وخاصة في تيجان الأعمدة من النوع الكورنثي المنحوت وفقا لأسلوب الباروك.

وتتعدد أشكال الهلال من حيث استدارته وسمكه، حيث تفنن الفنان في تشكيله والتلاعب بهيئته وتنويع صورته، فصوره تختلف من إطار باب إلى آخر، فيتخذ شكل قوس متجاوز لنصف الدائرة مفتوح أشبه ما يكون بالعقود الحدوية في المنشآت المغربية الأندلسية، وتضييق فتحته أحيانا وتتغلق أحيانا أخرى، وفي كل الأحوال شكّله الفنان برقة كبيرة ورشاقة وصاحب الهلال أحيانا سحابة كثيفة أو أقل كثافة، أو رسم داخله زهرة أو قرص الشمس وأشعتها أو الأشجار، مثلما يتضح في بعض الملابس وخاصة ملابس السلاطين، وقد أغرم العثمانيون بالهلال منذ عهد السلطان سليمان القانوني وأصبح أحد أبرز العناصر الزخرفية في فنونهم، إضافة إلى دلالاته السياسية.

إن استخدام عنصر الهلال في هذه الأماكن المفتوحة يبدو مقصودا ليكون ظاهرا للعيان تشاهده العين المجردة، ولاشك أن ذلك له دلالاته السياسية من حيث التعبير عن الحضور السياسي الدائم للدولة العثمانية وتأكيد سيادتها باعتبار أن الهلال شعارها الرسمي⁽³⁾.

(1) - مرزوق محمد عبد العزيز: الفنون الزخرفية في المغرب... المرجع السابق، ص 54.

(2) - خلاصي علي: المرجع السابق، ص 342..

(3) - لعرج عبد العزيز: مظاهر التأثير العثماني... المرجع السابق، ص 540 - 541.

وإذا كان هذا العنصر يمثل شعار الدولة العثمانية وباعتبار أن مدينة معسكر كانت مركزا لبائلك الغرب، فإن هذا حتما يستوجب استعمال شارة هذه الدولة في هذه العاصمة، وقد جسد ذلك الفنان في المباني بمختلف أنواعها، حيث نجده مستعملا في جامعي المدينة في هلال المئذنة، كما رسم في قبة المحراب في الجامع الكبير، والزخارف الجصية بطاقيّة محراب جامع عين البيضاء، ونجده أيضا كعنصر زخرفي بالقاعة الساخنة في حمّام الازدهار، وكذلك مربعات القاعة الباردة بحمّام حمزة. وقد لون بألوان مختلفة منها تحديده باللون الأحمر وتلوينه باللون الأصفر وكذلك تلوينه كلية باللون الأزرق، وزيادة على ذلك نجد بعض الأهلة المحورة توافق مع الغرض الذي أنشئت من أجله ويظهر ذلك في تيجان أعمدة الطابق الأرضي من المحكمة. (يُنظر الشكل رقم 43) و(تُنظر الصور رقم 29-48-164)

ومن خلال استعمالات هذا العنصر الزخرفي في الزخرفة تبين أن الفنان المسلم قد تأثر تأثرا كبيرا به، لأنه ذو أهمية وأصبح من الرموز المقدسة عند المسلمين، وذلك لارتباطه ببعض العبادات اعتمادا على قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِوَجْهِ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (1)، كما أصبح هذا الرمز حسب المعتقدات الشعبية خاتم سليمان يستعمل لكي يقيهم من العين والجن (2).

ب - النجوم:

النجمة هي عنصر هندسي تعدى استعماله كعنصر رمزي، ومن بين هذه النجوم النجمة الخماسية والمثمّنة، والنجوم على اختلاف أشكالها كانت تحمل معاني أسطورية وقرسية، فإذا كانت ترسم على مقياس الدائرة واشتقاقا منها، فإنها تحمل معان انطلاقا من الدائرة القدسية أيضا (3)، وكانت للنجوم معان مختلفة باختلاف عدد رؤوسها (4).

1- النجمة الخماسية: حملت رمز الإنسان أو الجسم الإنساني الكامل عند فيثاغور فالنجمة الخماسية تمثل الإنسان الكامل في الفلسفة الإغريقية، ويبقى هذا الإنسان محور

(1) - سورة البقرة: الآية 189.

(2) - خلاصي علي: المرجع السابق، ص 330.

(3) - عيسى أحمد محمد: المرجع السابق، ص 58.

(4) - بهنسي عفيف: الفن الإسلامي، ط 1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1986، ص 101.

2- النجمة المثلثة:

استعملت هذه النجمة في الجامع الكبير، وذلك في زخرفة الظلة الخشبية التي تعلوا المدخل الأصلي، وهي تظهر على شكل تقاطع مربعين يتوسطهما زهرة بعدة بتلات وأخرى موضوعة داخل زهرة عباد الشمس، كما نجد استعمالها في طاقية وأركان قبة محراب جامع عين البيضاء، وقد جعلت بداخلها زهرة من عدة بتلات، ملونة بعدة ألوان مختلفة. (تُنظَرُ الصورة رقم 51)

وعلى ضوء ما سبق لاحظنا أن النجمة المثلثة تتشكل من تداخل مربعين، وقد جعل لكل مربع رمزية خاصة به، فالمربع الأول يعبر عن القوى الأربعة في الطبيعة، فالضلع الأعلى يمثل الهواء، والضلع الأدنى يمثل التراب، والضلع الأول يمثل الماء والأيسر يمثل النار، والمربع الثاني يعبر عن الجهات الأربعة: الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتداخل المربعين يعني أن قوى الله فوق كل قوى الطبيعة، وهي منتشرة في جميع أنحاء الوجود، " **أَلِلَّهِ الْعِزَّةُ الْمُنِيرَةُ**، وبالإضافة إلى ذلك فقد قام المربع ومركباته بأدوار كثيرة في أكثر من ميدان في مساحاته وما يمكن أن يقام عليها من مربعات أصغر رسمت الطلاسم والتعاويذ وركبت الأرقام السحرية والأحاجي الحسابية، كما رمز إلى العناصر الأربعة الأساسية وهي الماء والهواء والنار والتراب⁽²⁾.

(1) - تعرف هذه النجمة بنجمة داوود أو خاتم سليمان، فقد حملت مع الأيام معنى آخر، ويعتبر اليهود أنفسهم صنوا للعالم أجمع، تبعاً لعقيدتهم الصهيونية بتفوق عنصرهم، وهي ناتجة عن تشابك وتداخل مثلثين، وهي تعبر عند المسلمين عن تداخل السماء والأرض لتشكل الحياة والرمز إلى الوجود الواحد، أما عند اليهود فيرون في المثلث الأول الهرمي رمزا للوجود اليهودي، أما المثلث الثاني الهرمي المقلوب فهو رمز للوجود الإنساني الآخر (الغوييم)، وبهذا فإن نجمة داوود تعبير عن سيطرة اليهود على العالم، ولتوضيح ذلك فإن رأس كل من المثلثين يمثل العقل في الوجوديين اليهودي والعالمي، ولكن العقل اليهودي هو السليم المتفوق (كذا)، والعقل العالمي متخلف مقلوب، أما القاعدة في المثلثين فإنها تمثل قطب المادة والطاقة لمزيد من المعلومات يُنظر: - بهنسي عفيف: الفن الإسلامي... المرجع السابق، ص 102.

(2) - فاجة جمعة أحمد: المرجع السابق، ص 392.

خاتمة:

توصلنا من خلال هذا البحث الذي قمنا به حول عمران مدينة معسكر كدراسة أثرية
عمرانية ومعمارية إلى مجموعة من النتائج، والتي تنحصر أساسا في عدة نقاط مهمة
وأساسية تتمثل في:

- يعتبر الموقع الجغرافي الذي تحتله منطقة معسكر من بين المواقع الإستراتيجية الموجودة
في الجزائر، والتي استقطبت الإنسان منذ فترة ما قبل التاريخ إلى الفترة الإسلامية، وذلك
راجع إلى توفرها على كل الشروط الأساسية التي يجب أن تراعى في قيام المدن، إذ أنها
تعتبر كنقطة وصل بين المدن الكبرى من مدينة تلمسان إلى مدينة تيهرت ومن مدن
الشمال كمدينة وهران ومستغانم والمناطق الجنوبية، وذلك ما انعكس عليها إيجابا من
الناحية الاقتصادية في تنشيط المعاملات التجارية في أسواقها التي صارت مشهورة بين
التجار، مما ساهم في تحسين الظروف الاجتماعية للسكان.

- توفر المدينة على الماء من عيونها العذبة، الذي يعد الشرط الحيوي والأساسي لحياة
سكانها، وكذا سهولة الحصول على الميرة لكون المنطقة زراعية بآتم معنى الكلمة، فسهل
غريس كان يوفر حاجياتها الغذائية لسكانها ولسائمتهم، وكذلك توفر مصادر الطاقة مثل
الخشب وغيره.

- كان اختيار مدينة معسكر خلال الفترة الرومانية والإسلامية كمنطقة مراقبة لكل تحركات
القبائل المعادية لنظام حكمهم، والمتمركزة في السهول والقرى المجاورة لها، وذلك
لتموقعها فوق هضبة ذات ارتفاع جيد صالح لتغطية كل ضواحيها، بالإضافة إلى أنها
محصنة تحصينا طبيعيا بجمال بني شقران ذات المسالك الوعرة، إذ من الصعب على أي
كان اجتيازها في حالة الحراسة والمراقبة.

- تضارب الآراء حول أصول تسمية مدينة معسكر وما صاحبها من اختلاف في الرؤى
وبعد البحث والتحري قمنا بفك اللغز الذي ينتاب ذلك بالاعتماد على الشواهد المادية
والأثرية والنصوص التاريخية ومقارنتها، حيث توصلنا إلى أن تسميتها الأولى هي

منها على وجه الخصوص الثورة الدقاوية والتجانية، وقد نتج عن ذلك تخريب الكثير من منشآتها المعمارية.

- استعادة مدينة معسكر لمكانتها المفقودة في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، حينما بوع الأمير عبد القادر كأمر على الجزائر، حيث اتخذها عاصمة للدولة الجزائرية الحديثة وكنقطة انطلاق لمقاومة الجيوش الفرنسية.

- تشابه تخطيط مدينة معسكر مع تخطيط مدن الجزائر إلى حد كبير من ناحية الهيكل العام، وذلك في توسط المسجد الجامع ودار الباي للمدينة، وجعل المساكن في انعزال عن المراكز العامة، وتحصين المدينة بالأسوار المدعمة بأبراج للمراقبة، وأبواب رئيسية محدودة العدد للتمكن من مراقبة ومعرفة الخارج والداخل من وإلى المدينة.

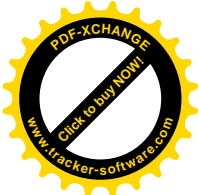
- يعتمد تكوين النسيج العمراني للمدينة على الرحبات، وهي طريقة اعتمدها البايات في توسيعها وتطويرها، بسبب كثرة الوافدين والطالبين للسكن والاستقرار فيها، خاصة في فترة حكم الباي محمد الكبير، الذي أنشأ رجة عين البيضاء لتخفيف الضغط على مركز المدينة.

- احتفاظ المدينة بعدد معتبر من المنشآت المعمارية التي تعود إلى الفترة العثمانية، رغم حملات الطمس والتهديم التي صاحبت احتلالها من طرف الجيش الفرنسي، حيث كانت المنشآت الدينية والتعليمية والمنشآت الإدارية من الأهداف الأولى في هذه العملية كالمدرسة المحمدية وفندق الجيش والجامع العتيق وأبراج المدينة.

- تنوع المنشآت المعمارية في المدينة، حيث أنها جمعت بين الدينية والمدنية والعسكرية كما تأثرت في مخططاتها بالطراز المحلي والعثماني، مثلما يظهر ذلك في الجامع الكبير ذو الطراز المحلي في تخطيط بيت الصلاة القائم على الأعمدة وشكل المئذنة المربعة وكذلك الطراز العثماني الوافد في جامع عين البيضاء، وذلك في الاعتماد على القبة المركزية في تخطيط بيت الصلاة وفي شكل المئذنة الأسطواني.

- احتضنت هذه المنشآت عدد كبير من العلماء، الذين ساهموا في تنشيط الحركة الثقافية وتكوين وتأطير عدد معتبر من الطلبة، الذين كان لهم دور كبير في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني نهائياً.
- اشتهرت المراكز التعليمية بمدينة معسكر بنظام تعليمي جعلها تنافس دروس الجوامع والمدارس الكبرى في المغرب العربي عامة والجزائر خاصة، فكانت المدرسة المحمدية خير دليل على مدى تطور المستوى التعليمي، اعتماداً على ما قاله المؤرخ ابن سحنون الراشدي: "كاد العلم أن ينفجر من جوانبها".
- إن هذا الزخم الثقافي لم يكن محض الصدفة، بل كان نتيجة عوامل عديدة منها تشجيع الحكام والسلاطين للعلم والعلماء، خاصة الباي محمد الكبير، فقرب إليه العلماء وخصهم بمكانة مرموقة، كما منح المناصب القيادية وأغدق عليهم المنح والهدايا، نذكر منهم على سبيل المثال: العالم محمد بن عبد الله الجلاي، الذي عُيّن كمدير على رأس المدرسة المحمدية وكرئيس للطلبة في رباط وهران، وهذا ما زاد من عدد العلماء بهذه المنطقة لاستحسانهم لهذا الباي، فكانت منطقة معسكر بحق منارة علمية.
- اشتهرت معسكر بكثرة الأضرحة في العهد العثماني، وذلك مرتبط باحتضانها للعلماء والصالحين، الذين كرسوا حياتهم للتدريس ومহারبة البدع والخرافات، الأمر الذي دفع بأهلها لتكريمهم وتخليد ذكراهم ببناء الأضرحة، وكذلك خصّهم بالزيارات والصدقات للتبرك بهم.
- قلة الثراء الزخرفي في منشآت المدينة بالمقارنة مع مدن العواصم، كمدينة الجزائر وقسنطينة، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى أعمال الطمس التي قام بها الاحتلال، وكذلك التغييرات التي أحدثها أهالي المدينة بعد الاستقلال، وما بقي منها نجده في الجامع الكبير وجامع عين البيضاء، فهو يعبر عن مدى التأثير بالفن العثماني، وذلك يظهر في المربعات الخزفية في بيت صلاة الجامع الكبير وفي الزخرفة الجصية التي تزيّن محراب جامع عين البيضاء وقبته، وقوام هذه الزخارف أزهار مثل زهرة اللاله والقرنفل وشجرة السرو وأشكال رمزية مثل الهلال والنجوم واليد المشرعة، وزخرفة كتابية شكلت من خط الثلث.

- تتميز دور مدينة معسكر بعدم التعقيد في تصميمها، وخضوعها للنمط الإسلامي المعروف بطابق وفناء مكشوف، ومراعاة تعاليم الدين الإسلامي في بنائها، وتأثيرها بالعوامل الطبيعية في عملية بنائها، مثل جعل السقوف جمالونية والاكتفاء بطابق واحد.
- تأثر دور معسكر بقصور ومساكن مدينة الجزائر من حيث التصميم العام، وبساطة عناصرها المعمارية، والاكتفاء باستعمال المواد الأقل تكلفة مثل الحجر الجيري.
- كثرة الحمامات العامة في معسكر وتشابه مخططاتها مع المخططات المعروفة في الحمامات القديمة، خاصة منها الرومانية وكذلك الإسلامية، ومراعاة كل الشروط الضرورية لصحة الأبدان وراحة الأذهان.
- اكتشاف أخطاء جسيمة في عملية ترميم بعض منشآت المدينة مثل دار الباي والمحكمة وهذه الأخطاء ناجمة عن اللاوعي وإشراف أناس غير متخصصين في هذا المجال، مما نتج عن ذلك طمس بعض العناصر المعمارية والفنية، كما أدى إلى إعادة ترميمها مرة أخرى.
- استعمال العناصر المعمارية القديمة والإسلامية المحلية في بناء منشآت المدينة.
- ومن خلال المعاينة العامة لمنشآت مدينة معسكر، لاحظنا أن صورتها المعمارية والفنية تزداد سوءا يوما بعد يوم، وذلك يعود إلى التغييرات والتجديدات التي تتعرض لها عشوائيا، في غياب تدخل المصالح المعنية بذلك، نظرا لغياب الترميم من جهة ومساهمة السكان القاطنين بداخلها من جهة أخرى.
- وفي الأخير نتمنى أننا قد ساهمنا ولو بالقدر القليل في إعطاء الموضوع حقه من الدراسة حول هذه المدينة العريقة والضاربة بجذورها في التاريخ، وكذلك لمنشآتها التي مازالت صامدة أمام كل عوامل التلثف والاندثار، وهذه خطوة أولى قد تفتح الباب بمصراعيه أمام المزيد من البحث والدراسة للمتخصصين والمهتمين بهذا المجال، للمساهمة في إنقاذ معالم المدينة بترميمها وصيانتها.



μ Υΰ •A



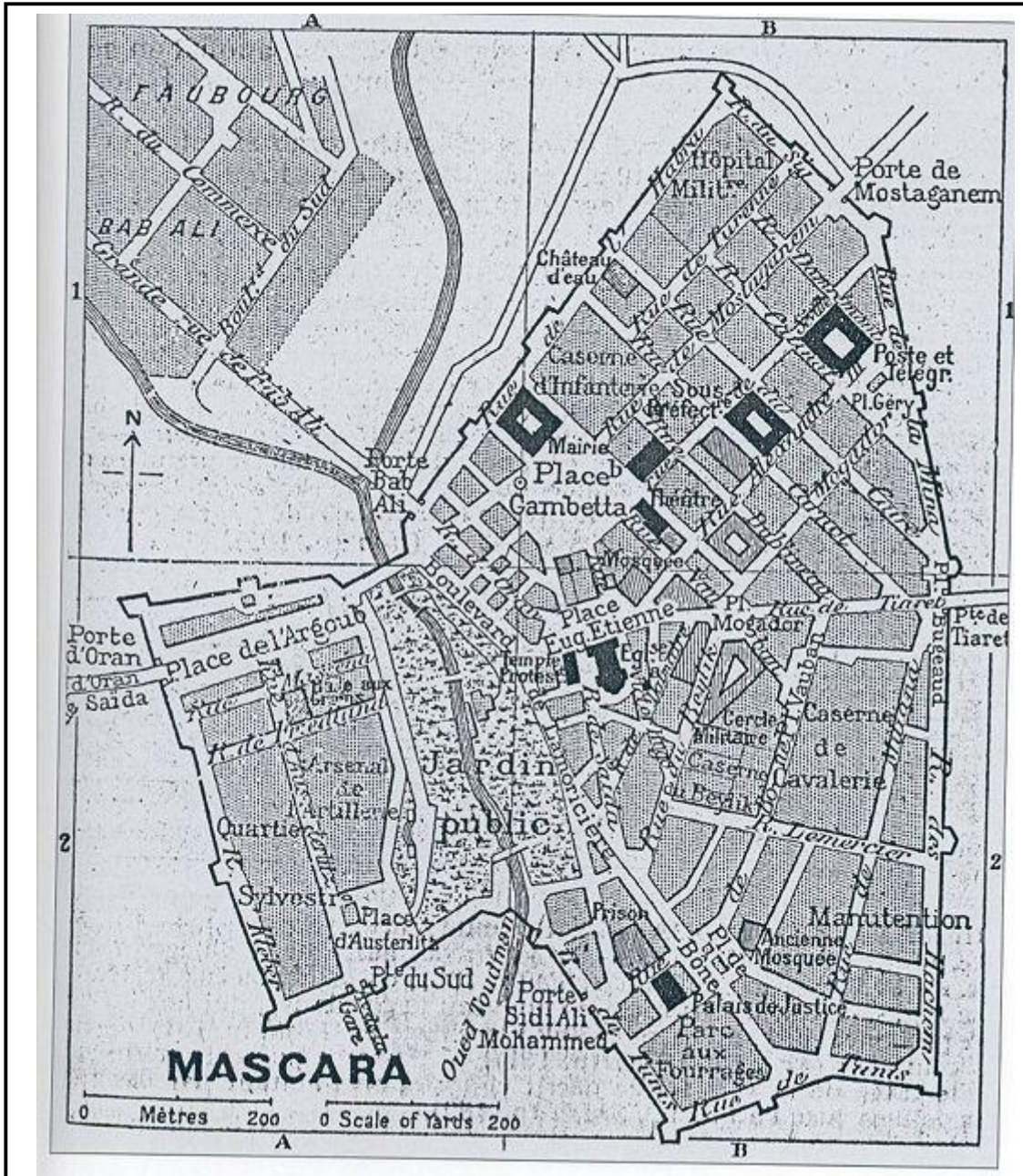
3/4B_s qPÆ i Ö[^]Aμ Z1/4
iìv ✕Æ



Plan de Mascara en 1916

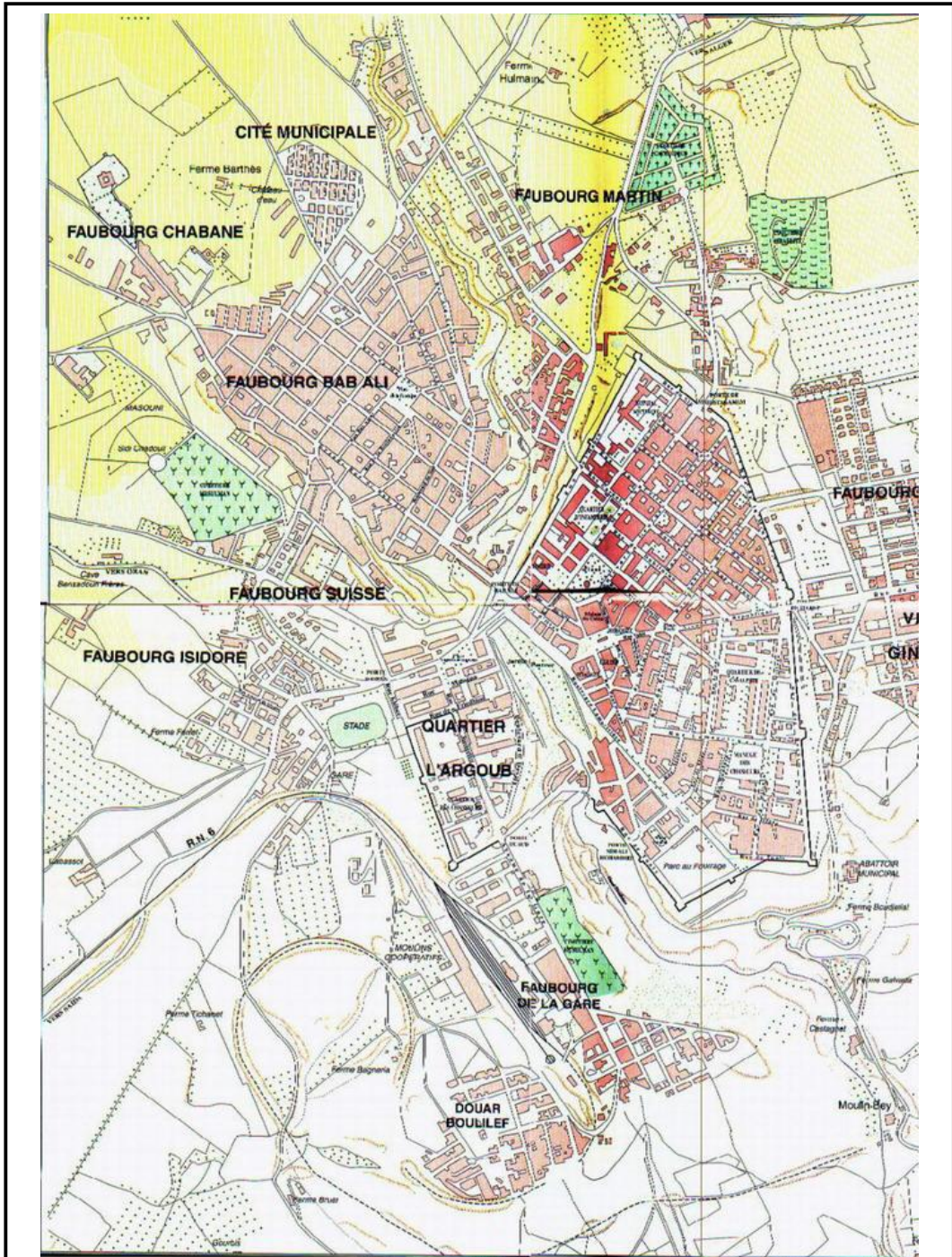
الشكل رقم (02): مخطط مدينة معسكر في سنة 1916م خلال فترة الاحتلال الفرنسي مأخوذ عن:

TEDDY Alzieu: L'est de l'Oranie de Relizane à Mascara et Saida, édition Alain sutton, 2005, p92.

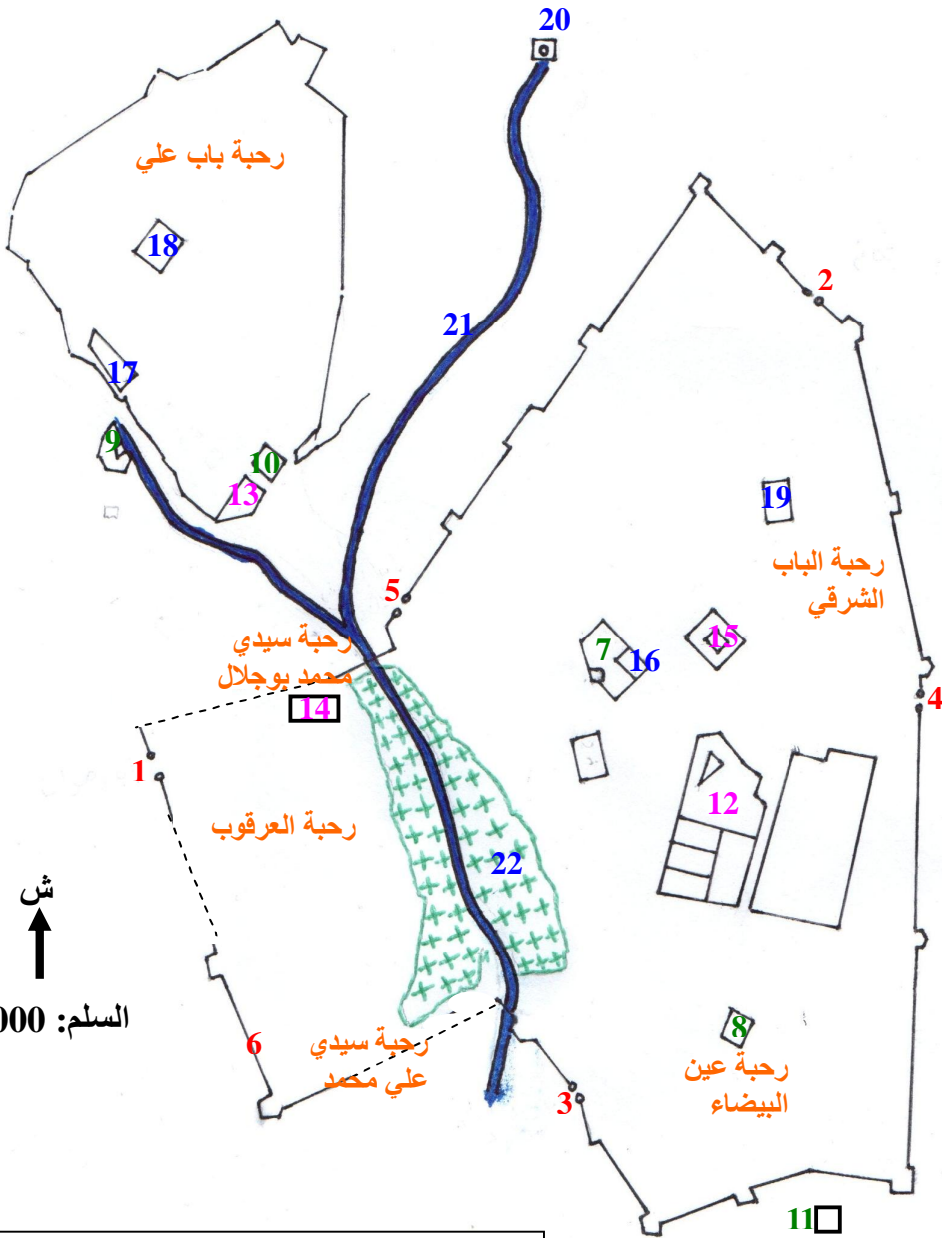


الشكل رقم (03): مخطط مدينة معسكر في سنة 1935م خلال فترة الاحتلال الفرنسي مأخوذ عن:

TEDDY Alzieu: Op.cit, p93.



الشكل رقم (04): النسيج العمراني الحالي لمدينة معسكر



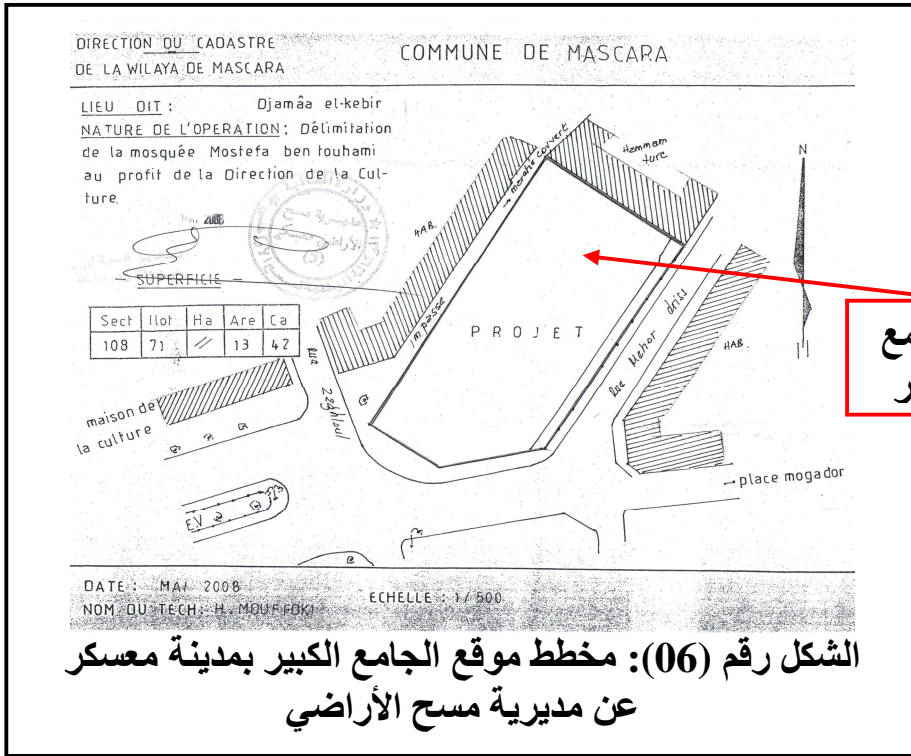
المسلم: 1/5000

- 22- الحديقة
- 11- ضريح سيدي موفق
- 12- دار الباي
- 13- دار الميزابي
- 14- منزل الباي
- 15- المحكمة الرئيسية
- 16- حمام البركة
- 17- حمام القرشالي
- 18- حمام حمزة
- 19- حمام الازدهار
- 20- عين السلطان
- 21- وادي تودمان

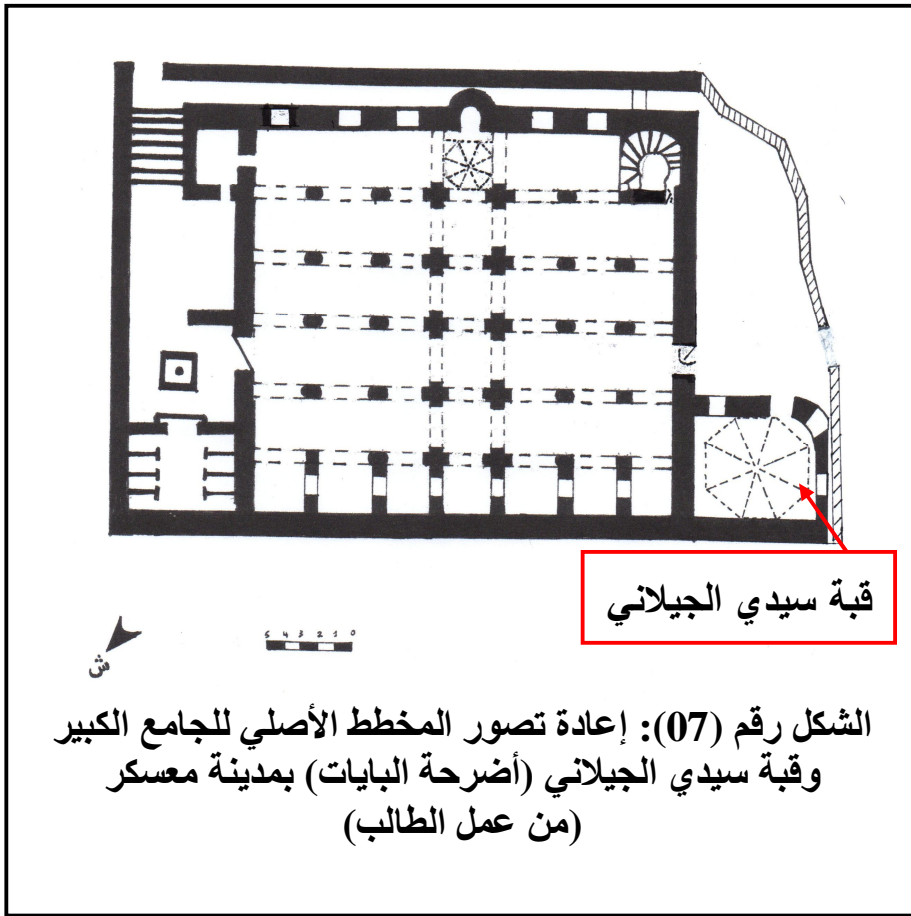
- 1- باب وهران
- 2- باب مستغانم
- 3- باب سيدي علي محمد
- 4- باب تيارت
- 5- باب علي
- 6- بقايا السور الخارجي
- 7- الجامع الكبير
- 8- جامع عين البيضاء
- 9- زاوية وضريح سيدي بوسكرين
- 10- زاوية وضريح أبي راس الناصري

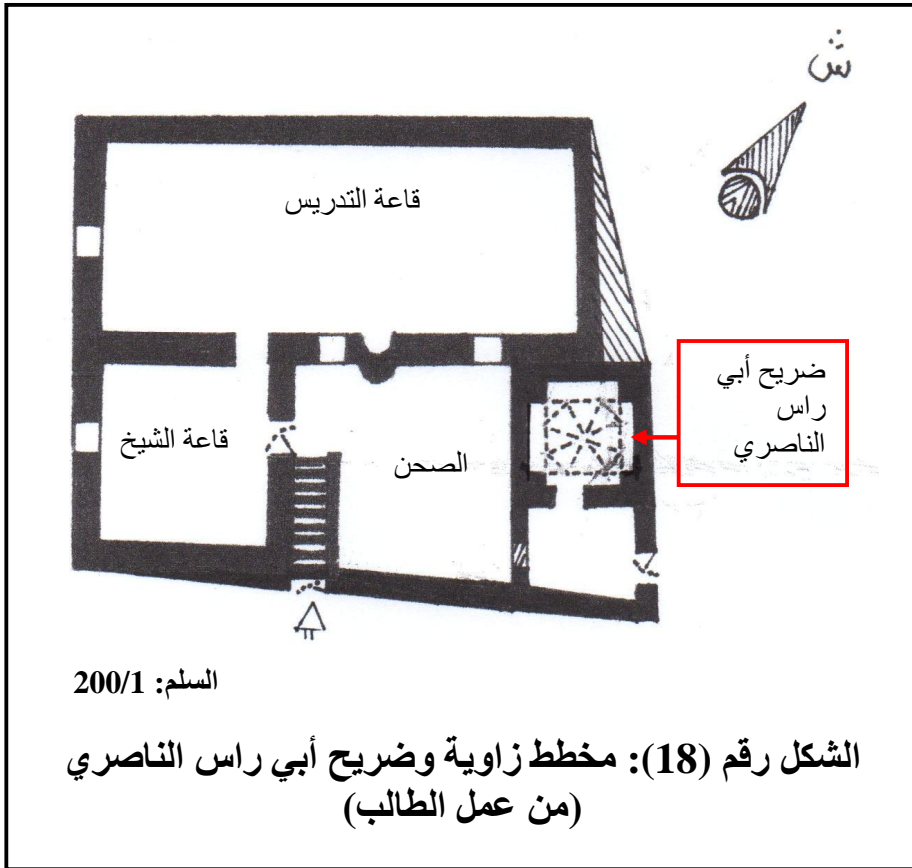
الشكل رقم (05): مواقع المنشآت المتبقية من الفترة العثمانية في مدينة معسكر

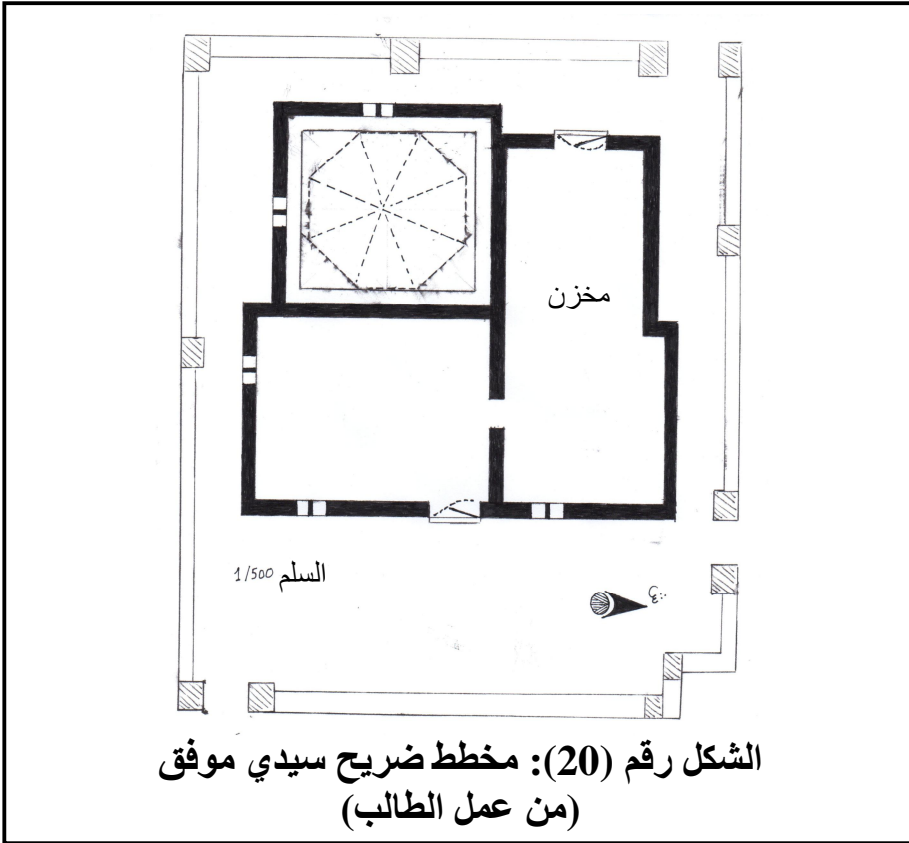
(من عمل الطالب)

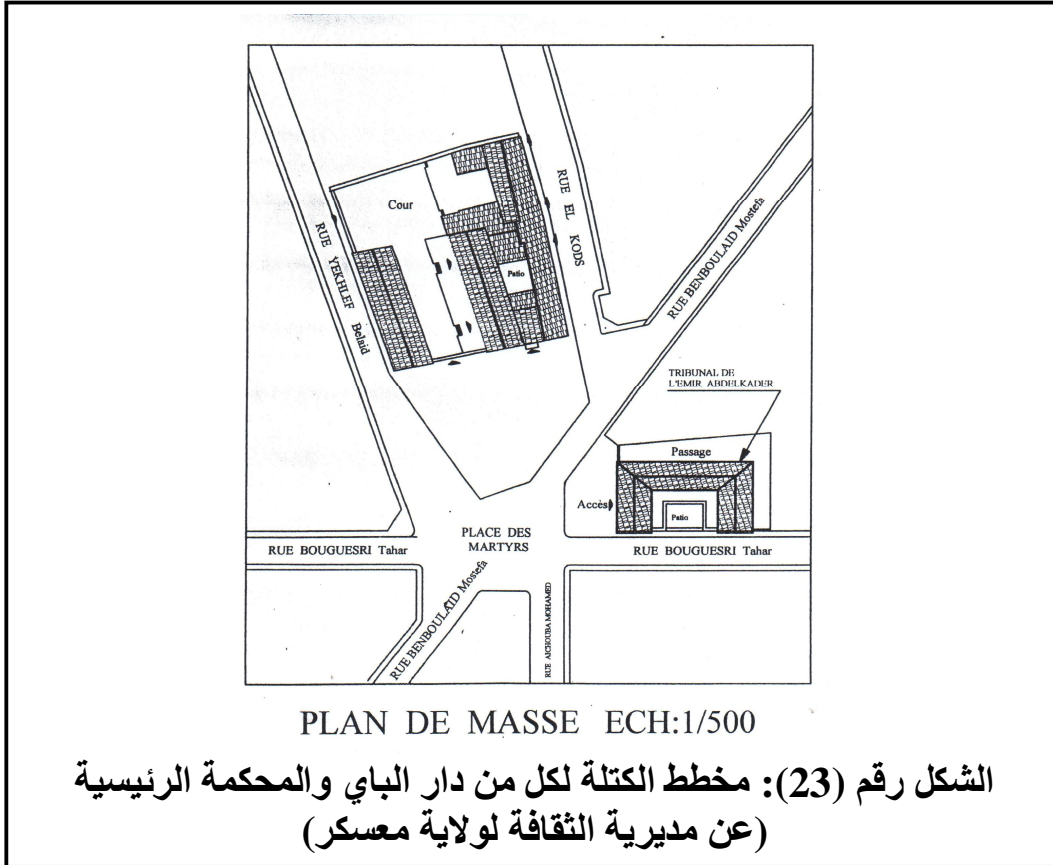


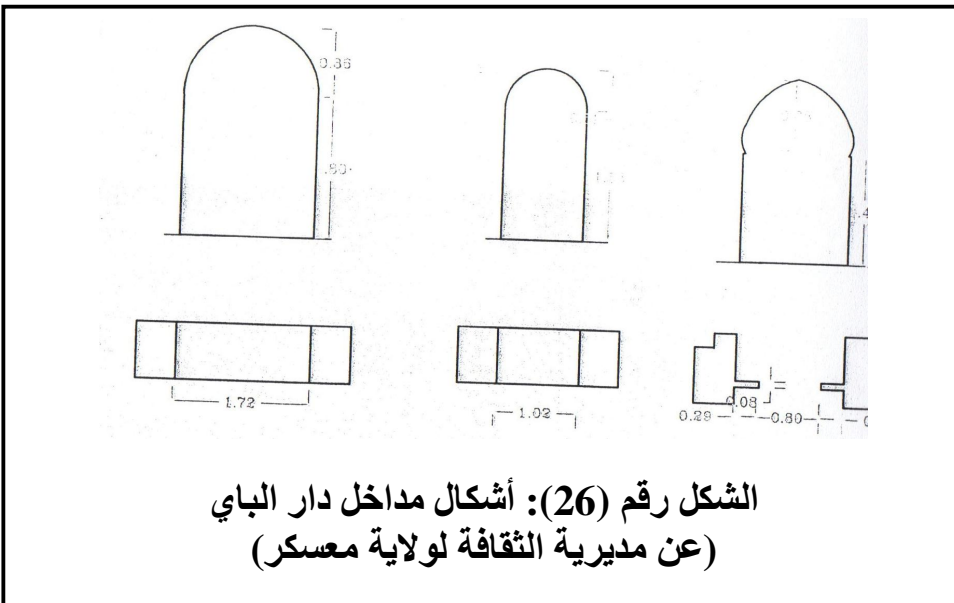
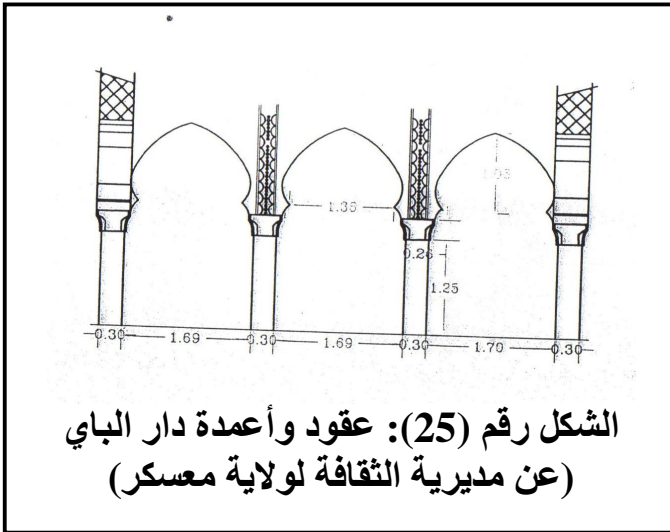
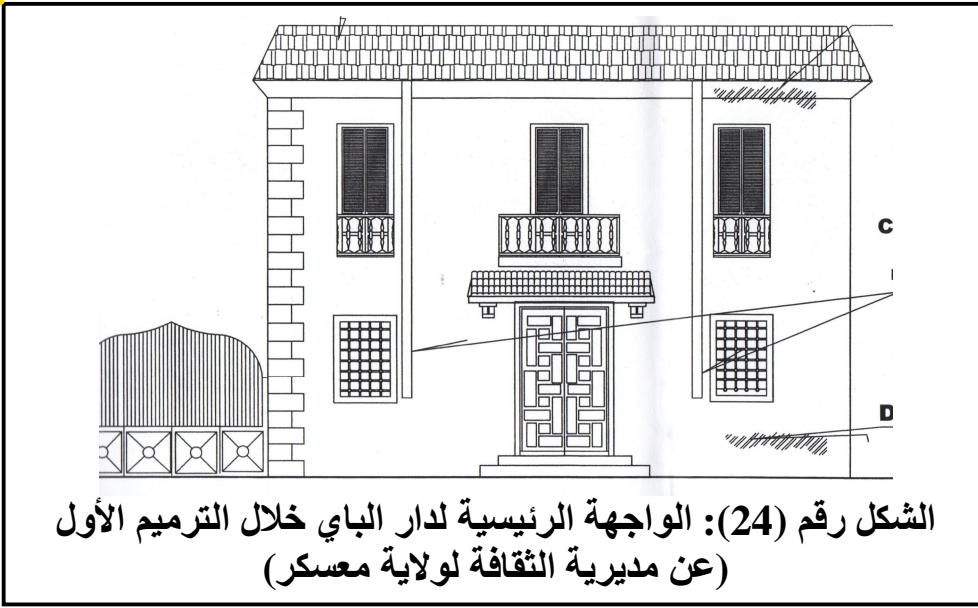
الجامع
الكبير



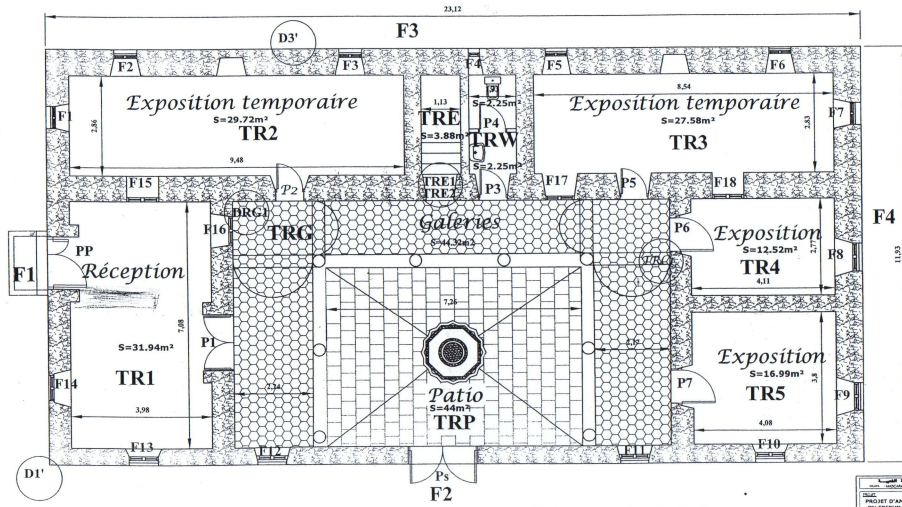








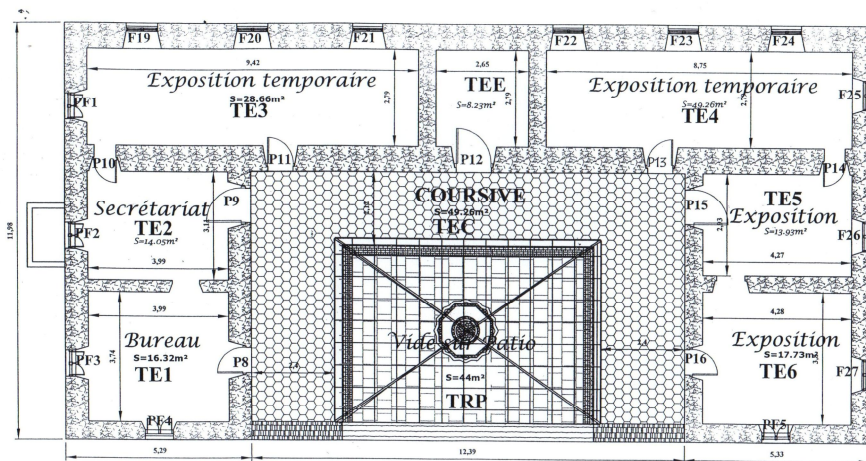
PROJET D'AMENAGEMENT ET RESTAURATION DU TRIBUNAL DE L'EMIR AEK DE MASCARA



PLAN DU RDC

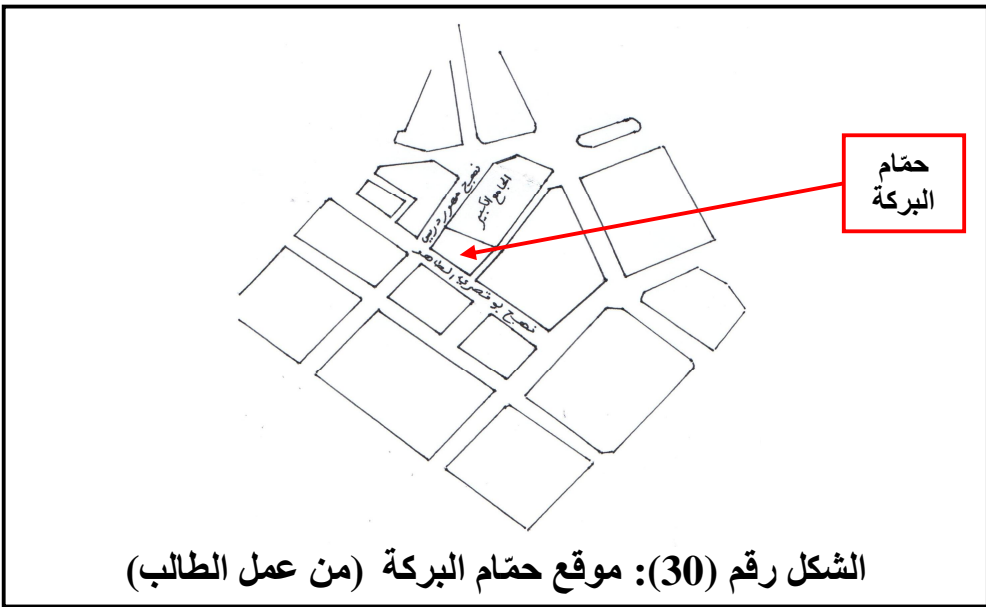
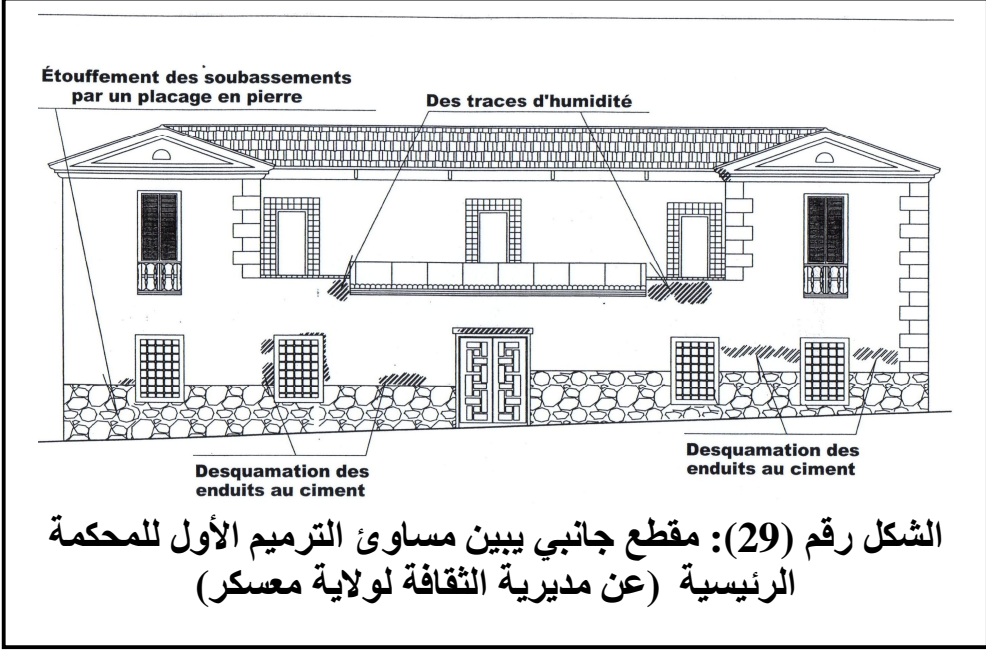
الشكل رقم (27): مخطط الطابق الأرضي للمحكمة الرئيسية
(عن مديرية الثقافة لولاية معسكر)

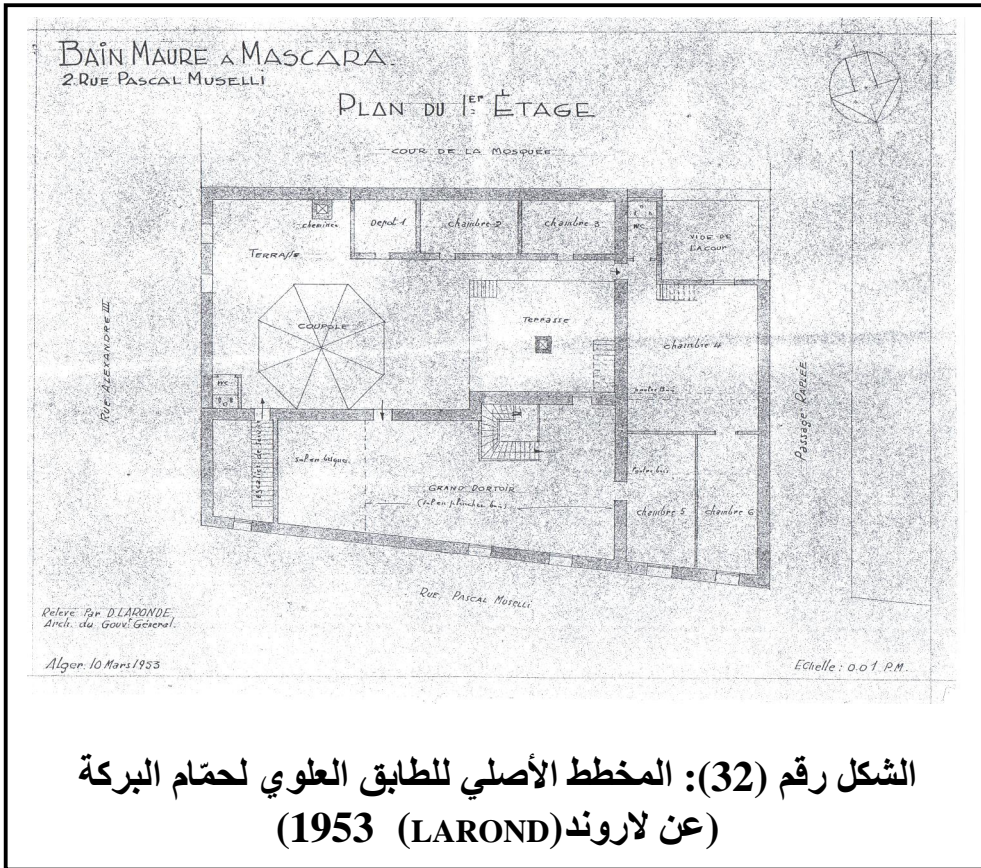
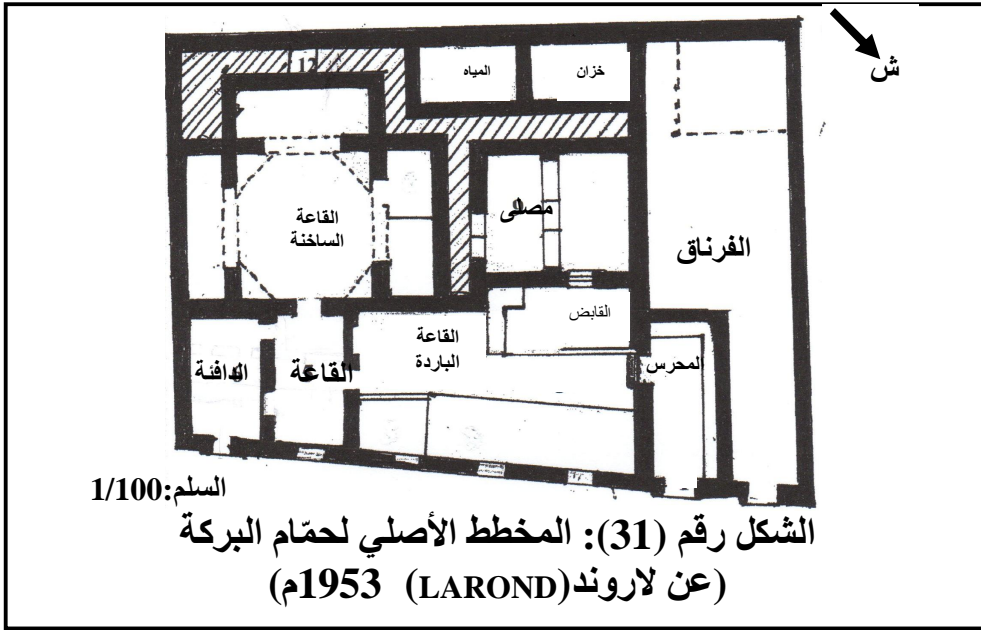
PROJET D'AMENAGEMENT ET RESTAURATION DU TRIBUNAL DE L'EMIR AEK DE MASCARA



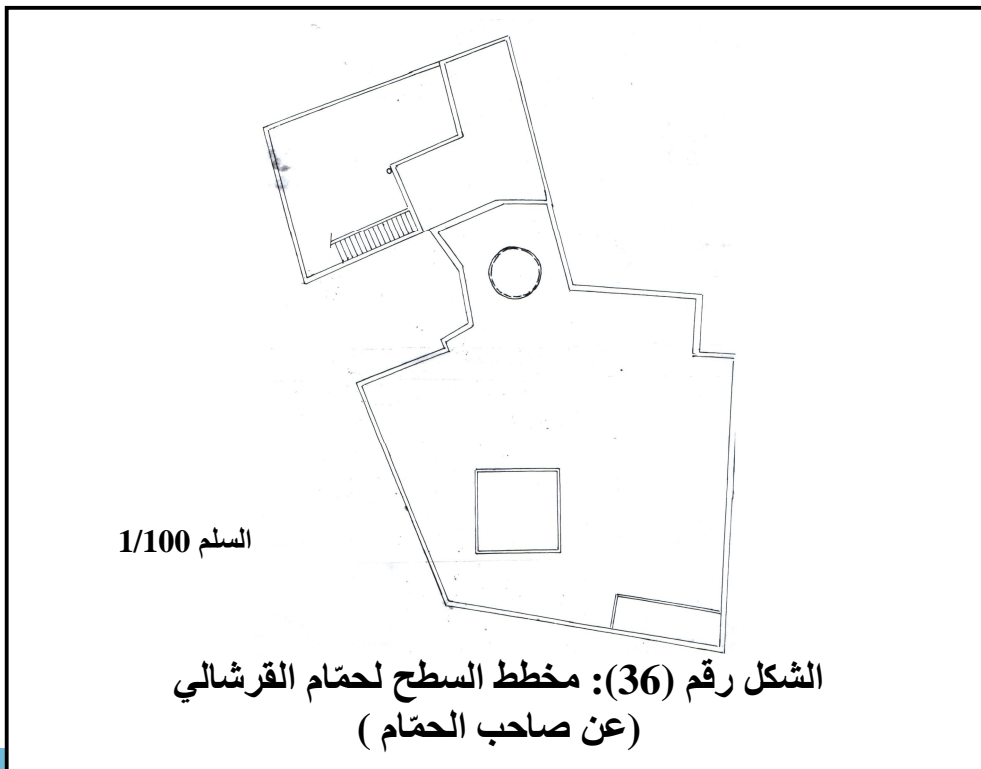
PLAN DU 1ER ETAGE

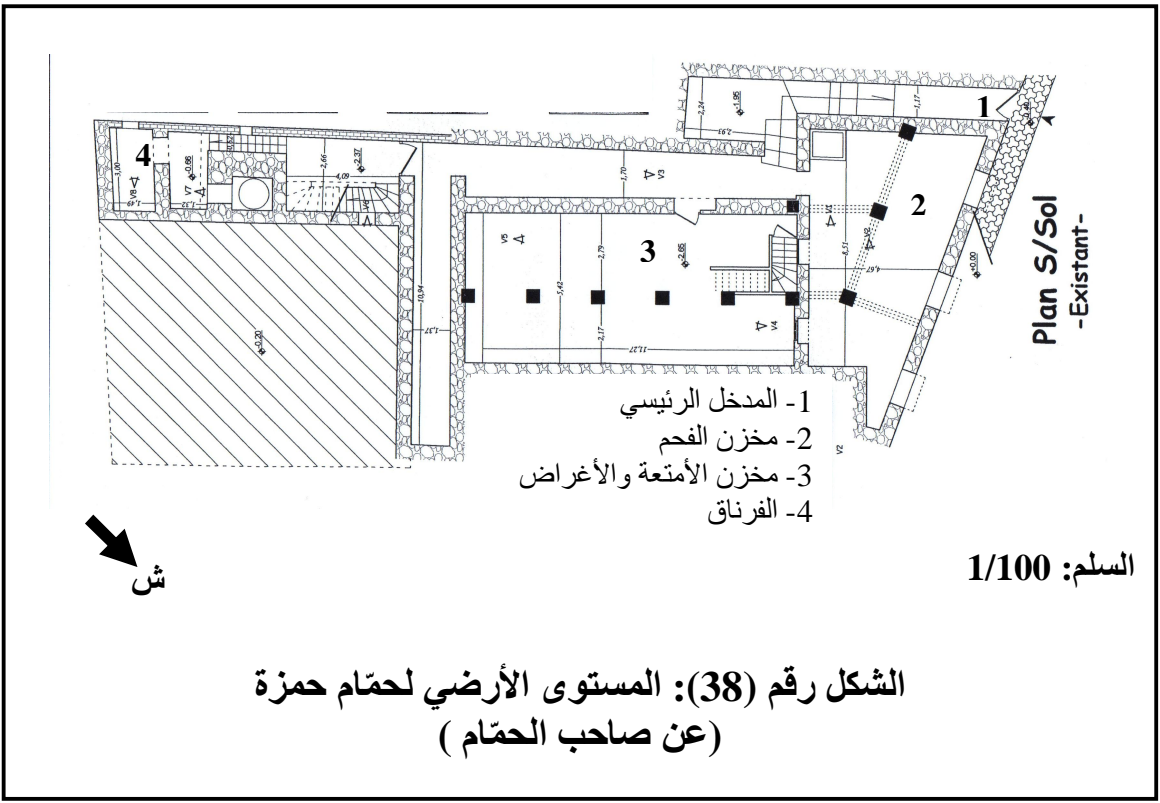
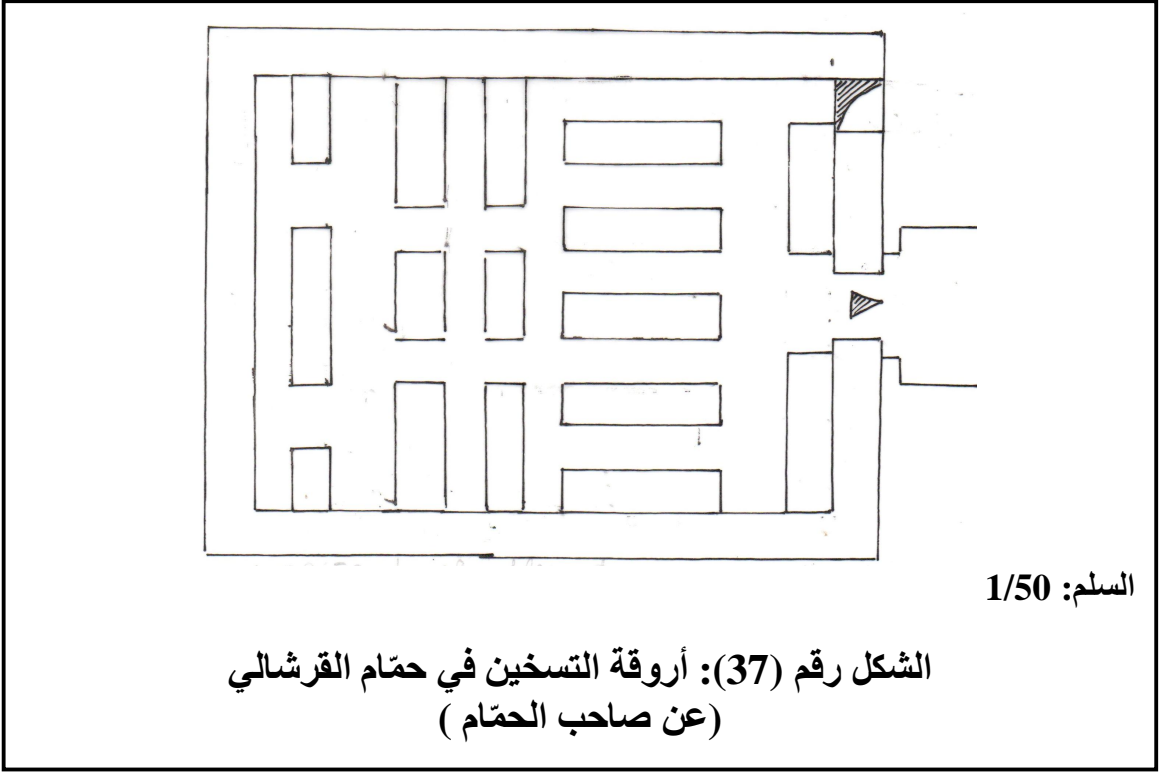
الشكل رقم (28): مخطط الطابق العلوي للمحكمة الرئيسية
(عن مديرية الثقافة لولاية معسكر)

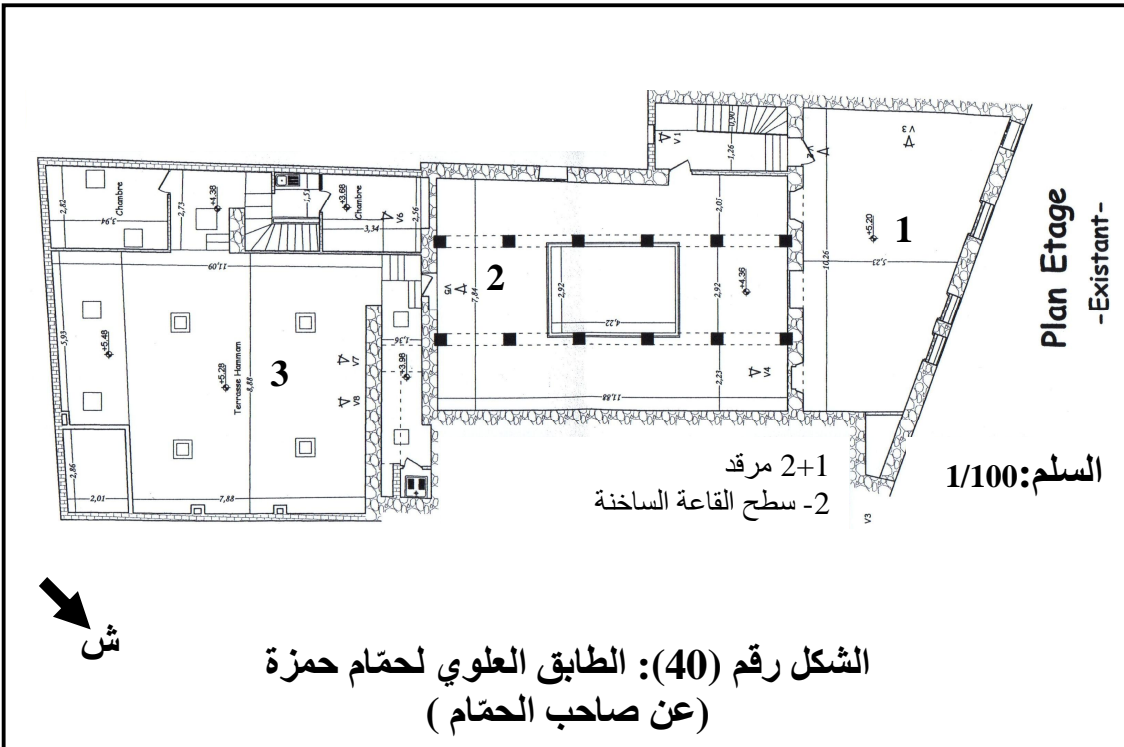
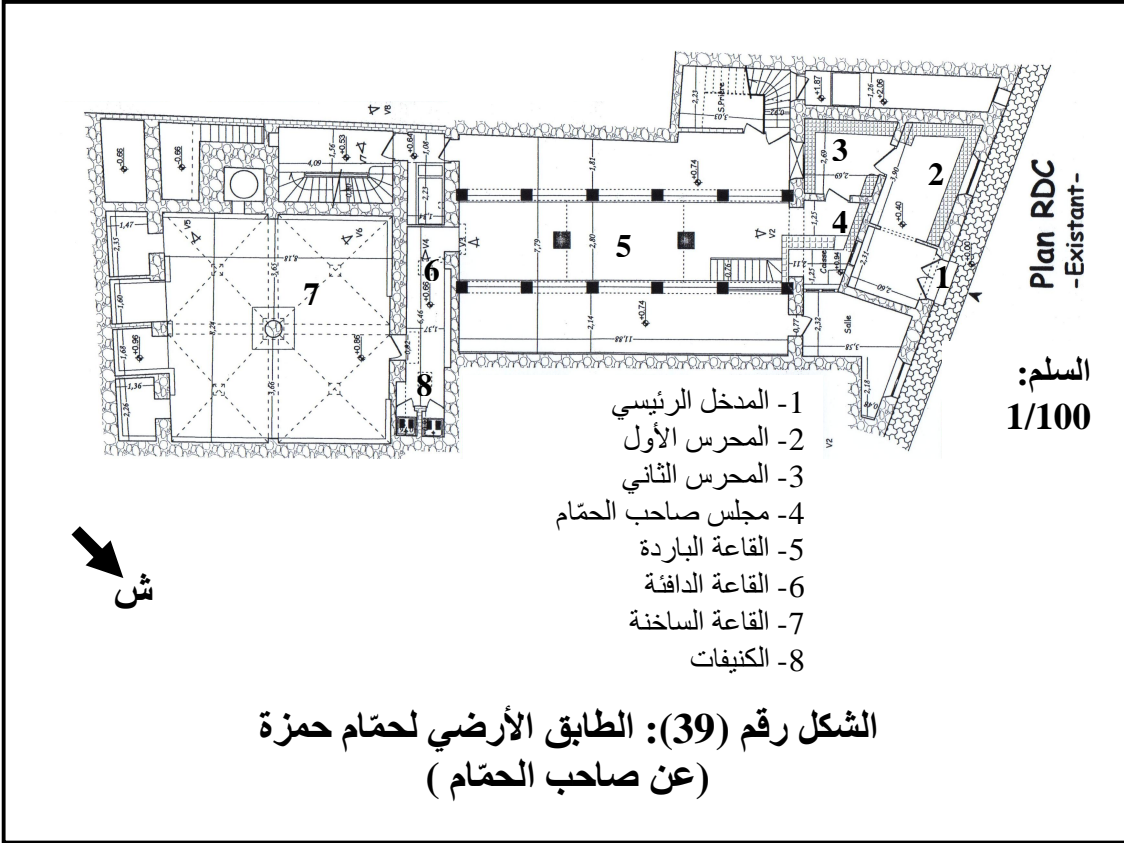


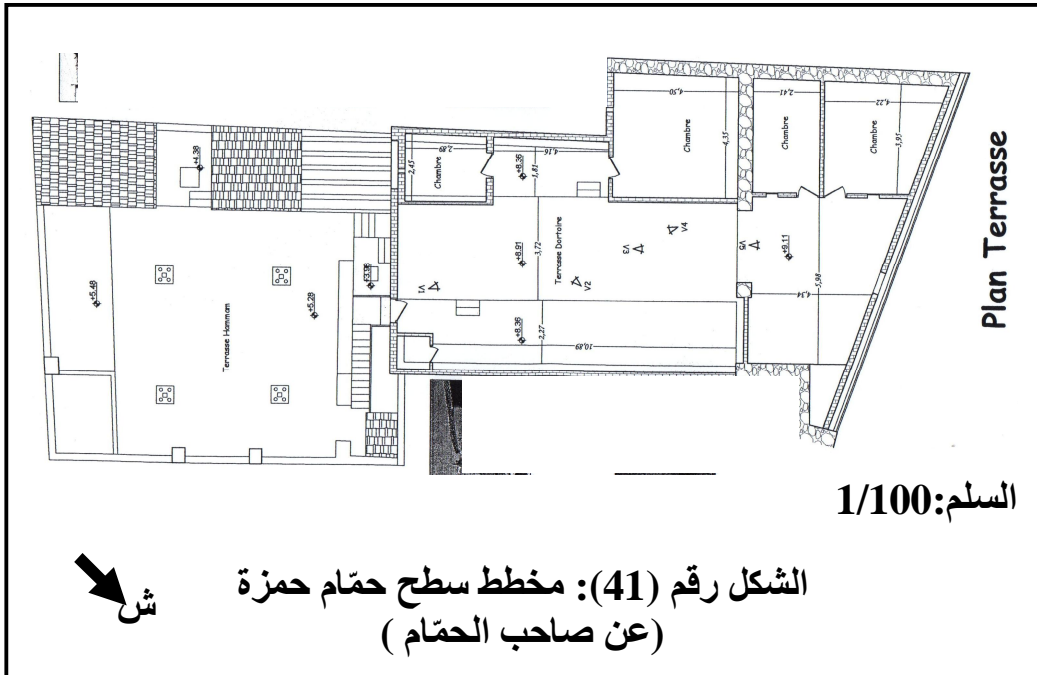


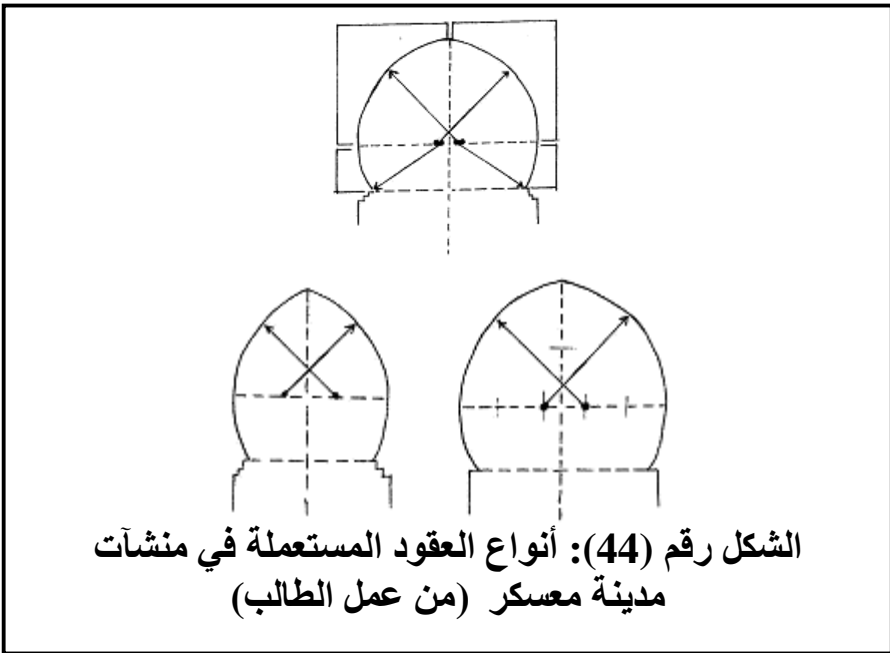
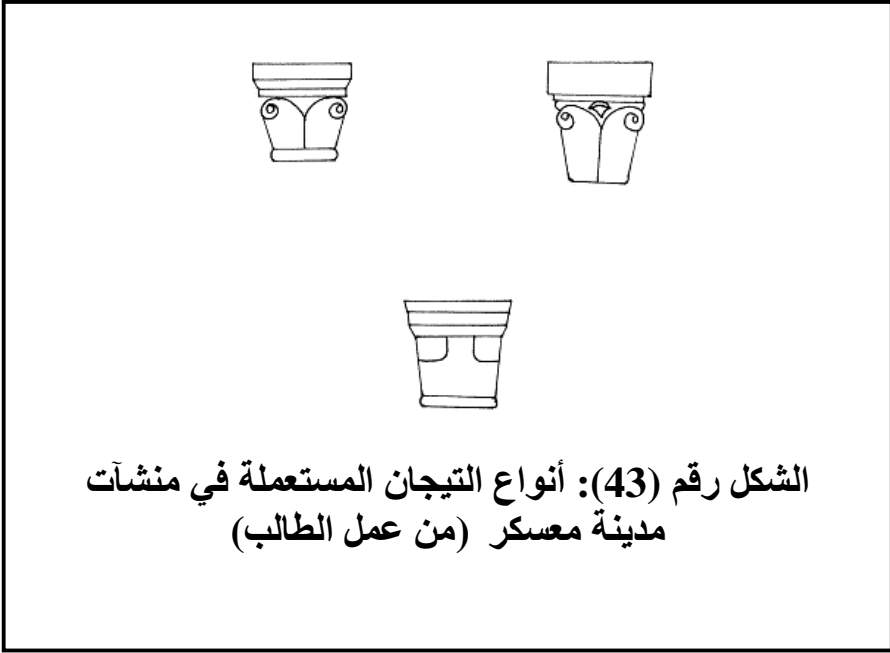
الشكل رقم (32): المخطط الأصلي للطابق العلوي لحمام البركة
(عن لاروند (LAROND) 1953)

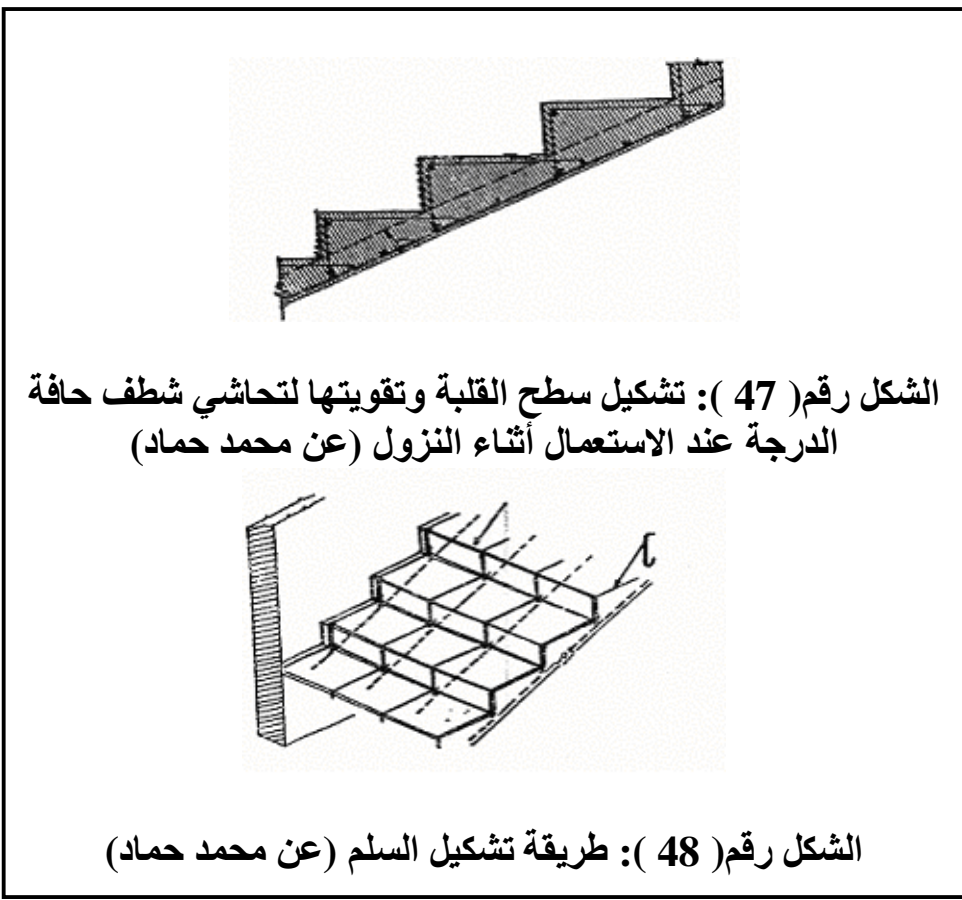
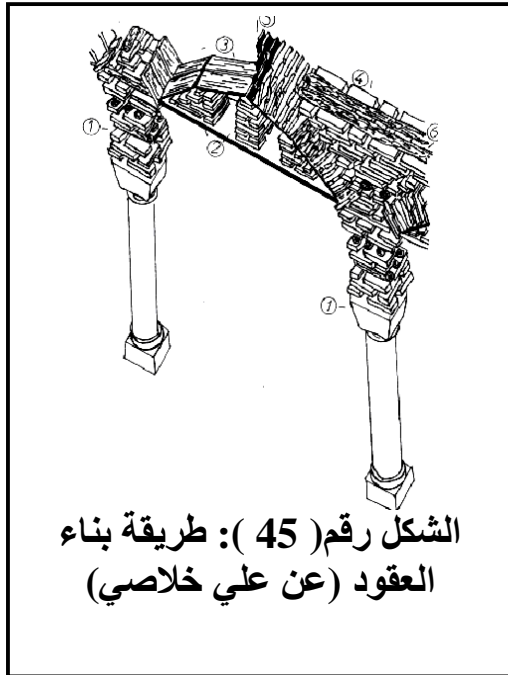


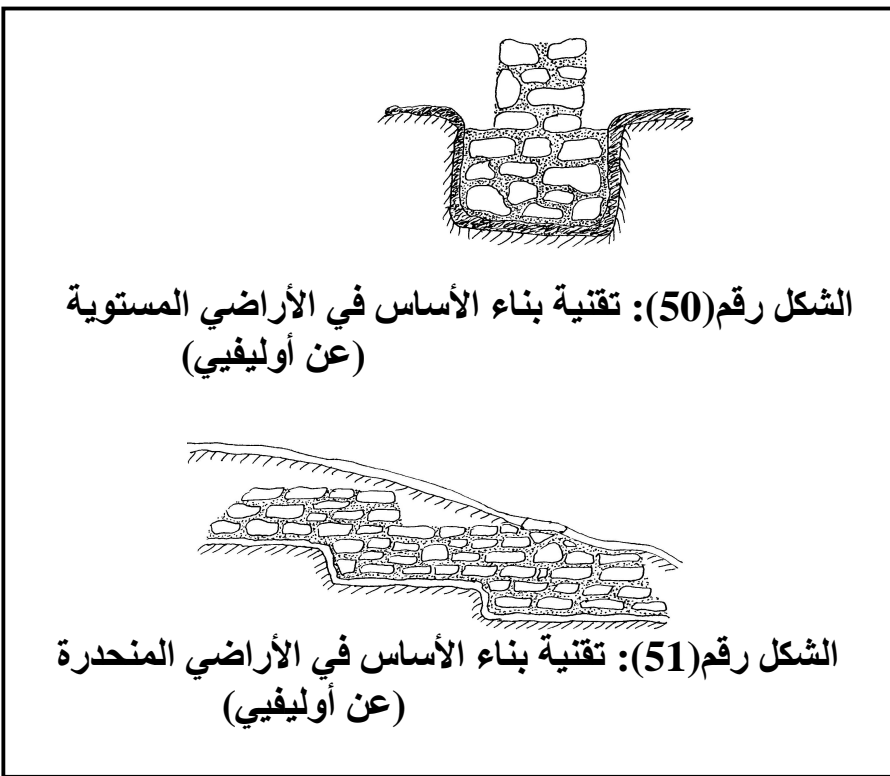
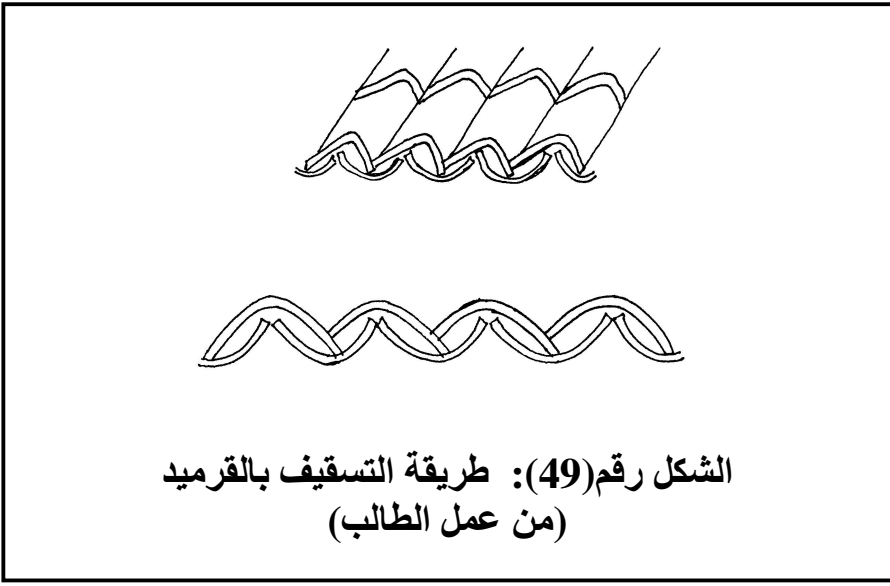


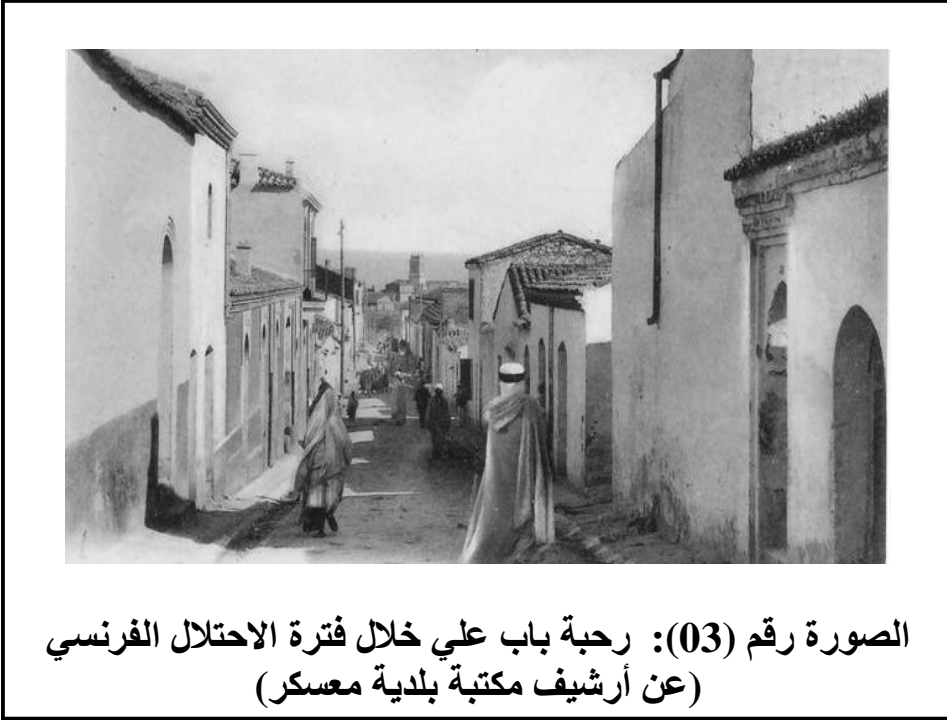








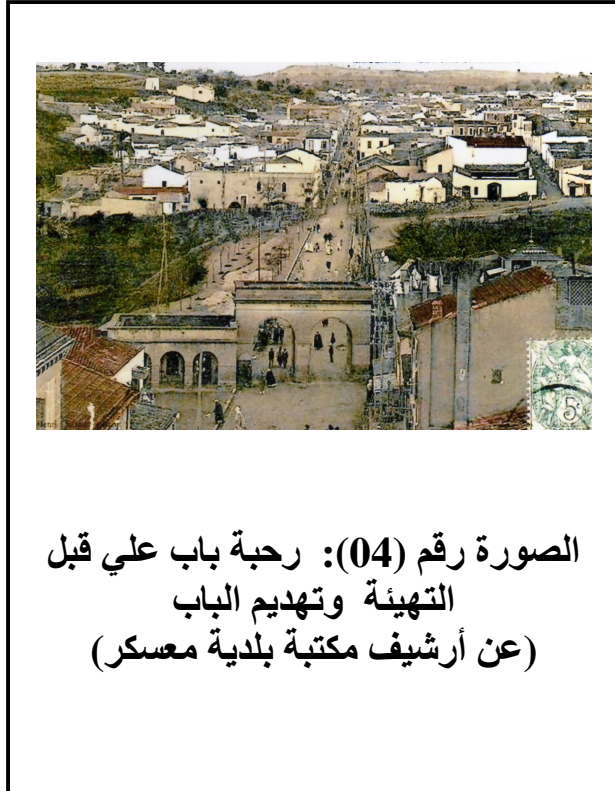




الصورة رقم (03): رحبة باب علي خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (05): نموذج من
أزقة المدينة الحالية في رحبة
باب علي



الصورة رقم (04): رحبة باب علي قبل
التهينة وتهديم الباب
(عن أرشيف مكتبة بلدية معسكر)



الصورة رقم (17): اللوحة التأسيسية الثانية المثبتة في قبة محراب الجامع الكبير



الصورة رقم (16): اللوحة التأسيسية الأولى المثبتة في المدخل الرئيسي للجامع الكبير



الصورة رقم (19): المدخل الرئيسي للجامع الكبير بعد التوسعة خلال الفترة الحالية



الصورة رقم (18): المدخل الرئيسي الأصلي للجامع الكبير وفوقه اللوحة التأسيسية الأولى



الصورة رقم (21): الجامع الكبير
ومئذنته خلال فترة الاحتلال
الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة مدينة معسكر)



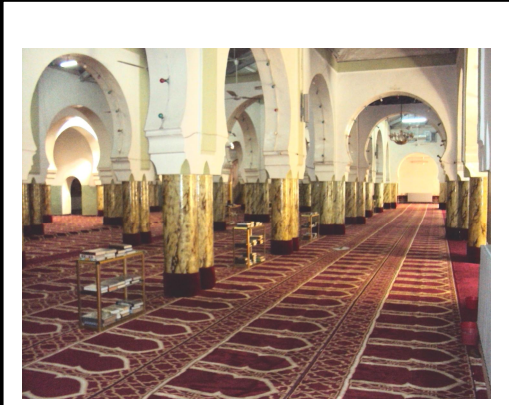
الصورة رقم (20): الجامع الكبير وجواره
قبة سيدي عبد القادر الجيلاني
خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(عن أرشيف مكتبة مدينة معسكر)



الصورة رقم (23): المدخل الثاني
للجامع الكبير



الصورة رقم (22): الواجهة الجنوبية
الشرقية للجامع الكبير



الصورة رقم (25): بيت صلاة
الجامع الكبير



الصورة رقم (24) اللوحة التأسيسية
لقبة سيدي عبد القادر الجيلاني



الصورة رقم (27): محراب
الجامع الكبير



الصورة رقم (26): البلاطة
المستعرضة في بيت
صلاة الجامع الكبير



الصورة رقم (29): قبة المحراب
في الجامع الكبير



الصورة رقم (28): المظهر
الخارجي لمحراب الجامع
الكبير



الصورة رقم (31): الأعمدة المزدوجة
في الجامع الكبير



الصورة رقم (30): نموذج
من العقود والدعامات في
الجامع الكبير



الصورة رقم (33): رواق في مؤخرة
الجامع الكبير



الصورة رقم (32): الأعمدة
الأربعة المجمععة في الجامع
الكبير



الصورة رقم (35): نموذج من نوافذ الجامع الكبير



الصورة رقم (34): المربعات الخزفية التي تزين الجدار الشمالي الغربي في الجامع الكبير



الصورة رقم (37): مئذنة الجامع الكبير



الصورة رقم (36): التسقيف الجمالوني باستعمال القرميد في الجامع الكبير



الصورة رقم (39): الواجهة الرئيسية
لجامع عين البيضاء خلال فترة
الاحتلال الفرنسي
(أرشيف مكتبة مدينة معسكر)



الصورة رقم (38): جامع عين البيضاء
خلال فترة الاحتلال الفرنسي
(أرشيف مكتبة مدينة معسكر)



الصورة رقم (41): الواجهة الرئيسية
لجامع عين البيضاء



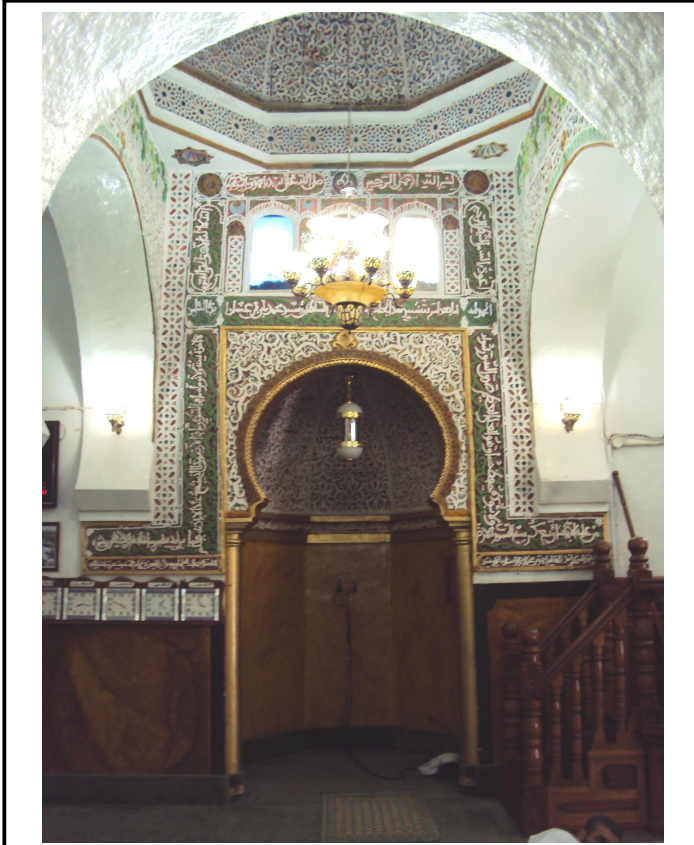
الصورة رقم (40): المظهر الخارجي
لجامع عين البيضاء خلال الفترة الحالية



الصورة رقم (43): كتابة وقفية موجودة في جامع عين البيضاء



الصورة رقم (44): بيت صلاة جامع عين البيضاء



الصورة رقم (46): محراب جامع عين البيضاء
وزخارفه



الصورة رقم (45): أعمدة
وتيجان جامع عين البيضاء



الصورة رقم (48): زخارف
جصية تزين إطار محراب
جامع عين البيضاء



الصورة رقم (47): زخارف محراب جامع
عين البيضاء



الصورة رقم (50): زخارف وكتابات
قرآنية تزين تجويفه محراب جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (49): زخارف
محراب جامع عين البيضاء



الصورة رقم (51): قبة محراب جامع عين البيضاء



الصورة رقم (53): النموذج الأول
من نوافذ جامع عين البيضاء



الصورة رقم (52): المظهر
الخارجي لمحراب جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (55): المظهر
الخارجي لنوافذ جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (54): النموذج
الثاني من نوافذ جامع عين
البيضاء



الصورة رقم (57): الأقبية
المتقاطعة في جامع عين البيضاء



الصورة رقم (56): نموذج من قبيبات
جامع عين البيضاء



الصورة رقم (58): المظهر الخارجي للقبة
المركزية والقبيبات في جامع عين البيضاء



الصورة رقم (60): مiazza جامع
عين البيضاء



الصورة رقم (59): منارة جامع
عين البيضاء



الصورة رقم (67): غرفة الشيخ في زاوية أبي راس الناصري



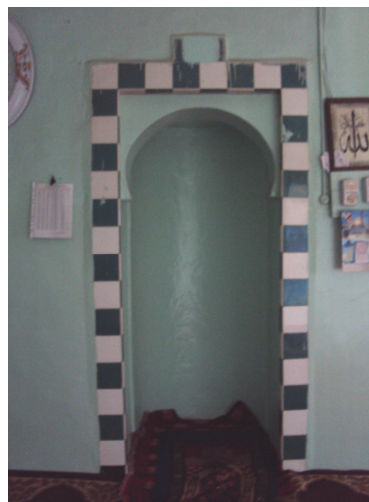
الصورة رقم (66): المدخل الرئيسي لزاوية أبي راس الناصري



الصورة رقم (68): قاعة التدريس في زاوية أبي راس الناصري



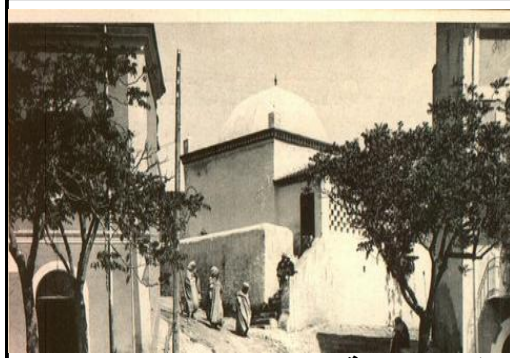
الصورة رقم (70): المظهر الخارجي لمحراب زاوية أبي راس الناصري



الصورة رقم (69): محراب زاوية أبي راس الناصري



الصورة رقم (79): ضريح سيدي
أحمد بوجلل



الصورة رقم (78): ضريح سيدي
أحمد بوجلل ءلال فترة الءءلال
الفرنسي



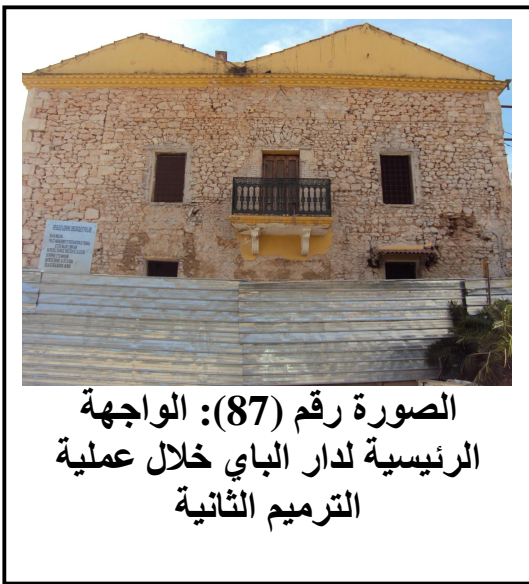
الصورة رقم (80): ضريح سيدي أحمد بوجلل بعء
إءاءة بنائه



الصورة رقم (82): المءءل الرئيسي
لضريح سيدي أحمد بوجلل



الصورة رقم (81): السلم المؤءي
إلى ضريح سيدي أحمد بوجلل





الصورة رقم (89): الواجهة الشمالية لدار الباي خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (88): الواجهة الجنوبية لدار الباي



الصورة رقم (90): الواجهة الغربية لدار الباي



الصورة رقم (92): الرواق الجنوبي في الطابق العلوي لدار الباي



الصورة رقم (91): المدخل الرئيسي لدار الباي



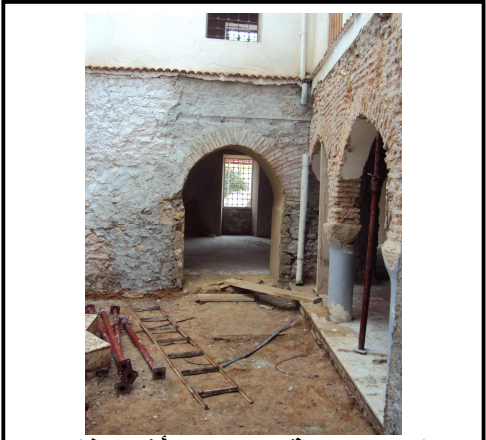
الصورة رقم (94): الرواق الشرقي في دار الباي خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (93): الرواق الشرقي في دار الباي بعد عملية الترميم الأولى



الصورة رقم (95): غلق الطابق العلوي من الرواق الشرقي لدار الباي بعد عملية الترميم الأولى



الصورة رقم (97): آثار غلق الرواق الجنوبي في دار الباي بادية خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (96): الرواق الغربي في دار الباي خلال عملية الترميم الثانية



الصورة رقم (99): الفسقية الأصلية التي كانت تتوسط فناء دار الباي



الصورة رقم (98): فناء دار الباي



الصورة رقم (100): الحجرة الثانية وسقفها بالأقبية نصف الأسطوانية في دار الباي



الصورة رقم (102): مساوي التبليط في غرف دار الباي



الصورة رقم (101): التسقيف الخشبي في حجرات دار الباي



الصورة رقم (114): المحكمة الرئيسية بعد الترميم الثاني



الصورة رقم (113): مدخل وواجهة المحكمة الرئيسية بعد الترميم الأول



الصورة رقم (115): فناء المحكمة ورواقها الجنوبي خلال عملية الترميم الأول والمهدم جزئيا في فترة الاحتلال



الصورة رقم (117): أعمدة وتيجان وعقود الرواق الغربي بالمحكمة الرئيسية بعد الترميم الأول



الصورة رقم (116): فناء المحكمة ورواقها الجنوبي خلال عملية الترميم الثاني



الصورة رقم (124): الشكل الأصلي
لأبواب الحجرات المحكمة يظهر خلال
عملية الترميم الثانية وهو مسدود



الصورة رقم (123): سلم
المحكمة بعد الترميم الأول



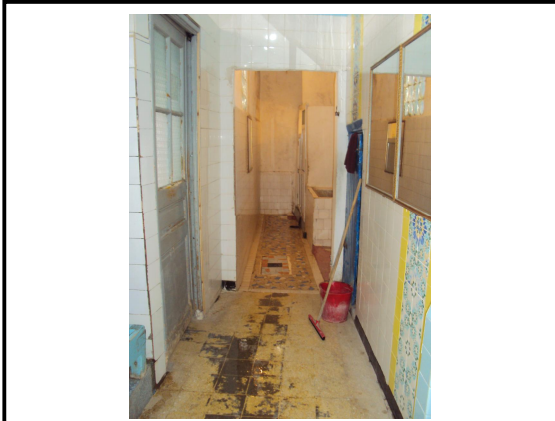
الصورة رقم (125): الواجهة
الرئيسية لحمام البركة



الصورة رقم (127): الواجهة
الجنوبية الشرقية لحمام البركة



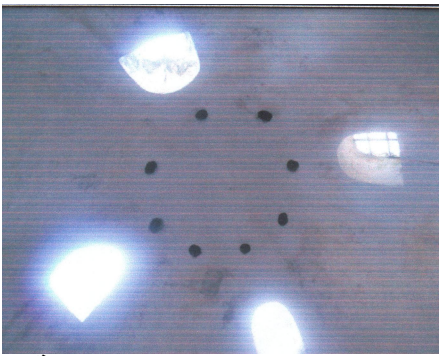
الصورة رقم (126): المدخل
الرئيسي المؤدي إلى المحرس
لحمام البركة



الصورة رقم (129): الرواق المؤدي إلى القاعة الدافئة في حمام البركة



الصورة رقم (128): القاعة الباردة بحمام البركة



الصورة رقم (131): طريقة التهوية والإضاءة في القاعة الساخنة بحمام البركة



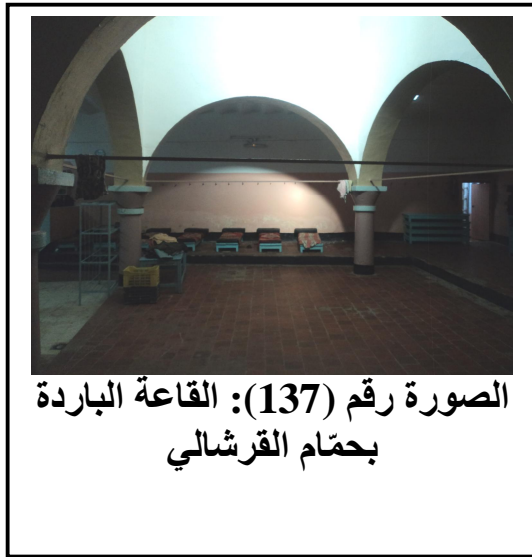
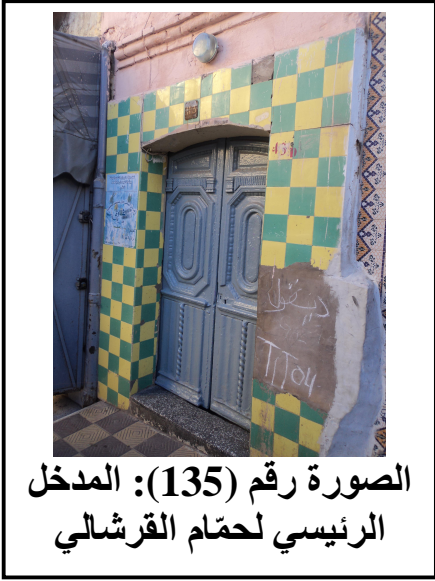
الصورة رقم (130): القاعة الساخنة بحمام البركة



الصورة رقم (133): الموقع الأصلي للفرن بحمام البركة



الصورة رقم (132): السلم المؤدي إلى الفرن بحمام البركة





الصورة رقم (140): المظهر
الخارجي لقبة القاعة الساخنة
بحمام القرشالي



الصورة رقم (139): القاعة الساخنة
بحمام القرشالي



الصورة رقم (141): مكان الفرن
بحمام القرشالي



الصورة رقم (143): طريقة
تسقيف وإضاءة القاعة الباردة
بحمام القرشالي



الصورة رقم (142): مخزن الحطب
بحمام القرشالي



الصورة رقم (145):
المدخل الرئيسي لحمام
حمزة



الصورة رقم (144): الواجهة الرئيسية
لحمام حمزة



الصورة رقم (146): مخزن الحطب
والفحم بحمام حمزة



الصورة رقم (148): قاعة الانتظار
الثانية بحمام حمزة



الصورة رقم (147): قاعة
الانتظار الأولى بحمام حمزة



الصورة رقم (164): زخارف رمزية وكتابية في القاعة الساخنة بحمام الباي (الازدهار)



ب



أ



د



ج

الصورة رقم (165): كسوة حائطية من المربعات الخزفية تزين الجامع الكبير



©UJ•Æ ieBv •A0 À0B3

11- المصادر باللغة العربية:

أ- المخطوطات:

- 1- أبو راس (محمد الناصري): الخبر المغرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط محفوظ بمكتبة محمودي البشير.
- 2-: الخبر المغرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب، مخطوط محفوظ بمكتبة محمودي البشير.
- 3-: شرح غوثية سيدي عيسى بن موسى التيجيني (الدرس المهدي لغوثية أبي المهدي) مخطوط بالمكتبة البلدية "مصطفى بن التوهامي" معسكر.
- 4- ابن الصباغ: زمزم الأخيار، نسخة عن المخطوط الأصلي، مخبر المخطوطات، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران.
- 5- القيرواني (محمد الشريف): روضة الأزهار في تعريف نسبة آل محمد المختار صلى الله عليه وسلم، مخطوط بمكتبة الشيخ البشير محمودي، دائرة البرج، معسكر.
- 6- رسالة مخطوطة عن سيدي بوسكرين: نسخة محفوظة بمكتبة زاوية سيدي بوسكرين.
- 7- مجهول: محمد الأكل، مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس، تحت رقم 5022.
- 8- مؤلف مجهول: الخبر عن قدوم عروج راييس إلى الجزائر وخير الدين، مخطوط بمكتبة الحامة، تحت رقم 1622.

ب- المصادر:

القرآن الكريم

- 1- أبو العباس (أحمد بن أحمد الغبريني): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د.ط. د.ت.
- 2- أبو العباس (أحمد بن سعيد الشماخي): كتاب السير الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس الهجري، تحقيق ودراسة محمد حسن، أربيس للطباعة، تونس، 1995م.
- 3- أبو راس (محمد الناصري): الكوكب الدرّي في الكلام على الجدري، تحقيق بوكعبر بلقرد، سلسلة تراث أعلام الجزائر -1-، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2004.

- 15- ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد الطنجي): الرحلة، المسماة تحفة
النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، شرحه وكتبه هوامشه طلال حرب، ج1
دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- 16- ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، تحقيق خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر
والتوزيع، بيروت 1431-1432هـ/2010م.
- 17-: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم
والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، لبنان
1413هـ/1992م.
- 18- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج4، تحقيق إحسان عباس بيروت
دار صادر، د.ط، د.ت.
- 19- ابن التهامي (الحاج مصطفى): سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتقديم يحيى
بوعزيز، دار الغرب الإسلامي 1995م.
- 20- ابن زرفة (محمد): الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، تحقيق حساني مختار مخبر
المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003، ص224.
- 21- ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العرب،
القاهرة 1961م.
- 22- ابن عبد القادر (مسلم الوهراني): خاتمة أنيس الغريب والمسافر، (تتمة ذخائر
المغرب العربي، تاريخ بايات وهران المتأخر)، تحقيق وتقديم رباح بونار، الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ- 1974م.
- 23- ابن عذارى (أبو العباس أحمد المراكشي): البيان المغرب في أخبار الأندلس
والمغرب، تحقيق ومرجعة ج. س. كولان، إ. ليفي بورفنسال، ج1، ط2، دار الثقافة
بيروت، 1983.
- 24- ابن منظور (جمال الدين الأنصاري): لسان العرب، مج2، تقديم عبد الله العلايلي
إعداد وتصنيف، يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت.

- 35- الحسني (محمد بن عسكر الشفشاوي): دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر تحقيق محمد حجي، ط3، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي المغرب، 2003.
- 36- الحموي (ياقوت): معجم البلدان، ط1، مج 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1993م.
- 37- الراشدي (أحمد بن سحنون): الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1973.
- 38- الزبيدي (محب الدين مرتضى): تاج العروس، (كلمة مسجد)، تحقيق علي يسري دار الفكر، بيروت، 1994م.
- 39- الزركشي (محمد بن عبد الله): إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، ط5، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، 1420هـ - 1999م.
- 40- الزباني (أبو القاسم): تحفة الحادي المطرب في رفع شرفاء المغرب، تقديم وتحقيق رشيد الزاوية، د.ط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية 2008.
- 41- الزباني (محمد بن يوسف): دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم وتعليق المهدي بوعبدلي، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة الجزائر، 2007.
- 42- السليمانى (أبو عبد الله الأعرج): تاريخ الجزائر بين قيام الدولة الفاطمية ونهاية ثورة الأمير عبد القادر، من كتاب الشماريخ، القسم الثاني وجزء من القسم الثالث تحقيق حساني مختار، المكتبة الوطنية الجزائرية، د.م، د.ت.
- 43- الفيروزي (آبادي): القاموس المحيط، ط7، بيروت، لبنان، 2003م.
- 44- الماوردي (أبو الحسن علي): تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة والملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت، 1987.
- 45- المراكشي (عبد الواحد بن علي): وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس ط1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 1997.

- 46- المزارى (الأغا بن عودة): طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة يحيى بوعزيز، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990.
- 47- المشرفى (عبد القادر): بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبنى عامر، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، د.ط، د.م. د.ت.
- 48- المقري (أحمد التلمساني): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، 1978.
- 49-: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج2، د.ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م.
- 50- المقرزى (تقى الدين): المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج2.
- 51- الناصري (أحمد أبو العباس): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة العلوية)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، محمد الناصري، ج7، د.ط، دار الكتاب الدار البيضاء، 1956.
- 52- النويرى (أحمد بن عبد الوهاب): تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (إفريقية والمغرب، الأندلس، صقلية وأقريطش)، 27-719هـ/647-1319م، من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، المغرب، د.ت.
- 53- الوزان (الحسن بن محمد): وصف إفريقيا، ج2، ط2، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1983.
- 54- خوجة (حمدان بن عثمان): المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيرى، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
- 55- مارمول (كارخال): إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1984.
- 56- مذكرات خير الدين بربروس: ترجمة درّاج محمد، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1431هـ-2010م.

- 57- مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تحقيق وتقديم وتعليق عبد الله حمادي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009.
- 58- مؤلف مجهول: غزوات عروج وخير الدين، نقلا عن: وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر 2006.
- 59- مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب، نشر وتعليق سعد زغول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.

ج- المراجع:

- 1- أبو عمران الشيخ، سعيدوني ناصر الدين: معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د.ت.
- 2- أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، د.ت.
- 3- ألتز سامح عزيز: الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1409هـ/1989م.
- 4- ألكسندر بابا دوبولو: جمالية الرسم الإسلامي، ترجمة وتقديم علي اللواتي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس 1979م.
- 5- إبراهيم عبد الباقي: التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، د.ط، د.م، د.ت.
- 6- إسماعيل العربي: الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسس دولة وقائد جيش، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، 1984م.
- 7- إبراهيم عبد العالي محمد: العمارة وال عمران في الوطن العربي، ط3، دار الراتب الجماعية، بيروت، 1986م.
- 8- ابن بكار بلهاشمي: مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ/1961م.

- 9- ابن حموش أحمد مصطفى: المدينة والسلطة في الإسلام "تموزج الجزائر في العهد العثماني"، ج2، ط1، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1420هـ/1999م.
- 10- ابن حموش مصطفى: مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر، 2010م.
- 11- الباشا حسن: الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1979م.
- 12-: موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، مج1، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1420هـ/1999م.
- 13- التليدي عبد الله بن عبد القادر: المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ط3، دار الأمان الرباط، 2000م.
- 14- الجبوري يحي وهيب: الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م.
- 15- الجيلالي عبد الرحمن: تاريخ الجزائر العام، ج1، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1415هـ-1994م.
- 16-: تاريخ الجزائر العام، ج3، ط2، منشورات مكتبة الحياة بيروت الجزائر، 1980م.
- 17- الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.
- 18- الحارثي عدنان محمد فايز: عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي 564-589هـ/1168-1119م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة 1999م.
- 19- الحفناوي أبو القاسم محمد: تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف الفاسي الحسني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م.
- 20- الحنفي قطب الدين: تاريخ المدينة، تقديم وتعليق وتحقيق محمد زينهم، محمد عزب دار المصري للطباعة، بورسعيد، د.ت.

- 21- الدرايسة محمد عبد الله: عبد الهادي عدلي محمد: الزخرفة الإسلامية، ط1، مكتبة المجمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، 1430هـ/2009م.
- 22- الشاذلي علي محمد: دور المساجد التاريخي في التنقيف العلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (د.ت).
- 23- الشافعي فريد: العمارة العربية في مصر الإسلامية، مج1، عصر الولاية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1970م.
- 24- الشيخ أبو عمران وفرق من الأساتذة: معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب الجزائر، 2000.
- 25- الطايش علي أحمد: الفنون الزخرفية الإسلامية المذكرة في العصرين الأموي والعباسي، مكتبة الزهراء الشرق للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة 1420هـ/2000م.
- 26- العدوان محمد الطاهر: الجزائر منذ نشأة الحضارة، عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 27- العسكر عبد الله بن محمد: أحكام حضور المسجد، السعودية، د.ط، د.ت.
- 28- الكبيسي حمدان عبد المجيد: الحياة الاقتصادية ونظمها في المدن في عهد الازدهار الإسلامي، المدينة والحياة المدنية، دراسات في تاريخ العراق وحضارته، المكتبة الوطنية، بغداد، 1988م.
- 29- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير: فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، اعتناء إحسان عباس، ج1، د.ط، دار الغرب الإسلامي بيروت، د.ت.
- 30- المدني أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة بين الجزائر وأسبانيا 1796/1492م، ط3 المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.
- 31- المهدي عنايات: روائع الفن في الزخرفة الإسلامية، المغرب، مصر والشام تركيا الفن الفارسي الفن الهندي الإسلامي، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر 1983م.
- 32-: فن الزخرفة الفرعوني الآشوري، البدائي والقديم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، مصر، د.ت.

- 33- الموسوي مصطفى عباس: العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية دار الرشيد للنشر، العراق، 1982م.
- 34- النحاس أسامة: الوحدات الزخرفية الإسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة د.ت.
- 35- الهيتي صبري فارس: التراث الجغرافي العربي الإسلامي، ط1، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، 2007م.
- 36- الولي طه: المساجد في الإسلام، ط1، دار الملايين للعلم، لبنان 1409هـ/1988م.
- 37- أميلي حسن: النظام العسكرية في الولايات المغاربية العثمانية من خلال المؤرخين الفرنسيين نيكولا دي نيكولاوي والراهب بيير دان، سلسلة العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطة، ندوات ومناظرات رقم 123، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط1، الرباط، 2005م.
- 38- بركات محمد البيلي: الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة، 1993م.
- 39- بلحميسي مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- 40- بن بكار بلهاشمي: كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ-1961م.
- 41- بن جلول أحمد البدوي: رسالة النسب، د.ط، الجزائر، 1990م.
- 42- بن داهاة عدة: معسكر عبر التاريخ، دار الخلدونية، الجزائر، 2005م.
- 43- بن شهرة المهدي: تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران، ط1، القبة، دار الرياحنة للكتاب، الجزائر، 2007م.
- 44- بن مامي محمد بن الباجي: مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، القرن السابع إلى القرن الثالث عشر، المعهد الوطني للتراث، تونس 2006.
- 45- بهنسي عفيف: الفن الإسلامي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق 1986م.
- 46- بوعزيز يحي: وهران، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م.

- 47-: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004م.
- 48-: وهران عبر التاريخ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1985م.
- 49- تاوشخت لحسن: عمران سجلماسة، دراسة تاريخية وأثرية، ج2، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008م.
- 50- ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار الشروق الأولى، القاهرة 1414هـ/1994م.
- 51- جاكر لحسن: نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931-1956، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، د.ت.
- 52- جبار صلاح الدين: المختصر في تاريخ النظم، ط2، دار مدني للطباعة والنشر والتوزيع، 2007م.
- 53- جلول جيلالي: معسكر رجال وتاريخ، دار الأديب للنشر والتوزيع، د.ت، د.م، ص 90
- 54- جمعة حسين محمد: الشروخ والترميمات، مكتبة الدراسات والاستشارات الهندسية الزيتون 1992م.
- 55- جودي محمد حسين: الفن العربي الإسلامي، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، 1419هـ -1998م.
- 56- جون.ب. وولف: الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 57- حساني مختار: موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، مدن الغرب، ج4، دار الحكمة، الجزائر، 2007م.
- 58- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج4 ط7، الجيزة، 1964م.
- 59- حسن محمد زكي: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1401هـ/1981م.

- 60- حلمي محمود: اللقاء بين التصوف الإسلامي والتجريد التشكيلي، دراسات تاريخية وأثرية، ج3، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، 1969م.
- 61- حماد محمد: السلام في المباني، ط3، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع 1997م.
- 62- حمت إسماعيل: الحكومة المغربية واحتلال الجزائر، تقديم علي تابلت، ترجمة وتصدير زكي مبارك- محمد لخواجة، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2010م.
- 63- حرب أديب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري (1808-1847م)، ج1، ط3، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م.
- 64- خدوسي رابح: موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار الحضارة، الجزائر 2003.
- 65- خليفة ربيع حامد: الفنون الإسلامية في العصر العثماني، ط4، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، 2007م.
- 66- فن الصور الشخصية في مدرسة التصوير العثماني، ط2، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2006م.
- 67- خماش نجدة: دراسات في الآثار الإسلامية، مطبعة رياض، دمشق، 1401-1402هـ / 1981-1982م.
- 68- خميس محمد الزوكة: التخطيط الإقليمي وأبعاده الجغرافية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1991م.
- 69- دحماني توفيق: دراسة في عهد الأمان، القانون الأساسي السياسي والعسكري للجزائر، وثائق تنشر لأول مرة، الدار العثمانية للنشر، الجزائر، د.ت.
- 70- دينيزن.أف: الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ط1، دار هومة، الجزائر، 1999م.
- 71- ريمون أندريه: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج ط1 دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1991م.
- 72- زغلول عبد الحميد سعد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف الإسكندرية، 1986م.

- 85- دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م
- 86- من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي (تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999م.
- 87- سورдал (ج): "حمام"، ترجمة محمد معتز، ج14، دائرة المعارف الإسلامية، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.
- 88- شاخت جوزيف، ديوزورت كليفور: تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة، ج1، ط3، كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.
- 89- شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1969م.
- 90- شاوش محمد بن رمضان، بن حمدان الغوثي: الأدب العربي الجزائري عبر النصوص (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، مج2، د.ط، د.ت.
- 91- شحاتة عزة علي عبد الحميد: النقوش الكتابية بالعمائر الدينية والمدنية في العصرين المملوكي والعثماني، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، 2008م.
- 92- شريل دانمر: الفن الإسلامي في المصادر العربية، صناعة الزينة والجمال، ط1 المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1986م.
- 93- شريف يوسف: المدخل لتاريخ فن العمارة العربية الإسلامية وتطورها، الموسوعة الصغيرة، سلسلة ثقافية نصف شهرية تصدرها دار الجاحظ للنشر، العراق، ماي 1970.
- 94- شنييتي محمد البشير: سياسة الرومنة في بلاد المغرب من سقوط الدولة القرطاجية إلى سقوط موريطانيا (146ق.م-40م)، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1985م.
- 95- شهبي عبد العزيز: الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب الإسلامي للنشر والتوزيع، وهران، د.ت.

- 96- صادق محمد الحاج: مليانة ووليها الصالح سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1989م
- 97- صالح أحمد الشامي: الفن الإسلامي التزام وإبداع، ط1، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1410هـ/ 1990م.
- 98- عبد الأحد السبتي، حليلة فرحان: المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب 1994م.
- 99- عبد الباقي إبراهيم: تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، طبع بمطابع أنترناسيونال برسي 1402هـ/ 1982م.
- 100- عبد الحافظ عبد الله عطية: دراسات في الفن التركي، ط1، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 2007م.
- 101- عبد الفتاح رؤاس قلعه جي: مدخل إلى علم الجمال، ط1، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1411هـ/ 1991م.
- 102- عزب خالد: التراث الحضاري والمعماري للمدن الإسلامية، دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م.
- 103-.....: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، نشر كتب عربية، د.م، د.ت.
- 104- عقاب محمد الطيب: قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، دار الحكمة الجزائر، 2000م.
- 105-.....: لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2002م.
- 106- عكاشة ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف، القاهرة 1961م.
- 107- علم الدين سليمان سليم: التصوف الإسلامي (تاريخ، عقائد، طرق، أعلام)، ط1 مطبعة نوفل، بيروت، 1999م.

- 108- عميراوي أميدة: الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات
تيدنا أنموذجا)، د.ط، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر
د.ت.
- 109- عويس عبد الحليم: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار
الصحة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1411هـ / 1991م.
- 110- غالب عبد الرحيم: موسوعة العمارة الإسلامية، ط1، طبع المطبعة العربية، بيروت
1408هـ-1988م.
- 111- غطاس عائشة: الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني
للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر 2007م.
- 112- قاجة أحمد جمعة: موسوعة فن العمارة الإسلامية، ط1، دار الملتقى للطباعة
والنشر، دمشق، 2000م.
- 113- قنان جمال: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500 - 1830، دار الرائد
للكتاب، الجزائر، 2010م.
- 114- كارل بيرنت يوهان: الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، ط2، دار
هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1996م.
- 115- كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، 1510-1541م
ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م.
- 116- كونل أرنست: الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966.
- 117- كيال منير: الحمّات الدمشقية وتقاليدها، سلسلة بلادنا، وزارة الثقافة والسياحة
والإرشاد القومي، سوريا 1964م.
- 118- لعرج عبد العزيز: الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، ط1
المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م.
- 119- لمعي صالح مصطفى: القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية للطباعة
بيروت، د.ت.
- 120-: عمارة الحضارات القديمة، دار النهضة العربية، 1983م.

- 134- مريوش أحمد وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، طبعة خاصة
المركز الوطني لدراسة والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954
الجزائر، 2007
- 135- مهيرس مبروك: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر
2009م.
- 136- مؤنس حسين: المساجد، عالم المعرفة، عدد 37، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
الكويت، يناير 1981م.
- 137-: تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، مج
3/2 العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1412هـ/1992م.
- 138- مؤيد عقبي صلاح: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر (تاريخها ونشاطها)، طبعة
خاصة، دار البصائر، 2009م.
- 139- ناصف سعيد: المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر، مكتبة زهراء الشرق
القاهرة، 1999م.
- 140- نسيب محمد: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، مطبعة النخلة، الجزائر، د.ت.
- 141- نوار سامي محمد: الكامل في مصطلحات العمارة الإسلامية من بطون المعاجم
اللغوية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2002م.
- 142- نوبي محمد حسن: عمارة المسجد في ضوء القرآن والسنة، ط1، دار نهضة الشريف
للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002م.
- 143- نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى
انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة 1385هـ/1965م.
- 144- نويهض عادل: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2
مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1980م.
- 145- هاينريش فون ملستان: ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو
ج2، ط1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.
- 146- هلايلي حنيفي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى
للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1429هـ/2008م.

147-.....: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1428هـ/2007م.

148- يحيى وزيري: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي، ج3، القاهرة 1999م.

ج- المقالات:

1- أبو رحاب محمد السيد محمد: «ملاحح تخطيط العمائر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط- دراسة أثرية مقارنة»، أعمال ملتقى دولي - تلمسان الإسلامية بين التراث المعماري والعمراني والميراث الفني، ج1، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، 2011م.

2- أحمد محمد عيسى وتحسين عمر طه أوغلي: «الفنون الإسلامية المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة»، أعمال الندوة العالمية المنعقدة في اسطنبول أبريل 1983، دار الفكر، دمشق، 1989م.

3- الجمعة أحمد قاسم: «العناصر المعمارية والفنية المميزة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى»، مجلة نصف سنوية لجامعة حلب، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1402هـ/1982م.

4- الحمدي أحمد: «أهمية مخطوط لقطة العجلان في شرف سيدي عبد القادر بن زيان في تاريخ الجزائر الحديثة»، مجلة الحضارة الإسلامية، ع:12 1426هـ/2005م، دار الغرب للنشر والتوزيع.

5- الدولاتي عبد العزيز: «المدينة العربية التقليدية بين الأصالة والمعاصرة»، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، مجلة نصف سنوية (مارس سبتمبر 1402هـ/1982م) جامعة حلب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1401هـ/1981م.

6- الزركال خليل حسن: «التصميم المعماري للمساكن في المدينة العربية الإسلامية» دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر الرابع للأثريين العرب، الندوة العلمية الثالثة، القاهرة 1422هـ/2001م.

7- بلحميسي مولاي: «الذكرى الألفية لتأسيس مدينة مليانة»، مجلة الأصالة، العدد 8 ربيع الثاني، الجزائر، 1392هـ/جوان 1972م.

- 8- بوكراع رضا: «العوامل الاقتصادية والثقافية المحددة لنمو المدينة العربية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 9- بونقاب مختار: «إنتفاضة درقاوة في بايلك الغرب الجزائري: 1802-1816م» مجلة المواقف، العدد الثالث، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي معسكر، ديسمبر 2008م.
- 10- بلبروات بن عتو: «الباي محمد الكبير - باي وهران 1779-1797م، حياته وسيرته»، مجلة عصور، العدد 3، سيدي بلعباس، ربيع الثاني 1423 - جوان 2003 مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.
- 11- حمندي محمود: «السبيل إلى الحفاظ على الخصائص الأصيلة للمدينة العربية» أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 12- حنفي حسن: «فلسفة المكان»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 13- خالف محمد نجيب: «الأربطة»، مجلة آثار، العدد 06، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007م.
- 14- دارة الملك عبد العزيز، «العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية 1402هـ/1982م.
- 15- دحدوح عبد القادر: «تاهرت - تاقدمت معطيات ميدانية ورؤية جديدة»، عن كتاب المؤتمر العاشر للإتحاد العام للآثاريين العرب، ج2، القاهرة، 2007م.
- 16- فكاير عبد القادر: «دور العلماء والرباطات في مواجهة العدوان الإسباني على الجزائر» مجلة المواقف، عدد خاص، منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي معسكر، أبريل 2008.

- 17- سعيدوني ناصر الدين: « موقف الأمير عبد القادر من بقايا السلطة المركزية بالجزائر، جماعة الكراغلة وفرسان المخزن»، مجلة التاريخ، عدد خاص النصف الأول من سنة 1983م.
- 18- سراج الدين إسماعيل: « المدينة العربية وتراثها الحضاري الإسلامي بين المكونات المادية والمقومات المعنوية»، أبحاث من ندوة المدينة العربية، خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي، المعهد العربي لإنماء المدن، طبع بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، 1402هـ/1982م.
- 19- عزوق عبد الكريم: «الأضرحة ببجاية، دراسة نموذجية»، مجلة دراسات تراثية يصدرها مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط بمعهد الآثار - جامعة الجزائر، ع01 2007، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر.
- 20- فيلاي كمال: «هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني»، مجلة المواقف: عدد خاص بفعاليات الملتقى الدولي الأول حول: الظاهرة الدينية: قراءات جديدة من منظور العلوم الاجتماعية والإنسانية، أيام 14 و15 و16 أبريل 2008م منشورات المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، 2008م.
- 21- فاضل لخضر: «مدينة بنيان عبر العصور القديمة»، ملتقى مدينة معسكر، المنطقة والرجال، 06 ماي 2005، مديرية الثقافة، معسكر.
- 22- قرمان عبد القادر: «الدعائم والحوامل في العمارة الإسلامية، دراسة نموذجية للمنشآت المدنية لمدينة مليانة في العهد العثماني»، مجلة آثار، العدد8-، معهد الآثار جامعة الجزائر، دار الملكية للنشر والتوزيع والإعلام، الجزائر، 2009م.
- 23- لعرج عبد العزيز: «تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية»، مجلة الوعي، العدد المزدوج 3-4، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، جمادى الأولى والثانية 1432 الموافق لـ أبريل وماي 2011.
- 24-: «صورة المسكن المغربي في العصر المريني الزياني من خلال النصوص التاريخية والشواهد»، دراسات في آثار الوطن العربي، كتاب المؤتمر الرابع للأثريين العرب، الندوة العلمية الثالثة، القاهرة، 1422هـ/2001م.

25-: «مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر»، المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب، دراسات في آثار الوطن العربي3، الندوة العلمية الرابعة، القاهرة، 2002م.

26-: «العمران الإسلامي وعمارته السكنية، قيم دينية ودلالات إجتماعية»، حولية المؤرخ، يصدرها إتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد 3-4، الجزائر 2005م.

د- الرسائل الجامعية:

1- الأزمي أحمد: الطريقة التجانية في المغرب والسودان الغربي خلال القرن 19 بحث لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، ج1، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1999 - 2000.

2- الأمين عمر: مواد البناء وتقنياته بالمغرب الأوسط خلال القرنين (4-6هـ/10-12م) للفترتين الزيرية والحمادية (أشير، قلعة بني حماد، بجاية)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية قسم الآثار، جامعة الجزائر، 2000 - 2001م.

3- بعارسية صباح: حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2005 / 2006م.

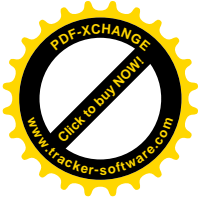
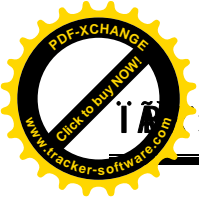
4- بلجوزي بوعبدالله: آثار عمران حواضر بايلك الغرب في العهد العثماني، مازونة ومعسكر ووهران ومستغانم، أنموذجاً، أطروحة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2012-2013.

5- بن بلة خيرة: المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2، 2007-2008.

6- بن عمر حمدادو: أبو راس الناصري المعسكري وكتاباتة التاريخية (1115-1238هـ/1737-1823م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران 2002-2003م.

- 16- زاهي نور الدين: طبيعة وآليات الانتقال والتحول من ظاهرة الزاوية إلى ظاهرة الحزب في المجتمع المغربي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1991-1992م.
- 17- سلامة جهاد صالح عبد اللطيف: الأبعاد الاجتماعية السياسية في التطوير الحضري لأحياء الفقراء، رسالة ماجستير في هندسة التخطيط الحضري الإقليمي جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2010م.
- 18- سي فضيل منى: الزوايا بين الماضي والحاضر، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، قسم الاجتماع، جامعة الجزائر، 2004/2005م.
- 19- شكري معمر رشيدة: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر، فترة الدايات 1671-1830م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ جامعة الجزائر، 2005/2006م.
- 20- طيان شريفة: الفنون التطبيقية الجزائرية في العهد العثماني، دراسة أثرية فنية أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، ج1، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2007-2008م.
- 21- عليو محمد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في منطقة معسكر خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلاديين (1701-1830م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، جامعة معسكر 2008/2009م.
- 22- عزوق عبد الكريم: المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007/2008م.
- 23- عولمي محمد الأخضر: تطور الزخرفة النباتية في العمارة بالمغرب الإسلامي (من القرن الثاني إلى منتصف القرن السادس الهجري)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم الآثار، جامعة الجزائر 2001/2001م.
- 24- غطاس عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر (1700-1830م) مقارنة اجتماعية اقتصادية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، ج1، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2000-2001م.

- 25- فيسة محمد رابح: المنشآت المرابطية في مدينة ندرومة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2004-2005م.
- 26- قرمان عبد القادر: المنشآت المدنية في مدينة مليانة، دراسة أثرية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2007م.
- 27- كشرود حسان: رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية من 1659 إلى 1830، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008.
- 28- لعرج عبد العزيز: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، دراسة أثرية معمارية وفنية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر 1999م.
- 29- مخلوطة رلى نبيه: علم العمران والتربية والتعليم عند ابن خلدون، رسالة ماجستير في الآداب، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، 1998م.
- 30- معروز عبد الحق: شواهد القبور في الجزائر 2 - 13هـ / 8 - 19م، دراسة نمطية وفنية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار جامعة الجزائر، 2003 - 2004م.
- 31- موساوي سليمة عربية: الحمّامات الجزائرية من العصر الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار 1991/1990.

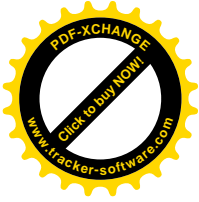
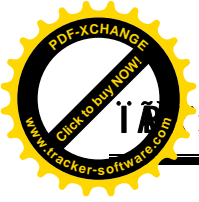


2- المصادر والمراجع باللغة الأجنبية: أ- المصادر:

- 1- Shaw. T: **Voyages dans la régence d'Alger**, éditeur Marlin, Paris, 1980.
- 2- Michel, J: **Venture de paradis, Alger au XVIII^e (1788- 1790)**, éditions grand Alger livres, Alger, 2006.
- 3- **Observations du Général Clauzel sur quelques actes de son commandement a Alger**, imprimerie d'Henri Dupuy, Paris, 1831.

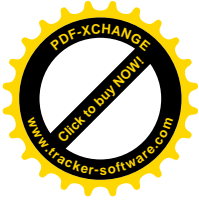
- وثائق الأرشيف:

- 1- Archivo historicos national, Oran, Madrid campana.
- 2- : **première expédition de Mascara**, extrait de l'ouvrage de Bellemare Alex- **Abdelkader, sa vie politique et militaire**, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.
- 3- **Rapport sur la situation de la ville de Mascara**, Archives nationales d'outre-mer, carton n° 2M/107/D, Aix En Provence, France.
- 4- **Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André**, Mascara le 18 décembre 1852, p1 Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.
- 5- **Rapport d'ensemble sur la colonisation, situation de la ville de Mascara et du village de s^t André**, Mascara le 18 décembre 1852, p2 Service Archives nationales d'outre- mer, Aix En Provence, France.
- 6- **Notice sur Mascara ville, le recensement de 1921**, délivrer par Monsieur Martin. L, Maire de Mascara, Archives nationales d'outre-mer, carton n°2M/107/D, Aix En Provence, France.

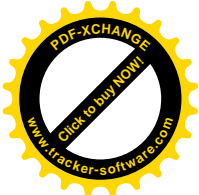


ب- المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Adam. J.P: **La construction romaine, matériaux et techniques**, 3^{ème} édition, A et T, Picard, paris, 1995.
- 2- Arcevan. C.E: **Les arts décoratifs Turcs**, Ankara, s.d.
- 3- Berard. V: **Indicateur général de l'Algérie « description géographique, historique et statistique de tous les localités »** Editeur bastide libraire, Alger, 1867.
- 4- Berthier. A: **L'Algérie et son passé**, édition A et J, picard, Paris 1951.
- 5- Bouruiba. R : **Cites disparues, art et culture**, Ministère de l'information, Alger, 1979.
- 6- Bouruiba. R: **Apport de l'Algérie à l'architecture religieuse arabo-islamique**, S.N.E.D, Alger, 1986.
- 7- Chaila. H: **Oran histoire d'une ville**, Mitidja impression, Alger, 2002.
- 8- Chaouch. S: **Fondation de la régence d'Alger, histoire des frères barbarousse Arroudj et Khair-ed-din**, Editions Grand- Alger Livres, Alger, 2006.
- 9- Chentouf. T: **Etudes d'histoire de l'Algérie (18^e et 19^e siècle)**, office des publications universitaires, Alger, 2004.
- 10- Dalloni.M: **Mascara, Notice explicative, B4391**, Bibliothèque de faculté des lettres, Aix En Provence, France, s.d.
- 11- Destre. H : **Les conquérants de l'Algérie (1830- 1857)**, éditions Berger levrault, Paris, 1930.
- 12- Diego. D. H: **Topographie et histoire générale d'Alger, la vie à Alger au seizième siècle**, 3^e édition, édition Grand-Alger livres, Alger, 2004.
- 13- Golvin. L: **palais et demeures d'Alger à la période ottomane**, paris 1988.
- 14- Gorguos. A: **Histoire d'un bey de Mascara et de l'Oranie, le bey Osman « El kebir »**, édition Grand –Alger, livres (G.A.L), Alger 2006.



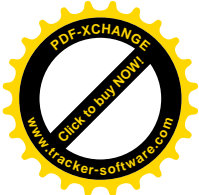
- 15- Kaddache. M: **L'Algérie durant la période ottomane**, office des publications universitaires, Alger, 2003.
- 16- Kaddache. M: **La casbah sous les turcs, documents Algériens**, N55, série culturelle 1951.
- 17- Karsenty. G : **La fabrication du bâtiment, le gros-œuvre**, T1 édition Eyrolles, Paris 1997.
- 18- Leon Fey. H: **Histoire d'Oran, avant pendant et après la domination Espagnole**, typographie Adolphe Perier éditeur, Oran 1858.
- 19- Marçais. G : **Algérie médiévale, monuments et paysages historiques, arts et métiers graphiques**, Paris, 1957.
- 20- -----: **l'architecture musulmane d'occident, Arts et métiers graphiques**, Paris, 1954.
- 21- -----: **villes et compagnes d'Algérie**, éditions du Tell Blido 2004.
- 22- -----: **Manuel d'art musulman**, T2, Paris, 1926- 1927.
- 23- Peyssonnel. L, et Des fontaines: **Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger**, T2, Paris, 1838.
- 24- Reveault. J: **palais et résidence d'été de la région de Tunis**, XVI- XIV siècle, C.N.R.S, Paris, 1947.
- 25- Rufe. P: **Domination Espagnole à Oran, sous le gouvernement du comte d'Alcoudete 1534-1558**, éditions Mimouni, Alger, s.d.
- 26- Saidouni. M: **Eléments d'introduction à l'urbanisme, histoire méthodologie, réglementation**, édition Casbah, Alger, 2000.
- 27- Violet. D: **Dictionnaires d'architecture, article « arc »**, Bruxelles Belgique, 1979.
- 28- Gorguos. A : **Histoire d'un bey de mascara et de l'Oranie, Le bey Mohamed Ben Osman « El-Kebir »**, présentation Kamel Chehrit Edition, Grand Alger livre, Alger, 2006.



- 29- Dokali. R: **Les mosquées de la période turque à Alger**, S. N. E. D Alger 1974.
- 30- Geraads .D et autres: **The pleistocene homid site of Ternifine, Algéria : new results on the environment, age, And human industries**, Laboratoire de paléontologie des vertèbres et paléontologie humaines, T.25, Université Paris VI, 1985.
- 31- Robert. G: **Voyage a travers l'Algérie «Note et croquis»**, Editeur E. DENTU, Paris, s.d.
- 32- Tintoin. R: **les aspects physiques du tell Oranie**, Ed L.Fouque Oran, 1948.
- 33- Fechner .E: **Oran et L'oranie**, calmann-lévie, France, 2002.
- 34- Raymond. A: **Grand villes arabes à l'époque ottomane**, Paris 1985.
- 35- Gzell. S, Marçais. G, Yver. G: **Histoire d'Algérie**, Paris, 1927.
- 36- Rozzet et Carette: **Algérie histoire et description**, Paris, 1850.
- 37- GAID. M: **L'Algérie sous les turcs**, 2^{ème} édition, édition Mimouni Alger, s.d.
- 38- Kaddache. M: **L'Algérie médiévale**, 2^{ème} édition, entreprise nationale du livre, Alger 1992.
- 39- Larousse. P: **Grand dictionnaire universel du 19^{ème} siècle**, T. 10 LM. 1869.

ج- المقالات:

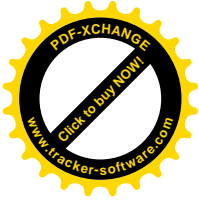
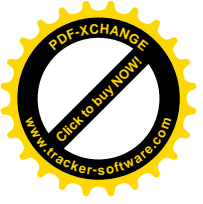
- 1- Geraads .D: « Bovidae et Giraffidae (artiodactyla Mammalia) du pléistocène de Terenifine (Algérie) », Bulletin Muséum nationale d'histoire naturelle, 4^{ème} série 3, 1981, section C, N1, Paris.
- 2- Bordin .M: « Notes et question sur sidi Ahmed Benyoucef », Revue Africaine, 1925.
- 3- Leclerc. CH: « Les inscription arabes de Mascara, Mosquée d'Ain Beidha », revue Africaine, T 4, Année 1859-1860, offices des publications universitaires- Alger.



- 4- Gorguos. A « Notice Sur Le Bey d'Oran Mohammed El Kebir », revue Africaine, office des publications universitaires, Alger, 1856, 1858.
- 5- Cauvet. C : « Les Marabouts, petits monuments funéraires et votifs du nord de l'Afrique », revue Africaine, Paris, 1923.

د- الرسائل الجامعية:

- 1- Djerbal. D: **Le processus de colonisation et les mutations dans la propriété foncière, commune mixte de Mascara (1860- 1914)** diplôme d'études supérieures d'histoire, M.M.S.H, France.
- 2- Caporal. B: **Oran, capitale du beylik de l'ouest 1792-1831**, mémoire de maitre d'histoire, M.M.S.H, France, 1971.



فهرس الأعلام

(١)

- أبو الحسن المريني 136-182-234
- أبو إسحاق الأصفراني 132
- أبو القاسم سعد الله 165
- أبو ثابت 182
- أبو ثابت 182
- أبو حمو موسى الأول 137-31-28
- أبو حمو موسى الثاني 137
- أبو راس الناصري 41-62-199-237-240-297-298
- أبو زكريا الثاني بن أبي إسحاق 136
- أبو زيد عبد الرحمن 137
- أبو سعيد إسماعيل الأسترلابي 132
- أبو سعيد الخذري 105
- أبو سعيد 182
- أبو عبد الله محمد الغزلاوي 43
- أبو عنان 137-155
- أبو يعقوب بن عبد الحق 136-137
- أبو يعقوب يوسف 155
- أبو يعقوب 182
- أبي إسحاق إبراهيم الملياني 120
- أبي تاشفين عبد الرحمن 137
- أبي حاتم محمد بن حيان 132
- أبي خديجة 33
- أبي راس الناصري 18-29-37-110-123-138
- أبي سعيد عثمان 136-29-28
- أبي مدين 182
- أبي زكريا يحيى بن أبي محمد الهنتاني 135
- أبي زيد القيرواني 149
- أحمد بن محمد أحساين بن صارمشيق 117-347
- أبي يحيى بكر بن نفة 136
- أبي الفتوحات المنصور بالله 142
- إبراهيم باي 201
- إدريس بن عبد الله 25
- إلياس 31
- إسماعيل بن أحمد السماني 181-304
- إيفري 21
- ابن أبي زرع 06
- ابن أبي زرع 135
- ابن آزقاق 169
- ابن الأحرش 47-157
- ابن الربيع 06-64
- ابن الشريف 43-44-157
- ابن القاضي 07
- ابن خلدون 6-7-11-56-64-65-66
- ابن خلكان 134
- ابن رشد السبتي 170
- ابن سحنون الراشدي 69-96-198-199

- 225-224 -172-170-168-167-166-165-164-143
-185-184-183-174-173
- أبي زكريا اليعقوبي 161
- أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي 170
- ابن محمد بولكباشي بن عثمان 116-115
- ابن مرزوق الخطيب 170-136
- ابن ميسرة 13
- ابن هطال التلمساني 119-43-96-85-75-39
- ابن سلار 134
- ابن طولون 104
- ابن عصفور 136
- ابن عثمان 40
- ابن مالك 170
التوجاني 168-167
- الحاج بن الشاهد 171
- الحاج عصمان 201-116-61
- الحاج عثمان بن الحاج إبراهيم 347-62-61
- الحاج المعطي 47
- الحاج سعيد ماسرى 220
- القرطبي 102
- الفيروز أبادي 143
- بابا حسن 260-209
- بابا عروج 31-30
- بالاري 20
- المنصور أبي يوسف يعقوب 135
- المرشد بن إبراهيم 25
- المزاري الآغا بن عودة 93-80
- الناصر بن علناس 60
- الوليد بن عبد الملك 285
الونيسي 171
- أورخان 236
- آيا صوفيا 236
- أولغ بك 181

(ب)

- بالافوان 20
- بايزيد الثاني 267-230
- بولاري 20
- بدر الجمالي 182
- بومال 20
- بطليموس 18-17
- بيجو 49
- بن سفير إبراهيم 216
- بوقصري الطاهر 210
- بن دادة مصطفى 220

- بوخوس الثاني 22
(ت)

- بن عبد الرحمن 298

- تامبور 49

- توماسيني 20

- تيدينا 69-72-75-86-86-88-120-
189

(ث)

- ثابت بن مندبل 28-29

(ج)

- جورج مارسي 285-286

- جنسريق 23

(ح)

- حماد بن بلكين 60

- حسن داي 260

- حمزة 220-251-260-263-278-

- حسن باشا 123

279-289-292-300-313-315-321

- حمزة بن عبد المطلب 180

- حسن باي 185

- حسن بن خير الدين 32-33

- حسن بن موسى الباهي 63-76-81-47-
48

- حسن خوجة التركي 43

- حمدان خوجة 13-16

- حمدون 171

(خ)

- خير الدين بربروس 30-31-236

- خارجة بن حذافة 242

- خروفة 116

- خليل بن أحمد 342

- خليل باي 79

(د)

- دي ميشال 48

(ر)

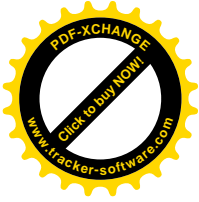
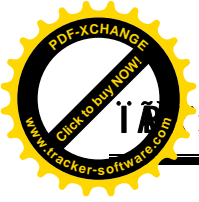
- رضوان الولخشي 134
- رابعءة العءوبءة 168
- رمسبس الءانل 285-293
- رقبءة 182

(ز)

- زائءة 120
- زولة بنء السبء الفرء بن أءمر بن عبءالقاءر
- زبنب بنء ءءش 180
- زبء بن أببء 254-299

(س)

- سبءب بوءربسان 182
- سبءب بوسكربن 161-184-237-238
- سبءب بوعلى 238
- سبءب بومءب 232-234-237-239
- سبءب ءسان 117
- سبءب عبء المؤمن 296-298
- سبءب على أبو طالب 45
- سبءب على أبو الوفا 185
- سبءب على بن بءب 162
- سبءب قموش 235
- سبءب ءبء بن بءب 162
- سبءب مسعود 238
- سبءب موفق 184-187-297
- سبءب سفاكس 21-22
- سبء بن أبب وقاص 107
- سببء قءورة 138
- سببءونل 78
- سلمان الفارسل 149
- سللم الءانل 230
- سللم بن الءومل 31
- سللمان القانونل 257-348-349
- سللمان 25
- سنان باشا 230-236
- سللا 22
- سبءب إبراهم المءراول 186
- سبءب إبراهم 182-232-239
- سبءب أبب الءسن 232
- سبءب أءمء بن بءب 162
- سبءب الءسنل 162
- سبءب الءلول 183-243
- سبءب الءازل 238
- سبءب الكءانل 173-183-234-236



(ع)

- غزال 21

(ف)

- فينشنار إليزابيت 24

- فاطمة الزهراء 167-180

- فاطمة القروية 104

- الفقيه الهواري 171

(ك)

- كلوزال 49

- كسرى 285

- كريزول 254

- كميل أرامبورغ 20

- كوفي

(ل)

- ليون الإفريقي 138

(م)

- محمد بن المبارك 171

- مارسي 21

- محمد بن المحجوب 171

- الماوردي 6-54-

- محمد بن بنيس 171

- ماسينيسا 22

- محمد بن جعدون 171

- ماكسيميليان 23

- محمد بن عبد القادر الجزائري 81-

- محمد أبو طالب المجاجي المسراتي 38

90-190

- محمد أبي جلال 93-94-184-186-321

- محمد بن عبد الله الجليلي 142-144

- محمد أبي راس الناصري 125

- محمد بن موسى 181

- محمد الأكل 120-121-224-125

- محمد بن يوسف الزباني 42-43-47-

- محمد الحمري 35

81-111-109-119-122

- محمد الشرفي 47

- محمد بن يوسف 32

- محمد الشريف القيرواني 24

- محمد الفاتح 236

- محمد صلى الله عليه وسلم 54-45-

- محمد الكبير 33-38-39-58-61-

102-104-106-106-109-115-

62-66-69-72-74-75-79-82-85-

131-151-167-172-176-180-

88-93-94-96-116-119-148-

- هاشم 172 - هرثمة بن أعين 154

- هاينريش فون مالستان 17-96

- هشام بن عمار 106

(و)

- وذان محمد 225

(ي)

- يوغرطة 22

- يحي الأوراسي 157

- يوسف المسراتي 38

- يخلف بلعيد 189

- يوسف بن تاشفين 26-29

- يعقوب المنصور الموحد 155

- يوسف لحرمر 61-96

- يعقوب اليعقوبي 161

- يوسف المسراتي 111

- يعقوب بن عبد الحق 28

- يوسف بن يعقوب 29

- يزيد بن معاوية 254-305

- يعلي بن محمد بن صالح اليفريني 25-

27

فهرس القبائل والشعوب:

(أ)

- العثمانيون 29-35-45-46-60-61-

- الأمويون 59

- 71-78-81-88-98-109-117-

- الإغريق 208-274-296-302-

- 127-137-138-144-152-157-

329-350

- 173-183-230-278-285-349

- البويهية 133

- البيزنطيون 23-242-274-276-

- 277-278-283-285-294-295-

302-303

- الفرس 59-293-295-303-341

- الحماديون 26

- الدرقاويون 42-43-157-159-

- الحمدانيون 181

164-173

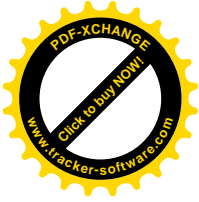
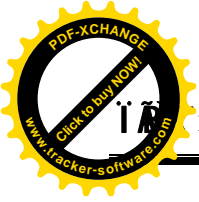
- المرابطون 26-27-46-134-157-

- الثعالبة 30

285

- الحشم 27-28-29-35-37-44-45-

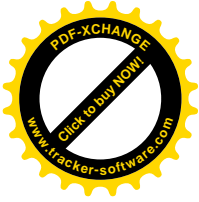
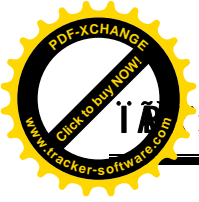
- الزنوج 78



- 122-116-74 - السعديين 182
- 322-152-133-132 - السلاجقة 159
- 117-78-49-17-16-12 - اليهود 37
- 182-177-134-133 - الشيعة 116
- 241-78-13 - العرب 152
- 159-45-44-42 - التيجانية 278
- 30-24-23-13 - البربر 117
- 78-47-32 - الكراغلة 133
- 134-104-26 - الفاطميون 40
- 155-135-27 - الموحدين 341
- 147-136-135 - الحفصيون 276
- 295-286-237 - الساسانيون 182
- 22-21 - النوميديون 23
- 60-26 - الزيريون 159
- 60-24 - الرستميون 79-78-72-49-48
- 110-98-97-88693-85-82
- 144-138-126-117-116
- 197-160-158
- 278-104 - الطولونيون 295-274

(ب)

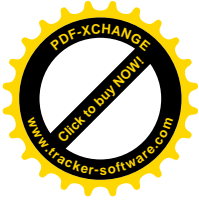
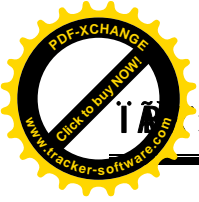
- 24 - بني زروال 257 - بنو إسرائيل
- 37-36-31-30-1024 - بني شقران 81-32-31-29-28-27-12 - بنو زيان
- 40-80-37 - بني عامر 138-137
- 182-136-29-28-26 - بني مرين 60 - بنو مدرار
- 28 - بني مندبل 60 - بنو هلال
- 122 - بني يزناس 26 - بني أمية
- 25 - بني يفرن 81-29-28-27-26 - بني توجين
- 26 - بني حماد
- 167-122 - بني راشد



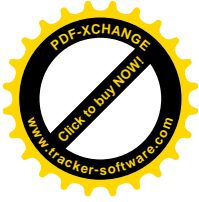
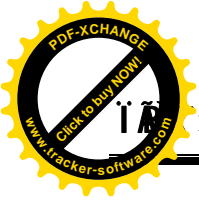
فهرس الأماكن:

(أ)

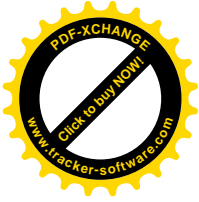
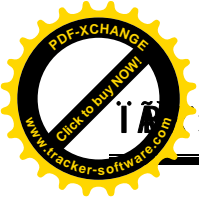
- أدرنة 230-237-257
- أربال 22
- أغمات 137
- أرزبو 72-245
- أزمور 137
- أصفهان 133
- أكر 181
- آكس أوبروفانس 145
- أم عسكر 18-25-115-118-123-142
- أوربا 159-169-338-340
- إبلا 244
- إزنيك 322
- إسطنبول 236-338
- آسفي 137
- إفريقية 8-26-56-135-153-154
- إفكان 25-26
- إيران 133-152-179-181
- إفري 144
- الأردن 209-303
- الأزهر 83-181-232-233
- الإسكندرية 9-134-254
- الأغواط 122
- الأغواط 75
- الأناضول 322



- الأندلس 12-15-16-27-30-53-104-105-135-154-209
- 210-255-282-286-304-319-343-349
- البرج 5-62-66
- البرواقية 22
- البصرة 8-53-56-59-77-84-133-209-299
- البلخ 133
- البنيان 23
- الجامع الأخضر 145
- الجامع الأموي 130
- الجزائر 21-23-24-25-26-27-29-30-31-32-33-34-38-45
- 46-47-48-58-59-60-64-70-76-82-90-104-117-121
- 125-137-138-139-141-142-143-144-145-155-156-158
- 159-160-162-171-172-183-190-191-202-210-230-231
- 234-235-240-252-256-260-273-284-285-296-301
- 302-318-339-344-348
- الحجاز 172
- الرباط 53-77-182
- الرملة 172
- الزاب 24
- الزاوية التيجانية 157
- الزاوية القادرية 157
- الزاوية القشاشية 157
- الزهراء 53-54-302-308-319
- الزيتون 104-138-142-146
- السودان 16-27-36-71
- السوس 25-27-134
- الشام 107-152-170-172-209-210-282-286-300
- الشلالة 122
- الشلف 22-26-28-30-70
- الظهرة 30



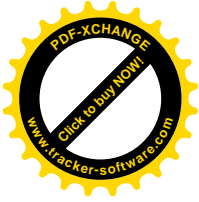
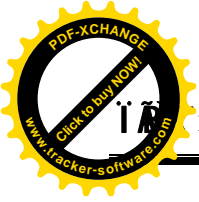
- العراق 56-59-133-152-170-177-181-254-259-277-288-322-295
- الفسطاط 53-59-77-84-181-209-243-244-254-255-274-303
- القاهرة 53-54-92-134-171-209-232-251-252-304
- القدس 189
- القسطنطينية 230
- القصر الكبير 137
- القواير 44
- القيروان 53-56-59-77-83-84-233-237-244-255-283-287-342
- القبطنة 168-169-170
- الكرط 30-37-62-78-152
- الكوفة 8-53-56-59-77-84-107-130-303
- المامونية 21
- المحمدية 22-23
- المدرسة البوعنانية 137-143
- المدرسة التاشفينية 137
- المدرسة التوفيقية 136
- المدرسة الشماعية 135
- المدرسة العصفورية 136
- المدرسة العنقية 136
- المدرسة القشاشية 143-144
- المدرسة الكتانية 138-139-144
- المدرسة المحمدية 61-62-94-142-143-144-146-228
- المدرسة المنتصرية 135-143
- المدرسة اليعقوبية 137
- المدينة 32-47-49-70-228
- المدينة المنورة 83-106-115-116-130-151



- المرسى الكبير 29-33
- المسجد الأقصى 102-258
- المسجد النبوي 104-105-106-130
- المشرق 25-68-209-213-327
- المصباحية 137
- المطمر 183
- المغرب الأقصى 25-35-41-53-60-161-168-178-256-282-
- 286-304-319-321-322-327-342-343-349-232-234-238-
- 285
- المغرب الأوسط 24-26-27-28-29
- المغرب 22-24-25-26-34-35-42-46-48-104-105-209-
- 210-120-135-136-138-142-145-153-154-155-158-161-
- 177-178-254-255
- المنستير 154
- المنصورة 60
- الموصل 53-92-133
- الناصرية 60
- النجف 54-181
- الهند 181
- اليمن 181

(ب)

- باب علي 10-49-93-160-164-174-185-220
- باليكاو 20
- بايلك التيطري 120-123
- بايلك الشرق 32
- بايلك الغرب 32-33-35-38-39-41-42-47-50-56-71-76-79-82-
- 111-121-122-144-234
- بجاية 9-27-104-156-157-260
- بحر البلطيق 23
- بخارى 303



- برج العسكر 38
- برشك 137
- برشك 28
- برقة 26
- بروسة 236
- بريان 16
- بغداد 244-133-132-92-59-53
- بلاد الرافدين 329-303-244-243
- بني راشد 18-17-14-11-5-4
- بني شقران 11-5-3
- بني ميزاب 222-216-199-16-13
- بني واليل 25
- بني يسقن 16
- بوحنيفة 211-23
- بونة 9
- بيت المقدس 102

(ت)

- تاج محل 181
- تاهرت 302-296-260-70-60-57-27-26-25-12-4
- تافنة 49
- تافيلالت 238
- تركمستان 179
- تاكلمانت 23
- تركيا 349-341-339-338-286-282-256-115-68
- تلمسان 40-36-33-28-27-26-25-24-14-13-12
- 115-111-110-81-71-70-58-57-54-53-47-
- 154-152-143-139-138-137-125-123-119-
- 240-237-231-210-183-182-171-157-156-
- 345-307-260-255-

- تكريت 243

- تامل 233

- تنس 137-30-28-26

- تونس 286-252-250-171-170-142-138-83

- تيغنيف 21-20-5

(ج)

- جامع كتشاوة 297

- جامع الأخضر 197-296

- جبال بني شقران 95-66-65

- جبال وانشريس 38-27-26

- جامع الأزهر 146-142-138

- جبل الضاية 10

- جامع الأندلسيين 232

- جبل المناور 5-3

- جامع الباشا 302-296-256

- جبل الناظور 4

- جامع الزيتونة 237-233

- جبل أولاد عوف 21

- جامع القرويين 233-232-142-138-104

- جبل تمدرارة 5

- جامع القصبية 257-256

- جبل شداد 21

- جامع القيروان 113-104

- جبل قلل 5

- جامع الكتبية 255

- جبل كرسوط

- جامع سوق الغزل 345-298-297

- جبل مغراوة

- جامع سيدي حسان 117

- جامع صفر 302-256-236-235

(ح)

- حلب 92

- حسين 23-21

- حمّام بوحجر 22

- حمّام الأدهم 97-94-62-61

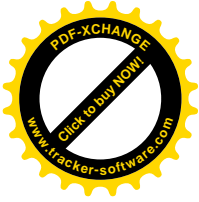
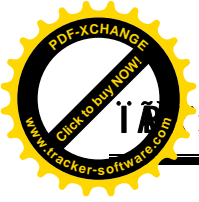
- حمّام سيدنا 252-210

- حمّام دار عزيزة 262-210

(خ)

- خسيبية 44

(د)



- دمشق 133-130-92-63-59
- 305-302-181-138-

- دار السلطان 235-32

- دار عبد اللطيف 262-210

(ر)

- رقادة 60

(ز)

- زاوية بن الفكون 157

- زاوية عين الحوت 157

- زاوية سيدي بوسكرين 160

- زاوية شيخ البلاد 157

- زاوية مازونة 157

- زاوية محمد التواتي 157

(س)

- سهل سيرات

- ساحة الشهداء 189

- سهل غريس 49-65-25

- سامراء 319-286-260-181-54-53

- سهل هبرة 65-11

- سان دونيسي 22

- سوريا 327-245

- سان هيبوليت 21

- سوسة 233-154

- سبتة 137-9

- سيدي بلعباس 10-4

- سجماسة 60-27

- سيدي دحو 21

- سدراتة 244

- سيدي قادة 21

- سعيدة 29-6-4

- سيرتا 22

- سلا 137-9

- سيق 40-22-11-10

- سلسلة الأطلس التلي 6

- سيقا 21

- سهل سمارة 65

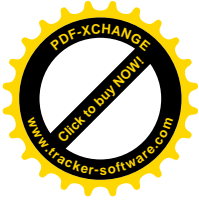
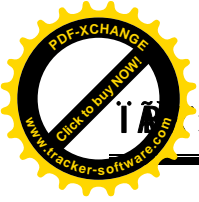
(ش)

- شارب الريح 5

- شارع الغزالي 160

- شرشال 30-28

(ص)



- صفاقص 154-255

- صنعاء 92

(ط)

- طوس 133

- طيبة 293

- طرابلس 9-24-26-154

- طابطة 286

(ع)

- طنجة 137

- عين السلطان 10-69

- عين تيموشنت 22

- عنابة 138-139-156-235

- عواجة 44

- عوف 5

- عين البيضاء 9-62-69-84-93-94

- 97-114-116-119-142-144-228

- 235-236-237-255-256-258-259

- 269-274-279-284-296-297-311

- 319-321-326-333-334-336-341

- 344-345-346-347-359

- عين فرس 30-30

- عين ماضي 75-122-157

(غ)

- غريس 3-5-10-11-21-30-36

- 116-186

- غزة 172

- غزنة 181

- غليزان 4-157

- غرداية 16

- غرناطة 286-304

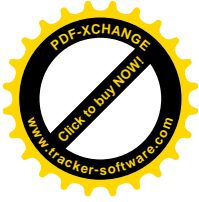
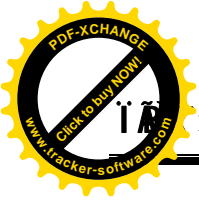
(ف)

- فاس 36-53-54-60-104-134-136-138-143-155-171

- 173-182-210-232-233-234-244-252-308-311-319

- فروحة 30

- فليطة 40-120



- فرطاسة 42-43

- فرنسا 145-159-160

- فيكتوريا 17

(ق)

- قابس 56

- قبة الباي إبراهيم 112

- قبة الصخرة 181-284-210

- قبة سيدي عبد القادر الجيلاني 113

- قرطبة 53-104-106-282-302-308-319

- قسنطينة 21-22-32-70-138-139-144-145

- 156-157-171-183-210-228-231-234

- 240-250-251-252-256-257-259-296-297-298

- قصر الحمراء 304-308

- قصر الحير الغربي 209-286-308-319

- قصر الزهراء 209

- قصر الصرخ 209

- قصر الطوبة 303

- قصر العاشق 181

- قصر الفلوس 25

- قصر المشنى 303

- قصر بن وردان 285

- قصير عمرة 209-319

- قلعة بني حماد 60-104-244-260-319

- قلعة بني راشد 21-26-31-33-36-37-40-56-67-69-71

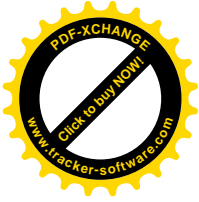
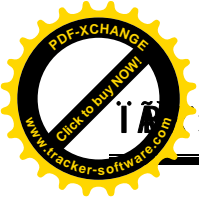
- قلعة هوارة 31

- قم 181

- فيلبورك 18

(ك)

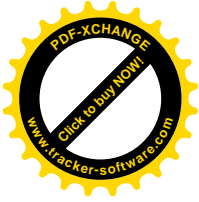
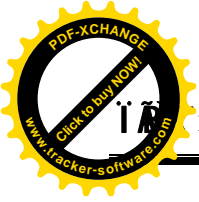
- كاسترانوفا 17-22



- كربلاء 54
- كرسوط 3-5
- كريشنتل 31
- كوتاهية 322

(م)

- مدرسة أبي مروان 139
- مدرسة تازا 137
- مدرسة خنق النطاح 125-145-235
- مدرسة سيدي الكتاني 145
- مدرسة سيدي بومدين 139
- مدرسة سيدي عبد الرحمن الثعالبي 139
- مدرسة سيدي لخضر 139
- مدرسة أولاد الإمام 137-138-143
- مراكش 53-54-135-155-213-234
- مستغانم 4-14-32-33-37-40-57-58-69-70-72-88-155-183-228
- مسجد التقوى 104
- مسجد قباء 104
- مصر 7-68-83-107-133-134-135-138-142-152-170-177
- 179-181-208-209-213-241-243-244-250-254-256-259-266
- 267-276-304-319-322-327-348
- معسكر 3-5-6-9-10-12-13-14-15-16-17-18-20-21-22-23-24-25
- 26-27-29-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-41-42-43-44-50-49
- 55-56-58-60-61-64-65-66-67-68-69-70-72-73-75-78-79-81
- 82-84-85-88-90-92-93-95-96-98-107-110-111-116-117-119-120
- 121-122-125-138-142-144-145-160-167-168-169-170-174-183
- 185-186-189-190-198-199-201-210-211-225-228-231-232-233
- 236-242-246-249-250-253-257-259-260-266-278-282-287-292
- 295-299-301-303-312-314-316-319-321-322-327-331-332-339
- 340-344-349
- مكة 115-116



- مكناسة 137

- مليانة 22-26-28-35-44-47-49-58-120-139-210-231-252-273-298

- مديونة 25

- مليكة

- موريطانيا 21-22

(ن)

- ندرومة 139-260

- نيسابور 132-133

(هـ)

- هرات 133

- هضبة سان هيبوليت 6

- هوارة 4

- هولندا 338

- هونت 167

(و)

- وادي ملوية 21

- وادي ميزاب 16-78

- وادي مينا 42-65

- وادي يلل 65

- واسط 53

- وجدة 44

- ورنيد 26

- وادي البنيان 4-5

- وادي الحمّام 21-23-36

- وادي العبد 42

- وادي المقطع 4-10-11

- وادي تليلات 40

- وادي تودمان 9-36-94-96-97

- وادي ماوسة 10

- وادي مكرة 10

- وهران 4-12-25-26-27-29-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-41-43

- 44-45-47-57-60-70-73-81-117-122-123-125-142-144-145-155

- 162-172-190-228-235-236-256

(ي)

- يلل 25

فهرس الموضوعات:

إهداء

شكر وعرفان

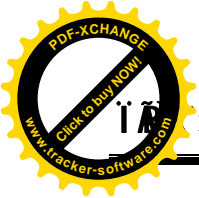
أ	مقدمة.....
01	القسم الأول: عمران مدينة معسكر.....
02	الفصل الأول: الإطار الجغرافي وأصول التسمية.....
03	1- الموقع الفلكي والجغرافي للمدينة.....
17	2- أصل تسمية مدينة معسكر.....
19	الفصل الثاني: التطور التاريخي لمدينة معسكر.....
20	1- فترة ما قبل التاريخ.....
21	2- الفترة القديمة:.....
24	3- الفترة الإسلامية:.....
29	.. الفترة العثمانية:.....
51	الفصل الثالث: التطور العمراني لمدينة معسكر.....
52	1- مفهوم العمران الإسلامي.....
55	2- عوامل تطور عمران مدينة معسكر.....
55	1-2- العامل الجغرافي.....
57	2-2- العامل الديني.....
59	3-2- العامل السياسي والإداري.....
63	4-2- العامل الاقتصادي.....
77	5-2- العامل البشري والاجتماعي.....
81	3- مراحل تطور عمران مدينة معسكر.....
82	- مركز المدينة ووسطها.....
82	1-3- المسجد الجامع.....
84	2-3- دار الباي.....

85	3-3 السوق.....
89	4- خطط المدينة.....
89	1-4 الأحياء السكنية والشوارع والدروب.....
92	2-4 الساحات.....
92	3-4 الرحاب.....
95	5- تحصينات المدينة.....
96	1-5 الأسوار.....
97	2-5 الأبواب.....

القسم الثاني: المنشآت المعمارية لمدينة معسكر

100	الفصل الأول: المنشآت الدينية.....
101	1- الجوامع.....
101	1-1 تعريف المسجد الجامع.....
108	2-1 جوامع مدينة معسكر.....
108	1-2-1 الجامع الكبير.....
114	2-2-1 جامع عين البيضاء.....
128	2- المدارس.....
128	1-2 تعريفها.....
130	2-2 تاريخ ظهور المدرسة في الإسلام.....
139	2-3 طريقة التعليم في المدارس خلال العهد العثماني.....
140	2-4 مصادر تمويل التعليم في المؤسسة الدينية والتعليمية.....
142	2-5 مدارس مدينة معسكر.....
142	2-5-1 المدرسة المحمدية.....
145	2-6 المكتبات.....
146	2-6-1 مكتبة المدرسة المحمدية.....
147	3- الزوايا.....
147	3-1 تعريف الزاوية.....

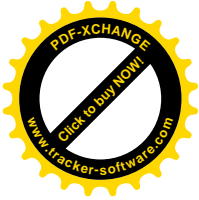
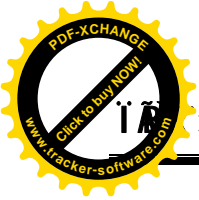
150 2-3 عوامل وأسباب ظهور الزوايا
158 3-3 دور الزوايا في الجزائر
160 4-3 زوايا مدينة معسكر
160 1-4-3 زاوية سيدي بوسكرين
164 2-4-3 زاوية أبي راس الناصري
176 4- الأضرحة
176 1-4 تعريف الضريح
179 2-4 نشأة الأضرحة وتطورها خلال العصر الإسلامي
184 3-4 ضريح سيدي بوسكرين
185 4-4 ضريح أبي راس الناصري
186 5-4 ضريح سيدي محمد أبي جلال
187 6-4 ضريح سيدي موفق
188 الفصل الثاني: المنشآت المدنية
189 1- دار الباي
198 2- المنازل
199 1-2 منزل الباي محمد الكبير
199 2-2 منزل الميزابي (الدار الكبيرة)
201 3- المحكمة
201 1-3 المحكمة الملحقة بالجامع الكبير
201 2-3 المحكمة الرئيسية
207 4- الحمامات
207 1-4 تعريف الحمام
208 2-4 نشأة الحمامات عبر العصور التاريخية
211 3-4 حمامات مدينة معسكر
211 1-3-4 حمام البركة
216 2-3-4 حمام القرشالي



220 3-3-4 حمام حمزة.
224 4-3-4 حمام الأدهم.
225 5-3-4 حمام الباي.

القسم الثالث: الدراسة المعمارية التحليلية

230 الفصل الأول: المخططات المعمارية
230 1- الجوامع
237 2- الزوايا
239 3- الأضرحة
240 4- المنشآت السكنية والإدارية
250 5- الحمامات
254 الفصل الثاني: العناصر المعمارية
254 1- المئذنة
257 2- المحراب
259 3- المنافذ وعناصر التهوية والإضاءة
259 1-3 المداخل وأطرها
262 2-3 الأبواب
266 3-3 الأفنية
270 4-3 النوافذ والشمسيات
273 5-3 الدعائم والحوامل
288 6-3 العناصر الوظيفية
292 7-3 عناصر التسقيف
300 الفصل الثالث: مواد البناء وتقنياتها
300 1- مواد البناء
311 2- طريقة البناء وتقنياتها
311 أ- طريقة البناء
314 ب- تقنيات البناء



القسم الرابع: الدراسة الفنية

318الفصل الأول: المواد الزخرفية.
3181- الحجر
3182- الجص
3213- الآجر
3224- البلاطات والمربعات الخزفية
3255- الخشب
3276- الزجاج
329الفصل الثاني: الزخارف الفنية
328أولاً: الزخرفة الهندسية
334ثانياً: الزخرفة النباتية
341ثالثاً: الزخرفة الكتابية
348رابعاً: الزخرفة الرمزية
352خاتمة
359ملحق الخرائط
362ملحق الأشكال
390ملحق الصور
428قائمة المصادر والمراجع
459الفهارس